العقائد السلفية بأدلتها النقلية والعقلية

لمؤلفها وناظمها

أحمد بن حجر آل بوطامي البنعلي

الجزء الثاني

١٤١٥ هـ ١٩٩٤ م

الطبعة الأولى

لسنة ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م
رقم الإيـــداع بدار الـكتب القطرية
٦٧ / ١٩٩٢ م

مقدمة الجزء الثاني

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على النبى الأمي الأمين ، وعلى آلـه وصحبه أجمعين ، أما بعـد ، فلمـا انتهيت من الجـزء الأول من العقائد السلفية شرعت في الجزء الثاني وهذا أوله ، وأسأل الله التوفيق والســداد في الأمـور كلها ، وصلى الله على خـير خلقه وعلى آله وصحبه وسلم .

أحمد بن حجر آل بوطامي البنعلي





﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾

طه : الآيات : ٢٥ : ٢٨



حالة العالم قبل البعثة المحمدية
والحاجة الماسة إلى إرسال رسول

الناس من عرب ومن أعجام ... قبل الرسول الهاشمي التّهامي
حالتهم كانت بلا جدال ... سيئة من أسوأ الأحوال
وإن تقل وضح لما تقول ... فاسمع إذاً مني ما أقول
قد عم الإشراك مع الكفران ... لربنا الخلاق والمنان
من ساكني الغبرا بلا استثناء ... العرب والعجم على السواء
وعمت المظالم العبادا ... في كل قطر والفساد سادا
واشتعلت نار الحروب والفتن ... بين السلاطين لذلك الزمن
كم سفكوا من الدما ونهبوا ... أموالهم وللذراري سلبوا
قد حرف التوراة والإنجيلا ... أحبارهم وروجوا التضليلا
ترأسوا العوام للحطام ... وخالفوا شريعة العلام

***

الشرح :

العالم كان في حالة سيئة يرثى له بعد أن رفع الله المسيح إلى السماء ، وكانت الفترة بين رفع المسيح والبعثة المحمدية تقريباً من ستمائة سنة أي عام ٥٧١ م ، ففي هذه الفترة قد عم الشرك بالله العظيم والكفر سائر الأرجاء والبلدان ، من عبادة الأصنام والكواكب والأحجار ، وعمت المظالم من الملوك والرؤساء من أجل المطامع الدنيوية والتهالك على الرئاسة والسلطة ، فأشعلوا نيران الحروب لأتفه الأسباب ، وكم سفكوا بها من الدماء ، ونهبوا ما بها من الأموال والذراري ، ولم يكن إذ ذاك في الأرض دين على حق سوى دين المسيح عليه السلام ، لأن دين موسى نسخه دين عيسى ، وكان الواجب على اليهود أن يتبعوا عيسى عليه السلام ، ولكنهم قد عاندوا وتجبروا وتكبروا ، وجرى منهم ماجرى مع عيسى حتى أرادوا قتله ، فألقى الله الشبه على غيره ، ونجاه من كيدهم ورفعه إلى السماء .

ودين عيسى كان على حق وإن كان أكثره يرجع إلى التوراة ، وإنما جاء عيسى بتبديل بعض الأحكام ، قال الله : (**ومصدقاً لما بين يدي من التـوراة ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقـوا الله وأطيعون**)[1] ، ولـكن سرعان ما قد بدل الأحبار المسيحيون وحرفوا في كتاب الله كما فعلت من قبلهم أحبار اليهود ، من أجل أن يترأسوا على العوام ، ويسـلبوا الأموال باسم الزعامة الدينية وبـاسم الكنيسـة ، ولم يبق على دين عيسى الصحيـح قبيـل البعثة المحمدية إلا نفر قليل كما في قصة سلمان الفارسي ، إذ أنه خرج من أصفهان يريد أن يدخل في دين المسـيح لما رأى الكنيسة في بلاده يتعبد فيها بعض المسيحيين ، وعندما جـاء بلاد الشام دُلَّ على راهب فأقام عنده مدة من الزمن ، ولما وافته المنية قال له سلمان : دلني على من يرشدني إلى الحق ، فقال : لا أعلم من يكون على دين المسيح الصحيح إلا فلان الراهب بأرض الموصل ، فجاءه وأقـام عنده مدة من الزمن ، ولـما نزل بالراهب الموت دله على راهب آخـر ، ولما جاء دور الثالث قال : لا أعلم من بقى على دين الحق ، ولـكن عن قريب سيـظهر نبي من العـرب ، ووصف له أرض المدينـة ، وأنها ذات سبخة ونخل وحجارة سوداء ، وأنـه يقبـل الهدية ولا يأكل الصدقة ، وأن بين كتفيه خاتم النبوة ، ولما رأى سلمان تلك العلامات في الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أسلم .

فإذا كانت هذه حالة الديـانـات السمـاويـة ، فـكيف بالأديـان الوضعية من الزرادشتية والبوذية والمجوسية ؟ .

وإلى القاريء مزيداً من البيان عن أحوال الروم والفرس والهند والعرب ، لأن هذه الأمم كانت مجاورة للجزيرة العربية ولا سيما الروم والفرس ، فلقد كانوا يمتزجون بالعرب ، والعرب يمتزجون بهم .

---

(١) سورة آل عمران : آية ٥٠ .

الـــــروم :

كانت الروم تدين بالمسيحيــة ، ولم تكن في يوم من الأيــام من التفصيـل والوضــوح ومعــالجــة قضــايــا الإنســان بحيث تقوم عليه الحضــارة ، أو تســير في ضوئـه دولة ، ولكن فيهــا أثارة من تعاليم المسيح ، وعليها مسحة من دين التوحيد البسيط ، فجاء بولس فطمس نورها وطعمها بخرافات الجاهلية التي انتقل منها ، والوثنية التي نشأ عليها ، وقضى قسطنطين على البقية الباقية ، حتى أصبحت النصرانية مزيجاً من الخرافات اليونانية والوثنية والرومانية والأفلاطونية المصرية ، اضمحلت في جنبها تعاليم المسيح البسيطة كما تتلاشى القطرة في اليم ، وأصبحت على تعــاقب العصــور ديــانــة وثنيــة ، وتحكمت القساوسة والرهبان في الجهلة والعوام ، وفرضوا عليهم تقديسهم واحترامهم حتى أحلوا لهم الحرام ، وحرموا عليهم الحلال ، فأطاعوهم لذلك وقدسوهم كالآلهة ، حتى سجدوا لهم من دون الله ، ونذروا لهم الأموال الطائلة ، وأوقفوا على كنائسهم العقارات الهائلة ، وحرفوا الإنجيل واختلفوا فيه حتى جعلوه بعد عدة سنين أربعة أناجيل ، هذه حالتهم الدينية .

أما حالتهم الاجتماعية والاقتصادية فقد قال الشيخ أبو الحسن الندوي : بلغ الانحلال الاجتماعي والقلق الاقتصادي غايته في الدولة الشرقيــة الروميــة ، وكثرت مصائب أهل البلاد ، وكانوا يتذمرون من الحكــومــات ، ويمقتــونهــا مقتاً شديداً ، ويفضلون عليها كل حكومة أجنبية ، ومع شدة الحاجة إلى الاقتصاد في الحياة ، أسرف الناس فيه ووصلوا في التبذل إلى أحط الدركات ، فأصبح الهم الوحيد اكتساب المال من أي وجه ، ثم إنفاقه في الترف وإرضاء الشهوات .

وذابت أسس الفضيلة ، وانهــارت دعــائم الأخلاق ، حتى صار النــاس يفضلون العـزوبـة على الحياة الزوجية ، ليقضوا مآربهم في حرية ، وكان العدل يباع ويساوم مثل السلع ، وكانت الرشوة والخيانة تنالان من الأمة التشجيع .

يقول جيبون :

في أواخر القرن السادس وصلت الدولة في ترديها وهبوطها آخر نقطة .

الفــرس :

أما الفرس فكانت تدين بالمجوسية وعبادة النار ، إضافة إلى ما فيها من الأديان الباطلة : كالإباحية والشيوعية التي أتى بها مزدك ، حتى أنهم أباحوا نكاح المحرمات ، كالأم والبنت والأخت .. فقد ذكر المؤرخون أن يزدجرد الثاني الذي حكم في أواخر القرن الخامس الميلادي ، تزوج بنته ثم قتلها .

وكانت الأكاسرة ملوك فارس يدعون أنهم يجري في عروقهم دم إلهي ، فكان الفرس ينظرون إليهم كآلهة ، ويرونهم فوق القانون ، وفوق الانتقاد ، وفوق البشر .

وكان المجتمع الإيراني مؤسساً على اعتبار النسب والحرف ، وكان بين طبقات المجتمع هوة واسعة ، لا يقوم عليها جسر ، ولا تصل بينها صلة .

ومجمل القول أن حالتهم الدينية كانت سيئة ، لأنها عبادة للنار ، وإباحية لا يقرها عقل ولا ذوق ، وحالتهم السياسية ما سمعت .. من غطرسة ملوكهم وكبرائهم ، وأنهم فوق البشر ، وأن لهم الحق ، وليس لغيرهم حق ، فنتج من ذلك ظلمهم لرعيتهم وتعسفهم وإهانة للإنسانية ، ما تنفطر منه الأفئدة ، وتذرف منه العيون دماً على أولئك الذين لهم من التعاسة والشقاء تحت ظل حكمهم النصيب الأكبر ، وساءت الحالة الاجتماعية وأخذت تضعف ، فقد انشقت عصا الأمة بما فشا فيها من تشعب المذاهب عن ماني ، ومزدك الذي ادعى أن الله بعثه ليأمر بإباحة النساء والأموال بين الناس .

فنشأ عن ذلك كثير من الأخلاق الفاسدة ، وانتابهم تدهور عام ، وانحلت روابط سياستهم ، فأصبحت حكومتهم فوضى ، حتى تملك عليهم في خلال أربع سنين تسعة من ملوكهم[١] .

الهنـــد :

أما الهند فقد كانت أسوأ وأحط من غيرها ، كثرت فيها الآلهة التي يعبـدونها حتى تجاوزت الملايين ، وحتى عبدوا آلات التناسل ، وكان رجـال بعض الفـرق يعبدون النساء العاريات ، وتعبد النساء الرجال العراة ، وكانت الإنسانية تنوء بالمنكرات والفضائح ، زد على ذلك نظام الطبقات الجائرة ، فلم يعرف في تاريخ أمة من الأمم نظام طبقي أشد قسوة واستهانة بشرف الإنسانية من النظام الذي اعترفت به الهند دينياً ومدنياً .. ومن ذلك أنهم قسموا أهل البلاد إلى أربع طبقات :

١ – البراهمة : وهم الطبقة العليا ـ الكهنة ورجال الدين ـ .
٢ – رجال الحرب .
٣ – رجال الزراعة والتجارة .
٤ – رجال الخدمة : وهذه الطبقة عليها خدمة الطبقات الثلاثة التى أعلى منها ، ولا يسوغ أن ينكح واحد منها امرأة من طبقة أعلى ، ولا أن يدخل معبداً من غير طبقته ، وهم المنبوذون ، وكان ينظر إليهم بعين الاحتقار والازدراء .

وبلغ التدهور الأخلاقي والإنساني درجة عالية ، حتى أضافوا إلى عبادة آلة التناسل مذهب إباحة النساء ، وقد بلغ بهم القبح أن الكاهن الهندي كان يختص بالعروس في أيامها الأولى لينشر على زوجها البركة والنعمة .

ولم تـكن الصين وأوروبا وسائر ممالك الدنيا بأحسن مما كان عليه الفرس والروم والهند ، إن لم تـكن أسوأ وأحط وأردأ[٢]

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين للعلامة الندوى بتلخيص وتصرف.
(٢) أ ـ هـ من المصدر السابق .

حالة العرب قبل البعثة المحمدية

ديانـــة للعـــرب الكـــرام عبـادة الأوثـان والأصـــنام
قد ألهَّوا الأحجــار والأشجارا والجــن والمــلائك الأبـــرارا
والقتل والســفك مع الغــارات وحـــربهم والــوأد للبنـــات
دام الخصام والشقاق والنزاع لا وحـــدة بينهم ولا اجتماع
وليس مـــرسل وليس مصـــلح يدعوهموا للخـــير حتى يفلحـوا
فمســـت الحاجـة للأنـــام أن يبعث الله إلى الأقـــوام
من يصطفيه هاديـــاً مبشراً لمؤمن وللكفـــور منـــذراً
ليخرج النـاس من الظـــلام والشرك والجـور من الحكام
إلى الهدى والنـــور والتوحيد والعـدل في الأحكام للعبيد
فرحم العبـــاد خـلاق الـــورى فأرسـل الرسول من أم القرى
محمـــد هـــو بن عبـد الله ســـليل هاشـم بلا اشـــتباه

* * *

الشـــرح :

أما العرب فكانوا أدهى وأمر في حالتهم الدينية والسياسية ، وإليك البيان :

أديان العرب قبل الإسلام :

العرب من عدنان وقحطان كانوا قبل ظهور عمرو بن لحي الخزاعي

فيهم على بصيرة من أمرهم ، يتعبدون بشريعة خليل الرحمن سيدنا إبراهيم عليه السلام ، وقد تلقوها من ابنه إسماعيل عليه السلام ، وهي الحنيفية التي جاء بها محمد عليه الصلوات والسلام ، وكانوا يعتقدون أن الله واحد لا شريك له ولا وزير ولا معين ولا ظهير ، موصوف بصفات الكمال كالحياة والعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام وغيرها من الصفات ، وكانوا يعتقدون بالبعث بعد الموت ، وقد آمنوا بكل ما أنزل على نبيهم عليه الصلاة والسلام من أصول وفروع وأحكام ، وكانوا يصلون ويصومون ويحجون ويزكون ويصلون الأرحام ويكرمون الأضياف ، إلى غير ذلك من الأخلاق الحميدة ، فلما طال الأمد وبعدوا عن زمن النبوة ، كثر فيهم الجهل ، وقلت معرفتهم بما جاءت به شريعتهم ، وجروا على شهوات أنفسهم ، واتبعوا كل ناعق ، وراجت عليهم الآراء الفاسدة والمذاهب الخبيثة الكاسدة ، حتى افترقت كلمتهم كل الافتراق ، سيما بعد أن ظهر فيهم الخزاعي ، وشرع لهم من الدين ما لم يأذن به الله ، فهناك انقسمت العرب في التعبد إلى أقسام .

ابتداء عبادة الأصنام وسببها :

قال المؤرخون : لما كثر أولاد إسماعيل بمكة حتى ملؤوها ، ونفوا من كان فيها من العماليق ، فضاقت عليهم ، فوقعت بينهم الحروب والعداوات ، وأخرج بعضهم بعضاً ، فساحوا في البلاد لالتماس المعاش ، فكان أحدهم إذا أراد أن يظعن من مكة ، احتمل حجراً من حجارة الحرم تعظيماً للحرم ، فحيث ما حلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة صبابة بها وحباً ، وهم على أثر أبيهم إسماعيل تعظيماً للكعبة والحج والاعتمار ، ثم أن عمرو بن لحي ذهب إلى البلقاء وهي الأردن ، وكان مريضاً ، ونعتوا له عيناً حارة هناك يستشفى بها المرضي ، فأتاها فاستحم بها ، ووجد أهلها يعبدون الأصنام ، فقال : ما هذه ؟ فقالوا : نستقي بها المطر ، ونستنصر بها على العدو ، فسألهم أن يعطوه منها ، ففعلوا ، فقدم بها إلى مكة ، ونصبها حول الكعبة ، ومن ذلك الحين

فشت فيهم عبادة الأصنام ، وتجاوزت إلى غيرهم من العرب ، حتى صارت أكثرية العرب تدين بعبادة الأصنام والأوثان(١) ، فحجوا إليها ونحروا لها الهدي ، وتقربوا إليها بالمناسك ، وأحلوا وحرموا مع إقرارهم بالخالق الرازق المحيي المميت النافع الضار ، وهو الذي يسمى توحيد الربوبية ، وهو الذي أقر به الكفار جميعهم ، عبدوها بشبهة أنها تقربهم إلى الله ، لأنهم ليس لهم أهلية أن يعبدوه (٢) بلا واسطة .

عبادتهم للملائكة وللجن وللشمس وللقمر وللنار :

قلنا فيما سبق : أن أكثرية العرب كانت تدين بعبادة الأصنام والأوثان ، لكن وجد منهم أفراد عبدوا الملائكة ، وقد رد الله عليهم بقوله تعالى : (**ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة ، أهؤلاء إياكم كانو يعبدون ، قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون**) (٣) .

---

(١) الفرق بين الصنم والوثن : أن المعمول من خشب أو ذهب أو فضة أو نحاس على صورة إنسان فهو صنم ، فإذا كان من حجارة فهو وثن .

(٢) وهكذا في هذا العصر وقبله من عصور ، يدعي عباد قبور الأنبياء والصالحين، أنهم متلطخون بأرجاس الذنوب وهؤلاء لهم مكانة عند الله ، فلذا يتوسلون بهم ، ويستغيثون بهم في الشدائد ، ويشدون إليهم الرحال ، ويطوفون بقبورهم ، ويسألونهم قضاء حوائجهم ، وكشف ما نزل بهم ، وجهل هؤلاء أن هذه الشبهة هي شبهة مشركي العرب ، وقد حكى الله عنهم ﴿ **ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى** ﴾ ومع ذلك أمر الله رسوله بجهادهم ، وأباح دماءهم وأموالهم ، إن لم يسلموا ويخلصوا العبادة لله ، ويا سبحان الله ! كيف يخفى توحيد الألوهية وما بعث الرسول والأنبياء من قبله إلا لدعوة المشركين إلى توحيد الألوهية ، وهو صرف جميع العبادة لله سبحانه وتعالى ، وما كان ينكر الخالق إلا فرقة قليلة من العرب تأثرت بمذهب الدهرية ، ولم يعتقدوا أن للعالم خالقاً أو مدبراً أو نافعاً أو ضاراً غير الله ، ولكن كان كل جدلهم حول توحيد الألوهية والبعث وإرسال الرسل ، والسور المكية تكثر فيها الآيات الآمرة بتوحيد الألوهية ، وقصص الأنبياء مع أممهم في هذا الشأن .

(٣)سبأ : ٤٠ ـ ٤١ .

ومنهم من عبـد الجن ، وهم شرذمة قليلة من أهل البوادي ، قد حكى الله ذلك بقوله : **(وإنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقـاً)**(١) أي كبـراً وعتـواً ، أو غياً وضلالاً ، بأن أضلوهم حتى استعاذوا بهم ، فإن الرجل كان إذا أمسى بقفر قال : « أعوذ بسيد هذا الوادى من شر سفهاء قومه » وقال تعالى : **(بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون)** .

ومنهم من عبد الشمس ، زعم عباد الشمس أنها ملك من الملائكة لهـا نفس وعقل ، وهي أصل نور القمر والكواكب ، وتكون الموجودات السفلية كلها عندهم منها ، وهي عند ملك الفلك ، فتستحق التعظيم والسجود والدعاء ، ومن شريعتهم في عبادتها ، أنهم اتخذوا لها صنماً ، بيده جوهرة على لون النار ، وله بيت خاص قد بنوه باسمه ، وجعلوا له الوقوف الكثيرة وله سدنة ، فكان منهم من يأتي ذلك البيت ويصلي فيه ، ويـأتيـه أصحـاب العـاهـات ، فيصـومون لذلك الصنم ، ويدعونه ، ويتشفعون به ، وإذا طلعت الشمس سجدوا كلهم لها كما يسجدون لها إذا غربت ، لهذا يقارنها الشيطان في هذه الأوقات الثلاثة لتقع عبادتهم وسجودهم له ، ومن أجل ذلك نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن تحري الصلاة في هذه الأوقات ، قطعاً لمشابهة الكفار ، وسداً لذريعة الشرك وعبـادة الأصنـام ، وطائفة أخرى عبدت القمر ، وزعموا أنه يستحق التعـظيم والعبـادة ، وإليـه تدبـير هذا العـالم السفلي ، ومن شريعة عبادتهم ، أنهم اتخذوا له صنماً على شكل عجل وبيد الصنم جوهرة يعبدونه ويسجدون له ويصومون له أياماً معدودة من كل شهر ، ثم يأتون إليه بالطعام والشراب والفرح والسرور .

ومنهم من عبد النار ، وهم أشتات من العرب ، وكان ذلك سرى إليهم من الفرس والمجوس ، وقد قيل : إن عبادة النار كانت في الأرض من عهد قابيل ، كما ذكر أبو جعفر بن جرير : أنه لما قتل قابيل هابيل وهرب من أبيه آدم ، أتاه إبليس فقال : إن هابيل قبل قربانه وأكلته

---

(١) الجن : ٦ .

النار ، لأنه كان يخدمها ويعبدها ، فانصب أنت ناراً تكون لك ولعقبك ، فبنى بيت نار ، فهو أول من نصب النار وعبدها ، وسرى هذا المذهب في المجوس ، فبنوا لها بيوتاً كثيرة ، واتخذوا الوقوف والسدنة والحجاب ، فلا يدعونها تخمد لحظة واحدة ، فاتخذ لها (أفريدون) بيتاً بطوس وآخر (ببخارى) ، واتخذ لها (بهمن) بيتاً بـ (سجستان) ، واتخذت لها بيوت كثيرة ، وعباد النار يفضلونها على التراب ويعظمونها ، ويصوبون رأي إبليس .

وصنف من العرب عبدوا الكواكب ، وهم طائفة من بني تميم عبدوا (الدبران) من النجوم ، وبعض قبائل لخم وخزاعة وقريش عبدوا (الشعرى العبور) ، وأول من سن ذلك لهم أبو كبشة .

وصنف منهم كان على دين اليهود ، بعد أن كان الغالب من المجوس وعبدة الشمس ، وصنف منهم على دين النصارى ، فقد كانت النصرانية في « ربيعة وغسان » وبعض « قضاعة » ، وكأنهم تلقوا ذلك من الروم ، فقد كان العرب يكثرون التردد إلى بلادهم للتجارة ، ومن العرب الذين اعتنقوا دين النصرانية بنو تغلب ، كما أن أهل نجران كانوا من نصارى العرب .

وإليك التوضيح لحالتهم السياسية :

أما حالتهم السياسية : فكانوا في حالة فظيعة لا ملك ولا سلطان يطاع ويدبر الأمور بالحنكة والسياسة وتجتمع عليه الكلمة ، فكان منهم من كان خاضعاً للفرس كالمناذرة ، ومنهم من كان خاضعاً للروم كالغساسنة واللخميين والتغلبيين ، ومنهم من كان خاضعاً للحبشة كأهل اليمن .

أما عرب الحجاز ونجد : فإنهم وإن كانوا لم يخضعوا لملوك الفرس أو الروم أو الأحباش ، لكنهم كانوا في حالة سيئة من التفكك والانقسام ، فليس لهم ملك ولا سلطان يجمع شملهم ويوحد كلمتهم ويفصل النزاع ويأخذ الحق للضعيف من القوى ، نعم كان لهم رؤساء

قبائل وعشائر يرجعون إليهم في فصل النزاع ، وكانت القبيلة تحت رحمة هذا الرجل إن شاء الحرب أو السلم ، وكانت الغارات والحروب بينهم متفشية ، هذه حالتهم السياسية .

أما حالتهم الاجتماعية : فـكانوا في تفرق وتشتت وفقر وشرب خمر ولعب ميسر ، ووأد للبنات في بعض القبائل ، وخصام ونزاع مستمرين ، فكـانوا في كل أحوالهم الدينية والسياسية والاجتماعية في أسوأ حال وأفظعها ، ولا ريب أن أمة هذه حالتها تكون حاجتها ماسة شديدة إلى من ينقذها من براثن الشرك ومخالب الكفر ، بل كان العالم كله في ظلام دامس وجور مطبق ونزاع مستمر ، فكانت الأرض تستغيث بالله بلسان حالها من جراء تلك المظالم ، وكانت الدهماء مقهورة مظلومة ليس لها كلمة ولا أمر ـ تساق كما تساق البهائم ـ وكانت تحت رحمة رؤساء السياسة وزعماء الأديان ، الذين قد حرفوا التوراة والإنجيل واشتروا به ثمناً قليلا ، جمعاً لحطام وإعراضاً عن الله والدار الآخرة .

وحيث كان العـالم كله بتلك الصفـة ، فقد تبين بكل وضوح حاجته الماسة إلى بعثة رسول يدعوهم إلى عبادة الله الواحد الأحد ، ويطهرهم من الشرك والكفر ، ويرفع عنهم جور الملوك والرؤساء ، ويهبهم الكرامة والحرية ، وينشر بينهم العدل والنظام الصالح ، وينشؤهم على الآداب والأخلاق الزكية ، ويعلمهم الدين الصحيح الذي يسعدهم في دنياهم وأخراهم .

إرسال محمد صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين

فرحم العبـــاد خـــلاق الورى فأرسل الرسول من أم القرى
محمـــد هـــو بن عبـــد الله ســـليل هـــاشم بلا اشـــتباه
أرســـله إلى جميـــع الإنس والجن بـلا ريـــب ولا شـك كما قـــد أنزلا
لكي يكـون هـــادي العبـــاد ومنقـــذاً من ذلك الفســـاد
يدعـــو إلى التوحيـــد للعبادة لربنـــا الواهب للســـعادة
ولاجتمـــاع الشـــمل والـوفاق بينهم من بعـــد الافـــتراق
كذا إلى محـــاسن الأخـــلاق وحســـن آداب بالاتفـــاق
وجاءهم للـــدين والدنيا معـــاً لأن الإســـلام لذين جمعـــاً

***

الشــــرح :

فلا جرم أن الله سبحانه وتعالى رحم أهل الأرض ، فأرسل إليهم رسولا عربياً ، وهو سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب من مكة المكرمة صلوات الله عليه وسلامه ، وبعد أن بلغ من العمر ٤٠ سنة ، أمره الله في الابتداء أن ينذر عشيرته الأقربين ، ثم سائر العرب ثم سائر الأمم .

فـكانت بعثته رحمة للعالمين كما قال الله تعالى : (**وما أرسلناك إلا رحمـة للعـالمـين**)(١) وأرسله إلى جميـع الإنس والجن(٢)ليهـدي العبـاد إلى طريق الرشاد ، وينقذهم من مهاوي الوثنية والكفر والشرك

---

(١) سورة الأنبياء : آية ١٠٧ .

(٢) والدليل على عموم رسالته قوله تعالى : ﴿ **قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً**

والإلحاد ، إلى توحيد رب الأرباب ، ويقودهم إلى الخير بعد الشر ، والسلام بعد الحرب ، والأمن بعد الخوف ، وإلى الاتفاق والاعتصام بعد التفرق والانقسام .

وبالفعل ، فقد دعا باللطف واللين عشيرته الأقربين ، ثم سائر العرب الكرام ، وصبر على ما ناله من أذى قريش حتى اضطروه إلى أن يهاجر من مكة إلى المدينة ، ثم أمره الله بالجهاد وقتال المعتدين ، ومن يقف في وجه دعوته أو تبليغه الدين ، ثم دعا الملوك والرؤساء من سائر الأمم والأقوام .

وأنزل الله تعالى عليه هذا القرآن العظيم ، المعجز الحاوي لجميع ما يحتاجه البشر من أمور الدنيا والدين ، وما انتقل إلى الرفيق الأعلى حتى أكمل الله الدين ، وأتم به النعمة على العالمين ، ولاسيما على العرب ، فكون منهم دولة ذات سيادة ووحدة متماسكة ، لا يتطرق إليها الضعف والوهن إن تمسكوا بتعاليمه ، فجعلهم رؤساء وسادة ورسل هداية إلى جميع البشر ، وفتحوا بتعاليمهم المنيرة المستقاة من تعاليمه صلى الله عليه وسلم وسنته القولية والفعلية ، وتوجيهاتهم السديدة وسيرتهم الطاهرة وأحكامهم العادلة البلدان(١) والأمصار ، قبل أن يفتحوها بالسيف والسنان ، وطبقوا منهاج العدالة بين الشريف والوضيع ، والصغير والكبير ، والملك والمملوك ، والمسلم والكافر ، حتى

الذي له ملك السموات والأرض ﴾ سورة الأعراف : الآية ١٥٨ ، وقوله تعالى ﴿ قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنّا سمعنا قرآناً عجباً يهدى إلى الرشد ﴾ سورة الجن وقوله تعالى ﴿ وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن ، فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضي ولوا إلى قومهم منذرين ، قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، يا قومنا أجيبوا داعي الله ، وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم ﴾ سورة الأحقاف : الآيات ٢٩ - ٣١ . وسيأتى البحث مفصلا في فصل خاص .

(١) مفعول لفتحوا .

أعجبت بهم الأمم ، ودخل جميع أهل الجزيرة في الدين وكثير من اليهود والنصارى والمجوس والصابئين ، وزخرت كتب المؤرخين من المسلمين والكافرين بفتوحاتهم وحضارتهم وعمرانهم وتقدمهم السريع ونشرهم لهذا الدين الحنيف ، كما اعترف الأعداء فضلا عن الأحباء بهذا العدل وتلك الحضارة ، والحق ما شهدت به الأعداء .

إن هذه الفتوحات التي قام بها العرب لهذه الممالك الواسعة من حدود فرنسا إلى حدود الصين من معجزات الدهر ، ومما لم يعهد في التاريخ مثله ، كما شهد الأعداء أن العالم لم يعرف فاتحاً أعدل ولا أرحم من العرب(١) .

فكل ما يوجد من خير في العالم أجمع ، فهو من آثار رسالته صلى الله عليه وسلم ، لأن رسالته قد عم خيرها ، وانتشرت تعاليمها بين أكثر الأمم ، فهدى الله من هدى ، وبقى على الضلال والكفر من لم يرد الله هدايته ، ولكن انتفع بآثار هذه الرسالة المحمدية ، يدلك على هذا أن الحروب الصليبية التى أجمع فيها أهل أوروبا ، رؤساؤها ودولها بحث القسيسين والأحبار على حرب المسلمين ، فجرت منهم الحروب الدامية والأمور الفظيعة في البلدان العربية الإسلامية ، واستولوا على فلسطين وكثيراً من البلدان الشامية ، حتى قيض الله لهم صلاح الدين الأيوبي ، فقاتلهم وهزمهم وقطع دابرهم ، فرجعوا مهزومين مخذولين بعد أن ظلوا قرابة مائتي سنة ، وكانوا قبل هذه الحروب في حالة همجية وحشية وجهل وظلم واستبداد .

وبعد أن اختلطوا بالمسلمين عرف كثير منهم ما لهذه الرسالة المحمدية من المحاسن والمزايا ، التي تسارع العقول إلى قبولها وإلى التصديق بها ، فرجعوا مقتبسين كثيراً من مبادىء العدالة والإنسانية والحضارة ، كما أن بعثاتهم التي أخذت تتوافد على جامعات الأندلس ومدارسها ، رجع الطلاب منها بمختلف العلوم والآداب ، ومن ذلك الحين

---

(١) ألفت كتاباً وأسميته الإسلام والرسول في نظر منصفي الشرق والغرب وطبع في قطر .

بدأت أوروبا تفيق من سباتها ، وتنفض عن رأسها غبار الجهل ، وتتقدم رويداً رويداً حتى بلغت هذا المبلغ العظيم ، وهكذا القول في أهل الهند وسيلان والصين وسائر الممالك ، إذ تدفقت عليهم سيول مهاجري العرب المسلمين ، فنشروا الدين الإسلامي الحنيف ، فأسلم منهم الملايين ، ومن لم يسلم منهم قد تحسنت لديه بعض الأوضاع ، وتركوا بعض العادات السيئة بفضل احتكاكهم بالمسلمين ، وبالإجمال فقد صدق الله العظيم حيث قال : (**وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**) .

ولهذا لما ضعفت دولة المسلمين ، وتفرقت كلمتهم ، وساد فيهم النزاع ، وتأخروا في ميادين العلوم والصناعة ، خسر العالم خسراناً كثيراً ، كما ذكر العلامة الندوي في كتابه (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) .

النبــوة وأقســام الـوحي

بمــــكة ولادة الرســـــول ... في سـنة الفيــل على المنقول
صــــار نبياً بعـــد الأربعينا ... من عمــره فاجزم بذا يقينـــا
فاجأه بالــــوحى في غـــار حرا ... جبريل روح القدس من غير افترا
والوحي قد يأتيـــــه بالإلهـام ... وبــدؤه قــد كان بالمنــــام
ومنـــه قــد يأتيـه جبريل الكريم ... بشــكل إنســان يـراه يا فهيم
بشــكله الأصـــلي قــد رآه ... نبينــــا المختـــار والأواه
وأنه يــوحي إلى العـــدنان ... كمــا أتى في محــكم القـــرآن
ومنـــه قد يأتيـــه جبريل الأبر ... ولا يـــراه أحـــد ممن حضــر
وقـد يـكون الوحي من خلف الحجاب ... إلى النبي المصطفى بلا ارتياب
مثــاله قـــد كلم الــكليما ... بجبـــل الطـــور فـكن عليمـــا
وكلم الله الرســـول الأعظمـــا ... في ليلة المعـــراج فاسمع واعلما
فهــذه أقســـام وحي ربنا ... للأنبيــــاء المصـطفين الأمنـــا

وبما أن الله قد أغاث العباد بإرسال سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين ، وهداية شاملة لجميع الثقلين ، وجرنا الكلام إلى ذكر ذلك ، والرسالة لا تكون إلا بالوحي من رب العالمين ، فلذا كان من المستحسن جداً ، أن أذكر الوحي وأقسامه ، فقلت :

بمـــكة ولادة الرســـول ... في ســـنة الفيل على المنقول
صـــار نبيـــاً بعد الأربعينا ... من عمـــره فاجزم بذا يقينا

الشـــرح :

مضى شرح هذين البيتين في الكلام السابق :

بيان الوحي(١) وأقسامه والدليل عليه من القرآن والسنة :

فاجـأه بالـــوحى في غـــار حــرا جـبريل روح القـــدس من غـــير افـــترا

والـــوحي قـــد يأتيه بالإلهـــام وبـــدؤه قـــد كان بالمنـــام

* * *

الشـــرح :

قال تعالى : **(وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء إنه عليٌّ حكيم)**(٢) .

سأنقل للقارىء ابتداء الوحي من صحيح الإمام البخارى الحديث الثالث ، ويتضمن الوحي بالمنام والوحي باليقظة :

الحديث الأول : « حدثنا يحيى بن بكير ، قال حدثنا الليث عن عقيل(٣) عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير عن عائشة أم المؤمنين أنها

---

(١) الوحي مصدر وحى إليه يحي من باب وعد وأوحى إليه بالألف مثله ومصدره الإيحاء ، وهو قليل الاستعمال وبعض العرب يقول : وحيت له ووحيت إليه وأوحيت له ، ولغة القرآن الفاشية أوحى بالألف مع التقيد بإلى . . وأما في غير القرآن العظيم فوحيت إلى فلان مشهورة ، يقال : وحيت إليه بالشيء وحياً وأوحيت ، وهو أن تكلمه بكلام يفهمه عنك ويخفى على غيره ، بأن يكون على سبيل الرمز والتعرض ، أو بصوت مجرد عن التركيب أو نحو ذلك مما ذكرناه ، وزيادة على ذلك قد يطلق على الرسالة والأمر وكل ما ألقيته إلى غيرك والرؤيا الصادقة ، وغلب استعماله فيما يلقى إلى الأنبياء من عند الله ، والوحي كالوحي ، الصوت عامة ، ومثل الوحي صوت الطائر وحاة الرعد صوته الممدود الخفى ، وقد جاء في القرآن ذكر مادة الوحي في سبعين آية منها ٦٤ مكية و٦ مدنية ، وأكثر ما ورد في الآيات القرآنية إنما هو الفعل ماضياً ومضارعاً .

(٢) الشورى : ٥١ .

(٣) (عُقيل) بالضم على التصغير مُثل (فلق الصبح) أي مشبهة بضياء الصبح ، وخص التشبيه لظهوره الواضح ، (حبب) بالبناء للمفعول لعدم تحقق الباعث على

قالت : أول ما بدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي ، الرؤيا الصالحة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب إليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه ـ وهو التعبد ـ الليالي ذوات العدد ، قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء ، فجاءه الملك فقال : اقرأ : قال : ما أنا بقارىء ، قال : فأخذني فغطني[1] حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : اقرأ ، قلت : ما أنا بقارىء ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنـا بقارىء ، فأخذنى فغطنى الثالثة ، ثم أرسلني فقال :

ذلك ، وإن كان كل من عند الله ، (الخلوة) بالمد ، والسر فيه أن الخلو فراغ القلب لما يتوجه له ، (حراء) بالمد وكسر أوله ، (ينزع) بكسر الزاي أي يرجع وزناً ومعنى ،(جاءه الحق) أي الأمر الحق لأنه وحي من الله ، (ما أنا بقارىء) ما : نافية زيدت لتأكيد النفي ، أي ما أحسن القراءة .

(١) (فغطني) بغين معجمة وطاء مهملة ، والغط حبس ومنه غطه في الماء ، وفي رواية الطبري بتاء مثنى من فوق فغطتني ، كأنه أراد ضمني وعصرني ، (بلغ مني الجهد) روى بالفتح والنصب ، أي بلغ الغط مني غاية وسعي ، وروى بالضم والرفع أي بلغ من الجهد مبلغه ، (باسم ربك) أي لا يقرأه بقوتك وبمعرفتك ، ولكن بحول ربك وإعانته فهو يعلمك كما خلقك ، (فرجع بها) أي بالآيات أو بالقصة ، (فزملوه) أي لفوه ، (الروع) بالفتح الفزع ، (خشيت على نفسي) الموت من شدة الرعب والمرض ، (كلا) معناها النفي ، (ما يخزيك الله) بضم أوله وضم الخاء وكسر الزاي ، من الخزي ، وروي ويحزنك ، بفتح الحاء وضم الزاي والنون من الحزن ، (الكل) مالا يستقل بأمره ، (تكسب المعدوم) بفتح التاء وسكون الكاف ، وفي رواية (وتكسب) بضم أوله أي المعدوم الذي لا يكسب ، والمعنى تعين رجلا عاجزاً على ما يقوم به من إنفاق ونحوه ، (نوائب الحق) كلمة جامعة لأفراد ما تقدم ولما ما لا يتقدم (ورقة) بفتح الراء ، (العبرانية) بكسر العين ، وفي رواية يونس (يكتب الإنجيل بالعربية) ، (الناموس) صاحب السر ، والمراد بالناموس هنا جبريل عليه السلام ، (على موسى) ولم يقل عيسى مع أن ورقة كان نصرانياً ، لأن كتاب موسى مشتمل على أكثر الأحكام بخلاف عيسى ، (مؤزراً) قوياً تؤخذ من الأزر وهو القوي ، (ثم لم ينشب) بفتح الشين المعجمة ، أي لم يلبث حتى توفي .

(اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكـرم) ، فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال : زملوني زملوني ، فزملوه حتى ذهب عنـه الروع ، فقـال لخديجة وأخبرها الخبر : لقد خشيت على نفسي ، فقالت خديجة : كلا والله ما يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضـيف ، وتعين على نوائب الحق ، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ـ ابن عم خديجة ـ وكان امرءاً تنصر في الجاهلية ، وكـان يكتب الكتـاب ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عمي ، فقالت له خديجة : يا ابن عم ، اسمع من ابن أخيك ، فقال له ورقة : يا ابن أخي ماذا ترى ؟ فأخبره رسـول الله صلى الله عليـه وسلم خبر ما رأى ، فقال له ورقة : هذا الناموس الذي نزَّل الله على موسى ، ياليتني فيها جذعاً ، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أو مخرجي هم ؟ قال : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي ، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً ، ثم لم ينشب ورقة أن توفي ، وفتر الوحي » .

الحـديث الثاني من صحيح البخاري : « حدثنا عبد الله بن يوسف قال : أخبرنا مالك عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ، أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله كيف يأتيك الوحي ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي ، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال ، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول ، قالت عائشة رضي الله عنها : ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد ، فيفصم عنه وأن جبينه ليتفصد عرقاً » .

أقســـام الـــوحي :

١ – الرؤيـا الصـادقة : فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح (كما في صحيح البخاري من حديث الحارث بن هشام ، والمدة التي كان يوحى إليه في المنام ستة أشهر إلى أن استعلن له جبريل) .

٢ – ما كان الملك يلقي في روعه من غير أن يراه ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستـكمل رزقـها ، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب » وهذا بمعنى الإلهام .

وهذان القسمان لا يختصان بالأنبياء ، بل مما وقع ويقع لغيرهم ، ومن الثاني قوله تعالى : **(وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبـرسـولي)**(١) ، وقـوله تعـالى : **(وأوحـينـا إلى أم موسى أن أرضعيه)**(٢) ، وقوله تعالى : **(وأوحى ربك إلى النحل)**(٣) ، ومن الإشارة قوله عن زكريا : **(فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشياً)**(٤) .

٣ – كان يتمثل له الملك رجلا ، فيراه عياناً ويخاطبه حتى يعي عنه ما يقوله له ، ويعبرون عن هذا بتنزل الملك من سماء الملكية إلى أرض البشرية ، وفي هذه الحال يراه كل من حضر ، وكان أحياناً يراه في صورة دحيـة بن خليفـة الكلبي ، وقد أعطي الملك القدرة على هذا التمثل ، ولامعنى لأن ننكر ذلك قياساً على ما تعلمه من نفسك ، فإنك لا تعرف إلا أحكام عالمك ، ومن الغلط البين والجهل الثابت أن تحكم بأحكام عالم على عالم آخر .

---

(١) سورة المائدة : الآية ١١١ .

(٢) سورة القصص : الآية ٧ .

(٣) سورة النحل : الآية ٦٨ .

(٤) سورة مريم : الآية ١١ .

٤ – إنــه كان يأتيـه مثل صلصلة الجرس ، والمعنى أنه صوت كالصلصلة المتصلة المتداركة التي تسمع من الجلاجل ونحوها ، ليس بكلام مؤلف من الحروف ، والأقرب أن سببه وجود الملائكة ، وإن لم يره أحـد من الحـاضرين في حال سمـاعه ، وكانت هذه الحالة أشد الحالتين عليه ، لأنها كما قال الحكيم ابن خلدون : انسلاخ من البشرية الجسمانية واتصال بالملكية الروحانية ، ومن شدته أن جبينه يتفصد عرقاً في اليوم الشديد البرد ، حتى أن راحلته لتبرك به إلى الأرض إذا كان راكبها ، ولا إنكار في هذا ، ولا يقال : كيف يمكن ذلك الانسلاخ ، وذلك التلقي ، والحال أن الحاضرين لا يشعرون بشئ من ذلك ؟ ، لأنا نقـول : روحه الشريفة مستعدة لذلك تمام الاستعداد ، فإن علاقتها بالملأ الأعلى أكثر وأتم من علاقتها بعالم المحسوسات ، والروح في أصل خلقتها مناسبة لخلقة الملك ، وربما كانت أرفع منه قدراً ، وأعظم سراً ، والملك إذ ذاك يكون على حالته الملكية ، ولكن يصح أن يراه الرسول وهو على هذا الحـال ، لأنــه إنما ينظر إليه ببصر الروح عند تجرده عن الغواش البدنية ومفارقته للعوالم المادية ، وأما جلساؤه فلا يرونه لأنهم لم يتجردوا من ملابسهم الطبيعية ، ومحيطاتهم الكونية ، ويقرب هذا بعض التقريب ما نشاهده من أحوال المنوم تنويماً مغناطيسياً ، فإنه يرى مالا يراه الحـاضرون ، لأن السلطان فيــه للروح ، فهــو يرى بحواسها لا بحواس البدن ، وأما حاضروه فالمستولي عليهم هو سلطان الجسم لا ســلطان الروح ، ونقربه من وجه آخر فنقول : لا بدع في تغير الأحكام بتغير الأطــوار والأحوال حتى نصل إلى حد التباين ، فإن الثلج إذا كان جامداً كان له حـكم الجامدات ، فإذا أذبناه بقليل من الحـرارة كان له حكم السـوائـل ، وإذا صيرناه غــازاً كان له حكم الغازات ، وإذاً فما الذي يستنكر من تغيير الأحــكام بتغير الأحوال ، ويكفي هذا لمن أنصف ولم يتعسف .

٥ – يكلمه الله من وراء حجاب بلا واسطة ملك ، كما كلم موسى عليه السلام على جبل الطور ، ونبينا ليلة الإسراء والمعراج .

٦ - أن يرى الملك في صورته التي خلق عليها ، له ستمائة جناح ، فيوحي ما شاء الله أن يوحيه ، وهذا وقع له مرتين : مرة بعد فتور الوحي وقبل تتابعه ، والمرة الأخرى ليلة الإسراء ، كما قال الله في سورة النجم : (**ولقد رآه نزلة أخرى ، عند سدرة المنتهى**)(١) .

هذه الأقسام كلها تندرج تحت قوله تعالى : (**وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء إنه عليٌّ حكيم**)(٢) .

بيانها : إن قوله تعالى : (**إلا وحياً**) دخل تحته القسم الأول والثاني ، (أو من وراء حجاب) دخل تحته القسم الخامس ، وبقية الأقسام تحت قوله : (**أو يرسل رسولا**) ، وزاد بعضهم أقساماً أخر تركناها لضعفها ، والصواب ما ذكرناه كما ذكرها العلامة ابن القيم في زاد المعـــاد .

---

(١) سورة النجم : الآيتين ١٣ ـ ١٤

(٢) سورة الشورى : الآية ٥١ .

ثبوت إمكان الوحي بالعقل وإيراد الأدلة

ومن أثر الغزو الفكري الثقافي الغربي الذي غزا الشرق ، وأثر في أكثر مدارسه ومعاهده ، أنه قد أنتج تلاميذ أصبحوا بعد ذلك أساتذة يزاولون مهنة التعليم ، وبواسطة ذلك نشروا أفكارهم المسمومة وأقوالهم المشوؤمة ، وجاهر كثير منهم بالإلحاد كإنكار الرب والطعن في الرسالات ، واتصف البعض بالحذق والمكر ، فأظهر المصانعة وأقر بالربوبية وبالمعاد ، وطعن في كثير من العقائد الصحيحة كإنكار وجود الجن أو وجود الملائكة ، وإنكار فرضية الصلاة والصوم ، ومن آراء الملحدين ما فاه به الكثير منهم ، أن الاعتقاد بوحي منزل من السماء بواسطة ملك إلى رسول من البشر من الأمور التي لا يسيغها العقل ، وعجبوا أن يكون إنسان يرى الملائكة عياناً ويكلمهم جهاراً ، بل عجبوا أن يكون في الدنيا خلق لا يرونهم بأعينهم ، وصوت لايسمعونه بآذانهم ، وقالوا : كيف يرى محمد ويسمع مالا نرى ولا نسمع ؟ وقال بعضهم : لو انحلت مشكلة الوحي لزالت عقبات كثيرة تعترضنا في سبيل التصديق بالنبوة ، فإنه لا يمكننا أو لا يمكن لأبناء هذا العصر أن يصدقوا ما لم يفهموا ، والجواب : أن يقال لهؤلاء : إن كنتم تعجبون من إنسان يرى الملائكة ويكلمهم ، أو من صوت يسمعه ولا تسمعونه ، فإننا نعجب منكم أشد من عجبكم بهذا ، فإننا نفهم أنه لو ساغ مثله في عصور الجاهلية الأولى ما كان ليسوغ اليوم ، وقد ملئت الأرض بالآيات العلمية التي تفسر لعقولنا تلك الحقائق الغيبية .

وإلى القاريء عدة أدلة حسية وعقلية :

لا يمكن لأحد أن ينكرها بل تقسر الخصم والمجادل على الإقرار

بها ، وأنها تمثل الوحي أصدق تمثيل وتجعل العاقل مؤمناً بالوحي .

١ - العقل الصحيح لا يمنع إمكان الوحي بل ولا وقوعه ، والدليل على ذلك : أن عقول الملايين من البشر من أتباع الأنبياء ـ بمافيهم من علماء وأدباء وفلاسفة وعظماء وعامة وسوقة وشعراء ـ قد آمنوا بوقوع الوحي على أنبيائهم ، وقبلتها عقولهم ولم تمانع في ذلك ، وأي استحالة في الوحي ؟. وأن ينكشف لفلان مالا ينكشف لغيره من غير فكر ولا ترتيب مقدمات ؟. مع العلم أن ذلك من قبل واهب الفكر ومانح النظر ، متى حفت العناية لمن اصطفاه الله بهذه المرتبة والدرجة العالية .

وكل ما عندكم أيها المانعون أو المستبعدون للوحي هو : أن العلم لا يثبته ، وهذا مردود بقولنا : هل كل ما لم يصل إليه العلم غير موجود ؟ اللهم إن العلم نفسه يكذب ذلك ، فقد كنا نجهل الميكروبات منذ زمن قريب ، أفكان جهلنا بها موجباً لعدم وجودها ، أم كانت موجودة في الواقع على الرغم من هذا الجهل ؟ ومثلها الكهرباء ، وأي معنى للبحث والتنقيب الذي تقدم به العلم يوماً فيوماً ، ومن ذلك الجاهل الذي يزعم أنه أحاط بكل العوالم وعرف كل ما في الوجود ؟ ألم يقرر العلماء والفلاسفة أن عدم الدليل ليس دليلا على عدم المدلول ؟ .

٢ - إن الوحي عبارة عن إلقاء الملك في روع النبي ، وهو عبارة عن الإلهام الذي يقع في القلوب المستعدة بغير نظر وفكر ، في كل الطبقات من أفراد هذا النوع حتى الطبقات الدنيا فضلا عن العليا .

٣ - من ذا الذي ينكر الرؤيا الصادقة ، وقد وجدت في كل أمة ، وأثبتها علماء كل ملة بعد التجربة والمعاينة ؟ .

٤ - من ذا الذي يجعل المعارف الإنسانية كلها قصراً على ما ينتجه الفكر والنظر ، بعد ما أثبت علماء التنويم المغناطيسي بالأدلة المحسوسة التي يمكن لكل إنسان أن يشاهدها ، أن المنوم بعد أن يبطل حسه وتتخدر أعصابه تماماً ، لا يمكن بعد ذلك أن ينظر أو يفكر ، فإنه لا يسمع أصوات المدافع ، ولا يتأثر بشيء من الأشياء ، ويأتي في هذا

الحال بما لايصل إليه فكر ولا نظر ، وقد أصبح الجدال في ذلك جدلا في المحسوس . أهـ . وسيأتي توضيح هذا المرام بأبسط من ذلك في الفقرة السابعة .

٥ - إن من أقرب الأدلة إلى متناول الجمهور (الهاتف) ، فقد أصبح الرجلان يكون أحدهما في أقصى المشرق ، والآخر في أقصى المغرب ، ثم يتخاطبان ويتراءيان من حيث لا يرى الجالسون في مجلس التخاطب شيئاً ، ويسمع طنيناً كدوي النحل الذي في صفة الوحي ، وفي آية (اللاسلكي) الذي يحدد جهة الإرسال والاستقبال ، وينقل الكلام بنفس الصوت والألفاظ ، والرائي (التلفزيون) الذي ينقل الكلام والصورة على موجات الأثير بدون أسلاك تحمل ذلك ، لما يقرب فكرة الوحي للأذهان المؤمنة بالمادة ، ولم تعرف سر الروحانية التي هي أسمى وأعلا ، **(وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة)**(١) .

٦ - إن علماء استحضار الأرواح(٢) الذين اشتغلوا بالمسائل الروحية ، أثبتوا بالمشاهدات المتكررة والحوادث المتواترة ، أن هناك عالماً وراء عالم الطبيعة ، قد خرق لهم كل نواميس المادة وما قرروه من ذلك ، وقد أصبح ذلك عندهم لمس اليد ورؤيا العين . أهـ(٣) .

٧ - إن التنويم المغناطيسي يمثل الوحي تمثيلا ، ويريهم من طريق

---

(١) سورة الزمر : الآية ٦٧ .

(٢) إن استحضار الأرواح قد شاع وانتشر في أوروبا وفي بعض البلدان الشرقية ، ويزعمون أنهم يحضرون أرواح الموتى ويخاطبونها ، وتخبرهم عما يريدون من الأمور الغيبية ، وهذا باطل شرعاً وعقلا وحساً ، ونحن إنما ذكرنا قضية استحضار الأرواح كدليل لوقوع الوحي ، لا نقصد من ذلك صحة استحضار أرواح الموتى ، بل نقول : لعل عندهم استحضار الجان وموهوا على الناس بأنهم يستحضرون أرواح الموتى ، وحتى فى استحضار الجان دليل للوحي ، لأن القصد الاتصال بما وراء المادة أو نقول بعالم الغيب .

(٣) من (رسالة الأستاذ الدجوي) .

التجارب التي لا يؤمنون إلا بها ، أن اتصال النفس الإنسانية بقوة أعلى منها ، قد يحدث فيها ظاهرة من هذه الظواهر ، وينقش فيها معلومات لم تكن مخزونة في العقل ولا في الحس قبل ذلك ، فها قد أراهم الله تلك الآية العجيبة في (أعجوبة التنويم المغناطيسي) ، فقد أصبح الرجل القوي الإرادة يستطيع أن يتسلط بقوة إرادته على من هو أضعف منه ، حتى يجعله ينام بأمره نوماً عميقاً لا يشعر فيه بوخز الإبر ، وهناك يكون رهين إشارته ، وتنمحي إرادته في إرادته ، فلو شاء أن يمحو رأياً أو عقيدة لمحاها بكلمة واحدة ، بل لو شاء أن يمحو من صدره اسم نفسه ويلقنه اسماً آخر يقنعه بأنه اسمه ، لما وجد منه إلا إيماناً وتسليماً ، ولأصبح اسمه الحقيقي نسياً منسياً ، ولبقي هذا الاسم المصطنع منقوشاً على قلبه ولسانه بعد أن يستيقظ إلى ما شاء الله ، فإذا كان هذا هو فعل الإنسان ، فما بالك بمن هو أشد منه قوة . اهـ (١) .

الخلاصة : أن من آمن بالله رباً إيماناً صادقاً ، وآمن بعالم الغيب ، سهل عليه الإيمان بالوحي ، بل ولا مناص له من الاعتراف به ، لأن سعادة البشر ونظامه مرتبان على الرسالة والنبوة ، وقد سبق بيان حاجة البشر إلى الرسالة بما أغنى عن الإعادة ، ومن لم يؤمن بالربوبية فتقام عليه الأدلة الساطعة ، وقد مضى كثير منها في الجزء الأول من الكتاب ، فارجع إليه إذا شئت .

ومن آمن وأنكر بما وراء المادة ، واقتصر على مجرد المحسوسات ، فقد أقمنا عليه الأدلة الماضية ، بما لامزيد بعده ولا محيص له من الاعتراف بها .

---

(١) الأرقام ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٧ من (الوحي الإلهي) للشيخ الحسيني عبد المجيد هاشم .

شبهات المستشرقين حول الوحي المحمدي ودحضه

الشبهة الأولى والجواب عنها :

من المستشرقين من جن جنونه ، وبلغت به الوقاحة ، وخلع جلباب الحياء ، حتى ساق حملة شعواء ضد الإسلام والنبي الكريم ، فسود الصحائف من التهم الباطلة ، والأكاذيب المكشوفة ، وألصقها بالرسول الأمين والشرع المبين ،تنفيراً للناس عن الدخول في هذا الدين الحنيف ، وخدمة لدولهم المستعمرة ، ومنهم من تحلى بشيء من العقل والإنصاف ، وقرأ سيرة هذا الرسول الكريم ، وأخلاقه العظيمة ، وعرف اشتهاره لدى الموافق والمخالف بالصدق ، والأمانة ، والعفة والصيانة ، ورأى فيما قرأ عن هذا الدين العظيم ، اتفاقه مع سائر الشرائع السماوية في الأصول(١) ، ونظر بثاقب فكره إلى هذه الملة البيضاء والشريعة السمحاء ، الموافقة للعقول ، والمناسبة للطباع ، والصالحة لكل جيل وقبيل ، وكل عصر وأمة ، فرأى عندئذ من المصلحة أن لا يجاهر بالعداء السافر للرسول ولهذا الدين الباهر ، فأخذ يزوق العبارات ، ويزركش المعنى ، ويلبسها أثواباً ظاهرها الجمال وباطنها كل شر ووبال ، وتظاهر بمظهر الإنصاف ، والدراسات الطويلة والتحليلات العميقة ، لكي يروج كلامه المنمق ، وشبهاته السرابية ، على الجهال بحقيقة هذا الدين القويم ، فقال وهو يعلم أنه كاذب في هذا المقال ما معناه : إن محمد ابن عبد الله هذا الرسول العظيم ، لا ريب أنه نشأ نشأة صالحة مخالفة

---

(١) كالإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب والرسل .

لما كان عليه قومه من عبادة الأصنام وشرب الخمور وسائر العادات الرذيلة ، وكان من طبيعته التأمل في هذا الكون ، وما فيه من إبداع وتناسق عجيب وسنة لا تتبدل ، مما يدل على خالقه العظيم ، وقدرته التي لا تحد ، وسمع من أخبار الديانة اليهودية والعيسوية وحنفاء العرب ، ما تحقق لديه أن ما عليه قومه من عبادة الأصنام والأحجار والأنصاب باطل وضلال ، وأن كثيراً من عاداتهم وأخلاقهم كالحروب والغارات لأتفه الأسباب ، والتفرق والبغضاء ، والولوع بالخمور والقمار ، لا يقره عقل ، ولا يسيغه دين ، وكان بحكم فطرته السليمة ، وذكائه الخارق ، وتأملاته في الكون ، ولاسيما عندما كان يتعبد في غار حراء ، طفق اعتقاده يقوى يوماً فيوماً ، أن العرب في ضلال وشقاء ، ولابد لهم من رسول ينقذهم ، كالرسل الذين أرسلهم الله إلى الأمم الماضية ، ولما قوي هذا الاعتقاد ، وفاضت به مشاعر نفسه الصافية ، وسريرته الطاهرة ، خيل له أنه يوحى إليه من السماء ، فتارة يخيل إليه أنه يسمع كلاماً ولا يرى من يكلمه ، وتارة يخيل إليه أن رجلا يكلمه ويلقنه ، ويعتقد أنه ملك من عالم الغيب يوحي إليه وأنه مرسل إلى الناس ، كما يرى ويسمع مثل ذلك في المنام الذي هو مظهر من مظاهر الوحي عند جميع الأنبياء ، فكل ما يخبر به النبي من الكلام ألقي في روعه ، أو عن ملك ألقاه على سمعه ، فهو خبر صادق عنده ، ولاشك في صدق محمد ، ولكن ليس من عالم الغيب في شيء بل كان يفيض من نفس النبي .

والجواب عن هذه الشبهة السقيمة : إن كان القائلون بالوحي النفسي من اليهود والنصاري .. فيقال لهم : هل أوحي إلى موسى وعيسى عليهما السلام أم لا ؟ وبالطبع سيكون الجواب بنعم ، وحينئذ يقال لهم : هل الوحي الذي جاء موسى وعيسى وحي إلهي ، أو فاض هذا الوحي من نفسيهما الصافية ، وسريرتيهما الطاهرة ، ومشاعريهما الفياضة ؟ فإن قال اليهودي أو المسيحي بالوحي النفسي بالنسبة لموسى أو لعيسى ، فقد كفر بدينه ، وأنكر اليهودي نبوة موسى ، والمسيحي نبوة

عيسى ، وما أخاله يقول ذلك ، بل سيقول اليهودي كلم الله موسى على جبل الطور في ابتداء الرسالة : **(وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة)**(١) ناجاه إذ ذاك بالخطاب الإلهي ، كما أوحى إليه بواسطة جبريل ، كما سيقول المسيحي : أوحى الله إلى عيسى بواسطة ملك الوحي ، هـذا إن كان مسيحياً صحيحاً ، وإن كان ممن يؤله المسيح فله شـأن آخـر .

وعندئذ يقال للمسيحي ولليهودي : كيف تقرون بالوحي الإلهي إلى موسى وعيسى ، ولا تقرون بالوحي الإلهي لمحمد صلى الله عليه وسلم ؟ وتقولون : إن الوحي الذي يدعيه ، وإن كان صادقاً ، فمنبعه من نفسه الطاهرة ، فإن قالوا : قامت لدينا الدلائل العديدة ، والمعجزات الكثيرة ، على نبوة موسى ونبوة عيسى ؟

قلنا في الجواب : الدلائل الدالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وصدقه في دعواه الرسالة ، أعظم وأكثر من الدلائل الدالة على صدق موسى وعيسى ، ومعجـزاتـه أكثـر وأعـظم من معجـزات موسى وعيسى(٢) ، والكتاب الذى أرسل به أشرف من الكتاب الذي بعث به غيره ، والشريعـة التى جاء بها أكمل من شريعة موسى وعيسى عليهما السلام ، وأمته أكمل في جميع الفضائل من أمة هذا وهذا ، ولا يوجد في التوراة والإنجيل علم نافع وعمل صالح إلا وفي القرآن مثله أو أكمل منه ، بل في القرآن من العلم النافع ، والعمل الصالح ، ما لا يوجد مثله في التوراة والإنجيل .

إذا علمت هذا جيداً ، تعلم أنه يمتنع الإقرار بنبوة موسى وعيسى عليهمـا السلام مع التكذيب بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، لأن القائلين بالوحي النفسي لمحمد مكذبون في الحقيقة لنبوته ، لأن النبي هو ما يوحى إليه الله بشرع ، فمن لم يوح الله إليه لا يكون نبياً ولا رسولا ،

---

(١) سورة البقرة : الآية ٥١ .

(٢) سيأتي بيان دلائـل نبوته ﷺ ، كما سنذكر معجزاته عليه الصلاة والسلام ، ونبين بالمقارنة بين معجزاته ﷺ وغيره أن معجزاته أكثر وأعظم .

وما من طعن يوجه إلى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ورسالته ، إلا ومن الممكن أن يوجه مثله وأعظم منه إلى موسى وعيسى .

فإن قالوا : إن وحي محمد نابع من نفسه لا من الله العظيم ، أمكن أن يقال لهم : ماذا جوابكم لو قيل لكم : إن الوحي الذى يدعيه موسى وعيسى هو وحي نفسي وليس بإلهي ؟ فإن قالوا : جاء موسى بهذه التوراة التي فيها تلك الشريعة الموسوية ، التي دان بها وعمل بها جميع أنبياء بني إسرائيل من بعد موسى فضلاً عن غيرهم ، قلنا : وكذلك أنزل الله القرآن الكريم وهو أعظم من التوراة في بلاغته وفصاحته ، وأجمع وأشمل في شرائعه وأحكامه ، بل وأنسب وأصلح للأمم ولاسيما أمة محمد صلى الله عليه وسلم سواء أمة الإجابة أو الدعوة ، ودان بالقرآن والشريعة المحمدية مئات الملايين من البشر بما فيهم من فطاحل العلماء ، وأكابر الأدباء والفصحاء ، وأعاظم الفلاسفة والحكماء ، وعلماء أمة محمد كأنبياء بني إسرائيل ، لأن أنبياء بني إسرائيل كانوا يحكمون بشريعة التوراة ، وكذلك علماء أمة محمد صلى الله عليه وسلم يحكمون بشريعة القرآن ، فإن عاندوا وجاهروا ونسبوا الكذب والافتراء إلى الرسول محمد صلى الله عليه وسلم في دعواه الرسالة ، أمكن لخصمهم أن يقول مثل ذلك في موسى وعيسى .

فإن قالوا : نحن وإياكم معشر المسلمين متفقون على الإقرار بنبوة موسى وعيسى ، وبما أننا نفينا ولم نعترف بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، فعليكم أيها المسلمون أن تثبتوا نبوته بالدلائل القاطعة ؟ .

قلنا في الجواب : نعم اعترفنا نحن معشر المسلمين بنبوة موسى وعيسى ، ذلك لأن القرآن العظيم المُنَزَّل على محمد صلى الله عليه وسلم من الله ، أخبرنا بنبوتهما في آيات كثيرة ، وأمرنا بالإيمان بهما ، وبجميع الأنبياء والمرسلين ، كما قال الله تعالى : **(قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا ، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم ، لا نفرق بين**

أحد منهم ونحن له مسلمون) (١) ، وقال الله تعالى : **(يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين)** (٢) . وقال عن عيسى : **(وإذ قال عيسى بن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ، ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد ، فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين)**(٣) .

فنحن نؤمن بموسى وعيسى وبالتوراة والإنجيل ، اللذين أنزلا على موسى وعيسى من طريق القرآن والرسول ، وبما أنكم أنكرتم نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وقلتم : إن القرآن ليس من كلام الله ، ولم ينزل عليه وحي من السماء ، فلا يلزمنا الاعتراف بنبوة موسى وعيسى عليهما السلام ، وأما التوراة والإنجيل الموجودان الآن بأيدي اليهود والنصارى فلا اعتماد عليهما ، ولا يصلحان للتمسك بهما ، وذلك لما يلي :

أولاً : إن التوراة والإنجيل لم يحفظهما الله ، ولم يصنهما من التغيير والتبديل ، ولكن حفظ القرآن من التغيير والتحريف ، كما جاء في قوله تعالى : **(إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)**(٤) ، ولم تكن التوراة والإنجيل محفوظين في صدور أصحاب موسى وعيسى ، كالقرآن المجيد الذي حفظه عشرات من الصحابة حتى قتل من حفظة القرآن سبعون في وقعة اليمامة أيام حرب الردة .

ثانياً : ليس هناك سند متصل لهما يوصل إلى موسى وعيسى ، كالقرآن العظيم الذي اتصل سنده بالرسول الموحى إليه من الله ، وحفظه كثير من الصحابة ، ونقل نقلاً متواتراً كما أنزل على الرسول .

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٣٦ .

(٢) سورة الأعراف : الآية ١٤٤ .

(٣) سورة الصف : الآية ٦ .

(٤) سورة الحجر : الآية ٩ .

ثالثاً : إن التوراة عندما استولى البابليون على بيت المقدس ، أحرقها ملكهم ، وخربوا بيت المقدس ، وجعلوها خاوية على عروشها ، وقتلوا آلافاً من بني إسرائيل ، وأسروا كثيراً منهم ، وبعد مضي قرن أو أكثر رجعت الدولة لبني إسرائيل بمناصرة الفرس لهم ، ويقال : إن بعد رجوعهم أملى عزير التوراة على بعض بني إسرائيل ، وهذا الذي أملاه حرف بنو إسرائيل كثيراً منه .

رابعاً : بالرغم من كل ذلك بقيت فيه بشائر عن الرسول العظيم ، فأخذ اليهود يؤولونها على حسب أهوائهم ، ومن أجل ما أسلفناه لا تصلح هذه التوراة الموجودة عند اليهود للاستناد عليها .

وأما الإنجيل فأصبح منذ قرون عدة أناجيل كتبت بعد المسيح عليه السلام بمئات السنين ، وبعد أن عقد المسيحيون عدة مجامع ومؤتمرات اختاروا منها هذه الأربعة التي هي الآن لدي النصارى ، وفيها ما ينقض بعضها بعضاً ، وأكثرها عن سيرة المسيح عليه السلام ، مما يدل على أنه ليس من كلام الله ، فأنى يصح الاحتجاج به والحالة هذه ؟ .

وإن قالوا : نؤمن بالقرآن وبمحمد عليه الصلاة والسلام ، إلا أننا نقول : أرسل إلى العرب خاصة ، وليس إلى الأمم كافة ، فلا يلزمنا اتباعه والدخول في دينه ، وهذاقول فرقة من اليهودوالنصارى ؟ .

قلنا لهم في الجواب : إذا صدقتم بالقرآن وبرسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، فيلزمكم الدخول في دينه صلى الله عليه وسلم ، لأن القرآن يقول : إن الله أرسله إلى الناس جميعاً ، العرب والعجم ، والروم والفرس وسائر الأمم ، قال الله تعالى على لسان محمد صلى الله عليه وسلم : **(قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السموات والأرض)** (١) وقال الله تعالى : **(وما أرسلناك إلا كافة**

---

(١) سورة الأعراف : الآية ١٥٨ .

للنــاس بشــيراً ونذيراً) (١) وقال تعالى : **(وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)**(٢) ، والرسول صلى الله عليه وسلم دعا ملوك عصره للدخول في دينه ، فكتب إلى ملوك الروم ومصر والحبشة والفرس وعمان ، وأعلن أن رسالته عامة ، والنبي معصوم من الكذب بالاتفاق منا ومنكم ، ومن أكبر الكذب أن يدعي أنه مرسل إلى الناس عموماً ، والحال أنه مرسل إلى العرب فقط .

وسيأتي مزيد بيان بهذا الشأن في بحث عموم رسالته صلى الله عليه وسلم .

---

(١) سورة سبأ : الآية ٢٨ .

(٢) سورة الأنبياء : الآية ١٠٧ .

الرد على الماديين الذين لا يؤمنون بالله ولا بعالم الغيب

وحيث انتهينا من الأجوبة لأهل الكتاب في خصوص الوحي النفسي ، نشرع الآن في الأجوبة للماديين الذين لا يؤمنون إلا بالمادة ، وينكرون ما وراءها من عالم الغيب ، فنقول وبالله التوفيق وبيده أزمة التحقيق :

إن الزاعمين أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يوح إليه من عالم الغيب ، وليس هناك عالم غيب ، بل الوحي الذي ادعاه مصدره من نفسه الطاهرة ، هم واهمون مخطئون كاذبون لما يلي :

١ ـ قدمنا في الجزء الأول الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة على وجود الله ، وأنه الخالق لجميع هذه الأكوان ، وليس من المعقول في شيء ، أن توجد صنعة بلا صانع ، ومفعول بلا فاعل ، وفيما قدمناه كفاية فارجع إليه إن شئت .

٢ ـ قدمنا الأدلة الحسية والعقلية في إمكان الوحي ، تلك الأدلة التي تدحض شبهاتهم ، وتزهق باطلهم ، وأتت على بنيانهم من القواعد ، فخر عليهم السقف من فوقهم .

وإلى القاريء إضافة إلى ما سلف : إن كل من أوتي حظاً من حس البيان وذوق البلاغة والعرفان ، يفرق بين أسلوب القرآن الذي هو كلام الله العزيز ، وأسلوب الحديث الذي هو كلام الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويجد فرقاً كبيراً يمثل الفرق الكبير بين مقدور الخالق ومقدور المخلوق ، والقرآن والحديث يناديان بهذا الفارق البعيد ، إن كان لهم حظ في معرفة اللغة العربية وبلاغتها وأساليبها .

٣ ـ ولو كان ما زعمه هؤلاء له وجه مقبول ، ومستند يصح الاتكاء عليه ، لكان أولى الناس به أولئك العرب الفصحاء الذين واجههم الرسول بكلام الله المعجز ، والذي تحداهم به بأن يأتوا بأقصر سورة من مثله فعجزوا ، مع العلم أنهم كانوا أحرص الناس على تعجيز الرسول وإسكاته ، لأنه سفه أحلامهم وزيف آلهتهم ، وأبطل عبادتهم لها ، واستهجن عاداتهم ، وأتى بما يقضي على ديانتهم التي توارثوها أباً عن جد ، لكنهم لمعرفتهم بأسرار لغتهم وأساليبها ، وبما أوتوا من الفرقان بين كلام الله وكلام الرسول ، وبين أحاديثه وكلامهم ، لم يتفوهوا بهذا الإفك المبين ، وأكرموا أنفسهم من هذا الافتراء المشين .

٤ ـ إن الوحي لو كان مصدره نفس محمد ، لكان من الفخر له أن ينسبه إلى نفسه ، ولأمكن أن يدعي به الألوهية فضلاً عن النبوة ، ولكان مقدساً في نظر الناس وهو إله أكثر من قداسته في نظرهم وهو نبي ، ولما كان في حاجة إذاً إلى أن يلتمس هذه القدسية الكاذبة بنسبة القرآن أو الوحي إلى غيره ، فما أجهل هؤلاء وما أكذبهم ، فتباً وسحقاً لهؤلاء الذين لا يفقهون حديثاً .

الأدلة على أن القرآن مصدره من الله

من الأدلة التي لا تقبل الجدل والمناقشة على إثبات الوحي الرباني ، وأن القرآن منزل من عند الله بلفظه ، لا صنعةفيه لمحمد صلى الله عليه وسلم ، ولا لأحد من الخلق .

هو ما أقدمه لك أيها القارىء الكريم نماذج من سيرته المطهرة ، وتحتها فقرات تريك الأدلة الساطعة على ما نقول :

١ ـ كان صلى الله عليه وسلم تقع له وقائع تحتاج إلى حل لها ، والفصل فيها ، فيتوقف ولا يحكم فيها بشيء ، فقد يبقى أياماً ينتظر الوحي المبين ليحل ما أشكل عليه ، ومن تلك الوقائع والمشاكل أن قريشاً سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ثلاث ، وذلك بإرشاد يهود المدينة لهم ، عن فتية ذهبوا في الدهر الأول وما كان من أمرهم ، وعن

رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ، ما كان نبؤه ، وعن ماهية الروح ، فإن أخبركم بذلك فهو نبي فاتبعوه .

فلما سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المسائل الثلاثة ، أجابهم صلى الله عليه وسلم : « أخبركم غداً عما سألتم عنه ، ولم يقل إنشاء الله » .

ومكث رسول الله صلى الله عليه وسلم خمس عشرة ليلة ، لا يأتيه جبريل بالوحي حتى أرجف أهل مكة ، وقالوا : وعدنا محمد غداً ، واليوم خمس عشرة ليلة قد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشيْ عما سألنا عنه ، وحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم لتأخر الوحي ، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة ، ثم جاءه جبريل عليه السلام من الله بسورة الكهف ، فيها معاتبة الله (١) إياه على حزنه عليهم ، وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية (٢) ، والرجل الطواف ، وعن ماهية الروح (٣) ، فلو كان الوحي نابعاً من نفسه الطاهرة ، لكان في مقدوره أن يجيب عن تلك الأسئلة ، ولا يصبر تلك المدة ، ويسبب له الحزن ، وإرجاف أهل مكة ، ولكنه كان صلى الله عليه وسلم لا يقول في شيْ إلا بوحي من ربه .

٢ ـ ألم يرجف المنافقون بحديث الإفك عن زوجته عائشة رضي الله عنها وأبطأ الوحي ، وطال الأمر ، والناس يخوضون حتى بلغت القلوب الحناجر ، وهو لا يستطيع إلا أن يقول بكل تحفظ واحتراس : « إني

---

(١) أي في قوله تعالى : ﴿**فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً**﴾، أي لا تهلك نفسك أسفاً وحزناً من أجل أنهم لم يهتدوا ، فمن اهتدى فلنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها .

(٢) أي في قوله تعالى : ﴿**أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً**﴾، هو غار في الجبل ، لجأ إليه الفتية المذكورون ، والرقيم اسم الوادي ، وقال سعيد بن جبير : الرقيم لوح من حجارة ، كتبوا فيه قصص أصحاب الكهف ، ثم وضعوه على باب الكهف .

(٣) أي في قوله تعالى : ﴿**ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكراً**﴾ إلخ ، وأما الروح ففي قوله تعالى في سورة الإسراء : ﴿**ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا**﴾ .

لا أعلم عنها إلا خيراً » ؟ ، ثم إنه بعد أن بذل جهده في التحري والسؤال واستشارة للأصحاب ، ومضى شهر بأكمله والكل يقولون : ما علمنا عليها من سوء ، لم يزد على أن قال لها آخر الأمر : « يا عائشة : أما أنه بلغني كذا وكذا ، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنت ألمت بذنب ، فاستغفري الله » .

هذا كلامه بوحي ضميره ، وهو كما ترى كلام البشر الذي لا يعلم الغيب ، وكلام الصديق المتثبت الذي لا يتبع الظن ، ولا يقول ماليس له به علم ، على أنه لم يغادر مكانه بعد أن قال هذه الكلمات حتى نزل صدر سورة النور معلناً براءتها ، ومصدر الحكم المبرم لشرفها وطهارتها ، الحديث أخرجه الشيخان وغيرهما .

فماذا كان يمنعه ـ لو أن أمر القرآن إليه ـ أن يقول هذه الكلمة الحاسمة من قبل ، ليحمي بها عرضه ، ويذب بها عن عرينه ، وينسبها إلى الوحي السماوي ، لتنقطع ألسنة المتخرصين ؟ ولكنه ما كان ليذر الكذب على الناس ، ويكذب على الله : (**ولو تقول علينا بعض الأقاويل ، لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين ، فما منكم من أحد عنه حاجزين**)(١) .

٣ ـ قضية الحديبية : وفيها من الدليل القاطع ، الذي لا يتطرق إليه شك ، ولا يحوم حوله ريب ، في أنه كان صلى الله عليه وسلم مبلغاً عن ربه هذا القرآن العظيم بلفظه ومعناه ، غير متقول من تلقاء نفسه ، وهاك القضية الثابتة بالقرآن والسنة ، والخبر المتواتر ، مما لا يدع مجالا للتردد في صحة هذا المطلب :

في السنة السادسة من الهجرة النبوية ، قصد رسول الله صلى الله عليه وسلم زيارة البيت الحرام لأداء العمرة ، فذهب معه من الصحابة ألف وأربع مائة ، وقيل : ألف وخمس مائة ، وأخذوا أسلحتهم للدفاع عنهم إن ألجأتهم قريش إلى الحرب ، أو أعلنت الاعتداء عليهم ، فلما علمت قريش بذلك جمعوا جموعهم ، قاصدين منع الرسول وأصحابه

---

(١) النبأ العظيم للشيخ عبد الله دراز ، الآيات من سورة الحاقة من ٤٤ : ٤٧ .

من دخول مكة ، وكان النبي والصحابة على أتم استعداد لقتال من يريد صدهم عن البيت الحرام ، وأنهم لسائرون عند الحديبية ، إذ بركت راحلة النبي صلى الله عليه وسلم ، وأخذ أصحابه يثيرونها إلى جهة الحرم فلا تثور ، وقالوا : خلأت القصواء ، أي (حرنت الناقة) ، وقال النبي صلى لله عليه وسلم : « ما خلأت القصواء ، وما ذلك لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل » ، وهنا أيقن أن الله لم يأذن لهم هذا العام بدخول مكة مقاتلين ، لا بادئين ولا مكافئين ، وزجر الناقة فثارت إلى ناحية أخرى ، فنزل بأصحابه في أقصى الحديبية ، وبعد أن جرت المفاوضات العديدة بينه وبين قريش ، قبل الرسول صلى الله عليه وسلم ما عرضوه من الصلح بأن يرجع إلى المدينة ، ولا يسمحون له بدخول مكة إلا في السنة الآتية ، وأملت قريش عليه شروطاً قاسية ، منها أن يرد كل رجل يجيئ من مكة مسلماً ، وأن لا ترد هي أحداً يجيئها من المدينة تاركاً المدينة ، وأن لا يدخل مكة في هذه السنة ، فكان لهذا الصلح أثراً سيئاً في نفس الصحابة ، لأنهم كانوا إذ ذاك أقوى من قريش ، لأنها قد أنهكتها الحروب ، والفرصة سانحة من النبي وأصحابه لجهادهم لينتصر الحق على الباطل ، ولكن بالرغم من كل ذلك قبل الرسول هذا الصلح ، لأنه يعلم أنه رسول من رب العالمين ، لا يمكن أن يفعل ما لم يؤمر ، وربما كان يرجو أن يكون لهذا الصلح نتائج حسنة يعز بها المسلمون ، ويذل بها المشركون ، وينتصر الحق ، ويهزم الباطل ، ولكن الصحابة لما خفيت عليهم الحكمة ، أصابهم حزن عميق ، حتى كادت تزيغ قلوب فريق من الصحابة ، فأخذوا يتساءلون فيما بينهم ، ويراجعون الرسول قائلين : لم نعطى الدنية في ديننا ؟ ، انظر إلى جوابه حين راجعه عمر رضي الله عنه : « إني رسول الله ، ولست أعصيه ، وهو ناصري » ، يعني أنا عبد مأمور ليس لي من الأمر شيء ، وأنزل الله : **(وهو الذي كف أيديهم عنكم ، وأيديكم عنهم ببطن مكة ، من بعد أن أظفركم عليهم ، وكان الله بما تعملون بصيراً)**(١) ، كما أنزل تعالى : **(هم الذين كفروا وصدوكم عن**

(١) سورة الفتح : الآية ٢٤ .

المسجد الحرام والهدي معكوفاً أن يبلغ محله) إلى قوله تعالى : (**لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون ، فعلم مالم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً**)(١) .

قل لي بربك لو كان الوحي مصدره من نفسه ، لأخبرهم بحكمة هذا التصرف الصادر منه ، ولم يتركهم وهم غارقون في بحور الحزن ، وللأسف الشديد ظلوا راجعين ، ولا يدرون تأويل ما أشكل عليهم ، حتى نزلت سورة الفتح فبينت لهم الحكم الباهرة ، وبشرتهم بدخول البيت الحرام آمنين غير خائفين ، وأن هذا الصلح الذي حصل بين النبي صلى الله عليه وسلم وقريش ، هو النصر المبين والفتح الأكبر ، لأن مدة الصلح كانت عشر سنوات ، فحصل فيها الاختلاط بين المشركين والمؤمنين ، وآمن الناس بعضهم بعضاً ، وأخذ كثير منهم يفهم حقيقة الإسلام ، ويدخل في حوزة الدين ، حتى مَنَّ الله بفتح مكة المشرفة في السنة الثامنة من الهجرة ، وأسلمت قريش وتبعها سائر العرب ، فأخذوا يدخلون في دين الله أفواجاً أفواجاً ....

٤ ـ لقد كان يجيئه الأمر أحياناً بالقول المجمل أو الأمر المشكل ، الذي لا يستبين ولا أصحابه تأويله حتى ينزل الله عليهم بيانه بعد ، قل لي بربك : أي عاقل توحي إليه نفسه كلاماً لا يفهم هو معناه ، وتأمره أمراً لا يعقل هو حكمته ؟ أليس ذلك من الأدلة الواضحة على أنه ناقل لا قائل ، وأنه مأمور لا آمر ؟ نزل قوله تعالى : (**وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله**)(٢) ، فأزعجت الصحابة إزعاجاً شديداً ، وداخل قلوبهم منها شيء لم يدخلها من شيء آخر ، لأنهم فهموا منها أنهم سيحاسبون على كل شيء حتى حركات القلوب وخطراتها ، فقالوا : يا رسول الله أنزلت علينا هذه الآية ولا نطيقها ، فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : « أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من

---

(١) سورة الفتح : من ٢٥ : ٢٧ .

(٢) سورة البقرة : الآية ٢٨٤ .

قبلكم : سمعنا وعصينا ؟ بل قولوا : سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير » ، فجعلوا يتضرعون بهذه الدعوات حتى أنزل الله بيانه بقوله : (**لا يكلف الله نفساً إلا وسعها**) إلى آخر السورة المذكورة ... وهناك علموا أنهم إنما يحاسبون على ما يطيقون من شأن القلوب ، وهو ما كان من النيات المكسوبة ، والعزائم المستقرة ، لا من الخواطر والأماني الجارية على النفس بغير اختيار .

الحديث في مسلم وغيره ، وأشار إليه البخاري في التفسير مختصراً (١) .

وموضع الشاهد منه أن النبي صلى الله عليه وسلم ، لو كان يعلم تأويلها من أول الأمر لبين لهم خطأهم ، ولأزال اشتباههم من فوره ، لأنه لم يكن ليكتم عنهم هذا العلم ، وهم في أشد الحاجة إليه ، ولم يكن ليتركهم في هذا الهلع الذي كاد يخلع قلوبهم وهو بهم رؤوف رحيم ،

---

(١) روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : لما نزلت على رسول الله ﷺ : ﴿**لله ما في السموات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله**﴾ الآية .

اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ ، فأتوا رسول الله ﷺ ثم بركوا على الركب فقالوا : أي رسول الله ، كلفنا من الأعمال ما نطيق : الصلاة والجهاد والصيام والصدقة ، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها ، قال رسول الله ﷺ : « أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم : ﴿**سمعنا وعصينا ؟ بل قولوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير**﴾ فلما اقترأها القوم وذلت بها ألسنتهم ، أنزل الله تعالى في أثرها ﴿**آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير**﴾ ، فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى ، فأنزل الله عز وجل : ﴿**لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا**﴾ ، قال : نعم ﴿**ربنا ولا تحملنا ما لاطاقة لنا به**﴾قال : نعم ﴿**واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين**﴾قال : نعم .

وروى البخاري عن ابن عمر رضى الله تعالى عنه : ﴿ **إن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه** ﴾ ، قال : نسختها الآية التي بعدها ، يقصد قوله تعالى : ﴿**آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه**﴾ .

ولكنه كان مثلهم ينتظر تأويلها ، ولأمر ما أخر الله عنهم هذا البيان ، ولأمر ما وضع حرف التراخي في قوله تعالى : (**ثم إن علينا بيانه**)(١) .

الشبهة الثانية وهي : استدلالهم بالفتاة الفرنسية . والجواب عنها :

وأما استدلالهم على ترويج هذه الشبهة السقيمة ، وهي أن منبع وحي محمد من نفسه ، مستدلين لها ، أن فتاة فرنسية تدعى (جان دارك) في القرن الخامس عشر الميلادي ، كانت من أجمل النساء سيرة ، بعيدة عن الأمور السياسية ، اعتقدت أنها مرسلة من عند الله ، لإنقاذ وطنها ، ودفع العدو عنه ، وصارت تسمع صوت الوحي يحضها على القتال ، فأخلصت في الدعوة للقتال ، وتوصلت بصدق إرادتها إلى رئاسة جيش صغير ، وقاتلت العدو ، وانتصرت عليه ، ثم دارت الدائرة عليها ، ووقعت في يد عدوها ، فألقوها في النار حية ، وتركت في صحائف التاريخ ذكراً مخلداً ، وهي الآن موضع إجلال القوم وإعظامهم ، فقد تيسرت لهم النهضة بعدها ، وقطعوا شوطاً في العلم والتقدم .

والجـــواب :

١ ـ لولا رواج هذه الشبهة السخيفة على بعض المسلمين (٢) القليلي المعرفة ، لما كان هناك حاجة للجواب ، إذ ضعف هذه الشبهة ، وسقم هذا الاستدلال ، لا يخفى على من رزق حظاً من العقل ، فضلا عن العلم ، إذ كيف تقاس نبوة محمد ، وإصلاحه العام ، تلك النبوة التي أنقذت مئات الملايين من مهاوي الكفر ، وبحور الشرك والضلال ، والعادات المستهجنة ، إلى نور التوحيد والإسلام ، ومكارم الآداب والأخلاق ، وتأسيس دولة دينية وسياسية ، دينها العدل في الأحكام ، بفتاة فرنسية هيجها على القتال ، ما رأت من جور أعداء بلدها ، وإرادة

(١) سورة القيامة : الآية ١٩ .

(٢) حتى أن بعضهم رفع سؤالا إلى العلامة السيد رشيد رضا ـ رحمه الله ـ كما في الوحي المحمدي ، ذكر أنه عرضت له شبهات في وقوع الوحي ، ثم ذكر قصة هذه الفتاة وأجابه السيد رشيد بما ذكرنا معنى السؤال والجواب وبعض الفقرات بلفظها .

الاستيلاء على وطنها ، وما رأت من الانقسامات الداخلية التي مزقت فرنسا، مع ما شاع في عهدها من خرافات ، كان لها أثرها في نفسها وعقلها ، منها أن فتاة عذراء ستبعث في هذا الزمن لتخلص فرنسا من عدوها ، فثارت حمية لوطنها وبني قومها ، فقادت المعركة ضد العدو وانتصرت ، ثم لم تلبث أن أخذها العدو أسيرة فقتلها ؟ .

فأي إصلاح تركت تلك الفتاة ، وأي شريعة أتت بها ، ومتى ثبت أنها تسمع الوحي من السماء (١) ، وهل نار حماسها وقيامها بالثورة لتلك الأسباب السالفة يعد وحياً من السماء ؟ .

٢ - إن تلك الفتاة لم تقم بدعوة إلى دين أو مذهب ، تدعي أن فيه سعادة البشر في الحياتين ، كما هو شأن جميع المرسلين ، ولم تأت بآية كونية ولا علمية ، لا يعهد مثلها من كسب البشر ، تتحدى بها الناس ليؤمنوا بها .

قال السيد رشيد رضا : أين هذه النوبة العصبية القصيرة الزمن ، المعروفة السبب ، التي لا دعوة فيها إلى علم ولا إصلاح اجتماعي ، إلا المدافعة عن الوطن ، التي لا حجة تدعمها ، ولا معجزة تؤيدها ، التي اشتعلت بنفخة ، وطفئت بنفخة .

أين حال تلك الفتاة التي كانت كبارقة خفت (أي ظهرت وأومضت) ، ثم خفيت ، وصيحة علت ، ولم تلبث أن خفتت ، في حال شمس النبوة المحمدية التى أشرقت ، فأنارت الأرجاء ، ولا يزال نورها ، ولن يزال متألق السناء ؟ ، أي يتيم قضى سن الصبا وشرخ الشباب هادئاً ساكناً ، لا يعرف عنه علم ولا تخيل ولا وهم ديني ، ولا شعر ولا خطابة ، ثم صاح على رأس الأربعين بالعالم كله ، صيحة أنكم على ضلال مبين ، فاتبعون أهدكم الصراط المستقيم ، فأصلح وهو الأمي أديان البشر ، عقائدها ، وآدابها ، وشرائعها ، وقلب نظام الأرض ، فدخلت بتعليمه في طور جديد .

---

(١) إن تلك الفتاة لم تأت ولا بدليل واحد معقول على صدق أوهامها وتخيلاتها التي تزعمها وحياً حديثاً من الله إليها ، لكن محمداً ﷺ له على وحيه الذي يدعيه ألف دليل ، وسيأتي بعضها في مبحث الأدلة على صدق نبوته ، فأين الثرى من الثريا ، وأين الظلام من النور .

لا جرم أن الفرق بين الحالين عظيم ، إذا أنعم النظر فيه العاقل الحكيم ، فلا يساوي بين النبوة المحمدية وبين ثورة تلك الفتاة الفرنسية ، إلا من يساوي بين البعر والجوهر ، والدرر والمدر ، وكفى بقوم جهلا ، إذا كان هذا مبلغ علمهم ، ومنتهى فلسفتهم .

الشبهة الثالثة حول الوحي المحمدي ودحضها :

يقولون : إن محمداً كان عصبياً ، حاد المزاج (١) ، وكان مريضاً بما يسمونه (الهستريا) ، فالوحي الذي كان يزعمه ، ماهو إلا أعراض لتلك الحال التي أصيب بها .

والجواب :

أن هذه فرية تدل على جهلهم الفاضح بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فالمعروف عنه بشهادة التاريخ الصحيح والأدلة القاطعة ، أنه كان صلى الله عليه وسلم وديعاً ، صبوراً حليماً ، بل كان عظيم الصبر ،

---

(١) لو صح هذا الزعم لأمكن أن يقال في موسى عليه السلام مثل ذلك ، لأنه كان حاد المزاج ، ومعاذ الله أن يكون موسى وغيره من الأنبياء كانت نبوتهم نتيجة أعراض وأمراض نفسانية ، بل الأنبياء منزهون من مثل هذه الأمراض ، ولكن هؤلاء القوم قد تخلوا عن العقل ، وإلا لو كان لهم ذرة من العقل وعشرها من الإنصاف ، لقرأوا سيرة الرسول وتاريخه في بعض الكتب التي ألفت في هذا الشأن مما كتبه المسلمون وكتبه منصفو الغرب ، أمثال كارليل وبرناردشو ، وعلى فرض أن يكون قد وهبوا شيئاً من العقل ، لكن كراهيتهم المتأصلة في نفوسهم للإسلام ، ونبيه عليه الصلاة والسلام ، وإرادة صد الناس عن الدخول في هذا الدين ، لما يعلمون من الإقبال عليه ، لما يحويه من المحاسن الباهرة . . وبدافع حقدهم المكين على الرسول الأمين ، فإنهم يثيرون هذه الشبهات التي هي أوهى من بيت العنكبوت بقصد التنفير والتشكيك ، وإبراز صورة منفرة عن النبي ودينه ، ولكن مهما عملوا وكادوا فسيبطل الله كيدهم ، ويحق الله الحق ، ويبطل الباطل ولو كره المجرمون ، قال تعالى : **﴿هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾** الآية رقم : ٣٢ ، من سورة : التوبة .

واسع الحلم ، فسيح الصدر ، حتى أنه وسع الناس جميعاً ببسطه خلقه ، وكان شجاعاً مقداماً سليم الجسد صحيح البدن ، حتى أنه صارع ركانة المشهور بشجاعته فصرعه ، وكان يثبت في الميدان حين يفر الشجعان ، ويفزع الخلق ، ويشتد الأمر ، ويقول : « أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب » ، ويقول : « إليَّ عباد الله » ، ولا يزال كذلك حتى ينقذ الموقف ، ويكسب المعركة ، ولو أفضنا في هذا الموضوع لطال بنا الكلام ، ولكن موضعه كتب السيرة والشمائل المحمدية ، فارجع إليها إن شئت .

أما مرض (الهستريا) الذي يصمونه صلى الله عليه وسلم كذباً به ، فهو داء عصبي عضال ، أكثر إصاباته في النساء ، ومن أعراضه شذوذ في الخلق ، وضيق في التنفس ، واضطراب في الهضم ، وقد يصل بصاحبه إلى شلل موضعي ، ثم إلى تشنج ، ثم إلى إغماء ، ثم إلى هذيان مصحوب بحركة واضطراب في اليدين والرجلين ، وقفز من مكان إلى مكان ، وقد يزعم المصاب أنه يرى أشباحاً تهدده ، وأعداء تحاربه ، أو أنه يسمع أصواتاً تخاطبه ، على حين أنه لا وجود لشيء من ذلك كله في الحس والواقع ، فهل يتفق ذلك وما هو معروف عن النبي صلى الله عليه وسلم ، من أنه كان أمة وحده في أخلاقه ، وثباته ، وحلمه ، وعقله ، ورباطة جأشه ، وسلامة جسمه ، وقوة بنائه ؟ .

ثم كيف يتفق ذلك الداء العضال الذي أعيا الأطباء ، وما انتدب له محمد صلى الله عليه وسلم من تكوين أمة شموس أبية ، وتربيتها على أسمى نواميس الهداية ودساتير الاجتماع ، وقوانين الأخلاق ، وقواعد النهضة والرقي ؟ .

أضف إلى ذلك أنه نجح في هذه المحاولة المعجزة إلى درجة جعلت تلك الأمة بعد قرن واحد من الزمان هي أمة الأمم ، وصاحبة العلم ، وربة السيف والقلم ؟؟ فهل للمريض المتهوس الذي لا يصلح لقيادة نفسه ، أن يتسنى له أن يقوم بهذه القيادة العالمية الفائقة ، ثم ينجح فيها هذا النجاح المعجزالمدهش ؟

قد تنكـر العـين ضوء الشمس من رمـد
وينكـرالفـم طعـم المـاء من سقـم(١)

الشبهة الرابعة : دعوى الأخذ عن بحيرا الراهب ، والجواب عنها :

من مزاعم المستشرقين وأكاذيبهم الفاضحة ، أن محمداً صلى الله عليه وسلم أخذ عن بحيرا الراهب في مدينة بصرى الشام ، لأنه ثبت في التاريخ أن محمداً كان يذهب إلى الشام ، فالتقى بالراهب السالف الذكر ، وكان الراهب نسطورياً ينكر التثليث ، ويدين بالتوحيد ، فتتلمذ عليه ، وكون له ديناً زعم أنه أوحاه إليه ربه .

والجواب أن يقال : إن تاريخ حياة محمد صلى الله عليه وسلم قد اعتنى به العلماء ، من حين ولادته صلى الله عليه وسلم إلى أن اختاره الله إلى جواره اعتناء كاملاً دقيقاً ، لم يغادروا صغيرة ولا كبيرة من أخلاقه وسيرته وشمائله إلا ودونوها ، وتناقلتها الأجيال والأمم قرناً بعد قرن ، وألفت المؤلفات العديدة التي لا يأتي عليها الحصر والعد من المسلمين ومن غيرهم ، واتفقوا على أن الأمية كانت متفشية في العرب ، لا يعرفون الكتابة ولا القراءة إلا النزر اليسير ، وشب صلى الله عليه وسلم أمياً بين قوم أميين ، ولم تكن بمكة مدرسة ولا معلم ، ولم يتفق له صلى الله عليه وسلم أن جالس عالماً أو راهباً ، وكل ماكان من أمر بحيرا معه أنه ذهب مع عمه أبي طالب ، وكان له من العمر سبع سنين وقيل : اثنتا عشر سنة ، وعندما رأى بحيرا سحابة تظله من الشمس وسأل عمه ، ماذا يكون هذا الغلام منك ؟ ، قال : هو ابني ، فقال : ما يكون لهذا الغلام أب في قيد الحياة ، قال : أنا عمه ، قال : صدقت ، ورأى بين كتفي المصطفى خاتم النبوة ، وعندما تحقق لديه أوصاف نبوته التي في التوراة ، وأنه النبي العربي ، أخبر عمه : أن يكون لهذا الغلام شأن ، ثم حذره عليه من اليهود ، فرجع به عمه ولم يتم الرحلة ، ولم يسجل التاريخ أن النبي صلى الله عليه وسلم تلقى من الراهب درساً

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني .

أوتعلم منه شيئاً ، وذهب إلى الشام مرة أخرى للتجارة ، ومعه ميسرة غلام خديجة ، فقضى مهمته التجارية ورجع ، ولم يدون التاريخ أنه ذهب إلى أحد من الأحبار أو الرهبان أو اجتمع بأحد منهم ، فضلاً من أن يتلقى دروساً عن أحد ، أو يأخذ علماً ، ولكن إذا خلع الإنسان جلباب الحياء ، وأصبح لا يبالي بقيمة العلم ولا يحترم الناس ، يهون عليه أن يقول ما يريد ولو كان كذباً ، لاأساس له من الصحة ، ويفعل ما يريـد ، ولو كان منـافيـاً للخلق والعفة ، وإلا فأين المصدر الذي يعتمدون عليه في هذا الكذب الفاضح ؟ .

وهذه الشبهة باطلة لما يلي :

١ ـ كل دعوة لا يؤيدها دليل مرفوضة لا تقبل ولا تسمع ، ودعواهم هذه بأخذه صلى الله عليه وسلم عن بحيرا ، لا يسندها دليل ولا يقبلها عقل ، فإذاً هي مدفوعة ومردودة على صاحبها .

٢ ـ لو كان ذلك الراهب هو مصدر الوحي النازل على محمد ومنبع شريعته ، لكان أولى أن يكون هو نبياً أو رسولاً ، لا محمداً .

٣ ـ إن الراهب كان مسيحياً ، وديانة محمد صلى الله عليه وسلم تخالف المسيحية في العقيدة التي يدين بها المسيحيون والشريعة التي يعتنقونها ، فلو كان الراهب معلماً له ، لوجدت اتفاقاً بين الديانتين ، إن لم نقل في كل شيء ، نقول في أكثر التعاليم الواردة .

٤ ـ إن هذا الزعم لو كان له ظل من الصحة أو نصيب من الواقع ، لكان أولى الناس أن يقول به العرب ، وخصوصاً قريشاً الذين عارضوا النبي صلى الله عليه وسلم وخاصموه ، وكانوا حريصين أن يلصقوا به ما هو منه بريء ، وأن يأخذوا عليه المآخذ التي تدينه ، وتبطل ادعاء النبوة ، ولقالوا : ما أوحى الله إليك شيئاً ، وإنما تعلمت من بحيرا أو

من غيره ، وأتيت لنا بما سميته ديناً ، زاعماً أن الله أوحاه إليك وأرسلك إلينا ، ولكنهم على شدة عنادهم وقوة معارضتهم وعنادهم ، لم يلطخوا أنفسهم بهذه الجريمة الشنعاء (١) .

---

(١) ذكرت قصة بحيرا الراهب كثير من كتب السير ، وبنى المستشرقون عليها بناء شامخاً ، زعموا أن النبي ﷺ أخذ دينه من بحيرا الراهب النصراني ، وقيل يهودي ، وهذا كلام باطل لا أصل له لأمور ذكرت بعضها في صلب الكتاب ومنها : كيف يتأتى في جلسة واحدة تستغرق بضع دقائق ، أن يأتي بهذا الدين العظيم الذى فاق جميع الأديان السماوية ، والذى لم يترك صغيرة ولا كبيرة مما يحتاجه العباد لدينهم ودنياهم إلا وذكر القرآن إما تصريحا وإما بقواعد مجملة ، استنبط منها العلماء الأحكام للحوادث المستجدة لكل عصر وآن .

هذا كله على فرض ثبوت هذه القصة ، وإلا فقد طعن فيها كثير من العلماء .

وإليك ما قاله العلامة الشيخ أبو الحسن الندوى في سيرته :

وقد جاءت هذه القصة مطولة في سيرة ابن هشام وغيرها ، وتكلم في صحتها كثير من النقاد والمحدثين رواية ودراية ، وقد جاء في «سيرة النبي ﷺ» للعلامة شبلى النعماني : أن جميع روايات هذه القصة مرسلة ، فإن كل من روى هذه القصة من الصحابة ، إنما سمعها من غيره ولم يسمه ، وقد قال الترمذي بعدما روى هذا الحديث : حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، ومن رواته عبد الرحمن بن غزوان ، وقد تكلم فيه أكثر أهل الصناعة ، فقال العلامة الذهبي : كان يروى الأحاديث المنكرة ، وأشدها نكارة الرواية التى جاء فيها قصة بحيرا ، ومما يقدح في هذا الحديث أنه قد جاء فيه أن أبا طالب أرسل رسول الله ﷺ مع بلال ، قال العلامة ابن القيم في زاد المعاد : ووقع في كتاب الترمذي وغيره ، أنه بعث بلالا ، وأنه من الغلط الواضح ، فإن بلالا إذ ذاك لعله لم يكن موجوداً ، وإن كان فلم يكن موجوداً مع عمه ولا مع أبي بكر رضى الله عنه . ا ـ هـ .

وقد ذكر الشيخ أكرم ضياء العمري في كتابه السيرة النبوية الصحيحة ج ١ انتقادات الذهبي لقصة بحيرا الراهب وأطال فيها ، فارجع إليه إن شئت .

الشبهة الخامسة : وهي دعوى الأخذ عن ورقة بن نوفل ، والتتلمذ عليه ، والجواب عنها :

يقولون : أنه صلى الله عليه وسلم كان يلقى ورقة بن نوفل وكان من متنصري العـرب ومن العلماء بالدين المسيحي ، وكان من أقارب خديجة زوج النبي ، يوهمون الناس الجهلاء ، بأن النبي أخذ عن ورقة وتتلمذ عليه ، فتكون نبوة محمد مصدرها من ورقة .

والجــواب :

إن علماء الحديث والسير استقصوا كل ما عرف عن ورقة مما صح سنده ومما لم يصح ، وقد أورد البخاري حديث بدء الوحي ، وقد سبق ذلك في بيان ابتداء الوحي ، وفي حديث البخاري ، أن خديجة أخذته صلى الله عليه وسلم عقب إخباره إياها بما رآه في غار حراء إلى ورقة هذا ، وأخبرته خبره وكان شيخاً قد عمي ، ولم يلبث بعد ذلك أن توفي ، ولم ينقل أن النبي صلى الله عليه وسلم رآه قبل ذلك ، فلم يذكر أحد منهم ، أنه عرف عنه دعوة إلى النصرانية أو كتابة فيها ، وإنما ورد في بعضها أنه قال حين علم من خديجة خبر محمد صلى الله عليه وسلم : إنه هو النبي المنتظر الذي بشر به المسيح عيسى بن مريم ، وفي بعضها أنه عاش حتى رأى بلالاً يعذبه المشركون ليرجع عن الإسلام ، ولكن هذه الرواية شاذة مخالفة ـ أي لم يلبث أن مات ـ وقد كان تعذيب بلال بعد إظهار دعوة النبوة ودخول الناس فيها ، وكان هذا بعد بدء الوحي بثلاث سنين .

وكـل ما في أمر الرسول وورقة ، أنه عندما جاء من الغار وأخبر خديجة بما رأى ، ذهبت به إلى ورقة ، فقالت له : اسمع من ابن أخيك ، فأخبره المصطفى صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى ، فقال له ورقة : هذا الناموس الذي نزله الله على موسى (١) ، ياليتني فيها جذعاً إذ يخرجك

(١) ولم يقل على عيسى مع أن ورقة كان نصرانياً وعيسى قد أتى من بعد موسى ، لأن شريعة عيسى هي نفس شريعة التوراة ، إلا أنه جاء لنسخ قليل من شريعة التوراة كما قال الله ﴿ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم﴾ .

قومك ، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « أو مخرجي هموا » قال : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي ، وإن يدركني يومك حيناً أنصرك نصراً مؤزراً ، ثم لم يلبث ورقة إلا مدة قليلة ثم توفي ، فأين في هذه الجلسة القصيرة أخذ الرسول النبوة التي أتت بهذه الشريعة العظيمة ، التي سلم جميع العقلاء المنصفين والعلماء الراسخين ، أنها تفوق كل الشرائع السماوية السابقة ، فأجدر أن تفوق الوضعية ، لو أراد الإنسان أن يتعلم فصلا يتألف من عدة سطور لأراد جلسة طويلة مع المعلم ، فكيف بهذا القرآن العظيم الذي أنزله الله منجماً في ثلاث وعشرين سنة ، الذي حوى من الشرائع والآداب والأحكام والأخلاق والسياسة والاجتماع وقصص الأنبياء السابقين وغيرهم ، ما لو قرأه ذكي لأراد أن يمضي من عمره سنين عديدة ، ولكن هؤلاء الخبثاء لا أظن أنهم تخفى عليهم هذه الحقائق ، لكن حقدهم وبغضهم للرسول ولدين الإسلام ، وقصدهم تشويهه وصد الناس عنه ، وخدمة لدولهم المستعمرة ؛ يثيرون مثل هذه الشبهات ويتلاعبون بعقول الناس ، ويسبكونه بقالب العلم والنقد التحليلي ، لكي تروج شبهاتهم على الجاهلين بحقيقة الدين الإسلامي ولا سيما الغربيين ، لأن أفكارهم قد سممها المستشرقون والقسس والرهبان بأكاذيبهم على نبي الإسلام ودينه الحنيف ، وقل منهم من يجد أو يبحث عن كتاب يبرز الإسلام بشكله الجميل ومحاسنه العظيمة ، لأن المسلمين المتضلعين من الثقافة القديمة والحديثة والمتمسكين بالعقيدة الصحيحة والدين الحنيف قليلون ، والكاتبون عن الإسلام الصحيح باللغات الأجنبية أيضاً قليلون ، فلذا قلَّت الكتب باللغات الأجنبية ، ولم تكن ميسرة لمن يريد البحث عن حقيقة دين الإسلام ، ومن أجل ذلك نرى الكثيرين الذين هداهم الله للإسلام ، كان نتيجة لبحثهم عن الدين في كتب بعض المسلمين ممن كتبه باللغة العربية ، وبعض كتب المستشرقين المنصفين ، وعليه أصبحت شبهاتهم كلها ليس لها نصيب من

الصحة ، ولا يؤيدها برهان ولا ذوق ولا وجدان ، فانهارت وتبخرت أمام أضـواء الحق كالسراب ، (**يحسبـه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً**) (١) .

---

(١) سورة النور : الآية ٣٩ .

دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم

إن الدلائل الدالة على صدق نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أكثـر من أن تحصرها الأقلام ، لكثرة أفرادها وأنواعها ، من الأقوال والأفعال والأوصاف التي لم يتصف بها غيره ممن سبقه من الأنبياء والمرسـلين ، وبالأحرى لم ولن يحظ غـيره بها من سائر البشر ، منذ أن خلق الله آدم إلى حين انتهاء الدنيا ، وهذا وإن دل على شيء فإنما يدل على مزيـد التشريف والتكـريم لخـاتم النبيين وسيد المرسلين من رب العالمين ، الذي اصطفى محمداً من سائر الأنام عموماً ، ومن العرب خصوصاً ، وفضله على سائر الرسل الكرام وجعله خاتم الأنبياء وإمام الأصفياء ، ونسخ بدينه سائر الأديان ، وخصه بخصائص ترفع من مقامه الشريف ، وتسمو بدرجته وتبرهن على تفضيله على جميع الخلق على الإطلاق .

وتنقسم تلك الدلائل إلى عقلية حسية ، ومعجزات نبوية وهي أيضاً من الدلائل الحسية ، وبشائر .

الأدلـة العقليـة

وإلى القارىء بيان بعض منها :

الدليل الأول :

إن من يقرأ سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويتدبرها بإمعان وإنصـاف من حين ولادتـه إلى حين وفـاتـه ، يعلم علم اليقين جازماً لا سبيل إلى الريب فيه ، أنه كان صلى الله عليه وسلم صادقاً في نبوته ورسالته ، وذلك أنه قد عرف منذ طفولته ونعومة أظفاره حتى آخر لحظة من حيـاته ، أنه نشأ أوحد الناس عفة ، وأشرفهم قصداً ، وأحكمهم كلاماً ، وأصدقهم حديثاً ، وأسماهم أمانة وسيرة ، قد جمع كل خلال الخـير من الحلم والصبر والمروءة والشكر والعدل والنزاهة والتواضع والشجاعة والحياء والسخاء والوفاء ورجاحة العقل والصدق والأمانة ،

ولم يجربوا عليه كذباً قط ، حتى أن أعداءه المشركين لم يتهموه بكذب ، بل شهد له خصومه بصدق الحديث وكمال الأمانة .

وإلى القارىء أمثلة من شهادة الخصوم بصدقه واعترافهم بأمانته :

أ - أخرج الشيخان والترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما نزلت : **(وأنذر عشيرتك الأقربين)** صعد النبي صلى الله عليه وسلم على الصفا ، فجعل ينادي : « يا بني فهر ، يا بني عدي ، لبطون قريش حتى اجتمعوا فقال : أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم ، أكنتم مصدقي ؟ قالوا : نعم ، ما جربنا عليك إلا صدقاً ، قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، قال أبو لهب : تباً لك يا محمد ، ألهذا جمعتنا » ، فنزلت : **(تبت يدا أبي لهب وتب)** .

ب - أخرج البيهقي عن المغيرة بن شعبة قال : إن أول يوم عرفت فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أني أمشي أنا وأبو جهل في بعض أزقة مكة إذ لقينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله لأبي جهل : يا أبا الحكم هلم إلى الله ورسوله ، أدعوك إلى الله ، فقال أبو جهل : يا محمد هل أنت منته عن سب آلهتنا ، هل تريد إلا أن نشهد أنك قد بلغت ، فنحن نشهد أنك قد بلغت ، فوالله لو أني أعلم أن ما تقول حق لاتبعتك ، فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأقبل علي فقال : والله إني لأعلم أن ما يقول حق ولكن يمنعني شيء ، أن بني قصي قالوا : فينا الحجاب ، فقلنا : نعم ، ثم قالوا : فينا السقاية ، فقلنا : نعم ، ثم قالوا : فينا الندوة ، فقلنا : نعم ، ثم قالوا : فينا اللواء ، فقلنا : نعم ، ثم أطعموا وأطعمنا حتى إذا تحاكت الركب قالوا : منا نبي ، والله لا أفعل ، وأخرجه ابن أبي شيبة بنحوه .

ج - روى البخاري ومسلم قصة أبي سفيان عند هرقل كما حدَّث بها أبو سفيان ابن عباس ، ومنها سؤال هرقل لأبي سفيان هذا ، قال : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ، قلت : لا ، وفي آخر القصة يقول هرقل لأبي سفيان : وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل

أن يقول ما قال ، فزعمت أن لا ، فعرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ، ويكذب على الله تعالى .

ومن هنا استدلت خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها ، حينما جاءها صلى الله عليـه وسلم راجعاً من غار حراء على حفظ الله له من مس الشياطين ، وحفظه من إخزاء الله له حينما أخبرها بما أقرأه ملك الوحي (**اقـرأ باسم ربك الذي خلق**) حتى بلغ (**مالم يعلم**) وقال : وقد خشيت على نفسي ، فقالت له : كلا ، أبشر ، فوالله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ... إلخ ، تعني رضي الله عنهـا أن من كان مطبـوعـاً على تلك الصفـات ، وأعظمها صدق الحديث ، لا يخزيه الله ، ولا يسلط عليه الشيطان ، بل يكون مصوناً ، مهابا ، ومختاراً لأمر عظيم يراد به .

د ـ شهادة الأتبـاع : إن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكـونوا أغراراً ولا مغفلين ، بل أثبت التاريخ من أفعالهم وأقوالهم أنهم أرجـح النـاس عقـولاً ، وأكثرهم دهاء وحنكة بالرجال والشعوب وسياسة الأمم ، بدليل أنهم نجحوا رغم محدودية وسائلهم بفتهم أعظم الدول المتحضرة وقتذاك ، وإدارتها ، وكسب مودة شعوبها ، ودمجهم بعـد ذلك في الأمـة الإسلامية ، فإذا ما اجتمعت هاتان الناحيتان ، الخلطة الدائمـة ، وذكاء المخالطين ، فإن أمر الكاذب يفتضح ، وأمر الصادق يتضح ، ولكنهم كانوا كلما ازدادوا برسول الله خلطة ، ازدادوا به إيماناً وتصديقاً ، بل أكثرهم اختلاطاً به أكثرهم إيماناً به وطاعة له ، وقد بلغ هذا معهم ، لدرجة أن أصبح الموت من أجل مايريده الرسول أحب إليهم من الحياة ، وإنفاق المال أحب إليهم من إمساكه ، والطاعة أحب إليهم من المعصية ، ودين الرسول أحب إليهم من الأموال والأولاد والمساكن والزوجات والوطن (١) ، إذ لولا إيمانهم الراسخ وحبهم الكامل لله ولرسوله لما فعلوا ذلك ، بل أعظم من ذلك أن منهم من قتل أباه ،

(١) والدليل على ذلك ، أن الصحابة رضوان الله عليهم هاجروا إلى الحبشة ، وهاجروا إلى المدينة المنورة ، وتركوا أموالهم ووطنهم ، وكثير منهم ترك عياله وزوجته ، فلم يبالوا في سبيل حب الله ورسوله بالمال ولا بالعشرة ولا بالوطن .

وأراد الأب قتل ابنه ، وإن أردت توضيحاً أكثر لتكون كشاهد عيان ، فاسمع ما أتلوه عليك :

لما أسلم بلال ، وكان من السابقين إلى الإسلام ، وكان رقيقاً لأمية ابن خلف ، فاشتد غضب ذلك اللئيم ، وأخذ يعذب بلالاً بصنوف العذاب الأليم ، فكان يضربه ضرباً مبرحاً ، ويخرجه إذا حميت الظهيرة بعد أن يجيعه ويعطشه يوماً وليلة ، فيطرحه على ظهره في الرمضاء إذا اشتدت حرارتها ، بحيث لو وضعت عليه قطعة لحم لنضجت ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة توضع فوق صدره ، ثم يقول له : لا تزال هكذا حتى تموت ، أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى ، فيأبى ذلك ويقول : أحد أحد ، فكان يعطيه للولدان ، فيربطونه بحبل ، ويطوفون به في شعاب مكة ، وهو يقول : أحد أحد ، فيمزج مرارة العذاب بحلاوة الإيمان ، حتى مر به أبو بكر وهو يعذب ، فبادل سيده بعبد لأبي بكر ، وأنقذه من رق أمية ابن خلف وأعتقه .

كما عذب المشركون حمامة أم بلال ، فاشتراها أبو بكر وأعتقها ، وكان من المعذبين أبو فكيهة ، وكان عبداً لصفوان بن أمية ، فكان صفوان يربط برجله حبلاً ، ويجره في نصف النهار في شدة الحر مقيداً إلى الرمضاء ، فيضع على بطنه صخرة فيخرج لسانه من شدة العذاب ، وكان أمية بن خلف والد صفوان يقول له : زده عذاباً حتى يأتي محمد فيخلصه بسحره ، فاشتراه أبو بكر فأعتقه .

وأما تعذيبهم لعمار بن ياسر ، وأبيه ياسر ، وأمه سمية ، وأخيه عبد الله ، فكان يعذبونهم أشد العذاب مرة بالنار ، ومرة بالضرب ، وغير ذلك من أنواع العذاب ، لأجل أن يخرجوهم من دين الإسلام ، فمر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : صبراً آل ياسر ، فإن موعدكم الجنة ، فمات ياسر في العذاب ، وأعطيت سمية أم عمار لأبي جهل يعذبها ، وكان الذي أعطاها له عمه أبو حذيفة بن المغيرة ، لأنها كانت مولاته ، فأخذها أبو جهل وعذبها تعذيباً شديداً رجاء أن يفتنها في

دينها ، فلم تجبه لما يسأل ، ثم طعنها في فرجها بحربة فماتت ، وكان أبـو جهل يلبس عماراً درعاً من حديد في اليوم الصائف شديد الحر ويطرحه في الرمضاء .

وأمـا خباب بن الأرث ، فكان يعذب بالنار ، فكانوا يوقدون النار ويضعونها على ظهره ، فما يطفيها إلى ودك ظهره ، أي شحم ظهره ، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم وهو متوسد ببردة في ظل الكعبة وقال : يا رسول الله ألا تدعو الله لنا ؟ فقعد رسول الله صلى الله عليه وسلم محمـراً وجهـه فقال له : إنه كان من قبلكم ليمشط أحدهم بأمشاط الحـديـد ما دون عظمه من لحم وعصب ، ما يصرفه ذلك عن دينه ، ليـظهـرن الله الأمـر حتى يسـير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ، لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه .

هـ - تعذيبهم لأبي بكر : خرج أبو بكر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من دار الأرقم حتى أتوا المسجد ، فقام أبو بكر في الناس خطيباً (١) ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس ، ودعا إلى الله ورسوله ، وهو أول خطيب في الإسلام ، فثار المشركون على أبي بكر وعلى المسلمين ، فضربوهم ضرباً شديداً ، ووطىء أبو بكر بالأرجل ، وضرب ضرباً شديداً ، وصار عتبة بن ربيعة يضرب أبا بكر بنعلين مخصوفتين على وجهه ، حتى صار لا يعرف أنفه من وجهه ، فجاءت بنو تيم يتعادون ، فأجلت المشركين عن أبي بكر إلى أن أدخلوه منزله ، ولا يشكون في موته ، فرجعوا إلى المسجد فقالوا : والله لئن مات أبو بكر

---

(١) أيها القاريء الكريم ، تأمل ما حصل لأبي بكر من قريش ، فسيتضح لك وضوحاً لا لبس عليه تصديق أبي بكر الكامل لرسول الله ﷺ ، وإيمانه الراسخ ، إذ لو لم يعتقد صدق رسول الله في نبوته ورسالته ، لما آمن به قبل كل رجل حر ، بل بلغ من رسوخ إيمانه أن لم يكتف بإسلام نفسه ، بل أصبح داعياً إلى الدين وإلى التصديق بالنبي الأمين ، ويعلم أبو بكر قلة عدد المسلمين حينذاك ، وضعفهم وعدم نصير لهم إلا الله ، ومشركو مكة من رؤسائهم وغيرهم ، أجمعوا على تكذيب رسول الله ، وإعلان العداء له والسخرية والاستهزاء بالرسول وبأصحابه ، وصب العذاب عليهم ، فما بال أبوبكر بكل هذا ، حتى وقف خطيباً يدعو إلى الإسلام ، فنال ما نال من العذاب الكثير والعذاب الشديد ، وأغمى عليه حتى آخر النهار ، وعندما أفاق لم يهتم بنفسه ولا بما أصابه ، بل قال : ما فعل رسول الله ﷺ ؟ ، ثم حلف أن لا يذوق طعاماً ولا شراباً حتى يأتي رسول الله ، فقل لي بربك من يساوي أبا بكر في هذه المنقبة الجليلة ، بغض النظر عن سائر مناقبه رضى الله تعالى عنه ؟ .
ولا عجب فقد ورد : لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان الأمة لرجح إيمان أبي بكر ، فهل مثل هذا الرجل العظيم الممتليء إيماناً وحباً لله ولرسوله الكريم ، يقال في حقه أنه كان منافقاً كما يقول الشيعة ، وأنه لم يكن مؤمناً إيماناً صحيحاً ؟ ما الذي دفع أبا بكر أن يعرض نفسه للعذاب وللهلاك لو لم يدفعه إيمانه ؟ لا يظهر الرجل النفاق إلا في وقت يكون النصر لخصمه ، فمن جبنه ولؤمه يظهر النفاق ليسلم على نفسه ، فأين القوة إذ ذاك لرسول الله والسلطان والسيطرة حتى يروج النفاق ؟ ، ولهذا لما هاجر النبي إلى المدينة ، وكثر أصحابه ، وصارت له قوة ، حصل النفاق من بعض الأنصار ، ولم يحصل النفاق من قريشي قط .

لنقتلن عتبة ، ثم رجعوا إلى أبي بكر ، وصار والده أبو قحافه وبنو تيم يكلمونه فلا يجيب ، حتى إذا كان آخر النهار تكلم وقال : ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فعذلوه فصار يكرر ذلك ، فقالت أمه : والله مالي علم بصاحبك ، فقال : اذهبي إلى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه ، وأم جميل هي أخت عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، كانت أسلمت وتخفي إسلامها ، فخرجت أم أبي بكر إليها وقالت لها : إن أبا بكر يسأل عن محمد بن عبد الله ، فقالت : لا أعرف محمداً ، ولا أبا بكر ، ثم قالت لها : أتريدين أن أخرج معك ، قالت : نعم ، فخرجت معها إلى أن جاءت أبا بكر ، فوجدته صريعاً فصاحت وقالت : إن قوماً نالوا هذا منك لأهل فسق ، وإني لأرجو أن ينتقم الله منهم ، فقال لها أبو بكر : ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالت له : هذه أمك تسمع ، قال : فلا عين عليك منها ، قالت : سالم ، قال : أين هو ؟ قالت : في دار الأرقم ، فقال : والله لا أذوق طعاماً ولا شراباً أو آتي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمهلته أمه حتى هدأت الرجال وسكن الناس ، خرجت به أمه يتكيء عليها حتى دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرق له رقة شديدة ، وأكب عليه يقبله ، وأكب عليه المسلمون كذلك ، فقال أبو بكر : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، ما بي من بأس إلا ما نال الناس من وجهي ، وهذه أمي برة بولدها ، فعسى الله أن يستنقذها بك من النار ، فدعا لها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودعاها إلى الإسلام ، فأسلمت .

وهذه الأمثلة التي ذكرتها عن أولئك الأصحاب ، الذين تقبلوا صنوف العذاب والهوان من كبراء قريش ، وصبروا على ذلك الأذى ، وصمدوا أمام جبروت أولئك المتغطرسين ، فما استكانوا وما ضعفوا ، بل كانو يعلنون التوحيد والإسلام في حالة التعذيب ، كل مثال منها يدل على كمال تصديقهم بالرسول العظيم ، لثبوت صدقه عليه الصلاة والسلام عليهم ، فلو لم يكن لديهم صادقاً في دعواه النبوة والرسالة ، لما آمنوا به ، ولما صبروا على ما أوذوا ، بل بلغ من تصديق أصحاب

رسـول الله وحبهم له ، أنهم كانوا يفدونه بأنفسهم وأموالهم ، ويقتل بعضهم قريبه في ساحة الجهاد طاعة لله ولرسوله ، فلو لم يكن لدينا من الأدلة على صدق نبوته إلا هذا الدليل الباهر وهو : أنه صلى الله عليه وسلم من حينما بدأ ينطق في صغره ، لم يجرب عليه قومه كذبة ، أو يعرفوا عنه زلة أو هفوة ، لكفى .

قال محمد أحمد جاد المولى : ولو عرفوا شيئاً من ذلك ، أي من كذبة أو زلة أو هفـوة ، ما وسعه أن يسفه أحلامهم ، ويسب آلهتهم غير خائف مما يخجله ، فإن الـكذب يحط من قـدر الإنسان في نفسه وعند غيره ، على أن الكذاب لا يمكن أن يكون مصدراً للكمال ، مرشداً إلى سني الخصال .

أضف إلى ذلك أنـه أنذر بلسان القرآن الكريم الكاذبين بالوعيد الشديد ، ولا يقع ذلك إلا من صادق امتلأ قلبه ، وفاضت نفسه بما يخبر به إلى حد يفوق الوصف ، ويخرج عن نطاق البيان .

على أن الذين عاشروه قد شاهدوا في كلامه وحركاته وأفعاله ما ملأ قلوبهم يقيناً ، بأنه صادق جاء بخبر من ربه بوحيه ، ومن ذلك أن بعض الأعراب أسلم حين رآه ، وقال : « والله ما هذا الوجه بوجه كذاب » .

لم يعرف في السنن الإلهية أن الله يؤيد في دعوى النبوة كاذباً ، أو ينصر مبطلاً ، ففي ذلك الضرر العظيم ، وقد قال السيد المسيح عليه السلام : « سيظهر بعدي أنبياء كذبة » ، فقيل ما علامتهم ؟ فقال : « علامتهم أن الله لا يؤيدهم » .

وقـد شـهـد الأعداء أن محمداً عليه الصلاة والسلام أوتي من النصر ، ما لم يؤته أحد من قبله ولا من بعده ، ومن ظن أن الله نصره وأيده مع كونه مبطلاً ، فقد جهل ما يليق بصفات الله تعالى وسنته في خلقه ، وأساء الظن بعدالته وحكمته إساءة كبرى ، هل يستطيع الكاذب أن يخفي حاله طيلة حياته على الناس عامتهم وخاصتهم ؟ كلا ، فإن الرياء طلاء كاذب ، لا يلبث أن تقضي عليه حوادث الأيام ، وبخاصة إذا كان لصاحبه أعداء يحصون هفواته وسقطاته .

لا يستطيع كاذب (١) أن يخاطب اليهود ـ والتوراة بين أيديهم ـ بقوله على لسان القرآن : (**الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل**)(٢) ، ثم يوبخهم ويقرعهم بأنهم يجدونه فيها ، وأنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وليس من المتصور أن يجترىء على ذلك وهو يعلم كذب نفسه ، والكاذب ضعيف حتى عند نفسه (٣) .

فإذا كان الرسول صادقاً ومجمعاً على صدقه حتى اعترف أعداؤه ، فمن البعيد غاية البعد ، ومن غير المعقول ، أن يمتنع عن الكذب على الناس ثم يكذب على الله ، ويدعي بأنه أرسله الله إليهم كافة ، وهذا أمر يسلم به العقل وكل منصف .

وأما رجاحة عقله صلى الله عليه وسلم ، فقد أجمع الموافق والمخالف ، على أنه كان عليه الصلاة والسلام أرجح الناس عقلاً ، وأكملهم سياسة ونبلاً ، يدلك على ذلك أنه لما بلغ من العمر خمساً وثلاثين سنة ، تصدعت الكعبة ، واختل بنيانها من جراء السيول الكثيرة بسبب كثرة الأمطار وغزارتها ، وجددت قريش بناء الكعبة ، فلما بلغ البنيان موضع الحجر الأسود ، اختصمت قريش في نقل الحجر الأسود إلى موضعه ، تريد كل قبيلة منهم أن تختص برفعه ، واستعدت كل قبيلة منهم للقتال ، ومكث النزاع بينهم أربعة أيام ، ثم اجتمعوا في المسجد الحرام ، فقال أبو أمية بن المغيرة ، وكان أسن قريش : اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضي

---

(١) قال الكاتب الإنجليزي المعروف «كارليل» : إنه لا يمكن أن يكون محمد كذوباً ، فإنه إن كان كذلك ، فلا يستطيع أن يأتي بمثل هذا الدين العجيب ، والله إن الرجل الكاذب لا يستطيع أن يبني بيتاً من اللبن إذا لم يكن عليماً بمواد البناء على اختلاف أنواعها ، فما بالك بمواد بناء صرح شامخ البنيان مدعم الأركان مثل دين الإسلام ، الذي ظل على قوته وعظمته قروناً طوالا . أ ـ هـ ـ من كتاب الإسلام والرسول للمؤلف .

(٢) سورة الأعراف : الآية ١٥٧ .

(٣) أ . هـ من محمد المثل الكامل .

بينكم ، فاتفقوا على ذلك ، فكان أول داخل منه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رأوه قالوا : هذا الأمين رضينا ، هذا محمد ، فلما انتهى إليهم ، أخبروه الخبر ، فوضع صلى الله عليه وسلم إزاره وبسطه في الأرض ، فأخذ الحجر الأسود فوضعه فيه بيده ، ثم قال : لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم ارفعوه جميعاً ففعلوا ، فكان في ربع عبد مناف عتبة بن ربيعة ، وكان في ربع بني مخزوم زمعة ، وكان في الربع الثالث أبو حذيفة بن المغيرة ، وكان في الربع الرابع قيس بن عدي ، حتى إذا بلغوا به موضعه ، وضعه صلى الله عليه وسلم في محله بيده الشريفه (١) .

فانظر ـ رعاك الله ـ كيف فض النزاع ، وقضى على الخلاف ، وحقن الدماء التي كادت أن تسيل من جراء النزاع والخصام والشقاق بحكمته (٢) البالغة ، وسياسته الحكيمة ، ونظره الصائب ؟ ، وأصبحت قريش تنظر إليه نظرة ملؤها الإجلال والاحترام ، لما رأوا فيه من خلال حميدة ، وأخلاق عظيمة ، وعقل وافر .

وأما صفة الأمانة ، فقد اشتهر بها عليه الصلاة والسلام ، وأصبح مضرب الأمثال ، واتفقت عليها كلمة الأعداء والأحباء ، وإن شئت الدليل فإليك البيان :

ذكر أهل السير والتواريخ ، وأعني من كتب في سيرته صلى الله عليه وسلم ، أن قريشاً مع شدة مخالفتهم له ، والكفر بما جاء به ، وعنادهم وعداوتهم ، عداوة بلغت على أنهم عزموا على الفتك به ، فأنجاه الله من كيدهم بالهجرة إلى المدينة ، وبالرغم من ذلك كله ، فقد كانوا يودعون لديه الودائع ، ويأتمنونه على أموالهم ، حتى أنه عليه الصلاة والسلام أمر علي بن أبي طالب أن ينام على فراشه ليلة أن أراد الهجرة ، وأن يسلم الودائع لأربابها ، وإذا كانت الأمانة قد بلغت تلك الدرجة العالية حتى أصبح موثوقاً به ، ومؤتمنا عند الموافق والمخالف ، فمن غير المعقول

---

(١) أ . هـ من حياة سيد العرب ج ١ .

(٢) الجار والمجرور متعلق بقوله فض النزاع .

إذاً أن يخون الله ، ويكذب عليه ، ويدعي أنه مرسل منه إلى الأنام ، وهو كاذب خائن حاشاه من ذلك ، وبرأه الله مما هنالك .

الدليـل الثـاني :

هو أنه عليه الصلاة والسلام ، لما أخبر قريشاً بنزول الوحي عليه ، وأنه نبي مرسل إليهم ، بادر إلى تصديقه والإيمان برسالته أقرب الناس إليه صحبة وأعلمهم به ، وأمسهم قرابة ، فأول من أسلم من الرجال الأحرار أبوبكر الصديق ، صحب النبي قبل البعثة عشرين سنة ، وعمره إذ ذاك ثمان عشرة سنة ، ومن النساء خديجة بنت خويلد زوجته التي عاشرته مدة خمس عشرة سنة قبل أن يبعث ، ومن الغلمان علي بن أبي طالب ، ومن الأرقاء بلال ، ومن الموالي زيد بن الحارثة ، كما أسلمت أم أيمن بركـة بنت ثعلبـة مولاة النبي وحـاضنتـه ، وأم رومـان زوجـة أبي بكر ، وأم الخـير بنت صخر بنت عامر والدة أبي بكر الصديق ، وأسماء بنت أبي بكر (١) .

---

(١) ذكرت هؤلاء السابقين إلى الإسلام ، ولم أذكر عثمان ، وعمر ، والزبير ، وعبد الرحمن ابن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وغيرهم ، لأن أولئك كانوا أسبق من هؤلاء إلى الإسلام ، وكان لهم من الخلطة والصحبة والمعاشرة ما ليس لهؤلاء ، فأبو بكر رضي الله عنه صحب الرسول قبل البعثة عشرين سنة ، وعرف من صفاته وأخلاقه ما لم يعرفه الكثيرون ، وإن كان الرسول ﷺ على وجه الإجمال والعموم معروفاً لدى قريش بحسن السيرة والصدق والأمانة ، لكن معرفة أبي بكر لصحبته الطويلة أكثر ، وكذلك علي بن أبي طالب لأنه تربى في بيت النبي ، وحسبك معرفة زيد بن حارثة الذي اختار الرسول على أبيه وعمه ، لأنه أخذ عنده مدة طويلة قبل أن يأتي أبوه وعمه ، وشاهد من سيد العالمين الخلال الحميدة والصفات السنية ، ما ملك عليه مشاعره ، وعرف أنه الصادق المصدوق ، إذ من غير المعقول على ذلك العظيم أن يتدنس بأقذار الكذب .

فإن قيل : قد يهب الله بعض النـاس من الأخلاق الفاضلة ، والسيرة الحسنة ، والمعـاشرة الطيبة ، ما تنجذب إليه الأفئدة ، ويصبح موضع الاحترام والإجلال ، وتصديقه فيما يقول ، ولا يلزم من اجتماع هذه الأوصاف أن يكون نبياً .

فمبادرة أبي بكر الصديق ، وهو من عرفت صحبته الطويلة لمحمد ابن عبد الله قبل أن يرسل لدليل على صدق النبي ، وقل مثل ذلك في إسلام زوجته البرة الطاهرة خديجة بنت خويلد ، إذ مهما خفيت أخلاق الزوج السيئة على الغير ، كالكذب والنفاق وحب الشهرة والدجل ، لا تخفى على زوجته التي عاشرته تلك السنين ، وبالطبع أن كل واحد من الزوجين يعرف أخلاق الثاني ما لا يعرفه غيره ، وكذلك علي بن أبي طالب الذي رباه النبي في حجره ، وهو الذي قام بتربيته ، لا تخفى عليه سيرة الرسول وأخلاقه ، وأضف إلى هؤلاء زيد بن حارثة الذي كان مملوكاً لخديجة بنت خويلد ، فوهبته للرسول ، وكان قد نهبه بعض العرب وهو صغير فباعه في سوق عكاظ ، ولما جاء أبوه وعمه يريدان أن يفدياه من الرسول ، خيره بأن يختار أباه وعمه أو يختاره ، فقال زيد : ما أنا بالذي أختار عليك أحداً .

فسبق هؤلاء إلى الإسلام ، والتصديق برسالة سيد الأنام ، وهم الذين صحبوه وعاشروه ، وعرفوا مدخله ومخرجه ، وعرفوا سيرته الطاهرة ، وأخلاقه الكريمة ، لدليل على ما قلناه ، إذ العادة الجارية ، والعقل حاكم ، أن من أتى بدعوى النبوة والرسالة ، بل بدعوى العلم والفضل أو الصلاح والديانة ، فإنه وإن راجت دعايته الكاذبة ، وأذعن لها من لا يعرفه حق المعرفة من البعداء ، فليس من شك أن لا تروج

= فالجواب من وجهين : الأول : لم تجتمع الفضائل عارية من النقائص لبشر كما اجتمعت للنبي ﷺ ، وقد أحسن من قال :

فإن فضل رسول الله ليس له حد فيعرب عنه ناطق بفم
فاق النبيين في خلق وفي خلق ولم يدانوه في علم وفي كرم

الثاني : إن من أكبر دعائم الأخلاق الفاضلة الصدق والأمانة ، فلا يمكن أن يكون الرجل فاضل الأخلاق ، صادق اللسان ، حسن السيرة والشمائل ، موضع الثقة والاحترام ، ويدعي كذباً وافتراء على الله جل جلاله ، أنه أوحي إليه وتوجه بتاج النبوة والرسالة ، ولا أظن أحداً يستريب في ضعف هذا السؤال ، وصحة الجواب القاطع لعرق كل مشاغب ومرتاب .

دعايته على أقربائه وأصدقائه الذين صحبوه منذ الصغر ، وعرفوا منه كل صغيرة وكبيرة من أخلاقه وأعماله ، وعليه فقد اتضح أن مبادرة هؤلاء إلى الإيمان برسالته ، لمن أقوى البراهين على أنه صلى الله عليه وسلم كان صادقاً في دعوى النبوة والرسالة ، إذ ليس من المعقول أن لا يعرف أولئك الأجلاء مع طول الصحبة صدقه ، ويؤمنوا به ، أو يعرفوا كذبه فيتبعوه ، إن هذا من البطلان بمكان سحيق .

الدليل الثالث :

أنه قد عارضه أقرباؤه وأهل بلده أولاً ، ثم سائر أهل الأرض وقفوا معه موقف العناد تارة ، والاستهزاء والسخرية حيناً ، وصبوا عليه أنواعاً من العذاب (١) وعلى أصحابه حينما كان بمكة المكرمة ، كما

(١) وإلي الواقف بعض أنواع العذاب الذي حصل من قريش لمن جاءهم يخرجهم من الظلمات إلى النور :

١ - عن ابن أبي شيبة عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال : ما رأيت قريشاً أرادوا قتل النبي إلا ائتمروا به وهم جلوس في ظل الكعبة ، ورسول الله يصلي عند المقام ، فقام إليه عقبة بن معيط فجعل رداءه في عنقه ثم جذبه حتى وجب لركبتيه ساقطاً ، وتصايح الناس فظنوا أنه مقتول ، فأقبل أبو بكر رضى الله عنه يشتد حتى أخذ بضبعي رسول الله ﷺ من ورائه ويقول : «أتقتلون رجلا يقول ربي الله» ، ثم انصرفوا عن النبي ﷺ ، فصلى ، فلما قضى صلاته مر عليهم وهم جلوس في ظل الكعبة . فقال : يا معشر قريش ، أما والذي نفس محمد بيده ، ما أرسلت إليكم إلا بالذبح ، وأشار بيده إلى حلقه ، فقال أبو جهل : ما كنت جهولا ، فقال له رسول الله : «أنت منهم» .

٢ - وأخرج البيهقي عن عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما قال : لما مات أبوطالب ، عرض لرسول الله ﷺ سفيه من سفهاء قريش ، فألقى عليه تراباً ، فرجع إلى بيته ، فأتت امرأة من بناته تمسح عن وجهه التراب وتبكي ، فجعل يقول : أي بنية ، لا تبكين ، فإن الله مانع أباك .

٣ - وأخرج البزار والطبراني عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : بينما رسول الله ﷺ في المسجد ، وأبو جهل بن هشام ، وشيبة وعتبة ابنا ربيعة ، وعقبة ابن أبي معيط ، وأمية بن خلف ، ورجلان آخران ، كانوا سبعة وهم في الحجر ،

رغبوه تارة أخرى في المال أو الملك والسيادة على أن يترك هذه الدعوة ، فلم يكن منه إلا الثبات وقوة الجنان والصدع بالحق أمام جميع (١)

ورسول الله ﷺ يصلي ، فلما سجد أطال السجود ، فقال أبو جهل : أيكم يأتي جزور بني فلان ، فيتأتينا بفرثها ، فنكفئه على محمد ﷺ ، فانطلق أشقاهم عقبة بن أبي معيط فأتى به فألقاه على كتفيه ورسول الله ﷺ ساجد ، قال ابن مسعود : وأنا قائم لا أستطيع أن أتكلم ، ليس عندي منعة تمنعني ، فأنا أذهب إذ سمعت فاطمة بنت رسول الله ﷺ فأقبلت حتى ألقت عن عاتقه ، ثم استقبلت قريشاً تسبهم ، فلم يرجعوا إليها شيئاً ، ورفع رسول الله ﷺ رأسه كما كان يرفعه عند تمام السجود ، فلما قضى ﷺ صلاته قال : «اللهم عليك بقريش ثلاثاً ، عليك بعتبة ، وعقبة ، وأبي جهل ، وشيبة» ، ثم خرج من المسجد فلقيه أبو البختري بسوط يتحضر به ، فلما رأى النبي ﷺ أنكر وجهته فقال : ما لك ؟ فقال النبي ﷺ : «خل عني» . قال : علم الله لا أخلي عنك ، أو تخبرني ما شأنك ؟ فلقد أصابك شيء ، فلما علم النبي ﷺ أنه غير مخل عنه أخبره فقال : إن أبا جهل أمر فطرح عليّ فرث ، فقال أبو البختري : هلم إلى المسجد ، فأتى النبي ﷺ وأبو البختري فدخلا المسجد ، ثم أقبل أبو البختري إلى أبي جهل فقال : يا أبا الحكم ، أنت الذي أمرت بمحمد ﷺ يطرح عليه الفرث ؟ قال : نعم ، قال : فرفع السوط فضرب به رأسه ، قال فثار الرجال بعضها على بعض ، قال : وصاح أبو جهل : ويحكم ، هي له ، إنما أراد محمد ﷺ أن يلقي العداوة بيننا ، وينجو هو أصحابه .

ما ذكرته مما ناله ﷺ من أذى قريش ، ما هو إلا نزر يسير من أعمالهم العدائية ، وسفاهتهم الجاهلية ، فلو لم يفعلوا إلا مقاطعتهم لبني هاشم وبني المطلب لما رأوا من حماية أبي طالب للنبي ، على أن لا ينكحوا إليهم ، ولا ينكحوهم ، ولا يبيعوا إليهم شيئاً ، ولا يشتروا منهم ، ولا يقبلوا منهم صلحاً أبداً ، حتى يسلموا رسول الله للقتل ، ومضت مدة ثلاث سنوات ، وبنو هاشم وبنو المطلب يقاسون من شُدة المقاطعة شيئاً عظيماً ، حتى أكلوا ورق الشجر من قلة وجود الطعام ، فلو لم يفعلوا إلا هذه المقاطعة اللئيمة الدالة على منتهى لجاجتهم وعنادهم وقطعهم للرحم ، وتحجر أفئدتهم ، وقسوة قلوبهم ، لكفى ، وأما ما أنزلوه على أصحابه من العذاب والأذى فقد ذكرت قطرة من بحر لجي تحت شهادة الأتباع التابعة للدليل الأول .

(١) ولما مضى رسول الله ﷺ يظهر دين الله الذي ارتضاه لعباده ، ويدعو إليه ، ولا يرده عن ذلك عناد المعاندين ، ولا ضلال المضلين ، ولا زيغ الزائغين ، اجتمعت أشراف قريش من كل قبيلة ، وقالوا : ابعثوا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر ، فليأت

محمداً الذي فرق جماعتنا ، وشتت أمرنا ، وعاب ديننا ، فليكلمه ولينظر ماذا يريد ؟ حتى نعذر إليه ، فقالوا : لا نعلم أحداً غير عتبة بن ربيعة ، وكان النبي جالساً في المسجد وحده ، فقام عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ ، فقال : يا ابن أخي ، إنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم ، أنت خير أم عبد الله ؟ أنت خير أم عبد المطلب ؟ إن كنت تزعم أنك خير منهم ، فقل يسمع لقولك ، لقد أفضحتنا في العرب حتى طار فيهم إن في قريش ساحراً ، وإن في قريش كاهناً ، ما تريد إلا أن يقوم بعضنا لبعض بالسيوف حتى نتفانى ، فاسمع مني ، أعرض عليك أموراً تنظر فيها ، لعلك تقبل منها بعضها ، فقال رسول الله ﷺ : قل يا أبا الوليد ، أسمع ، فقال : يا ابن أخي ، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً ، جمعنا من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت تريد شرفاً ، سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك رؤياً من الجن تراه ، لا تستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الطب ، وبذلنا أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى ، فقال له رسول الله ﷺ : لقد فرغت يا أبا الوليد ، قال : نعم ، قال : فاسمع مني ، قال : ففعل ، قال رسول الله ﷺ : **﴿بسم الله الرحمن الرحيم : حم ، تنزيل من الرحمن الرحيم ، كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون ، بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لايسمعون﴾** ومضى رسول الله ﷺ يتلو السورة عليه ، وعتبة بن ربيعة ملق يديه خلف ظهره معتمداً عليها ، يسمع منه إلى أن انتهى رسول الله ﷺ لقوله تعالى : **﴿فإن أعرضوا ، فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود﴾** فأمسك عتبة على رسول الله ﷺ ، وناشده الرحم أن يكف عن ذلك ، ثم انتهى إلى السجدة فيها فسجد ، ثم قال : قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت ، فأنت وذاك ، فقام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض يحلف : لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به ، فلما جلس إليهم : قالوا له : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال : ورائي أني سمعت قولاً ، والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالكهانة ، يا معشر قريش : أطيعوني ، فاجعلوها لي ، خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه ، فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ ، فإن تصبه العرب ، فقد كفيتموه بغيركم ، وإن ظهر على العرب فملكه ملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به ، قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه ، قال : هذا رأيي فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم ، ثم اجتمع أربعون رجلا من أشرفهم ، منهم : عتبة

وشيبة ابنا ربيعة ، وأبو سفيان بن حرب ، والنضر بن الحارث ، والوليد بن المغيرة ، وأبو جهل بن هشام ، وعبد الله بن أبي أمية ، وأمية بن خلف ، بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة ، فقال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد فكلموه ، وخاصموه حتى تعذروا فيه ، فبعثوا إليه ، إن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك ، فجاءهم رسول الله سريعاً ، وهو يظن أنه بدا لهم في أمره ببداء ، وكان حريصاً عليهم ، يحب رشدهم حتى جلس إليهم ، فقالوا له نحواً مما قال له عتبة بن ربيعة ، فقال رسول الله ﷺ : ما بي ما تقولون ، ما جئتكم به لأطلب أموالكم ، ولا للشرف عليكم ، ولا للملك عليكم ، ولكن الله بعثني إليكم رسولا ، وأخبرهم أن الله أنزل عليه كتاباً ، وأمره أن يكون بشيراً ونذيراً ، فبلغهم رسالة الله ، فإن يقبلوا فهو حظهم من الدنيا والآخرة ، وأن يردوا يصبر حتى يحكم الله بينه وبينهم وأنزل الله في ذلك ﴿**قل ما سألتكم من أجر فهو لكم ، إن أجري إلا على الله ، وهو على كل شيء شهيد**﴾ ، وهنا أظهروا عنادهم الكبير ، ولجوا في طغيانهم ، وطلبوا منه على وجه التحدي والتعجيز أن يسأل الله ليسير عنهم تلك الجبال التي ضيقت عليهم ، ويفجر لهم الأنهار ، ويبعث من مضى من آبائهم ، وليكن منهم قصي بن كلاب ، ليسألوه عما يقول محمد : أحق هو أم باطل ؟ ، وأجابهم النبي كالجواب السابق ، فطلبوا أن يسأل ربه أن يبعث ملكاً يصدقه ، ويجعل له جنات وقصوراً وكنوزاً من ذهب وفضة ليتعين بها على أمور معاشه ، لكي لايقوم بالأسواق يلتمس المعاش كسائر الناس ، فقال ﷺ : ما بعثت بهذا ، ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً ، فأنزل الله ﴿**وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ، لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً ، أو يلقى إليه كنز ، أو تكون له جنة يأكل منها ، وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً ، انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا ، فلا يستطيعون سبيلا ، تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار ، ويجعل لك قصوراً**﴾ ، ثم قالوا : فاسقط السماء كما زعمت ، إن ربك إن شاء فعل ، فقال ﷺ : ذلك إلى الله ، إن شاء فعل ذلك بكم ، فقال قائل منهم : لن نؤمن لك حتى تأتي لنا بالله والملائكة قبيلاً ، وهكذا أخذوا يتفننون بأنواع من التحدي والتعجيز ، ولم يكن هدفهم الحق والبحث عن الحقيقة وطلب الدليل ليؤمنوا ، ولكن كان قصدهم المشاغبة والعناد وعدم التزحزح عن دين الآباء والأجداد ، فلذا قالوا ما قالوا ، ونوعوا ما طلبوا وتكبروا ، وعتوا في أنفسهم عتواً كبيراً ، وانسلخوا من العقل والأدب ، وفاهوا بتلك الكلمات التي ملؤها الغطرسة والكبرياء حتى قالوا : لن نؤمن لك حتى تأتي لنا بالله والملائكة قبيلا ، فلولا ما بهم

العالم ، وهو مفرد فقير لا يملك درهماً ولا ديناراً ولا سلاحاً إلا سلاح الإيمـان ، والنـاس كلهم بضده وعلى خلاف دعوته ، فلم يتزلزل قيد أنملة ، ولم يجد الخوف إلى قلبه سبيلاً ، كما لم يتطرق اليأس إليه أبداً ، بل حينما كان مستضعفاً هو وأصحابه ، وكان المشركون يتفننون في تعـذيب أصحـابـه ، ويضعون العقبات في طريقه ، يبشر أصحابه بالنصر ، وأن العاقبة لهم مهما اشتد الأمر وتنوع العذاب ، فلو لم يكن رسـولاً من ربـه ، واثقـاً بصـدق رسالته ، لما صبر على هذا العذاب والاضطهاد ، ولما وعد أصحابه القليلين بالنصر والتأييد ، وأن الكلمة لهم ، وهـو يرى أن الدنيا كلها واقفة ضده ، اللهم إن هذا لا يفعله كذاب أبداً .

الدليـــل الرابع :

بعد أن أيده الله ونصره ، ودخل العرب في دين الله ، وبعد صيته ، ورجفت منه الملوك ، وأسس ديناً بوحي من الله ، ودولة مستقلة إسلامية بأمـر الله ، وجلبت إليـه غنـائم الجهاد ، وأعطى السائلين عطاء من لا يخشى الفقر ، فهل تبدلت سيرته من بعد الفقر والاضطهاد ، أم كانت سيرته سيرة أنبياء ، زاهداً في هذه الدنيا الفانية ، معرضاً عن زهرتها البـائـدة ، فلو كان كذاباً وحاشاه يريد حب الظهور والسيطرة والمال والجـاه ، لرأيتـه بعد الغناء والثروة والشوكة والسيادة ، يسير بسيرة

من داء الكبر والعناد والإباء ، لعرفوا أنهم أقل وأحقر من أن يكونوا أهلا لأن يروا الله والملائكة ، فإذا لم يره الأنبياء والأصفياء ، فكيف يراه هؤلاء الكفرة السفهاء ؟ ، ولا أخال أنهم أغبياء أو بلداء أو قاصرو الفهم عن إدراك قول الرسول ، أو ما أنزل إليه من ربه ، وهم يعرفونه حق المعرفة منذ نعومة أظفاره ، أنه الصادق والمصدوق ، وأنه من الصدق والأمانة بمكان مرموق ، وأن ما أنزل عليه فوق مستوى البشر ، ليس بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة ، وإنما هو كلام عربي مبين ، يعجز عن إتيان أقل سورة منه جميع الإنس والجن ، كما قال الله : **﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا﴾** أي نصيراً ومعيناً ، ولكن كما قلنا داء القوم العداء الشديد ، والحسد المكين ، وتقليد الآباء الميتين ، وكبرياء إبليس اللعين .

الملوك الظالمين ، يتفنن بلذات الدنيا وشهواتها ، ويتنوع في ترفها ونعيمها ، فهل كان شيءٌ من ذلك ؟ حاشاً ، وكلا .

الدليل الخامس :

أنه قد تحدى اليهود والنصارى ، وأخبرهم كما أخبره الله تعالى في كتابه ، أنهم يجدون نعته في كتبهم ، وأن الأنبياء الذين قبله قد بشروا به ، فهل أمكنهم أن يكذبوا ذلك ، بل آمن الكثيرون منهم ، وكفر من كفر منهم عناداً واستكباراً وتمويهاً على أن النبي المبشر به غير محمد صلى الله عليه وسلم .

ولا يخفى (١) أن محمداً صلى الله عليه وسلم في رجاحة عقله ، يستحيل أن يدعي البشارة به في التوراة والإنجيل ، ما لم يكن ذلك حقاً وصدقاً ، فإن كتب أهل الكتاب موفورة بين أيديهم ، فلو كان الأمر على غير ذلك لكان أبلغ منفر لهم منه ، وأعظم حجة يقيمونها عليه ، لكن إيمان هؤلاء وشهاداتهم بالتبشير به أمر جليل وبرهان ساطع على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد عدَّ الفخر الرازي البشارة به صلى الله عليه وسلم في التوراة والإنجيل من الدلائل العقلية على نبوته ، وبين أنه لا يعقل أن تصدر عنه دعوى البشارة به ، إلَّا أن تكون واقعة يقيناً ، فقال :

« ومعلوم أنه لو كان كاذباً في ذلك ، لكان هذا من أعظم المنفرات لليهود والنصارى عن قبوله ، ولا يليق بالعاقل أن يقدم على فعل يمنعه عن مطلوبه ، ويبطل عليه مقصوده من غير فائدة أصلاً ، ولا نزاع بين العقلاء أنه كان أعقل الناس وأحذقهم » اهـ (٢) .

الدليل السادس :

إن من أوضح الأدلة وأكبرها على صدق رسالته ، أنه نشأ يتيماً فقيراً بين قوم أميين ، لم يتفق مصاحبته لعالم ، أو دخول مدرسة ، أو

---

(١) بدء الكلام من نبوة محمد في القرآن .

(٢) من نبوة محمد في القرآن لحسن ضياء الدين عن الأربعين في أصول الدين للفخر الرازي .

مطالعة كتاب ، لأن الأمية كانت متفشية بين العرب ، والكتابة نادرة ، لا سيما في الحجاز ، وما دخلت الكتابة مكة إلا قبيل الإسلام بقليل ، وتعلمها أفراد قليلون بلغ عددهم سبعة عشر رجلاً ، ولم يكن النبي منهم ، ولم تكن بمكة مدرسة ولا عالم ولا معلم ولا حبر ولا راهب ، واشتهر عليه الصلاة والسلام بحسن السيرة والسريرة والصدق والعفاف والبعد عن كل نقيصة والاتصاف بكل فضيلة حتى بلغ الأربعين ، فنزل عليه الوحي المبين ، وأرسله الله إلى الناس أجمعين ، ولن يستطيع أحد أن يقول : إنه قد درس علماً أو صاحب عالماً أو رحل لطلب العلم ، وبالرغم من ذلك كله أتاهم بهذا القرآن المجيد ، وفيه من قصص الأنبياء والمرسلين ما لم يكن لليهود والنصارى أن يكذبوا بشيء من ذلك ، وأخبرهم بما هو منعوت في كتبهم موصوف بأوصاف ومنها الأمية ، كما قال الله تعالى : (**ورحمتي وسعت كل شئ فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة ، والذين هم بآياتنا يؤمنون ، الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل**) (١) ، فلم يستطيعوا أن يبرهنوا على كذبه ، بل لجأوا إلى العناد ، فلو لم يكن نبياً لما قال لهم واثقاً بما قال : إنكم تجدون أوصافي في كتابيكم وأنهما بشَّرا بي ، إذ لا يمكن لكاذب والحال أنه أمي يواجه علماء الديانتين بهذا التحدي السافر ، ولو لم يكن نبياً فمن أين أتى له هذاالكتاب الذي قد حوى مختلف العلوم والفنون ، وأتى بهذه الشريعة الغراء الوافية بحاجات البشر من العقائد والأحكام والآداب والأخلاق والعبادات والسياسة والاجتماع ، كما حوى ذلك الكتاب كثيراً من أنباء الغيب الماضية والمستقبلة ، مما يقطع العاقل بصدق الرسول ، ولا يجد الإنكار إليه سبيلا ، رسول وصفه الله بالأمية في قوله تعالى : (**والذين يتبعون الرسول النبي الأمي**) وفي قوله تعالى : (**وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون**)(٢) ، أي لو كنت يا محمد قارئاً وكاتباً ، لتسرب الريب

(١) سورة الأعراف : الآية ١٥٧ .

(٢) سورة العنكبوت : الآية ٤٨ .

والشك لأهل الباطل والضلال أن هذا الكتاب من تأليفه ، أو أنه قرأ كتب الديانتين وغيرها ، وجمع من هنا ومن هناك ، وأتى بهذا الكتاب ، وزعم أنه من وحي رب العالمين ، أما وأنت الأمي الذي لم تقرأ كتاباً ولن تقرأ ، ولم ولن تكتب ، ثم تأتيهم بهذا الكتاب العزيز ، وبهذه الشريعة السمحة الطاهرة ، التي تعترف العقول بحسنها ، فكيف يصح أن يكذبوك ، وأن ينسبوا إليك التهم كالسحر والكهانة والشعر والكذب والافتراء على الله ؟ ، وحاشاه من ذلك ، قال تعالى : (**فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ء أو كذب بآياته أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب**)(١) .

الدليــــل الســـــابع :

نقول لمنكري نبوته : بماذا تثبتون نبوة موسى وعيسى وغيرهما ؟ فإن قالوا : بسيرتهم الطاهرة وشمائلهم الفاخرة ، فالرسول صلى الله عليه وسلم قد فاقهم في هذه الصفات السنية ، وإن قالوا : بالمعجزات التي أيد الله بها موسى وعيسى وغيرهما ، قلنا لهم: كذلك قد أيد الله محمداً صلى الله عليه وسلم بمعجزات كثيرة ، بلغ مجموعها مبلغ التواتر الذي لا يمكن رده ولا الشك فيه ، كما بينته الكتب المؤلفة في دلائل النبوة ، على أنهم لو طعنوا في نبوة محمد بأن تلك المعجزات لم تثبت ، فبماذا يثبتون نبوة موسى وعيسى وغيرهما ؟ ، مع أنه لم يتفق لهما ولا لغيرهما ما اتفق له صلى الله عليه وسلم ، من ذلك التواتر الصحيح الإسناد في كل طبقاته ، وبماذا تحتج النصارى على اليهود ، الذين لا يصدقون بعيسى عليه السلام ولا يؤمنون بكتابه ؟ .

وأما فرض الاحتمالات ، بأنه يحتمل أن المعجزات التي أتى بها الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، كانت من قبيل السحر أو الشعوذة ، أو من قبيل المعونة لبعض الصالحين ، أو أن الناقلين لها لم يصدقوا في ذلك النقل ، أو كان عنده شيء من العلوم التي تعين على تلك الخوارق ، كما يفعله كثير من الدجاجلة والكذابين .

(١) سورة الأعراف : الآية ٣٧ .

فالجـــواب :

أولاً : قدمنا أن من تأمل سيرته صلى الله عليه وسلم ، عرف يقيناً أنه لم يكن ساحراً ولا كذاباً ولا دجالاً ولا كاهناً ، ولم يعهد أنه تعلم علماً كما أطبق عليه جميع الناس .

ثانياً : أن كل عاقل يميز بين سيرة الساحر والدجال والكذاب وبين سيرة النبي الصالح ، وكل إناء بما فيه ينضح ، فالنبي لا بد أن يأمر بما أمرت به الأنبياء من التوحيد والعدل والصدق ، ويخبر بيوم الجزاء وبمـا أعـد الله تعـالى للصالحين ، وما توعد به الكافرين والفاسقين ، والساحر لا يأمر بخير ، والدجال كذلك مثله لا يحوم إلا حول مال أو ريـاسة أو جاه أو منصب ، ولا بد أن يثبت كذب المتنبيء الكاذب ، وصدق النبي الصادق الصالح .

وأما طعنهم في النقل ، فقد قلنا : إنه قد ثبتت معجزاته بطريق الإسناد الصحيح وبالتواتر ، لأن كثيراً من المعجزات قد رواها العدول الثقات المجمع على حفظهم وضبطهم وأمانتهم ، مما لو انفرد بروايته طريق واحـد من تلك الطرق الصحيحـة لوجب قبـوله ، فكيف وقـد تعاضدت وتضافرت كلها على شيء واحد ، حتى بلغت مبلغ التواتر الذي لا يمكن رده ولا الشك فيه ، وكل ما يقال من الاحتمالات في معجزاته صلى الله عليـه وسلم أو في نبوته ورسالته ، يمكن لقائل أن يقول في إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم ، ومن يتتبع الاحتمالات ويسترسل فيها مع الشك ، فقلما يصل إلى الإيمان أو يظفر بإيقان ، وقد أنكر الملحدون وجود الله بناءً على تلك الاحتمالات ، وهو عز وجل أصل كل شيء ، وأظهر من كل شيء ، ولا يعقل بدونه وجود شيء ، ولا عجب في الناس فإن فريقاً يطعن في المحسوسات وهي هي ، ويقول : إنها لا تفيد العلم بناء على أن الحس كثـيراً ما يغلط ، فإنـك إن كنت في الباخرة رأيت الشاطئ جارياً ، وترى حبة العنب في الماء كبيرة ، إلى أمثال ذلك من غلط الحس .

الدليل الثامن :

ومن الأدلة على صدقه وكمال نفسه وعلوها ، وقوة رسوخه في صفات الكمال ، ونعوت الرفق والجلال ، ما كان حريصاً عليه أشد الحرص حتى كاد أن يهلك نفسه من أجله ، فقال له مولاه : (**فلا تذهب نفسك عليهم حسرات**) أي على فوات ما كان مهتماً به غاية الاهتمام ، من دعوة الناس إلى ما يسعدهم في دينهم ودنياهم ، وأخذه بيدهم إلى مكارم الأخلاق من كل باب ، ووضع القوانين العادلة والشرائع الفاضلة التي رفعت الأمة العربية من حضيض المهانة إلى أوج العز والرفعة ، وجعلتهم ملوكاً بعد أن كانوا سوقة لا يعبأ بهم ولا يلتفت إليهم أحد ، فأصبحوا بعد هذه التعاليم النبوية أرفع أمم الأرض على الإطلاق بعدما كانوا أحطها على الإطلاق ، فانظر رعاك الله بعين التدبر في نفس تكاد تهلك حرصاً على سعادة غيرها ، هل تكون نفساً دنيئة مظلمة كاذبة ساقطة ؟ ، كلا والله ثم كلا والله ، بل إن شئت فانظر وفقك الله إلى حاله يوم أحد ، وقد شجوا وجهه وكسروا رباعيته ، وفعلوا له ما يذهب بلب الحليم ورشد الحكيم ، وهو يقول : اللهم اغفر لقومي ، فإنهم لا يعلمون ، لتعلم ما مقدار تلك الرحمة التي لم تذهب بها تلك الأفاعيل الفظيعة ، وما مقدار ذلك الاتصاف التي لم تستأصله تلك الأعمال الشنيعة ، حيث يذكر عذرهم فيما فعلوه وهو في ذلك المقام بقوله : « اللهم اغفر لقومي ، فإنهم لا يعلمون » . اللهم إن ذلك لا يكون إلّا من نفس قد تخلصت من الحضوض البشرية ، وفنيت بالكلية في الأوامر الإلهية .

الدليل التاسع :

إخباره صلى الله عليه وسلم بالمغيبات وتنقسم إلى قسمين :

أولاً : إخباره بالأمور الغيبية على لسان القرآن الكريم ، الذي هو المعجزة العظمى .

ثانياً : إخباره بالمغيبات على لسانه صلى الله عليه وسلم .

أما القسم الأول : فقد جاء في القرآن أخبار غيبية كثيرة ، وأكتفى بالقليل خوفاً من التطويل ، وهاك البيان :

١ ـ قال تعالى : (**وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم**) (١) ، وقد تحقق هذا الوعد بخلافة الخلفاء الراشدين ، الذين فتحوا الممالك ، ونشروا الإسلام حتى تمكن في الأرض ، وصارت له القوة التي تخشاها أكابر الملوك .

٢ ـ وقال تعالى : (**آلم ، غلبت الروم ، في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون ، في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله**) (٢)، كانت الحرب بين الفرس والروم ، ولما انتصر الفرس فرح مشركو مكة ، لأن الفرس مجوس ليس لهم كتاب كالعرب ولا دين سماوي ، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على الفرس لأنهم أهل كتاب ، فذكروا انتصار الفرس على الروم للرسول صلى الله عليه وسلم ، فقال : « أما أنهم سيغلبون » فذكر أبو بكر للمشركين ، وحصل الرهان بينه وبينهم إلى أجل نهايته خمس سنوات على عدد معلوم من الإبل ، فلم ينتصر الروم بعد انتهاء

---

(١) سورة النور : الآية ٥٥ ، وهذه الآية من الأدلة الصريحة الصحيحة على صحة خلافة أبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، لأن في عصر الخلفاء الثلاثة ثم فتح العراق ، والشام ومصر ، وإيران ، وتمكن الدين الإسلامي ، وانتشر انتشاراً باهراً ، ودخل فيه ملايين من البشر ، كما أن في القرآن آيات عديدة في فضل الصحابة ، وبالطبع في مقدمتهم الخلفاء الراشدين .

(٢) كان الرهان قبل الهجرة ، وانتصر الروم في سنة الحديبية ، وكانت المراهنة قبل تحريم القمار ، والذي حصل بينه وبين وبين أبي بكر الرهان هو أبي بن خلف ، وكان الرهان قبلا على عشرة قلائص ، ثم طلب أبو بكر زيادة الأجل ، ويزيدهم في الرهان ، فتم الاتفاق على مائة قلوص ، والقلوص هي الناقة الشابة كالجارية من النساء ، والآيات من سورة الروم من ١ : ٤ .

المدة ، فذكر ذلك للرسول فقال : ألا جعلتها دون ؟ ، أراه قال : العشرة ، قال ابن جبير : البضع دون العشرة ـ ثم ظهرت الروم على الفرس ـ كما أخبر القرآن في قوله : (**وهم من بعد غلبهم سيغلبون**) ، فتحقق ما أخبر الله ورسوله من انتصار الروم على الفرس ، وكان ذلك قبل سنين من فتح مكة .

٣ ـ قال الله تعالى : (**سيهزم الجمع ويولون الدبر**) (١) وقال الله تعالى : (**وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين**)(٢) ، وتم ذلك يوم بدر ، وانتصر الرسول وأصحابه ، وأذل الله المشركين ، فقتل منهم سبعون ، وأسر سبعون .

٤ ـ وقال الله تعالى : (**لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون ، فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً**)(٣) .

فتحقق هذا الوعد للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه بدخول مكة معتمرين بعد صلح الحديبية بسنة ، وسميت عمرة القضاء(٤) .

٥ ـ تحدي القرآن للعرب بأن يأتوا بسورة من مثله : قال تعالى : (**وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا ، فأتوا بسورة من مثله ،**

---

(١) سورة القمر : الآية ٤٥ ، أي جمع المشركين ببدر .

(٢) سورة الأنفال : الآية ٧ ، الطائفتان هما العير التي كانت قادمة من الشام لقريش ويرأسها أبو سفيان بن حرب ، والجيش الذي جهزه أهل مكة لإنقاذ العير وقتال الرسول وأصحابه ، وكان كثير من المسلمين يودون أن يغنموا العير لما فيها من الأموال ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿**وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم**﴾ولكن الله أراد أن ينصر الرسول وأصحابه ، ويعلي كلمة الإسلام ، ويقطع دابر المشركين ، لهذا قذف في قلوب الفريقين حب القتال ، فجرت وقعة بدر ، وكان النصر حليف المسلمين .

(٣) سورة الفتح : الآية ٢٧ .

(٤) من كتاب (الإسلام والرسول في نظر منصفي الشرق والغرب) للمؤلف .

وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ، فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين)(١) .

فعليك أيها القاريء أن تنظر في هاتين الآيتين نظرة صادقة ، كيف ذكر عجزهم عن الإتيان بسورة من مثله فيما مضى وفيما سيأتي ، وذلك على سبيل القطع والجزم والتحدي السافر ، والمتحدون ملوك البيان وفطاحل البلاغة وأرباب الفصاحة والبراعة ، فلو لم يكن القرآن من كلام الله ، ولو لم يكن معجزة عظمى لرسول الله ، لما خاطب العرب بهذا الخطاب المعجز ، ولو لم يكن الرسول صادقاً في دعواه النبوة والرسالة ، لما بلَّغهم ما أنزل إليه ومنه هاتان الآيتان وأعلن عجزهم ، وهم مئات الألوف من البشر من أهل مكة وغيرها ، وهل ذلك إلا تعرض للخطر ، وإلقاء النفس إلى التهلكة لولا وثوقه بالله ، وإخباره عن الله ، ولقد كان صلى الله عليه وسلم في غنى عن ذلك ، وأنه لأ حزم وأعقل من أن يخاطر بمستقبله ، بالإخبار عن عجز البشر كلهم - بما فيهم العرب الفصحاء - في المستقبل من الزمان عن الإتيان بسورة مماثلة لسورة من سور القرآن ، وقد تحقق ذلك ، وعجز العرب عن الإتيان بسورة ولو قصيرة تضاهي سورة من سور القرآن ، ولما تحقق عجزهم ، وفشلوا في ميدان المعارضة والإتيان بما طلب منهم ، عدلوا إلى اللجاج والعناد ، ورضوا بسفك الدماء واغتنام الأموال ، ولو كانوا قادرين لعارضوه وأتوا بسورة من مثله ، ليقطعوا حجة الرسول عليهم ، ولكن لم يكن شيء من ذلك ، وكيف يمكن أن تحصل منهم المعارضة والإتيان بما طلب منهم القرآن ، وقد قال الله : (**قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولوكان بعضهم لبعض ظهيراً**)؟ (٢) .

---

(١) سورة البقرة : الآيتين ٢٣ - ٢٤ .
(٢) سورة الإسراء : الآية ٨٨ .

٦ ـ قوله تعالى : (**إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً ، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً**)(١) ، في هذه السورة الكريمة بشارة عظيمة للنبي صلى الله عليه وسلم ولأصحابه ، من أن الله يفتح له مكة المكرمة ، وينتصر على أهلها الذين طالما نصبوا له العداء ، وألبوا عليه الأعداء ، وفاهت ألسنتهم بالبغضاء ، وأعلنوا عليه حرباً شعواء ، وأن الناس سيدخلون في دين الله أفواجاً أفواجاً ، وذلك أن قبائل العرب في أرجاء الجزيرة العربية كانت تتريث بإسلامها فتح مكة ، يقولون : إن ظهر محمد على قومه فهو نبي ، ولذلك لما فتح الله مكة ، وأسلمت قريش ، بدأت القبائل تفد على رسول الله وتعلن إسلامها ، فهذه السورة إنباء بالغيب عما سيكون في المستقبل ، من انتصار الرسول على مشركي مكة ، ودخول الناس في دين الله أفواجاً أفواجاً ، بعدما كان يدخل في الإسلام الرجل والرجلان ، وبالفعل وقع كما أخبر القرآن ، وحصل النصر العظيم بفتح مكة المكرمة ، وانتشر الإسلام في ربوع الجزيرة كلها ، ولم يفارق النبي صلى الله عليه وسلم الدنيا إلا وقد عم الإسلام جميع الجزيرة العربية ، وصار للإسلام دولة قوية ترهبها الأعداء ، وتحسب لها ألف حساب وحساب .

وهذه السورة على وجازتها ، حوت أربعة أنباء غيبية عما سيكون في المستقبل :

أ – نصر الله لرسوله ولدينه على المشركين نصراً نهائياً ، لا يقوم بعده لمشركي العرب عموماً ولقريش خصوصاً قائمة .

ب – فتح مكة المشرفة التي كان أهلها كالعقبة الكأداء في طريق الداخلين في الدين ، لأن قريشاً أشرف العرب ، وكانت العرب تنظر

---

(١) ولما علم الرسول من هذه السورة الكريمة دنو أجله ، كان بعد أن نزلت عليه أشد ما يكون اجتهاداً في أمر الآخرة ، وخلاصة معنى السورة : أنك إذا فتحت مكة ، وهي قريتك التي أخرجتك ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً ، فقد فرغ شغلنا بك في الدنيا ، فتهيأ للقدوم علينا ، فالآخرة خير لك من الدنيا ، ولسوف يعطيك ربك فترضى ، ولهذا قال ﴿**فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً**﴾ .

إليهم نظرة إجلال ، وتعترف لهم بالزعامة ، لأنهم جيران بيت الله ، وفيهم السدانة والحجابة والسقاية ، ولهم مكانتهم حتى عند ملوك الشام واليمن .

ت ـ دخول سائر العرب في دين الله أفواجاً أفواجاً .

ث ـ الإخبار بقرب أجل الرسول والتحاقه بالرفيق الأعلى .

فقل لي بربك هذه السورة الوجيزة المتضمنة هذه الأخبار الغيبية العجيبة ، ألا تدل دلالة واضحة على صدق الرسول الذي أنزلت عليه هذه السورة كسائر القرآن ؟ ، فقد تحققت أنباؤها كلها بإجماع المؤرخين من المسلمين والكافرين .

أما اضطهدت قريش الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه عندما كانوا بمكة ؟ أما عذبوا المستضعفين ؟ أما أقام فيهم الرسول ثلاث عشرة سنة ، وهو يدعوهم إلى توحيد الله ، والدخول في دين الإسلام ، وهم يعارضون وينفرون عنه القبائل ؟ ، وعندما رأى اشتداد العذاب على أصحابه ، وأن قريشاً لم تفد فيهم الدعوة ، وأنهم يزدادون بمرور الأيام لجاجة وطغياناً ، فأخيراً اضطر إلى الهجرة من وطنه العزيز إلى المدينة ،ثم لم يتركوه حتى أقاموا عليه الحروب ، وجمعوا له قبائل العرب في معركة الخندق بجيش جرار ، يريدون استئصال المسلمين من المهاجرين والأنصار ، وفي المقدمة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أضف إلى ذلك أن أكثر القبائل العربية واليهودية كانت تؤيد قريشاً ضد الرسول ، فضلاً عن ملوك الفرس والروم ، فحالة المسلمين إذ ذاك كقوم في جزيرة يحيط بهم البحر من جميع الجوانب ، في هذا الجو الملبد بالغيوم تنزل هذه السورة ، وتبشر بهذه البشارات العظيمة (١) .

---

(١) وما قلته من أن في هذه السورة بشارة للنبي ﷺ بأن ستفتح له مكة ، وينصره الله على الأعداء جرياً على القول الذي يقول : إن هذه السورة نزلت قبل فتح مكة .

قال الفخر الرازى : والقول الثاني : أن هذه السورة نزلت قبل فتح مكة ، وهو وعد لرسول الله أن ينصره الله على أهل مكة ، وأن يفتحها عليه ، ونظيره قوله تعالى : ﴿إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد﴾ وقوله تعالى : ﴿إذا جاء

٧ ـ قوله تعالى : **(قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثــل هذا القــرآن ، لا يأتــون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً)**(١) ، لعلك تلحظ بذهنك الثاقب ما في هذه الآية من التحدي

= **نصر الله والفتــح﴾** يقتضي الاستقبــال ، إذ لايقــال فيها وقــع، إذا جاء، وإذا وقع، ،ا. هـ . من مفاتيح الغيب .

وقـال الطبرسي : **﴿إذا جاء﴾** يا محمد **﴿نصر الله﴾**على من عاداك وهم قريش **﴿والفتح﴾**فتح مكة، وهذه بشارة من الله لنبيه ﷺ بالنصر والفتح قبل وقوع الأمر، **﴿ورأيت النـاس يدخلون في دين الله أفـواجاً﴾**أى جماعة بعد جماعة ، وزمرة بعد زمرة ، والمراد بالدين الإسلام ، والتزام أحكامه واعتقاد صحته ، وتوطين النفس على العمل به . ا. هـ من مجمع البيان .

ومن المعلوم في علم القـواعـد العـربية ، أن إذا ظرف شرطي لما يستقبل من الزمان ، وهذا يعني أن ما بعدها لم يتحقق بعد، وهو إذا كان وعداً من الله ، فإن تحققه أمر لاشك فيه ، وهو واقع موقع اليقين من المؤمنين قبل أن يتحقق .

وما يرويه كثير من المفسرين من أن هذه السورة نزلت بعد فتح مكة ، وفي حجة الوداع قبل انتقال النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى بثمانين يوماً ليس بصواب ، إذ لا يتفق وظاهر قوله تعالى : **﴿إذا جاء نصر الله﴾** لأن القرآن صريح بأن وعده يتحقق في زمن مستقبل، ويؤكد ذلك ما قاله الحافظ ابن الجوزي ، قال قتادة : وعاش ﷺ بعد نزول هذه السورة سنتين .

وما ورد في الحديث من رواية الإمام أحمد عن الشعبي عن مسروق قال : قالت عائشة : كان ﷺ يكثر في آخر أمره من قوله : (سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه) : وقال إن ربي كان أخبرني ، أني سأرى علامة في أمتي ، وأمرني إذا رأيتها أن أسبح بحمده وأستغفره ، إنه كان تواباً ، فقد رأيتها **﴿إذا جاء نصر الله .﴾**إلخ .

وما رواه مسلم من طريق داود ابن أبي هند ، لا ينافي ما ذكرنا ، بل هذه الرواية تتفق مع ظاهر النص في السورة ، كما لا ينافيه ما رواه البخاري عن ابن عباس ، وإدخال عمر له مع أشياخ بدر ، وسؤاله لهم ما تقولون في قول الله : **﴿إذا جاء نصر الله﴾** فأجابوا، ولكن جواب ابن عباس كان هو الصواب حيث قال : هو أجل رسول الله أعلمه له ، والله أعلم بالصواب .

(١) سورة الإسراء : الآية ٨٨ .

للإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن الفائق ببلاغته وفصاحته ، وماحواه من أحكام وآداب وأخلاق وأنباء غيبية ، ومأأتوا مع العلم أنه عربي ، والعـرب هم ملوك الفصـاحة وأرباب البيان ، فإذا كان ظهر للعيان عجز العرب ، فأنى لغيرهم أن يتمنى أن يصل إلى هذا المقام ، وقـوله : لا يأتون بمثله عبر بالمضارع الدال على الحال والاستقبال ، ففي الآية إنباء للغيب على أن الإنس والجن لو اجتمعوا وتعاضدوا على أن يأتـوا بمثله ، لا يأتون ويظهر عجزهم ، وها قد مضى أربعة عشر قرناً ، والقرآن يتحدى الثقلين على أن يأتوا بمثل هذا القرآن أو بسورة من مثله ، فلم يتقدم أحد مدعياً أنه في إمكانه أن يأتي بذلك ، وها هي المـطابـع في أرجـاء المعمـورة تطبع المصحف الكريم ، و تنشر وتذيع الإذاعات ، ويسمعون هذا التحدي ، فما تجاسر أحد ، ومن سولت له نفسه كمسيلمة الكذاب ومحمد علي الباب الإيراني ، فقد أتى الأول بما أضحك عليه العرب ، وأصبح أضحوكة بين الورى ، وأتى الثاني بما أبان جهله وعجزه ، وكشف عن سوأته وعجمته ، فإذا كان في هذه الآية الكريمة إنباء بالغيب في الحال والمستقبل عن عجز جميع الإنس والجن ، فإن فيها من التحدي لهما الدال على يقين من أنزل عليه ، ذلك اليقين الذي يستحيل أن يكون من كاذب فيما يدعيه أو مرتاب فيما يقوله ، فلو لم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم صادقاً ، لما وقف هذا الموقف الصلب أمام الإنس والجن ، وتحداهم وحكم بعجزهم عن المعارضة ، كما أن آية البقرة أنبأت وحكمت حكماً جازماً ، بأنهم لم يأتوا بسورة من مثله فيما مضى ، ولن يستطيعوا أن يفعلوه فيما يأتي ، قال الله : **(وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا ، فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ، فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا ، فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين)**(١) .

---

(١) سورة البقرة : الآيتين ٢٣ ـ ٢٤ .

٨ ـ قال الله مخبراً عن اليهود : (**ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم ، منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون**)(١) ، وقال تعالى : (**لن يضروكم إلا أذى ، وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون**) (٢) ، وهذا من إنباء الغيب بأن اليهود لا يقفون أمام المؤمنين في معارك الجهاد ، مهما بلغت قوتهم الحربية من السلاح والجنود والعتاد ، إذا صدق المسلمون في الجهاد ، وبدافع الإيمان كانوا يقاتلون ، وقد تحقق نبأ هذه الآية بعد نزولها ، حيث أن الله أذل بني قينقاع والنضير وقريظة ويهود خيبر ، وكلهم أرغم الله أنوفهم ، فلم يستطيعوا الثبات أمام الرسول وأصحابه البواسل ، وكذلك النصارى بالشام كسرهم الصحابة وسلبوهم ملكهم ، وهكذا لما وقعت الحرب بين العرب واليهود سنة ١٣٦٨ هـ ظهرت بوادر النصر للعرب فقد هزموا اليهود في معارك ، ولكن خيانة بعض ملوك العرب نزولاً على رغبة سادته الإنجليز ، هي التي مكنت اليهود من الاستيلاء على فلسطين ، وأضعفت العرب المسلمين .

القسم الثاني : إخباره صلى الله عليه وسلم المغيبات على لسانه الشريف بما سيكون في هذه الأمة :

وردت أحاديث كثيرة منها الصحيح ومنها الحسن عما سيحدث في الأمة الإسلامية وما سترتكبه ، وإليك النزر اليسير :

١ ـ عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لتتبعن سنن من كان قبلكم ، حذو القذة بالقذة ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه ، قالوا : اليهود والنصارى ؟ قال : فمن » . أخرجه الشيخان : فقد وقع ما أخبر صلى الله عليه وسلم منذ قرون .

أولاً : ما حدث في اختلافهم في العقائد والمذاهب .

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١١٠ .
(٢) سورة آل عمران : الآية ١١١ .

ثانياً : ما وقع فيه الكثيرون من تقديس الأنبياء والأولياء تقديساً لا يرضاه الله ورسوله ، حتى أنهم عبدوهم من دون الله ، ولا زالت الأمة يحدث فيها ما يحقق متابعتهم لليهود والنصارى ، حتى بلغ السيل الزبى في هذا العصر ، فترى الأكثرين من المسلمين يقلدون الغربيين في الملابس وإقامة الأعياد كعيد الميلاد لكل إنسان ، وعيد الشجرة ، وعيد الأم ، وحلق اللحى ، وشرب الخمر ، والسفور ، وقتل الوقت في الملاهي والمسارح والمجون ، وعدم المبالاة بالدين وتحكيم قوانين الكافرين ، إلى غير ذلك مما يعز استقصاؤه ، بحيث لو أراد أن يبين مشابهتهم وتقليدهم الكفرة والملحدين مؤلف ، لأمكن أن يكون مجلداً ضخماً أو أكثر (١) .

٢ ـ روى الإمام أحمد بإسناد حسن ، وأبو داود عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة على قصعتها ، قالوا : أمن قلة بنا يومئذ ؟ قال : لا ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ينتزع المهابة من قلوب عدوكم ، ويجعل في قلوبكم الوهن ، فقالوا : وما الوهن ؟ قال : حب الحياة وكراهية الموت » .

فانظر رعاك الله ، كيف تحقق ذلك عياناً بما تراه من تكالب أعداء الله من الشرق والغرب على المسلمين في أكثر الممالك ، والسعي في إضعافهم والقضاء على دينهم أولاً وعليهم ثانياً ، أو إخراجهم من الدين إلى المسيحية أو الإلحاد أو الوثنية ، مما لا مجال هنا للشرح والبيان عنه ، لأن القصد هنا الإجمال والإشارة إلى النقط الحساسة التى يلمسها كل قارىء وسامع .

---

(١) سبق أن ألف شيخ الإسلام كتاباً سماه اقتضاء الصراط المستقيم في مخالفة أصحاب الجحيم، وهذا بالنسبة لما رأى في زمانه، أما في زماننا فبحر المشابهة قد عم وطم إلا من عصمه الله من عباده ، وألف الشيخ حمود التويجرى قبل سنين قليلة كتاباً وسطاً في هذا الموضوع .

٣ ـ روى الإمام مسلم من حديث عمر بن الخطاب وأعني به حديث جبريل قال فيه : أخبرني عن أشراطها قال : « أن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء ، يتطاولون في البنيان » .

صلوات الله وسلامه عليك ، فقد وقع ما أخبرت ، وتحقق ما أنبأت ، فنرى نهضة العمران في أنحاء الجزيرة العربية وغيرها قائمة على قدم وساق ، وهذا ما لم يعهد في القرون الخالية ، حتى القرى الصغار يشاد فيها المباني الجديدة ، واستمرار أهلها في البناء والتوسع فيه ، كما ترى كثيراً من سكان الخيام والفيافي رعاء الإبل والشاء هجروا البدو والبادية ، ونزلوا الأمصار والقرى وتحضروا وشيدوا المباني ، بل وتسابقوا في هذا الميدان ، فاستحدثوا بلداناً وقرى ، فكان كما أخبر سيد الورى ، وكذا سكان بوادي غير الجزيرة العربية تحضروا وبنوا وتسابقوا في هذا الميدان .

٤ ـ عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تقوم الساعة حتى يكثر المال ويفيض ، حتى يخرج الرجل زكاة ماله ، فلا يجد أحداً يقبله منه ، وحتى تعود أرض العرب مروجاً وأنهاراً » . رواه الإمام أحمد ومسلم .

تأمل هذا الحديث الشريف ، تجد علماً من أعلام نبوته ، فإنه قد أخبر قبل أربعة عشر قرناً بما تراه الآن عيانا ، حيث أن المال قد فاض وكثر ، ولا سيما في البلدان التي أنعم الله عليها بالنفط أو المعادن الأخرى ، ففي كثير من الأنحاء لا يوجد الفقير الذي يجوز له أخذ الزكاة ، ولم يتحقق الاستغناء عن الزكاة بعد عمر بن عبد العزيز إلَّا في هذه الأيام ، وتأمل في النهضة العمرانية في الجزيرة العربية ، ووفرة المياه في كثير من الأرجاء ، وشدة الاهتمام بغرس الأشجار والفواكه والزروع .

٥ ـ ورد في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم : « إن ابني هذا سيد ـ وأشار إلى الحسن بن علي رضي الله عنه ـ وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين » .

تحقق هذا الخبر بتنازل الحسن بن علي عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما ، بعدما كانت الحروب قائمة بين علي ومعاوية ، وقتل

فيها الخلق الكثير من الطرفين ، فلما قتل علي وتولى الخلافة الحسن ، ورأى أنه لا فائدة من الحرب مع معاوية ، سوى تشتت الكلمة وتفرق المسلمين وسفك الدماء ، فرأى بثاقب فكره ، وأصالة رأيه ، وحسن سياسته ، أن يجمع شمل المسلمين ، ويحقن دماء المؤمنين ، فتنازل عن الخلافة لمعاوية ، فحصل بينهما الاتفاق ، ووضعت الحرب أوزارها ، وزال الشقاق ، فسمي ذلك العام عام الجماعة ، وهو عام واحد وأربعين هجري .

٦ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا تقوم الساعة ، حتى يقبض العلم ، وتكثر الزلازل ، وتظهرالفتن ، ويكثر الهرج ، وهو القتل » رواه البخاري وابن ماجه .

وقد حصل كل ما أخبر به صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث الشريف ، فإن المقصود بقبض العلم ، هو قبض العلم الديني ، كالتوحيد والتفسير والحديث والفقه ، فهذه العلوم قد تقلص ظلها ، بل أصبحت في كثير من الأمصار والقرى الإسلامية لا ظل لها ، مع أنك ترى عصرنا يموج بكثرة المدارس والمعاهد والكليات والجامعات ، تدرس فيها مختلف الفنون والعلوم ، كالجبر والهندسة والكيمياء والطب ، وما إلى ذلك من العلوم التي عليها تقوم أسس النهضة العلمية والصناعية في شتى أقطار العالم الإسلامي وغيره ، ولكن لا تجد للعلوم الدينية سهماً يذكر إلا القليل ، كقطرة في بحر لجي بالنسبة لسائر العلوم ، ومن أجل ذلك فإن أكثر المتخرجين من تلك المعاهد والكليات لا يعرفون شيئاً عن الدين الصحيح ، بل وكثير منهم لا يرى للإيمان ولا للدين الصحيح وزناً ولا قيمة ، وربما جهر بأن التدين والعلوم الدينية من بقايا التقاليد البالية والرجعية الجامدة ، والجهل بواقع الحياة التي نعيشها ، وأما كثرة الزلازل في مختلف أصقاع العالم ، فحدث ولا حرج ، ففي كل يوم تذيع الإذاعات ، وتنشر الصحف والمجلات ، عن وقوع الزلازل هنا وهناك .

كما ورد في الحديث في رواية أبي هريرة في صحيح البخاري ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :« يتقارب الزمان ، وينقص العلم ، وفي رواية : العمل ، ويلقى الشح ، ويكثر الهرج » ، فقوله : يتقارب الزمان ،

إشارة إلى حدوث السيارات والقطارات والطائرات ، لأن المسافة التي كانت تُقطع على الدواب والأرجل في الأسبوع ، تقطعه السيارات والقطارات في بضع ساعات ، والطائرات في أقل من ساعة ، والتي كانت تقطع في سنة ، تقطعه الطائرات في ساعات ، وأما ظهور الفتن ، فإشارة إلى الخصومات والحروب التي ينتج فيها كثرة القتل ، وهذا ما تشاهده الآن في هذا الزمان من كثرة الفتن والاختلاف ، والحروب المسببة لسفك الدماء ، وقتل النساء والأطفال والأبرياء وإهلاك الحرث والنسل ، لا لشيء يوجبه ، ولا لجهاد في سبيل الله يحتمه ، سوى بغية استيلاء القوي على الضعيف ، والدول الكبرى على الدول الصغرى ، واستعمارها وسلب خيراتها ومنافعها ، فوالله ثم والله ، لو لم يخبر صلى الله عليه وسلم عن الغيوب الآتية إلا هذا الحديث ، لكفى ، فكيف وقد أتت عشرات الأحاديث عن غيوب تحقق نبؤها شيئاً فشيئاً بعد وفاته إلى يومنا هذا ، وسيتحقق ما بقي في العصور المقبلة حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

٧ ـ روى البخاري عن عدي بن حاتم قال : « بينما أنا عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ أتاه رجل ، فشكا إليه الفاقة ، ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل ، فقال : يا عدي ، هل رأيت الحيرة ؟ قلت : لم أرها وقد أنبئت عنها ، قال : فإن طالت بك الحياة لترين الظعينة (١) ترحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة ، لا تخاف أحداً غير الله ، قلت فيما بيني وبين نفسي : فأين دعار (٢) طيء الذين قد سعروا (٣) في البلاد ، ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى ، قلت : كسرى بن هرمز ، قال : كسرى بن هرمز ، ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة ، يطلب من يقبله ، فلا يجد أحداً يقبله منه ، وليلقين الله أحدكم يوم يلقاه ، وليس

(١) المرأة في الهودج .

(٢) الدعار جمع داعر ، وهو الشاطر الخبيث المفسد، والمراد قطاع الطرق ، طيء (قبيلة عربية مشهورة وبلادها ما بين العراق والحجاز ، وكان رجالها يقطعون الطريق على من مر عليهم بغير جوار ، لذلك تعجب عدي ، كيف ستمر المرأة ببقاعهم غير خائفة) .

(٣) أوقدوا نار الفتنة ، أو ملأوا الأرض شراً وفساداً .

بينـه وبينـه ترجمان يترجم له ، فيقول : ألم أبعث إليك رسولاً فيبلغك ؟ فيقول : بلى ، فيقول : ألم أعطك مالاً ، وأفضل عليك ؟ فيقول : بلى ، فينظر عن يمينه ، فلا يرى إلا جهنم ، وينظر عن شماله ، فلا يرى إلا جهنم .

قال عدي : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فمن لم يجد شق تمرة ، فبكلمة طيبة .

قال عدي : فرأيت الظعينـة ترتحـل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله ، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز ، ولئن طالت بكم حياة ، لترون ما قال النبي أبو القاسم صلى الله عليه وسلم : يخرج الرجل ملء كفه ذهباً أو فضة ، فلا يجد من يقبله منه (١) .

٨ ـ روى مسلم عن ثوبان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله زوى لي الأرض (٢) ، فرأيت مشارقها ومغاربها ، وأن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها ، وأعطيت الكنزين الأحمر(٣) والأبيض ،

---

(١) قد تحقق ما أخبر به ﷺ في خلافة عمر بن عبد العزيز ، فقد أخرج البيهقي في الدلائل عن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب، أنه قال : إنما ولي عمر بن عبد العزيز ثلاثين شهراً ألا والله ما مات حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم ويقول : اجعلوا هذا حيث ترون في الفقـراء ، فما يبرح حتى يرجع بماله يتذكر من يضعه فيه فلا يجده ، قد أغنى عمر الناس .

ويؤيد ذلك ما ورد في سيرة عمر بن عبد العزيز أن يحيى بن سعيد قال : بعثني عمر بن عبد العزيز على صدقات أفريقية ، فاقتضيتها ، وطلبت فقراء نعطيها لهم ، فلم نجد بها فقيراً ، ولم نجد من يأخذها ، فقد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس ، فاشتريت بها رقاباً فأعتقتهم ، وولاؤهم للمسلمين. أ. هـ . من كتاب نبوة محمد في القرآن ، لحسن ضياء الدين عتر .

(٢) قال الوريشي : زويت الشيء جمعته وقبضته ، حاصله أنه طوى له الأرض وجعلها مجموعة كهيئة كف في مرآة ينظره ، قال الطيبي : أي جمعها لي حتى أبصرت ما تملكه أمتي من أقصى المشارق والمغارب منها .

(٣) يعني بهما كنز كسرى وهو ملك الفرس ، وكنز قيصر وهو ملك الروم ، وعبر بالأحمر عن كنـز قيصر، لأن الغالب عندهم الذهب ، وبالأبيض عن كنز كسرى ، لأن الغالب عندهم الجوهر والفضة .

وإني سألت ربي لأمتي ، أن لا يهلكها بسنة عامة(١) ، وأن لا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم(٢) ، فيستبيح بيضتهم (٣)، وإن ربي قال : يا محمد ، إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد ، وإني أعطيتك لأمتك ، أن لا أهلكهم بسنة عامة ، وأن لا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم ، فيستبيح بيضتهم ، ولو اجتمع عليهم من أقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ، ويسبي بعضهم بعضاً .

ورواه البرقاني في صحيحه وزاد : « وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين ، وإذا وقع عليهم السيف لم يرفع إلى يوم القيامة ، ولا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين ، وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان ، وأنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون ، كلهم يزعم أنه نبي ، وأنا خاتم النبيين ، لا نبي بعدي ، ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة ، لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى » .

هذا الحديث الشريف فيه دلائل كثيرة من أدلة نبوته وصدق رسالته صلى الله عليه وسلم ، وأنه جدير بالحفظ والاعتناء وإشاعته بين الأمة الإسلامية ، ليعرفوا عظمته صلى الله عليه وسلم ، ويزدادوا إيماناً بنبوة سيد المرسلين وإمام المتقين ، وهذه الدلائل أخبر بها صلى الله عليه وسلم قبل وقوعها ، وقد وقعت كما أخبر ، وها أنا أبين تلك الدلائل حسب فهمي القاصر وذهني الفاتر :

أ ـ إن الله زوى له الأرض ، أي جمع الله ما تملكه أمته من بعده ، فشاهد ذلك عياناً ، ومعنى ذلك أن ملك أمته يتسع ، وقد اتسع

---

(١) وفي رواية بزيادة الباء أي بعامة وهي رواية صحيحة في صحيح مسلم ، وقال القرطبي : وكأنها زائدة ، والسنة الجدب الذي يكون به الهلاك العام، ويجمع على سنين : قال الله ﴿ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين﴾ .

(٢) أي من غيرهم من الكفار .

(٣) قال الجوهري : بيضة كل شيء حوزته ، وبيضة القوم ساحتهم ، وقيل بيضتهم ، معظمهم وجماعتهم .

بالفتوحات التي قام بها الخلفاء الراشدون ومن بعدهم من الخلفاء والملوك ، حتى بلغ ملك المسلمين من أقصى الصين شرقاً إلى حدود فرنسا غرباً .

ب - أخبر بصفة خاصة عن فتح أمته لملك كسرى وقيصر ، المعبر عنهما « وأعطيت الكنزين الأحمروالأبيض » ، وإنما أخبر عنهما مع أن ملكهما داخل في قوله السابق « زوى لي الأرض » لأنهما المملكتان المتجاورتان لجزيرة العرب ، ولأنهما كانتا أكبر الممالك إذ ذاك ، وهما اللتان كانتا تسيطران على كثير من العرب ، ويستعمران بلدانهم ، فكانت العراق خاضعة لملك الفرس ، وأخيراً استعمرت الفرس اليمن ، وكانت قبائل غسان ولخم وجذام تحت سيطرة الروم ، وبلدانهم مستعمرات لقيصر ، وما كان العربي يظن أن يأتي يوماً يملك العرب هاتين المملكتين العظيمتين وكنوزهما ، و أن يكونا تحت إمرة العرب ، حتى بلغ الأمر أن سيق إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه تاج كسرى وحليته ، وما كان في بيوت أمواله ، وجميع ما حوته مملكته على سعتها وعظمتها ، وكذلك فعل الله بقيصر ، ولكن الإسلام هو الذي أعز الله به العرب ، ورفعهم من الذل والهوان إلى العزة والملك والسيطرة .

ت - سأل النبي صلى الله عليه وسلم ربه أن لا يهلك أمته بالقحط ، وأن لا يسلط عليهم عدواً من غير المسلمين ، فيجتاحهم ويهلكهم أو يهلك معظمهم ، وقد استجاب الله له ما دعاه ، فلا يقع القحط في جميع الممالك المسلمة ، وإن وقع في ناحية فتمولها الناحية الأخرى ، كما أن الله لم يسلط إلى الآن كافراً ليستولي على المسلمين ويهلكهم ، أو يهلك معظم المسلمين ، وإن وقع الاستعمار في كثير من البلدان ، فإن الاستعمار حكم مؤقت ، ولا بد أن تبقى ممالك مستقلة ، وبالفعل زال الاستعمار من أكثر البلدان الإسلامية التي كانت مستعمرة ، ويؤخذ من مفهوم الحديث : أنه يقع استيلاء المسلمين بعضهم على بعض ، ومن لوازم الاستيلاء الحروب وسفك الدماء في أكثر الأحيان .

ث - أخبر صلى الله عليه وسلم أنه إذا جرى الخلاف بين المسلمين

وجـرت الحـرب ، فإنه يستمر الاختلاف والحروب الناتجة من النزاع والاختلاف إلى يوم القيامة ، وقد وقع بالفعل ما أخبر به ، فأنت ترى من حينما قتل عثمان بن عفان رضي الله عنـــــــه إلى يومنا هذا ، ترى الخـلاف مستمـراً بين المسلمين ، وقد تنوع الاختلاف ، فاختلفوا في العقائد حتى تفرقوا إلى ثلاث وسبعين فرقة ، واختلفوا في الفروع كما اختلفـوا في السياسة ، ومازالت الحرب قائمة ، إن هدأت في قطر أو مملكـة شبت في مملكة أخرى ، نتيجة إعراضهم عن كتاب الله وسنة نبيه ، وتحكيمهم آرائهم ، واتباعهم شهواتهم ، إضافة إلى حب السيطرة والسلطنة ، ولذا لم يتفقوا حتى ولو ترى في الظاهر هدوء الحـــال في كثـير من الممـالك الإسلامية ، لكن الاختـلاف قائم على قدم وساق ، هدوؤهم مؤقت ، يتحـين بعضهم الفـرص السانحة لـكي ينقض على المملكة الأخرى ، ولا يلزم من وقوع الاختـلاف والحرب أن تـكون دائماً مستمرة بين كل طائفة وطائفة وملك ملك أو زعيم وزعيم ، ويكفي وجود الاختـلاف وعدم الاتفاق ووقوع حرب بين ملك وآخر ، وإن كانت الحالة في الأكثرين ساكنة وهادئة ، ومما ينبغي أن نفهم أن من القتال ما قد يكون حقاً كقتال أهل التوحيد لأهل الشرك بالله ، وجهادهم على تركهم الشرك ، وكقتـال الفئة الباغيـة الخارجة عن طاعة الأمـير أو الملك بنوع من التـأويل وسوء الفهم ، كقتال علي بن أبي طالب للخوارج، وقتاله لمعاوية في صفين .

ج - أخبر صلى الله عليه وسلم أنه لا تقوم الساعة حتى تعبد فئام من أمته الأوثان ، وهذا واقع مشاهد ملموس من انصراف الجهلة عن إخلاص العبادة لله تعالى بعبادتهم لقبور الأنبياء والأولياء ، فترى في أكثر الأقطار الإسلامية قد اتخذوا قباباً على قبور من يزعمون أنهم من أولياء الله ، يطوفون حول تلك القبور ، وينذرون لها ، ويستغيثون في الشدائد بساكنيها ، كاستغاثة الشيعة بعلي ، والحسين ، والعباس بن علي ، وجهال أهل السنة بالجيلاني ، والدسوقي ، والبدوي ، والزيلعي ، والعيـدروس وأمثالهم ، مع العلم أن القرآن يصرح في آيات أكثر من

تحصر بالتوحيد وإفراد الله بالعبادة ، بل القرآن كله في التوحيد (١) كقوله تعالى : (**وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون**) (٢) وقوله تعالى : (**يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون**)(٣) . وقوله تعالى : (**وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً**) (٤) . وقوله تعالى : (**واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً**)(٥) .

وفي الحديث : « لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم زائرات القبور ، والمتخذين عليها المساجد والسرج »(٦) .

وقد عمت الفتنة بالقبور ، وجاهر الناس بالشرك الصريح والكفر القبيح ، وكأنهم لم يعلموا أن الرسول صلى الله عليه وسلم والرسل من قبله ، ما بعثوا إلا لمحو الشرك والوثنية والدعوة إلى التوحيد ، كما قال الله تعالى : (**ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت**)(٧) أي اعبدوا الله وحده ، واتركوا عبادة ما سواه (٨) ،

---

(١) وبيانه ، أي القرآن ، إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته ، وهو التوحيد العلمي الخبري ، وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له ، وهوالتوحيد الإرادي الطلبي ، وإما أمر ونهي ، وإلزام بطاعته ، فذلك من حقوق التوحيد .
وإما عن أهل الشرك ، وما يعاقبهم به ، فهو جزاء من نبذ التوحيد .

(٢) سورة الذاريات : الآية ٥٦ .

(٣) سورة البقرة : الآية ٢١ .

(٤) سورة الإسراء : الآية ٢٣ .

(٥) سورة النساء : الآية ٣٦ .

(٦) رواه أهل السنن من رواية ابن عباس رضي الله عنهما .

(٧) سورة النحل : الآية ٣٦ .

(٨) ورحم الله ملا عمران القائل في قصيدته التي بين فيها عقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، والثناء عليه والرد على المخالفين له والناسبين له مالم يقل :

هل قال إلا وحدوا رب السما ... وذروا عبادة ما سوى المتفرد
وتمسكوا بالسنة البيضا ولا ... تتنطعوا بزيادة وتردد
هذا الذى جعلوه غشا وهو قد ... بعثت به الرسل الكرام لمن هدي

وقال الله تعالى : (**فمن يكفر(١) بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها ، والله سميع عليم**)(٢) .

حـ ـ أخبر صلى الله عليه وسلم أنه سيكون في أمته متنبؤون كذابون ، كل واحد يزعم أنه نبي ، وقد ظهر المتنبؤون كمسيلمة الكذاب باليمامة ، والأسود العنسي باليمن ، والمختار بن عبيد الثقفي ، وأبو الطيب المتنبي غير أنه قد تاب ، وظهر في القرن الثالث عشر الدجال الخبيث في الهند بسياسة الإنجليز ميرزا غلام أحمد القادياني ، ومحمد علي الباب الإيراني ، وخليفته عبد البهاء ، وتبع هذين الدجالين كثيرون ، وأخبارهما مشهورة ومسطورة وهما من أكبر المتنبئين الكذابين ، ومن أعظم الخبثاء والدهاة ، الذين يدعون إلى هدم دين الإسلام ، والانضمام تحت لواء الكفر والصهاينة اللئام ، ولهما من الأساليب الشيطانية ، و المناهج الكفرية ، وتمويه الحقائق ، والتلبيس على العوام ، ما سطرته أقلام العلماء ، وهتكت أستارهما ، لا سيما محمد علي الباب وخليفته .

خ ـ أخبر صلى الله عليه وسلم أنه مع انحراف الأكثرين عن الدين المبين ، وغلبة البدع والضلالات والمباديء الهدامة والمذاهب الكفرية ، وتكالب الأعداء على الإسلام والمسلمين حتى من أبناء جلدتهم ، فإنه لن ينمحي الدين ، بل لا تزال طائفة من الأمة الإسلامية على الحق منصورة ، وهذا مما لا ريب فيه ، فلقد تجد المدينة الكبيرة يقطنها ملايين من البشر ، وأكثرهم منغمس في بحور الضلال والشرك أو الشهوات أو الفسق والفجور ،

(١) قال الحافظ ابن القيم رحمه الله : الطاغوت كل ما تجاوز العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع ، فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله ، أو يعبدونه من دون الله ، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله ، أو يطيعونه في ما لا يعلمونه أنه طاعة الله ، فهذه طواغيت العالم ، إذا تأملتها وتأملت أحوال الناس معها ، رأيت أكثرهم أعرض عن عبادة الله إلى عبادة الطاغوت ، وعن طاعة رسول الله ﷺ إلى طاعة الطاغوت ومتابعته . ا . هـ . (فتح المجيد) .
إذا علمت ذلك ، فاعلم أن القوانين التي يعمل بها في كثير من البلدان الإسلامية من الطاغوت ، وأن التحاكم إليها تحاكم إلى الطاغوت .

(٢) سورة البقرة : الآية ٢٥٦ .

ولكن تجد منهم أناساً قليلين يحافظون على الدين الصحيح ، ويتمسكون بالسنة المحمدية ، ويرشدون الناس إلى كتاب الله وسنة نبيه ، ويحذرونهم مما هم فيه من الضلال والفسق والفجور والتحاكم إلى الطاغوت وعبادة القبور ، ومهما جاهد الأعداء في محو هذا الدين ، فإن الله سيخيب قصدهم ، ويرد كيدهم في نحرهم ، فهذه أوروبا وأمريكا واليابان مع ما هم فيه من الحضارة والعلوم والرقي ومعاداة دين الإسلام ورسوله عليه أفضل الصلاة والسلام ، بدأ الإسلام ينتشر في تلك الأرجاء مع أن أهله ضعاف بالنسبة لأولئك ، وليس لدى الدعاة الإسلاميين من الاستعدادات والأموال ، ما لدى أولئك من المبشرين الذين يجوبون شرق الدنيا وغربها للتبشير بدين المسيح ، وتساعدهم دولهم بالأموال الطائلة والوسائل العديدة ، وبالرغم من ذلك كله ، فإن كفة الإسلام والدخول فيه أرجح من كفة أولئك اللئام .

د ـ قوله صلى الله عليه وسلم : « وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين » ، صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد وقع ما خافه على الأمة ، وتحقق ظهور أئمة الضلال .

وأول من ظهر عبد الله بن سبأ يهودي من يهود صنعاء اليمن ، فحينما رأى قوة الإسلام وسيطرته على كثير من الأقطار ، وفتحه الشام ومصر وفارس والعراق ، ورأى ما حل بيهود المدينة وخيبر من الخزي والوبال ، ما تركه حقده اليهودي حتى فكر في الانتقام من الإسلام والمسلمين ، وتشتيت كلمتهم ، فأعلن الإسلام نفاقاً ، ودعا بدعوته الضالة قائلاً : إن النبي أوصى بالخلافة لعلي بن أبي طالب ، وأنه الحقيق بالخلافة ، وله من القرابة والصحبة والمواقف ما يستحق به الخلافة ، وأن الخلفاء غصبوا حقه ، وظلموه ، وكفرهم بذلك ، وروج هذه الدعاية الخبيثة وطورها ، حتى زعم أخيراً أن علي بن أبي طالب إله ، وتوسل بها مع بعض زنادقة الفرس واليهود ، وألب أوغاد الأمصار والجهال ، حتى أعلنوا الثورة على عثمان ، بشبهة أنه لم يعدل وأنه يحابي قرابته من بني أمية ، حتى حاصروه وقتلوه ، وأوقدوا نار الفتنة في وقعة الجمل بين جيش علي بن أبي طالب وجيش الزبير وطلحة ، وجرى ما جرى مما سطره التاريخ ، ومن شؤم هذه

الدعاية الخبيثة ، تفرق شمل الأمة ، وإشعال نار الحروب والفتن ، وتفرقت أتباعه إلى اثنتين وعشرين فرقة ، وقيل أكثر .

قال شيخنا الشيخ أحمد نور رحمه الله في منظومة الفرق الإسلامية :

تفــرقــوا اثنــين والعشرينــا بعض يظن البعض كافــرينــا

وفي أواخر دولة بني أمية ظهر الجعد بن درهم ، ودعا هذا الضال إلى إنكـار الصفـات ، والقول بخلق القرآن ، وأخذ عنه الجهم بن صفوان ، فأعلن بكل صراحة تعطيل الله عن أسمائه وصفاته ، ودان بخلق القرآن ، وإنكار رؤية الرب في الآخرة ، والجبر المحض .

وفي عهـد المـأمـون ظهرت المعتزلة متأثرين بآراء الفلاسفة ومذهب الجعـد والجهم بن صفـوان ، واعتنق المـأمـون مذهب المعتزلة ، وبعده المعتصم ، وحصلت فتنـة عظيمـة بين المسلمـين ، واضطهد أهل السنة والجماعة ، وسجن من سجن ، وفي المقدمة الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى ، ونشروا بدعتهم من تعطيل الرب عن صفاته ، وشددوا النكير على من يقول : إن كلام الله صفة من صفاته ، ليس بمخلوق ، وقالوا : يجب أن تقولوا : إنه مخلوق .

وتفـرقت المعتزلة إلى أكثر من عشرين فرقة ، ثم تتابع أئمة الضلال والدعاة إلى النار ، حتى ظهرت الصوفية الاتحادية ، قال قائلهم :

الرب عبـد والعـبـد رب وليـت شعـري من المـكـلف

ثم جاء دور الباطنية ، وحرفوا القرآن ، وأولوه على حسب أهوائهم ، وزعموا أن للقرآن باطناً وظاهراً ، كانت دعوتهم ظاهرها التشيع وموالاة أهل البيت رضـوان الله عليهم ، وبـاطنهـا الكفر والإلحاد ، وتفرعت منها الدرزيـة والاسمـاعيلية والنصيرية وغيرها ، ولازال بقاياهم في سوريا والهند وإفريقيا .

وفي عصرنا هذا ، كثرت أئمة الإلحاد والفجور والفساد ، فمنهمَ من يدعو إلى الشيوعية والاشتراكية ، ويزعم أن الإسلام أتى بالاشتراكية ، والاشتـراكيـة في الحقيقـة بنت الشيـوعية ، ومنهم من يدعو إلى التبرج

والسفـور والاختلاط بالنساء ، ومنهم من يدعو إلى إباحة الربا بتأويلات فاسـدة وآراء كاسـدة ، ولا ريب أن من ليس عنـده حصـانـة الإيمـان والتـوحيد ، فقد يقع في شرك هؤلاء الضالين المضللين ، وما أكثر ما وقع الجاهلون بشريعة الإسلام الصحيح في حبائل هؤلاء الشياطين الداعين إلى جهنم وبئس المهاد ، ولكن ولله الحمد لا زال في الأمة الإسلامية من العلماء الراسخـين والجهـابـذة المحققـين ، من تصـدى للرد على أباطيل هؤلاء الضالين ، وتفنيد ما روجوه وموهوه على الجهال ، وإقامة الحجج القاهرة على بطلان ما يزعمـه هؤلاء الأدعياء ، وبراءة دين الإسلام من المبادئ التي أتى بها هؤلاء الدعاة الطغاة ، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال : « لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة » ، والحمد لله على دين الإسلام ، (**يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ، والله متم نوره ولو كره الكافرون ، هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون**) (١) .

---

(١) سورة التوبة : الآية ٣٣ .

الدلائل الحسية

المعجزات النبوية

ومعجزات سيد العباد ... كثيرة تجل عن إعداد
أعظم آيات النبي يا قاري ... كلام ربنا العظيم الباري
لأنها المعجزة العلمية ... باقية ما بقي البرية
أما التي حسية كثيرة ... فهاك مني نبذة يسيرة
عين قتادة الصحابي ردها ... في يوم بدر واحذرن ردها
قد نبع الماء لجمع وافر ... بين أصابع النبي ﷺ الطاهر
يوم الحديبية وبالزوراء ... عن النبي صح بلا امتراء
في يوم الأحزاب اللئام الكفرة ... إذ طوقوا المدينة المنورة
وقد روى جابر تكثير الطعام ... عن النبي المصطفى خير الأنام
قد سأل الكفار من أم القرى ... نبينا إبداء آية ترى
فسأل المولى فشق البدرا ... لكنهم قد زعموه سحرا
وحن جذع النخلة للمختار ... كما أتى في محكم الأخبار
فكم له من معجزات باهرة ... حررها ذوي العلوم الفاخرة

***

وإذ أنهينا الكلام عن الدلائل العقلية عن نبوته عليه الصلاة والسلام ، فلنشرع في بيان معجزاته عليه الصلاة والسلام ، وهي من الدلائل الحسية ما سوى القرآن ، فإنه معجزة عقلية ، وذكرها زيادة على ما سلف ، لكونها أعظم المعجزات والآيات .

تعريف المعجزة والفرق بينها وبين دلائل النبوة :

والمعجزة في تعريف علماء الـكلام : أمر (١) خارق للعادة ، مقرون

---

(١) وإنما قالوا أمر ليتناول الفعل ، كانفجار الماء من بين أصابع النبي ﷺ ، ويتناول عدم الفعل كعدم إحراق النار إبراهيم ، واحترزوا بقيد المقارنة بالتحدي عن كرامات الأولياء والإرهـاصات التي تتقدم البعثة النبوية ، وبقيد عدم المعارضة عن السحر والشعبـذة ، فإنهما مما يمكن معـارضتهـما ، ولم يرد في القـرآن ولا في السنـة لفظ المعجـزات ، وإنـما الموجود فيهما لفظ الآية ، والبينة ، والبرهان ، ولهذا كان علماء الحديث ومن تبعهم ، إذا ألفوا في هذا الموضوع يكتبون دلائل النبوة ، أو أعلام النبوة ، كأبي نعيم والبيهقي والماوردي .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : وكون الآية خارقة للعادة ، أو غير خارقـة ، وهـو وصف لم يصفـه القـرآن والحـديث ولا السلف ، وأن هذا وصف لا ينضبط ، وهـو عديم التـأثـير ، فإن نفس النبوة معتادة للأنبياء ، خارقة للعادة بالنسبة إلى غيرهم ، وقال ما معناه : خوارق الكهنة والسحرة هي بالنسبة لغيرهم خارقة لعاداتهم ، ولكن بالنسبة لهم ليست خارقة لعاداتهم ، والمبرز في فن من الفنون يقدر على مالا يقدر عليه أحد في زمنه ، وليس هذا دليل على النبوة ، فكتاب سيبويه مثلا مما لايقدر على مثله عامة الخلق ، ولكنه ليس بمعجزة بالنسبة لفطاحل علم النحو ، فآية النبي لابد أن تكون خارقة لعادة غير الأنبياء من الجن والإنس ، ولهذا يجب في آيات الأنبياء أن لا يعارضها من ليس بنبي ، فكل من عارضها صادراً ممن ليس من جنس الأنبياء ، فليس من آياتهم ، من أجل هذا طلب فرعون أن يعارض السـحـرة ما جاء به موسى ، بأن يفعلوا مثـل ما يفعل ، فلا تبقى حجته مختصة بالنبوة ، فأمرهـم موسى أن يأتوا أولا بخوارقهم ، كما قال الله تعـالى مخبراً عنه وعنهم ، قال لهم موسى : ﴿**ألقوا ما أنتم ملقون فألقوا حبالهم وعصيهم ، وقالوا بعزة فرعون إنـا لنحن الغالبون**﴾ ﴿**فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون**﴾ ﴿**فألقى السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون**﴾ وما سجد السحرة إلا لما رأوا كيف انقلبت عصا موسى حية كبيرة وابتعلت حبالهم وعصيهم التي انقلبت بسحرهم حيات ، فعلموا عندئذ أن ما أتى به موسى ليس من جنس مقدورهم ، فآمنوا إيماناً جازماً ، ولما قال لهم فرعون : ﴿**لأصلبنكم في جذوع النخل ، ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى ، قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا ، فاقض ما أنت قاض ، إنما تقضي هذه الحياة الدنيا**﴾ ا . هـ . من كتاب النبوات ، بتلخيص وزيادة بعض الكلمات والآيات صفحة / ١١ ، ١٢ ، ١٣ .

بالتحدي مع عدم المعارضة ، ومن هذا التعريف نعرف أن هناك فرقاً بين دلائل النبوة وعلامات النبوة وبين المعجزة ، فدلائل النبوة أو علامات النبوة يراد منه كل دليل يثبت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، ويبرهن على صدقه ، دون تقييد بشروط معينة ، فيشمل حتى السمات الخاصة في جسده كخاتم النبوة ، ويشمل تبشير الكتب السماوية ببعثته .

أما المعجزة فقد اشترط فيها أن تقترن بالتحدي ، إذ يتحدى النبي الناس بمعجزة ، فيعجزون عن الإتيان بمثلها ، كأن يفعل النبي أو أي رسول أرسله الله شيئاً لم تجر العادة أن يكون في قدرة البشر أو غيرهم ما سوى النبيين أن يعملوه ، كنبع الماء من بين الأصابع وفلق البحر وانشقاق البدر ونحو ذلك مما يأتي ، فيعجز الناس عن الإتيان بمثله ، ويهتدي من شاء الله له الهداية ، كما سجد السحرة لما رأوا ما عمل موسى ، وآمنوا إيماناً صادقاً ، لأن من يرد الله له الهداية إذا رأى تلك الآيات التي تأتي بها الأنبياء ، يعلم إذ ذاك أنهم صادقون في دعوى النبوة والرسالة ، ولأن المعجزة في منزلة صدق عبدي في ما يبلغ عني .

وبما أسلفناه لك من تعريف المعجزة ، ودلائل النبوة ، أو علامات النبوة ، يستبين لك أيها القاريء أن كل معجزة علامة على نبوة صاحبها حتماً ، ولكن ليس كل علامة أو دليل على النبوة أمراً معجزاً خارقاً للعادة مقروناً بالتحدي ، فالمعجزة أخص من الدليل والعلامة .

أعظم المعجزات وأشهرها القرآن العظيم :

١ ـ ومعجزاته صلى الله عليه وسلم (١) كثيرة ، وأشهرها وأعظمها القرآن العظيم ، لأنه صلى الله عليه وسلم تحدى به العرب ، وهم أفصح الناس لساناً وأعظمهم بياناً ، وأشدهم اقتداراً على الكلام ، بأن يأتوا بسورة من مثله ، فعجزوا مع شدة عداوتهم له وصدهم عنه ، حتى قال

---

(١) ذكر النووي في مقدمة شرح مسلم أن معجزات النبي ﷺ تزيد على ألف ومائتين ، وقال البيهقي في المدخل : بلغت ألفاً ، وقال الزاهدي من الحنفية : ظهر على يديه ألف معجزة ، وقد اعتنى بجمعها جماعة من الأئمة كأبي نعيم والبيهقي والماوردي .

بعض العلماء : أقصر سورة في القرآن (**إنا أعطيناك الكوثر**) ، فكل قرآن من سورة أخرى كان قدر (**إنا أعطيناك الكوثر**) سواء كان آية أو أكثر أو بعض آية ، فهو داخل فيما تحداهم به .

قال الحافظ ابن حجر : وعلى هذا فتصل معجزات القرآن من هذه الحيثية إلى عدد كثير جداً ، ووجوه إعجاز القرآن من جهة حسن تأليفه والتئام كلماته وفصاحته وإعجازه في مقام الإيجاز وبلاغته ظاهرة جداً ، مع ما انضم إلى ذلك من حسن نظمه ، وغرابة أسلوبه ، مع كونه على خلاف قواعد النظم والنثر .

٢ ـ هذا إلى ما اشتمل عليه من الإخبار بالمغيبات ، مما وقع من أخبار الأمم الماضية ، مما كان لا يعلمه إلا أفراد من أهل الكتاب ، ولم يعلم أن النبي اجتمع بأحد منهم ، ولا أخذ عنهم ، وبما سيقع ، فوقع على وفق ما أخبر به (١) في زمنه صلى الله عليه وسلم وبعده .

٣ ـ عدم حصول الملال والسآمة على قارئه وسامعه ، مع الهيبة التي تقع عند تلاوته ، والخشية التي تلحق سامعه .

٤ ـ تيسر حفظه لمتعلميه ، وتسهيل سرده لتاليه (٢) . اهـ .

٥ ـ بقاؤه مصوناً محفوظاً من أن تتطرق إليه يد التغيير

---

(١) كما في قوله : ﴿**ألم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون**﴾ فانتصر الروم على الفرس كما أخبر القرآن ، وكما في قوله تعالى : ﴿**لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون**﴾ فدخلوا مكة والمسجد الحرام بعد صلح الحديبية بسنة ، كما أخبر القرآن وكما هو معروف، وكما في قوله تعالى : ﴿**يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه**﴾ فوقع كما أخبر القرآن بعد وفاته ﷺ ، فارتد أكثر العرب وجاهدهم أبو بكر بجيوشه الغفيرة ، وكان كثير منهم من أهل اليمن ، إلى غير ذلك من الآيات التي أخبرت بما سيكون ، فوقع بما أخبرت الآيات القرآنية ، بعضها في زمنه ﷺ وبعضها بعد وفاته ، وكل ما مضى عصر وحصلت كشوف وعلوم جديدة يظهر صدق القرآن وما أنبأ به عما سيكون في مستقبل الزمان .

(٢) من فتح الباري .

والتحـريف ، مصـداقاً لقوله تعالى : (**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**)(١) الآيـة .

وحتى ولو سولت لملحد أن يغير شيئاً من الآيات ، أو يحذف شيئاً من بعض الحروف أو الـكلمات ، فسرعان ما ينتبه المسلمون ، فيقومون بالإنكار ، وينبهون على ذلك الخطأ والتحريف ، ومن عجيب أمر القرآن أن الإنسان إذا أراد أن يحذف حرفاً من بعض الكلمات ، لتنبه المستمع إن كان من قراء القرآن فور سماعه ، ونبه على الغلط الذي وقع عمداً أو سهـواً ، لأنـه باختلال حرفين أو حرف من كلمات القرآن ، يتغير أسلوبه ومعناه ، ويتفكك نظمه ، مثلاً لو قرأ القارئ : (**إنا أعطيناك الكوثر صل لربك وانحر**) لنبه المستمع القارئ فور سماعه ، قائلاً له إنك قد حذفت الفاء من فصل ، أو قال : (**إن شانئك الأبتر**) لقال له (**هو الأبتر**) ، لأن التركيب هنا يفيد الحصر ، حيث أن بعض زعماء قريش ، لما مات ابنا رسول الله قالوا : بتر محمد ، فأنزل الله : (**إن شانئـك هو الأبتر**) أي مبغضك يا محمد ، ومبغض ما جئت به من الهدى والحق ، هو الأبتر الأقل الأذل المنقطع ذكره لا أنت ، بل قد أبقى الله ذكره على رؤوس الأشهاد ، وأوجب شرعه على رقاب العباد ، مستمراً على دوام الآباد إلى يوم الحشر والميعاد ، فحصر الأبترية والأقلية إنما يحصل بكلمة (هو) الواقعة مبتدأ للأبتر ، أما إذا حذفت كلمة (هو) فلا يحصل هذا المعنى البليغ المفيد لهذا الحصر ، كما لا يخفى .

٦ ـ تحديه لليهود أن يتمنوا الموت ، فلم يقع ممن سلف منهم ، ولا من خلف من تصدى لذلك ولا أقدم ، مع شدة عداوتهم لهذا الدين ، وحرصهم على إفساده والصد عنه ، فكان في ذلك أوضح معجزة .

٧ ـ الجزالة التي لا تصح من مخلوق بحال من الأحوال ، وتأمل ذلك في سورة ق وغيرها .

٨ ـ التناسب في جميـع ما تضمنته آياتـه ظاهراً وباطنـاً من غير

---

(١) سورة الحجر : الآية ٩ .

اختلاف ، قال الله تعالى : (**ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً**)(١) .

٩ ـ الأسلوب المخالف لجميع أساليب العرب .

بعض المعجزات العلمية للقرآن الشريف

١ ـ في سورة الأنبياء : آية (٣٠) :

قال تعالى : (**أو لم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما**) .

النظرة العلمية : يتفق معنى هذه الآية مع أحد النظريات في نشأة الأرض والسماء ، وذلك أنهما كانتا في أول أمرهما ملتصقتين داخل السديم الذي يحتويهما ، ثم إنهما انفصلتا نتيجة انفجارات شديدة حدثت داخل السديم (٢) ، وتم الانفتاق المذكور في الآية بعد أن كانتا مرتوقتين أي متصلتين بعضها ببعض ، وفي ذلك إشارة لما حدث في الكون من انفجارات انتشرت بسببها مادة الكون فيما حولها من فضاء وفراغ ، وانتهت بتكوين مختلف أجرام السماء المختلفة.

٢ ـ قال الله تعالى في سورة النحل : آية (٧٨) :

(**والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون**) .

تفسير علماء الدين : والله أخرجكم من بطون أمهاتكم ، لا تدركون شيئاً مما يحيط بكم ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة وسائل للعلم والإدراك ، لتؤمنوا به عن طريق العلم ، وتشكروه على ما تفضل به عليكم .

---

(١) سورة النساء : الآية ٨٢.

(٢) المجرة والسديم بمعنى واحد ، سحابة ضخمة من غازات ومواد صلبة وعناصر أخرى مختلفة تتحرك بسرعة داخلها ، وهي تتجاذب فيما بينها ، وقد أطلق عليها علماء الفلك العرب اسم المجرة ، لأنها تشبه النهر الجاري .

النظرة العلمية : يؤكد لنا العلم بدلائله الكثيرة ، أن حاسة السمع تسبق حاسة البصر في أداء وظيفتها ، ولم يكن أحد يعلم ذلك وقت نزول القرآن ، وقد ورد تقديم السمع على البصر في أكثر من سبعة عشر موضعاً ، منها قوله تعالى : (**وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة**)(١) ، وقوله تعالى : (**إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً**)(٢) .

ويقرر العلم أن حاسة السمع تبدأ مبكرة في أداء عملها في الأسابيع القليلة الأولى بعد ولادة الطفل ، أما البصر فيبدأ عمله في الشهر الثالث ، ولا يتم تركيز الإبصار إلا بعد الشهر السادس ، ودليل ذلك أن أذن الطفل تؤدي وظيفتها عقب ولادته ، لأنه إذا سمع صوتاً شعر به وأحسه فوراً ، وصدر عنه ما يدل على التأثر به ، أما عين الطفل فإنها لا تؤدى وظيفتها إلا بعد فترة من ولادته ، ودليل ذلك أنك إذا مددت يدك قريباً منها لا ترمش ولا تتحرك .

ومن روعة الإعجاز العلمي في هذه الآية الكريمة ، أن الله سبحانه يذكر الفؤاد بعد السمع والبصر لمعنى دقيق أيضاً ، وهو أن اكتساب العلم يحصل بعد الانتقال من مرحلة الإدراك الحسي بالسمع والبصر إلى مرحلة الإدراك العقلي ، وهذه هي طريقة تعلم المعارف والخبرات ، وكلها تجيء بحسب الترتيب الذي ذكره القرآن ، وهو الإدراك الحسي أولاً ، ثم الإدراك العقلي ، ودليل ذلك واضح في أن الطفل يولد لا يعلم شيئاً ، ثم تتوالى عليه المدركات الحسية وتتكاثر عن طريق السمع ثم البصر ، فإذا صارت مجموعة المدركات الحسية كافية ، يأتي دور الفؤاد ليعقل ويعي ما أدركه الطفل منها بحواسه .

وهناك حقيقة أخرى في تقديم السمع على البصر ، وهو أن القرآن يذكر السمع مفرداً ، ويذكر الإبصار بصيغة الجمع ، وفي ذلك سر من أسرار الإعجاز أيضاً ، لأن استقبال الأذن للمسموع لا خيار للإنسان

---

(١) سورة الأحقاف : الآية ٢٦ .

(٢) سورة الإسراء : الآية ٣٦ .

فيه ، حيث لا حجاب يحجب وصول الصوت إلى طبلة الأذن ، أما العين فللإنسان الخيار في أن يرى أو لا يرى ، ولها جفون تساعد على ذلك .

٣ ـ قال الله تعالى في سورة المائدة : آية (٦) :

(يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق ، وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين ، وإن كنتم جنباً فاطهروا ، وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماءً فتيمموا صعيداً طيباً ، فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ، ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون) .

تفسير علماء الدين : يا أيها المؤمنون إذا قمتم للصلاة ولم تكونوا متوضئين ، فتوضؤوا بغسل وجوهكم وأيديكم إلى المرافق ، وامسحوا رؤوسكم كلها أو بعضها ، واغسلوا أرجلكم مع الكعبين ، وإن كنتم جنباً فاغسلوا جميع أبدانكم بالماء ، وإن كنتم مرضى مرضاً يمنع استعمال الماء ، أو كنتم مسافرين ، وتعذر وجود الماء ، فعليكم بالتيمم بالتراب الطهور ، ما يريد الله فيما أمركم به التضييق عليكم ، ولكنه شرع ذلك لتطهيركم ظاهراً وباطناً ، وليتم نعمه عليكم بالهداية والبيان والتيسير ، ولتشكروا الله على هدايته وتمام نعمته بالمداومة على طاعته .

النظرة العلمية : يقرر العلم الحديث أن هذه الآية الكريمة تظهر لنا علاقتها بالطب ، ولا سيما الطب الوقائي للإنسان من الأمراض الجلدية التي يتعرض لها ، إذا لم ينظف أعضاء جسمه وبخاصة المعرضة للعوامل الجوية ، وما فيها من أتربة وجراثيم وغازات ضارة ، ولا شك أن الوجه والأيدي والأرجل هي أكثر أجزاء الجسم تعرضاً للتلوث والتأثر بهذه الميكروبات ، وهي تعد بملايين الملايين في كل سنتيمتر مكعب من الهواء ، وأن الوضوء خمس مرات في اليوم لا يترك مطلقاً أي درن على الجسم يخشى منه الضرر ، وهكذا نرى آيات الله سبقت الحكمة القائلة : إن الوقاية خير من العلاج .

٤ ـ وقوله تعالى في سورة الرحمن : آية (١٩ , ٢٠) :

(مرج البحرين يلتقيان ، بينهما برزخ لا يبغيان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان) .

النظرة العلمية : تشير هذه الآية إلى نعمة الله على عباده ، وهي عدم اختلاط مياه البحر المجاورة للمياه العذبة ، بل جعل بينهما قانوناً ثابتاً يحكم فيهما العلاقة بينهما ، من حيث الكثافة والملوحة وما فيهما من أحياء مائية ، كأن بين كل بحر وآخر حاجزاً غير ظاهر للعيان ، لم تقمه يد الإنسان ، ولكن أقامته يد الرحمن .

ومن عجائب قدرة الله تعالى ، أنه جعل ماء النهر لا يؤثر في ماء البحر فيغير ملوحته ، كما لا يؤثر ماء البحر في ماء النهر ، لأن النهر الذي يصب في البحـر يكون عادة بمستوى أعلى من مستوى سطح البحر ، وتدل المشاهدة على أن مياه نهر الأمزون الذي يصب في المحيط الأطلسي تندفع مسافة ٢٠٠ ميل في المحيط حافظة لعذوبتها طول هذه المسافة ، وفي الخليج العربي نجد عيوناً من الماء العذب تفيض داخل ماء الخليج الملح بماء عذب .

٥ ـ في سورة الواقعة : آية (٧٥ ، ٧٦) :

قال الله تعـالى : **(فلا أقسم بمـواقـع النجـوم وأنه لقسم لو تعلمون عظيم) .**

النظرة العلمية : يقسم المولى تبارك وتعالى بمواقع النجوم ، لأن القسم بمواقعها يوجه الانتباه إلى أن المسافات بين النجوم تبلغ حدوداً لا يتصـورها الخيال ، فمثلاً نجد أن أقرب نجم إلينا في مجرتنا وهي الشمس ، تبعد عنا بمقدار ٥٠٠ سنة ضوئية ، بينما النجم الذي يليها بالقرب يبعد عنا بمقدار أربع سنوات ضوئية تقريباً ، والسنة الضوئية تدل على مدى المسافة التي يقطعها الضوء في سنة كاملة ، علماً بأن سرعة الضوء تساوي ٣٠٠ ألف كيلومتر في الثانية ، ثم إن هناك مدلولاً علمياً آخر عن مواقع النجوم ، وهي أن موقع الشمس موقع بالغ الدقة

في وضعه ، لكي تستقيم معه الحياة على كوكبنا الأرضي ، لأنها لو تقدمت عن موضعها الحالي ، لاحترقت الأرض من شدة حرارتها ، ولو تأخرت عن موضعها ، لبردت الأرض ، وتجمدت فيها البحار والمحيطات ، وتعتبر غير صالحة لحياة البشر عليها .

ويلي هذه الآية قول الله تعالى : (**إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون**) ، وهذا القسم للإشارة بشأن القرآن ، وأنه كثير المنافع ، وأنه محفوظ في لوح مصون ، لا يطلع عليه غير المقربين من الملائكة .

٦ ـ **وقال الله تعالى في سورة القيامة** : **آية (٣ ، ٤)** :

(أيحسب الإنسان ألن نجمع عظامه ، بلى قادرين على أن نسوي بنانه) .

تفسير علماء الدين : أيحسب الإنسان بعد أن خلقناه من عدم ، أن لن نجمع ما بلي وتفرق من عظامه ؟ نعم إننا نقدر على أن نسوي أطراف أصابعه الصغيرة ، ونجعلها كما كانت قبل الموت ، فكيف بالعظام الكبار ؟ .

النظرة العلمية : تدل عبارة تسوية البنان على معنى لم يكشف العلم سره إلا بعد نزول الآية بأكثر من ألف سنة ، حينما عرف أن لكل بنان بصمة خاصة به ، وتختلف فيها اتجاهات خطوطها اختلافاً واضحاً بين فرد وآخر وبين جميع البشر ، وقد استخدم الإنسان هذه الاختلافات في تحقيق الشخصية عن طريق البصمات ، وقد أفادت هذه الحقيقة في التعرف على الأشخاص عن طريق بصماتهم ، لأنه في حالة وقوع جرائم يترك الجناة فيها بصماتهم على أي شئ يتناولوه .

٧ ـ **وقال الله تعالى في سورة الطارق** : **آية (١١ ، ١٢)** :

(والسماء ذات الرجع ، والأرض ذات الصدع ، إنه لقول فصل وما هو بالهزل) .

النظرة العلمية : يتجلى إعجاز القرآن في كلماته الحقة التي

تنطوي على معان دقيقة ، وتحمل علماً إلهياً لا علماً بشرياً ، ففي قوله تعالى : (**والسماء ذات الرجع**) أي أنها ترجع وتعيد للأرض ما فُقدَ من بحارها ومحيطاتها من بخار الماء الذي يجتمع مكوناً سحباً ، ثَم يتكاثف ويسقط الأمطار الغزيرة على الأرض ، كما أقسم سبحانه بالأرض ذات الصدع ، أي التي تتصدع وتنشق ، ليخرج منها النبات بعد ارتوائها بماء المطر ، كما أنها أيضاً ذات الصدوع التي تكونت في باطنها ، وصارت مكامن تتفجر منها مواد الغاز الطبيعي والبترول وينابيع الماء الكبريتية ، وكأنها تعيد لنا ما انطوى في باطنها من النبات بعد تحوله وتحلله إلى مواد أخرى .

معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم الحسية غير القرآن

أما غير القرآن من معجزاته عليه الصلاة والسلام الحسية فكثيرة ، حتى قال بعضهم تبلغ ثلاثة آلاف ، وها أنا أتحف القارئ بعدد قليل من تلك المعجزات الباهرة :

١ ـ رده عين قتادة بن النعمان :

فقد أصيبت عينه يوم بدر ، فسالت حدقته على وجنتيه ، فأرادوا أن يقطعوها ، فسألوا رسول الله ، فقال : لا ، فدعاه فغمز حدقته براحته ، فكان لا يدري أي عينيه أصيبت . أخرجه ابن عدي وأبو يعلى والبيهقي من طريق عاصم بن عمر بن قتادة عن حديث قتادة بن النعمان .

٢ ـ براء عين علي بن أبي طالب :

أخرج الشيخان عن سهل بن سعد ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم خيبر : لأعطين هذه الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه ... فلما أصبح قال : أين علي بن أبي طالب ؟ فقالوا : يشتكي عينه ، قال : فأرسلوا إليه ، فأتى به ، فبصق رسول الله في عينه ، ودعا له فبرأ ، حتى كأن لم يكن به وجع .

٣ ـ نبع الماء من بين أصابعه (١) :

وردت عـدة أحاديث في نبع الماء من بين أصابعه ، وإليك بعضاً منها :

أ ـ أخرج البخاري عن جابر فقال : عطش الناس يوم الحديبية ورسول الله بين يديه ركوة فتوضأ منها ، ثم أقبل على الناس فقال : مالكم ؟ ، فقالوا : ليس عندنا ماء نتوضأ به ولا نشرب إلا ما في ركوتك ، فوضع النبي يده في الركوة ، فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون ، فشربنا وتوضأنا ، قال الراوي عن جابر ، فقلت لجابر : كم كنتم يومئذ ؟ ، قال : لو كنا مئة ألف لكفانا ، كنا خمس عشرة مئة .

ب ـ أخرج البخاري عن أنس قال : أتى النبي بإناء وهو بالزوراء (٢) ، فوضع يده في الإناء ، فجعل الماء ينبع من بين أصابعه فتوضأ القوم ، قال قتادة : قلت لأنس ، كم كنتم ؟ ، قال : ثلاثمائة ، أو زهاء ثلاثمائة (٣) .

٤ ـ إخبار الشاة المسمومة له صلى الله عليه وسلم بذلك :

أ ـ أخرج الشيخان عن أنس رضي الله عنه ، أن يهودية أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم بشاة مسمومة فأكل منها ، فجيء بها إلى رسول

(١) قال القرطبي : نبع الماء من بين أصابعه تكررت منه في عدة مواطن في مشاهد عظيمة وردت من طرق كثيرة يفيد مجموعها العلم القطعي المستفاد من التواتر المعنوي ، قال العلماء : لم يسمع بمثل هذه المعجزة عن غير نبينا ، حيث نبع الماء من بين عظمه وعصبه ولحمه ودمه ، ونقل ابن عبد البر عن المزني أنه قال : نبع الماء من بين أصابعه أبلغ في المعجزة من نبع الماء من الحجر، لأن خروج الماء من الحجر معهود ، بخلاف خروج الماء من بين اللحم والدم ، وقد روي نبع الماء من بين أصابعه في مواطن كثيرة جماعة من الصحابة ، منهم أنس ، وجابر ، وابن مسعود ، وابن عباس ، وأبو ليلى الأنصاري ، وأبو رافع مولى رسول الله ﷺ . ا . هـ . من حجة الله على العالمين .

(٢) مكان بالمدينة .

(٣) قـدر .

الله صلى الله عليه وسلم ، فسألها عن ذلك ، قالت : أردت لأقتلك ، قال : ما كان الله ليسلطها على ذلك .

ب - وأخرج الدارمي والبيهقي ، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه ، أن يهودية من أهل خيبر أهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم شاة مسمومة ، فأخذ الذراع فأكل منها ، وأكل رهط من أصحابه ، فقال : ارفعوا أيديكم ، ودعا اليهودية ، فقال : أسممت هذه الشاة ؟ قالت : من أخبرك ؟ قال : أخبرتني هذه التي في يدي الذراع ، قالت : نعم ، قال : فما أردت إلى ذلك ، قالت : قلت: إن كان نبياً فلا يضره ، وإن لم يكن نبياً استرحنا منه ، فعفا عنها ، ولم يعاقبها .

ت - وأخرجه البيهقي وأبو نعيم من وجه آخر ، عن جابر وفيه قال : امسكوا ، فإن عضواً من أعضائها يخبرني أنها مسمومة .

٥ - تكثير الطعام ببركته صلى الله عليه وسلم :

وردت أحاديث كثيرة في هذا المعنى ، وأكتفي بحديث جابر رضي الله عنه المتفق عليه ، وهو حديث طويل ، وخلاصته :

أن النبي صلى الله عليه وسلم وجيشه من الصحابة كانوا مشغولين بحفر الخندق ، ورأى جابر بالنبي صلى الله عليه وسلم أمارة الجوع ، فجاء إلى زوجته ، وكان عندهم عناق وصاع من شعير ، فذبح العناق ، وقال لزوجته أن تطحن الشعير وتخبزه وتطبخ اللحم ، ورجع فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بما صنع وقال له : تعال أنت ونفر معك ، يعني دون العشرة ، وفي رواية : طعيم لنا صنعته ، فقم أنت يارسول الله ورجل أو رجلان ، فجاء الرسول صلى الله عليه وسلم ومعه أصحابه من المهاجرين والأنصار وكانوا ألفاً ، فقال جابر : لقيت من الحياء ما لايعلمه إلا الله ، وقلت : جاء الخلق على صاع من شعير وعناق ، وجاء النبي يقدم الناس ، ودعا بالبركة في العجين واللحم ، ثم قال لجابر : ادع خابزة لتخبز مع زوجتك ، ثم قال : اقدحي : أي اغرفي من برمتكم ولا تنزلوها ، وأقعدهم عشرة عشرة يأكلون ، قال جابر : فأقسم

بالله ، لقد أكلوا حتى تركوه وانصرفوا ، أي مالوا عن الطعام ـ وأن برمتنا لتغط ـ أي لتغلي وتفور ـ كما هي ، وعجيننا ليخبز كما هو ، وفي رواية : ما زال يقرب الناس حتى شبعوا أجمعين ، والتنور والقدر أملأ ما كانا ، فقال : كلي واهدي ، فلم نزل نأكل ونهدي يومنا أجمع ، وفي رواية : فأكلنا وأهدينا لجيراننا ، فلما خرج صلى الله عليه وسلم ذهب ذلك .

٦ ـ سقوط الأصنام بإشارته صلى الله عليه وسلم :

أ ـ أخرج البخاري ومسلم والبزار والطبراني وأبو يعلى ، عن جابر وعبد الله بن مسعود قالا : كان حول البيت ستون وثلاث مائة صنم مثبتة الأرجل بالرصاص في الحجارة ، فلما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد عام الفتح ، جعل يشير بقضيب في يده إليها ، ولا يمسها ، ويقول : جاء الحق ، وزهق الباطل ، فما أشار إلى وجه صنم إلَّا وقع لقفاه ، ولا لقفاه إلا وقع على وجهه ، حتى ما بقي منها صنم .

ب ـ وفي رواية لابن مسعود فجعل يطعنها ويقول : جاء الحق ، وما يبدىء الباطل ، وما يعيد ، ويجمع بين الروايتين بأنه صلى الله عليه وسلم ، كان يشير إلى بعضها من غير أن يمسها ، ويتلو الآية الأولى ، وتارة يطعنها ، ويتلو الآية الثانية .

٧ ـ استجابة دعائه صلى الله عليه وسلم :

أ ـ أخرج البخاري ومسلم عن أنس ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعبد الرحمن بن عوف : بارك الله لك ، وأخرجه ابن سعد والبيهقي من وجه آخر ، وزادا قال عبد الرحمن : فلقد رأيتني ، ولو رفعت حجراً ، لرجوت أن أصيب تحته ذهباً أو فضة ، وفتح الله له أبواب الخيرات ، وكان حين قدم المدينة فقيراً ، لا يملك شيئاً ، واشتغل بالتجارة ، ففي أقرب زمن رزقه الله مالاً كثيراً ببركة دعائه صلى الله عليه وسلم ، حتى أنه لما توفي بالمدينة سنة إحدى وثلاثين أو اثنتين وثلاثين ، حفر الذهب من تركته بالفؤوس ، حتى جرحت الأيدي من كثرة العمل ،

وأخذت كل زوجة من زوجاته الأربع ربع الثمن ثمانين ألفاً ، وقيل : إن نصيب كل واحدة كان مائة ألف ، وقيل : بل صولحت إحداهن على نيف وثمانين ألف دينار ، وأوصى بألف فرس وخمسين ألف دينار في سبيل الله ، وأوصى بحديقة لأمهات المؤمنين رضي الله عنهن ، بيعت بأربعمائة ألف ، وأوصى لمن بقي من أهل بدر ، لكل رجل بأربعمائة دينار ، وكانوا مائة ، فأخذوها ، وأخذ عثمان فيمن أخذ ، هذا غير صدقاته الفاشية في حياته .

ب - وأخرج البخاري عن أنس قال : أصاب أهل المدينة قحط على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبينما هو يخطب يوم الجمعة ، إذ قام رجل فقال : يا رسول الله ، هلكت الكراع(١) ، هلكت الشاء ، فادع الله يسقينا ، فمد يده ودعا ، قال أنس : وإن السماء كمثل الزجاجة(٢) ، فهاجت ريح ، وأنشأت سحاباً ، ثم اجتمع ، ثم أرسلت السماء عزاليها ، فخرجنا نخوض الماء حتى أتينا منازلنا ، فلم نزل نمطر إلى الجمعة الأخرى ، فقام إليه ذلك الرجل أو غيره ، فقال : يا رسول الله ، تهدمت البيوت ، فادع الله يحبسه ، فتبسم ثم قال : حوالينا ولا علينا ، فنظرت إلى السحاب يتصدع حول المدينة كأنه إكليل (٣) .

٨ - انقياد الشجر :

عن جابر رضي الله عنه قال : سرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزلنا وادياً أفيح (٤) ، فذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقضي حاجته ، فأتبعته بإداوة (٥) من ماء ، فنظر رسول الله صلى الله

(١) المراد به الخيل وقد يطلق على غيرها من الحيوان .
(٢) أي من شدة الصفاء ليس فيها شيء من السحاب .
(٣) بكسر الهمزة وسكون الكاف وهي العصابة التي تحيط بالرأس ، وأكثر ما تستعمل إذا ما كانت مكللة بالجوهر .
(٤) أوسع .
(٥) إناء أو جلد صغير يوضع به ماء .

عليه وسلم ، فلم ير شيئاً يستتر به ، فإذا شجرتان بشاطئ الوادي ، فانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى إحداهما ، فأخذ بغصن من أغصانها فقال : انقادي عَلَيَّ بإذن الله ، فانقادت معه كالبعير (١) المخشوش الذي يصانع قائده ، حتى أتي الشجرة الأخرى ، فأخذ بغصن من أغصانها فقال : انقادي عَلَيَّ بإذن الله ، فانقادت معه كذلك ، حتى إذا كان بالمنصف مما بينهما ، لأم بينهما ، فقال : التئما عَلَيَّ بإذن الله فالتأمتا .

قال جابر : فخرجت أُحْضِرُ ، مخافة أن يحس رسول الله صلى الله عليه وسلم بقربي فَيَبْتَعِدَ أو فَيَتَبَعَّدَ ، فجلست أحدث نفسي ، فحانت مني لفتة ، فإذا أنا برسول الله صلى الله عليه وسلم مقبلاً ، وإذا الشجرتان قد افترقتا ، فقامت كل واحدة منهما على ساق ، فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف وقفة ، فقال برأسه هكذا ، ثم أقبل فلما انتهى إلي قال : يا جابر هل رأيت مقامي ؟ قلت : نعم يا رسول الله . « رواه مسلم في حديث لمولى لأبي اليسر رضي الله عنه »(٢) .

٩ - حنين الجذع :

عن جابر رضي الله عنه قال : كان المسجد مسقوفاً على جذوع من نخل ، فكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا خطب ، يقوم إلى جذع منها ، فلما صنع المنبر فكان عليه ، سمعنا لذلك الجذع صوتا كصوت العشار (٣) ، حتى جاء النبي صلى الله عليه وسلم فوضع يده عليها ، فسكنت .

وفي رواية : فلما كان يوم الجمعة ، ورفع إلى المنبر ، صاحت النخلة صياح الصبي ، رواه البخاري والنسائي والترمذي بلفظ : فحن الجذع حنين الناقة ، فنزل النبي صلى الله عليه وسلم فمسه فسكن .

---

(١) الذي في أنفه حلقة بينها حبل يقاد به لسهولة سيره .

(٢) ا . هـ . من (التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول)ج٣ .

(٣) والعشار جمع عشراء وهي الناقة التي مضى عليها من يوم إرسال الفحل عليها عشرة أشهر .

١٠ - انشقاق القمر :

قد سأل الكفار من أم القرى نبياً إبداء آية ترى
فسأل المولى فشق البدرا لكنهم قد زعموه سحرا

قد أيد الله رسله بالمعجزات (١) الباهرات ، كما حكى الله عنهم في القرآن المجيد ، تلك المعجزات التي ليس في مقدور البشر أن يأتوا مثلها ، وكذلك النبي صلى الله عليه وسلم من حيث بشريته ، ليس في إمكانه أن يأتي بتلك المعجزات التي تعجز البشر ، ولو تضافروا واجتمعوا وتناصروا على أن يأتوا بمثلها - حتى لو استنصروا بالجن والملائكة - لما استطاعوا الإتيان بمثلها ، لكن الله تعالى هو الذي أيد رسله بالمعجزات ، وخاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم ، قد أيده بعديد من المعجزات دليلاً على صدق نبوته ، وقد ذكرنا كثيراً منها فيما سلف ، ومن تلك المعجزات : معجزة كبرى وهي انشقاق القمر .

قال الله تعالى : **(اقتربت الساعة وانشق القمر وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر)** (٢) ، وقد ذكر المفسرون وفي المقدمة العلامة ابن جرير والحافظ السيوطي وابن كثير والبغوي والقرطبي والبيضاوي والخازن والفخر الرازي والألوسي والخطيب الشربيني وجمال الدين القاسمي ، وسائر المفسرين حتى من مفسري الشيعة والإباضية ، في تفسير هذه الآية ثبوت انشقاق القمر للرسول صلى الله عليه وسلم ، وأوردوا الأحاديث الواردة في الانشقاق ، وأكثر الحافظ ابن جرير والحافظ ابن كثير والسيوطي من تلك الأحاديث ، كما ذكر علماء الحديث في الصحاح والسنن والمسانيد الأحاديث الواردة حول هذه المعجزة العظيمة ، ونحن نكتفي هنا بما أورده الإمامان الجليلان البخاري ومسلم ، وكفى بهما علماً وحفظاً وإتقاناً واختياراً للصحيح ، ونضيف إليهما ما رواه الإمام أحمد في مسنده والبيهقي في دلائل النبوة .

---

(١) كإخماد النار لإبراهيم ، وناقة صالح ، ومعجزات موسى وعيسى عليهم السلام .
(٢) سورة القمر : الآيتين ١ - ٢ .

ذكر بعض أحاديث انشقاق القمر ، وبعض أقوال العلماء فيه :

قال الإمام البخاري رحمه الله تعالى في كتاب مناقب الأنصار (باب انشقاق القمر) :

١ ـ عن قتادة ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، أن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية ، فأراهم القمر شقين ، حتى رأوا حراء بينهما .

٢ ـ عن عبد الله (ابن مسعود) قال : « انشق القمر ونحن مع النبي صلى الله عليه وسلم بمنى ، فقال : اشهدوا » ، وذهبت فرقة نحو الجبل .

٣ ـ عن عبد الله بن عباس : « إن القمر انشق على زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

كما ذكر هذه الأحاديث في تفسير : (**اقتربت الساعة وانشق القمر**) .

كما ذكرها في (باب سؤال المشركين أن يريهم النبي آية ، فأراهم انشقاق القمر) .

٤ ـ وقد ذكر الحافظ ابن حجر في « الفتح » أن أبا نعيم أخرج عن أبي الضحى بلفظ : « انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت كفار قريش : هذا سحر سحركم به ابن أبي كبشة ، فانظروا إلى السفار ، فإن أخبروكم أنهم رأوا مثل ما رأيتم فقد صدق ، قال : فما قدم عليهم أحد إلا أخبرهم بذلك » .

٥ ـ وروى أحمد في مسنده ، عن جبير بن مطعم رضي الله عنه ، أنه قال : « انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فصار فرقتين : فرقة على هذا الجبل ، وفرقة على هذا الجبل ، فقالوا : سحرنا محمد ، فقالوا : إن كان سحرنا ، فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم » . وتفرد به الإمام أحمد من هذا الوجه ، وأسنده البيهقي

في الدلائل من طريق محمد بن كثير ، عن أخيه سليمان بن كثير ، عن حصين بن عبد الرحمن .

٦ - وروى البخاري ، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، عن ابن عباس قال : « انشق القمر في زمان النبي صلى الله عليه وسلم » . ورواه البخاري أيضاً من حديث بكر بن مضر ، عن جعفر بن ربيعة ، عن عراك به مثله .

٧ - وروى البيهقي ، عن عبد الله بن عمر في قوله تعالى : **(اقتربت الساعة وانشق القمر)** قال : « وقد كان ذلك على عهد رسول الله ، انشق فلقتين ، فلقة من دون الجبل ، وفلقة من خلف الجبل ، قال النبي : اللهم اشهد » ، وهكذا رواه مسلم والترمذي من طرق عن شعبة عن الأعمش عن مجاهد به .

٨ - وقال ابن جرير : حدثنا ابن مثنى عبد الأعلى ، حدثنا داود بن أبي هند ، عن علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس في قوله تعالى : **(اقتربت الساعة وانشق القمر وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر)** قال : قد مضى ذلك ، كان قبل الهجرة انشق القمر حتى رأوا شقيه .

٩ - قال أبو داود الطيالسي : « حدثنا أبو عوانة عن المغيرة عن أبي الضحى عن مسروق عن عبد الله بن مسعود قال : انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت قريش : هذا سحر ابن أبي كبشة قال : فقالوا : انظروا ما يأتيكم به السفار ، فإن محمداً لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم ، قال : فجاء السفار فقالوا ذلك » (١) .

١٠ - قال العلامة ابن جرير في تفسير قوله تعالى : **(اقتربت الساعة وانشق القمر وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر)** ، يعني تعالى ذكره بقوله **(اقتربت الساعة)** دنت الساعة

---

(١) ا . هـ . من تفسير ابن كثير .

التي تقوم فيها القيامة ، وقوله « **اقتربت** » افتعلت من القرب ، وهذا من الله تعالى ذكره إنذار لعباده بدنو القيامة ، وقرب فناء الدنيا ، وأمر لهم بالاستعداد لأهوال القيامة قبل هجومها عليهم ، وهم عنها في غفلة ساهون ، وقوله (**وانشق القمر**) يقول جل ثناؤه : وانفلق القمر ، وكان ذلك فيما ذكر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة قبل هجرته إلى المدينة ، وذلك أن كفار أهل مكة سألوه آية ، فأراهم صلى الله عليه وسلم انشقاق القمر آية حجة على صدق قوله وحقيقة نبوته ، فلما أراهم أعرضوا وكذبوا ، وقالوا : هذا سحر مستمر سحرنا محمد ، فقال الله جل ثناؤه : (**وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر**) ، وبنحو الذي قلنا في ذلك ، جاءت الآثار ، وقال به أهل التأويل .

ثم ذكر الآثار المروية بذلك ، والأخبار عمن قاله من أهل التأويل . .

١١ ـ قال الحافظ ابن كثير بعد أن ساق الروايات حول هذا الموضوع :

والحاصل أنه قد وردت أحاديث كثيرة ، قال ابن كثير : « إنها متواترة بالأسانيد الصحيحة » ، وقال : « هذا أمر متفق عليه بين العلماء ، أن انشقاق القمر قد وقع في زمان النبي ، وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات » .

١٢ ـ وقال العلامة صديق بن حسن : « إنا إذا نظرنا إلى كتاب الله ، فقد أخبرنا بأنه انشق ، ولم يخبرنا بأنه سينشق ، وإن نظرنا إلى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فقد ثبت في الصحيح وغيره من طرق متواترة ، أنه قد كان ذلك في أيام النبوة ، وإن نظرنا إلى أقوال أهل العلم ، فقد اتفقوا على هذا ، ولا يلتفت إلى شذوذ من شذ ، واستبعاد من استبعد » (١) .

١٣ ـ قال العلامة الألوسي : « والأحاديث الصحيحة في الانشقاق كثيرة ، واختلف في تواتره ، فقيل: هو غير متواتر ، وفي شرح المواقف

(١) من فتح البيان .

الشريفي: أنه متواتر ، وهو الذي اختاره العلامة ابن السبكي ، قال في شرحه لمختصر ابن الحاجب : الصحيح عندى أن انشقاق القمر متواتر منصوص عليه في القرآن مروي في الصحيحين وغيرهما من طرق شتى بحيث لا يمترى في تواتره » . أ هـ .

١٤ ـ وقد جاءت أحاديثه في روايات صحيحة عن جماعة من الصحابة ، منهم : علي رضي الله عنه ، وأنس ، وابن مسعود ، وابن عباس ، وحذيفة ، وجبير بن مطعم ، وابن عمر ، وغيرهم ، نعم منهم من لم يحضر ذلك كابن عباس ، فإنه لم يكن مولوداً إذ ذاك ، وكأنس فإنه كان ابن أربع أو خمس بالمدينة ، وهذا لا يطعن في صحة الخبر كما لا يخفى .

١٥ ـ ووقع في رواية البخاري وغيره عن ابن مسعود : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنى ، فانشق القمر ، ولا يعارض ما صح عن أنس أن ذلك كان بمكة ، لأنه لم يصرح بأنه عليه الصلاة والسلام كان ليلتئذ بمكة ، فالمراد أن الانشقاق كان والنبي صلى الله عليه وسلم إذ ذاك مقيم بمكة ، قبل أن يهاجر إلى المدينة (١) .

١٦ ـ وعند أبي عوانة : « انشق القمر بمكة نحوه ، وفيه فإن محمداً لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم » .

أقول : ولما كانت الشقوة غالبة على كثير من أولئك الكفرة ، لم يؤمنوا بالرسول مع وضوح هذه المعجزة التي خص الله بها نبينا محمداً ، ولم تكن لرسول قبله ، وبالرغم أن المسافرين أخبروهم بأنهم رأوا انشقاق القمر ، لكنهم قد عاندوا وأصروا على الشرك والكفران ، وعدم الإيمان بالرسول: (**من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً**) (٢) .

---

(١) ا . هـ . من تفسير المعاني ج ٢٧ .
(٢) سورة الكهف : الآية ١٧ .

١٧ ـ قال الحافظ ابن حجر في شرح حديث أنس الأول : « هذا من مراسيل الصحابة ، لأن أنساً لم يدرك هذه القصة (١) ، وقد جاءت هذه القصة من حديث ابن عباس ، وهو أيضاً ممن لم يشاهدها (٢) ، ومن حديث ابن مسعود وجبير بن مطعم وحذيفة ، وهؤلاء شاهدوها ، قال : ولم أر في شيءٍ من طرقه ، أن ذلك كان عقب سؤال المشركين إلا في حديث أنس ، فلعله سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم (٣) . أ هـ .

قلت : ما ورد في روايات ابن مسعود كما في البخاري ومسلم ، أن النبي قال لمن معه : « اشهدوا » ، يدل دلالة واضحة أنه كان ذلك بعد سؤال المشركين له أن يريهم آية أو آية انشقاق القمر ، وإلا لو كان الانشقاق مجرد حادث سماوي وقع إذ ذاك صدفة ـ كما يقوله بعض المعاصرين ـ لما كان حاجة أن يقول النبي صلى الله عليه وسلم لمن معه : « اشهدوا » .

فإن قال قائل : إن حديث أنس جاء فيه : سألوا النبي صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية ، ولم يعينوا انشقاق القمر ولا غيرها ، فكيف أراهم انشقاق القمر ، وهلا أراهم آية أخرى أرضية ؟

فالجـــواب : لعـل المشركين سألوا النبي صلى الله عليه وسلم ، وطلبوا انشقاق القمر ، ولكن الصحابي الذي روى الحديث لأنس لم يذكر ذلك ، لأن هذه القصة كانت مشهورة عند الصحابة ، ويؤيد هذا أن قريشاً قالوا : إن هذا سحر سحركم به ابن أبي كبشة ، فاسألوا السفار ... إلخ .

---

(١) لأنه كان صغيراً وكان بالمدينة ، وقصة انشقاق القمر بمكة المكرمة قبل الهجرة .

(٢) أي لكونه كان صغيراً .

(٣) وسواء كان سمعه أنس من النبي أو من بعض الصحابة ، فإن الحجة قائمة به ، لأن مرسل الصحابي في حكم المرفوع ، لا يحوم حوله شك ولا ارتياب، لأن الصحابة كلهم عدول، وما يذكر من بعض الأخطاء من بعضهم فذلك نادر بالنسبة إليهم ، ولا حكم للنادر والحكم للأغلب .

إذاً لو لم تكن هذه المعجزة حصلت بعد سؤالهم ، لما قالوا : هذا سحر سحركم به ابن أبي كبشة ، لأن الحوادث السماوية كرمي الشهب والكسوف والخسوف والصواعق الشديدة ، وحوادث الأرض كالزلازل و الطوفان الشديد ، تحدث مراراً ولا يدعي نبي أو رسول أن هذه معجزات ، كما لا يقول أحد : إن هذا سحر ، وكان في ذلك العصر كثير من المنجمين والكهان من العرب وغيرهم ، فلم يخبر أحد منهم أنه سيقع حادث الانشقاق ، ولو كان المنجمون والكهان أخبروا بشيء لسطر في الكتب التاريخية ، وهكذا شأن الكفار والمشركين مع الأنبياء ، قال الله تعالى عما جرى مع فرعون لموسى عليه السلام عندما جاءه بالرسالة ، ودعاه إلى عبادة الله ، وأن يطلق بني إسرائيل ليذهبوا مع موسى إلى أرض فلسطين ، هدده اللعين كما أخبر الله عنه ، فقال تعالى : (**لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين ، قال أو لو جئتك بشيء مبين ، قال فأت به إن كنت من الصادقين ، فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ، ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين ، قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم**) (١) .

ما ذكره الإمام مسلم حول انشقاق القمر :

١٨ ـ أخرج مسلم عن مسروق عن عبد الله (ابن مسعود) قال : « خمس قد مضين : الدخان (٢) واللزام (٣) والروم (٤) والبطشة والقمر (٥) » .

---

(١) سورة الشعراء : الآيات من ٢٩ ـ ٣٤ .

(٢) أخرج مسلم عن ابن مسعود أن قريشاً لما استعصت على النبي ﷺ ، دعا عليهم بسنين كسني يوسف ، فأصابهم قحط وجهد ، حتى جعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد ، وحتى أكلوا العظام ، فأتى النبي ﷺ رجل فقال : يا رسول الله استغفر الله لمضر ، فإنهم قد هلكوا ، فقال للرجل : إنك لجريء ، فدعا الله لهم فأنزل الله عز وجل : ﴿**إنا كاشفو العذاب قليلا إنكم عائدون**﴾ قال : فمطروا ، فلما أصابتهم الرفاهية قال : عادوا إلى ما كانوا عليه قال : فأنزل الله عز وجل : ﴿**فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين يغشى الناس هذا**

١٩ ـ وأخرج مسلم عن عبد الله قال : « انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم شقتين ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اشهدوا » .

٢٠ ـ وساق مسلم رواية أخرى عن ابن مسعود : « بينما نحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنى ، إذ انفلق القمر فلقتين ، فكانت فلقة وراء الجبل ، وفلقة دونه ، فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : اشهدوا » .

٢١ ـ وساق رواية أخرى عنه : « انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فلقتين ، فستر الجبل فلقة ، وكانت فلقة فوق الجبل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اشهدوا اشهدوا » .

٢٢ ـ وساق عن ابن عمر مثل ذلك ، كما أخرج حديث أنس : أن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية ، فأراهم انشقاق القمر مرتين ، كما أورد رواية ابن عباس قال : « إن القمر انشق على زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

٢٣ ـ قال النووي في شرحه : قال القاضي : « انشقاق القمر من أمهات معجزات نبينا صلى الله عليه وسلم ، وقد رواها عدة من الصحابة

عذاب أليم يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون﴾قال : يعني يوم بدر .

(٣) المراد به ما جرى عليهم يوم بدر من القتل والأسر وهي البطشة الكبرى .

(٤) يعني بذلك انتصار الروم على الفرس كما في قوله تعالى : ﴿غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون﴾ .

(٥) يقصد به الانشقاق .

قال العلامة ابن جرير الطبري في تفسير سورة اقتربت : عن أبي عبد الرحمن السلمي قال : نزلنا المدائن ، فكنا منها على فرسخ ، فجاءت الجمعة فحضر أبي وحضرت معه ، فخطبنا حذيفة فقال : ألا إن الله تبارك وتعالى يقول : ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾ألا وإن الساعة قد اقتربت ، ألا وإن القمر قد انشق ، ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق ، ألا وإن اليوم المضمار ، وغداً السباق ، فقلت لأبي : أتستبق الناس غداً ، فقال : يا بني إنك لجاهل ، إنما هو السباق بالأعمال .

رضي الله عنهم مع ظاهر الآية الكريمة وسياقها » ، قال الزجاج : « وقد أنكرها بعض المبتدعة المضاهين لمخالفي الملة ، وذلك لما أعمى الله قلبه ، ولا إنكار للعقل فيها ، لأن القمر مخلوق لله تعالى ، يفعل فيه ما يشاء ، كما يفنيه ، ويكوره في آخر أمره » . أ هـ .

دفع تعارض روايات انشقاق القمر :

الشبهة الأولى والجواب عنها :

وأما ما جاء في بعض الروايات عن عبد الله بن مسعود أن القمر انشق بمكة ، وفي رواية ، ونحن مع النبي بمنى .

الجـــواب : لا تعارض بين الروايتين ، فإن منى من مكة ، وكذلك ما جاء في بعض طرق حديث ابن مسعـود بلفـظ : فرقتين ، وبلفظ : شقتين ، وفي حديث ابن عمر : فلقتين ، وفي حديث جبير بن مطعم : فرقتين ، وفي لفظ عنه : فانشقِ باثنتين ، فكل هذه الألفاظ معناها واحد وهو أنه انشق شقتين .

وكذلك ما أخرجه مسلم من حديث سعيد عن قتادة ، بلفظ : فأراهم انشقاق القمر مرتين ، قال الحافظ ابن حجر : ولا أعرف من جزم من علمـاء الحـديث بتعدد الانشقاق في زمنه صلى الله عليه وسلم ، ولم يتعرض لذلك أحد من شراح الصحيحين ، وتكلم الحافظ ابن القيم على هذه الرواية فقال : المرات يراد بها : الأفعال تارة ، والأعيان أخرى ، والأول أكثر ، ومن الثاني : انشق القمر مرتين ، وقد خفي على بعض الناس ، فادعى أن انشقاق القمر وقع مرتين .

وهذا مما يعلم أهل الحديث والسير أنه غلط ، فإنه لم يقع إلا مرة واحدة ، وقد قال العماد ابن كثير : في الرواية التي فيها مرتين نظر ، ولعـل قائلها أراد فرقتين ، قال الحافظ العسقلاني قلت : وهذ الرأي لا يتجه إلى غيره جمعاً بين الروايات .

وقد كثرت الأحاديث الواردة حول هذا الموضوع حتى قال بعضهم : إنها بلغت مبلغ التواتر المعنوي ، وذكرها مصنفو كتب التوحيد وعلماء

الكلام في كتبهم وكتب دلائل النبوة ، والمفسرون في تفاسيرهم ، والمحدثون في كتبهم .

وذهب بعض المعتزلة وبعض مفسري هذا العصر ، أن معنى انشق القمر : أنه سينشق عند قيام الساعة ، وأنه التعبير بالماضي عن المضارع كقوله : (**أتى أمر الله**) ، أي سيأتي وذلك لتحقيق الوقوع ، ويرد عليهم بما يلي :

١ ـ صحت الأحاديث في الصحيحين وغيرهما بانشقاق القمر ، وبعد ورود الأحاديث الصحيحة ، فضلاً عن الأحاديث الكثيرة التي تواترت معناها ، وأفادت العلم القطعي ، لاينبغي للمسلم أن يشك وأن يؤول ، فالرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة من بعده والتابعون وتابعوهم أعلم بتفسير القرآن من هؤلاء الذين حكموا عقولهم ومشوا خلف أهوائهم .

وفتح باب التأويل هو فتح باب سوء ، فلو فتح هذا الباب على مصراعيه ، لأمكن لكل مبطل أن يقول في آيات القرآن وفي أحاديث الرسول ما شاء ، ويؤول بحسب رأيه وفكره أو على حسب مذهبه أو مبدئه ، ولا ينبغي للمسلم أن يجعل القرآن والحديث تبعاً لمذهبه ورأيه .

٢ ـ إن ما أولوه بأنه سينشق ، مدفوع بدلالة الآية التالية : (**وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر**) ، فإن سياقها أوضح شاهد على أن قوله : آية ، مطلق شامل لانشقاق القمر وغيره ، فعند وقوعه حصل إعراضهم وقولهم سحر مستمر ، ومن المعلوم أن تقوم القيامة يوم تظهر فيه الحقائق ، ويلجئون فيه إلى المعرفة ، ولا معنى حينئذ لقولهم في آية ظاهرة : إنها سحر مستمر ، فليس إلا أنها آية قد وقعت للدلالة على الحق والصدق ، وتأتى لهم أن يرموها عناداً بأنها سحر مستمر ، ولأنه تعالى قد بين أنه يكون آية على وجه الإعجاز ، وإنما يحتاج إلى الآية أو المعجزة في الدنيا ، ليستدل بها على صحة النبوة ، ويعرف صدق الصادق ، لا في حال انقطاع التكليف ، فذلك وقت يكون الناس

فيه ملجئين إلى المعرفة ، ولأنه تعالى قال : **(ويقولوا سحر مستمر)** وفي وقت الإلجاء لا يقولون في المعجزة: إنها سحر .

٣ ـ أي مانع يمنع من وقوع انشقاق القمر معجزة لرسول الله ؟ فإنه صلى الله عليه وسلم سأل ربه ، ودعاء الرسول مستجاب ، والذي خلق القمر هو الذي شقه ، فأي استحالة في هذا الأمر ؟ وهنا قد يجيب بعضهم بأن أحاديث الآحاد لا تفيد العلم ، والعقائد لا تبنى إلا على العلم القطعي .

إن رد أحاديث الآحاد مردود على صاحبه ، وزلة كبرى لمن قال به ، وقد زيف المحققون هذ القول وقرروا أن الأحاديث الصحيحة وإن كانت أحاداً فإنها تفيد العلم ، وأنه يحتج بها ، ولا فرق بين العقائد والفروع ، مع العلم أن أحاديث انشقاق القمر بلغت مبلغ التواتر المعنوي ، فلا مجال للتأويل ولا التشكيك .

الشبهة الثانية والجواب عنها :

وهناك شبهة أخرى وهي : لو وقع انشقاق القمر لجاء متواتراً ، واشترك أهل الأرض في معرفته ، ولما اختص به أهل مكة ؟ .

الجواب :

والجواب عن هذه الشبهة كما في فتح الباري : إن ذلك وقع ليلاً وأكثر الناس نيام والأبواب مغلقة ، وقل من يرصد السماء إلا النادر ، وقد يقع في المشاهدة في العادة ، أن ينخسف القمر ، وتبدو الكواكب العظام وغير ذلك في الليل ، ولا يشاهدها إلا الآحاد ، وكذلك الانشقاق كان آية وقعت في الليل لقوم سألوا واقترحوا ، فلم يتأهب غيرهم لها ، ويحتمل أن يكون القمر ليلة أن كان في بعض المنازل التي تظهر لبعض أهل الآفاق دون بعض ، كما يظهر الخسوف لقوم دون قوم .

شبهات بعض المعاصرين حول انشقاق القمر والأجوبة عنها :

وإذ قدمت الأجوبة عن شبهات القدماء حول انشقاق القمر ، فإلى

القراء والواقفين على هذا الكتاب ، شبهات بعض العصريين على انشقاقه والأجوبة عنها ؟ .

الشبهة الأولى ، والجواب عنها :

إنه وإن كانت تلك الأحاديث صحيحة إلى أن تصل إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لكننا نشك في صحة السند ... إلخ . ؟

الجـــواب :

١ ـ لا ينبغي للمسلم أن يقابل القرآن بالتأويلات الفاسدة ، ويجر الآيات إلى رأيه ويطبقها على مذهبه ، ولا يقف أمام الأحاديث الصحيحة موقف التشكيك ، فلا يخفى على أحد ممن شمَ رائحة العلم ، ولا سيما علم الحديث ، أن علماء الحديث لم يألوا جهداً في تمييز الصحيح من الحسن ومن الضعيف والموضوع ، وقد وضعوا علم مصطلح الحديث ، وألفـوا في ذلك كتبـاً لا تعـد ولا تحصى ، وبينـوا أقسام الحديث من الصحيح والحسن والضعيف والموضوع والمرسل والمعضل ، إلى سائر ما هنـاك من أقسـام الحديث ، كما ألفوافي الجرح والتعديل ، وبينوا مراتب الرواة ونقدوا الرجال نقداً ليس بعده نقد ، وقد يردون رواية الرجل لأدنى هفوة ، فتراهم يتكلمون عن رجال السند واحداً واحداً ، حتى ولو كان السند فيه عشرة رجال وواحد منهم غير ثقة أو عهد منه النسيان أو الاختلاط أو قلب الأسانيد أو نحو ذلك ، ردوا روايته ولم يقبلوها .

أتصحيح هؤلاء الجهابذة النقاد ، يكون محل شك لمن لم يبلغ ولم يمنـح عشر معشار ما منحهم الله به من العلوم والحفظ المتقن وسعة الرواية والبصيرة النيرة ؟ .

٢ ـ قد قالوا في تعريف الحديث الصحيح كما في طلعة الأنوار تحت عنوان : (أقسام الحديث) :

منه صحيح (١) وهو ما يتصل سنده دون شذوذ (٢) يحصل
وليس فيه علة تعطل (٣) وكل راو ضابط معدل

فتأمل هذا التعريف وما حواه من الشروط ، من اتصال السند إلى النبي أو الصحابي ، والخلو من الشذوذ والعلة ، وعدل الراوي الضابط (٤) ، ومعنى العدل كما في التعليق : « المسلم البالغ السالم من ارتكاب كبيرة أو إصرار على صغيرة » ، فإذا كانت هذه شروط الحديث الصحيح ، وأحاديث الانشقاق من أحاديث الصحيحين ، التي أجمعت الأمة الإسلامية إلا من قلَّ وندر من المبتدعة على التسليم لأحاديثهما ، وأنهما حازا على درجات الصحة ، لا سيما إذا اتفقا على الحديث ، كما قال في طلعة الأنوار .

أعلى الصحيح(٥) ما عليه اتفقا فما روى الجعفي فرداً ينتقى
فمسلم كذلك في الشرط عرف فما لشرط غير ذين يكتنف

---

(١) بحيث يكون كل من رجاله سمعه من شيخه من أول السند إلى آخره حتى ينتهي إلى النبي ﷺ أو الصحابي، ومن هنا خرج المنقطع والمعضل والمعلق والمرسل على رأي من لايحتج به كالشافعي .

(٢) بأن لا يكون الثقة خالف من هو أرجح منه حفظاً مخالفة لا يمكن فيها الجمع .

(٣) أي تقدح وتؤثر في صحة الحديث ، وذلك كإرسال الحديث الموصول ، إما إرسالا خفياً بأن يرويه عمن عاصره بلفظ عن ، ولم يسمع منه شيئاً ، أو ظاهراً بأن ينقل عن شيخ عرف عند الناس عدم اجتماعه به ، والحال أنه لم يسمع عنه شيئاً .

(٤) ضبط مصدر وهو أن يثبت ما سمعه ، بحيث يتمكن من استحضاره متى شاء ، أو ضبط كتاب ، وهو أن يصونه لديه منذ أن سمع فيه وصححه إلى أن يروي عنه ، والمراد بالعدل هنا عدل الرواية ، وهو المسلم البالغ السالم من الفسق بارتكاب كبيرة أو إصرار على صغيرة ، فخرج الفاسق والمجهول عيناً كحدثنا رجل ، أو حالا كحدثنا زيد ولا يعرف من هو إلا أنه ابن محمد مثلا ، ولم ينص أحد من أهل الحديث على توثيقه أو تجريحه . (اهـ . ملخصاً من رفع الأستار شرح طلعة الأنوار) .

(٥) أي أصح مراتب الحديث الصحيح ما اتفق البخاري ومسلم على إخراجه ، ثم ما انفرد به البخاري عن مسلم ، لأن شرط البخاري أضيق ، ثم ما انفرد به مسلم .
قال علماء الحديث : إن مراتب الحديث الصحيح سبعة :

فإن للإمامين البخاري ومسلم من الشروط لصحة الحديث ، ما ينفي كل شك وريب ، وقد أجمعوا على صحة ما في البخاري ومسلم ، واتفقت الأمة على صحة أحاديثهما .

قال الدكتور محمد عجاج الخطيب : « لقد بذل الشيخان ما في وسعهما في تصنيف صحيحيهما تصنيفاً علمياً دقيقاً ، يقوم على شروط الصحة التي لا يختلف فيها أئمة هذا الشأن ، فتلقتهما الأمة بالقبول ، وأجمع أهل العلم على أنهما أصح كتابين بعد القرآن الكريم » .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : « ليس تحت أديم السماء كتاب أصح من البخاري ومسلم بعد القرآن » .

وقال الإمام الدهلوي : « أما الصحيحان ، فقد اتفق المحدثون على أن جميع ما فيهما من المتصل المرفوع صحيح بالقطع ، وأنهما متواتران إلى مصنفيهما ، وأن كل من يهون أمرهما ، فهو متبع غير سبيل المؤمنين » (١) .

وقال الإمام النووي في مطلع شرحه على صحيح مسلم : اتفق العلماء على أن أصح الكتب بعد القرآن الكريم الصحيحان ، صحيح البخاري وصحيح مسلم ، فتلقتهما الأمة بالقبول ، كتاب البخاري أصحهما صحيحاً وأكثرهما فوائداً ، وقد صح أن مسلماً كان يستفيد منه ، ويعترف بأنه ليس له نظير في علم الحديث . أ هـ .

---

(١) ما اتفق عليه الشيخان .

(٢) ما انفرد به البخاري .

(٣) ما انفرد به مسلم .

(٤) الحديث الذي على شرطهما ولم يخرجه واحد منهما في صحيحه .

(٥) ما هو على شرط البخاري وحده .

(٦) ما هو على شرط مسلم وحده .

(٧) ما هو على شرط غيرهما من الأئمة المعتبرين وليس على شرط واحد منهما ، وإليه أشار الناظم بقوله (فما) أي يلي ذلك الحديث الذي (لشرط غير ذين) أي الصحيحين، (يكتنف) أي يحتوي شرط غيرهما .

(١) ا . هـ . من كتاب أصول الحديث علومه ومصطلحه .

وقد روى الفربري عن البخاري أنه قال : « ما أدخلت في الصحيح حديثاً إلا بعد أن استخرت الله ، وثبتت صحته » ، وكان مسلم يقول : « عرضت كتابي على أبي زرعة ، فكل ما أشار إلى أن له علة تركته » .

وأحاديث انشقاق القمر من الأحاديث المتفق بين الشيخين عليها ، ولم يتكلم عالم من علماء الحديث مع كثرتهم بنقد أو طعن فيها ، وفيهم النقاد المبرزون كعلي بن المديني ، ويحيى بن معين ، والأئمة الأربعة ونظرائهم ، وشيخ الإسلام ابن تيمية ، والحافظ ابن القيم ، والحافظ الناقد الذهبي ، والناقد العيني ، وأمثالهم ممن لا يحصون .

فهل بعد تصحيح هؤلاء الفحول لأحاديث الانشقاق ، وهم الذين انتهى إليهم علم الحديث ، ونقد رجاله ، مجال لتشكيك مشكك وارتياب مرتاب ؟ لا يشك في صحة هذه الأحاديث إلا من جهل قدر نفسه ، كما جهل قدر أولئك البحور الزاخرة ، أو أراد أن يظهر نفسه بهذه الدعوى ليشهرها بين الورى ، أو يبطن الزيغ ، وإلا فأي مجوز لأن يخالفوا الألوف العديدة من المحدثين والمفسرين ، وسائر علماء التوحيد والكلام ، الذين أطبقوا على صحة تلك الأحاديث ، وعلى قبولها ، والتسليم بها ، وعدها من المعجزات النبوية ؟ . نعم لو أن هؤلاء القائلين بهذه الشبهة وزنوا تلك الروايات بميزان علماء الحديث ، ونقدوها على قواعد الجرح والتعديل ، وجاءوا بعد ذلك بالنتيجة التي تؤيدهم ، ولسان حالهم يقول : وزنا أحاديثكم بميزانكم ، وسلطنا عليها الأضواء الكاشفة مثل أضوائكم التي كشفتم بها الأحاديث المقبولة والمردودة ، فرددناها بما رددتم كثيراً من الأحاديث ، لو فعلوا ذلك لكان كلامهم وجيهاً ، أما مجرد الشك من غير استناد إلى حجة نقلية صحيحة أو عقلية رجيحة فلا عبرة به .

٣ - إنه لا معنى للتسليم بصحة تلك الأحاديث ، ثم الشك في صحة السند ، إذ لم يحكم علماء الحديث ولا سيما الشيخين بصحتها إلا بعد صحة السند ، وهذا الوضوح بمكان لا يخفى .

٤ ـ لو أن مجرد الشك في صحة السند أو المتن ، يكون مسوغاً لرد الأحـاديث الصحيحة ، لأمكن أن ترد آلاف الأحاديث في العقائد والأحكـام بمجرد التشكيك في صحة السند ، وهذا فتح باب للزندقة والإلحاد ، إذ يمكن لكل ملحد أن يقول في أحاديث الصلاة والصيام والزكاة والحج ، بل في العقائد التي هي أساس الدين : إنها لم يصح سندها ، فماذا يبقى عندنا من الدين ؟ .

والحـال أن السنـة شـقيقـة القـرآن ، فإذا قضينـا على السنة المحمدية بمثل هذه الشـبه السقيمة ، فقـد قضـينا على القرآن لأن الله يقـول لنبيه : (**وأنزلنـا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون**) (١) ، وقال تعالى : (**وما آتـاكم الرسـول فخذوه وما نهاكم عنـه فانتهوا**) (٢) ، فلو فـكر هؤلاء في مآل كلامهم ، لما أظنهم تفوهوا أو كتبوا هـذه الشبهة الواهية . وبالله التوفيق .

الشبهة الثانية والجواب عنها :

لوصح أن يكون للنبي معجزات أخرى متحدية غير القرآن الكريم ، لما كان انشقاق القمر واحدة منها ، لأن العرب لم يتحدوه بأن يأتيهم بمعجزة معلقة في السماء ، وإنما كان من تحديهم له ، ما حكاه القرآن عنهم في قوله تعالى : (**وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبـوعاً أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجـيراً أو تسقـط السمـاء كمـا زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلا**) إلى قوله : (**قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسـولاً**) (٣) وعـززوا قولهم بقـوله تعـالى : (**وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة**) (٤) .

---

(١) سورة النحل : الآية ٤٤ .

(٢) سورة الحشر : الآية ٧ .

(٣) سورة الإسراء : الآيات ٩٠ ـ ٩٣ .

(٤) سورة الإسراء : الآية ٥٩ .

والجــواب : عن قولهم لو صح أن يكون للنبي معجزات أخرى غير القرآن ، لما كان انشقاق القمر واحدة منها :

١ ـ أن نقول هذه مكابرة وسفسطة ، وإنكار للمعجزات الباهرات العديدة التي أكرم الله بها محمداً عليه الصلاة والسلام وأيده بها ، وقد ذكرت فيما سلف عديداً من تلك المعجزات ، وقد ألف كثير من العلماء في بيان معجزاته ، وقد يسميها علماء السلف بدلائل النبوة ، كأبي نعيم والبيهقي .

٢ ـ أما منح الله رسله السابقين بكثير من المعجزات ؟ أما ألقى نمرود إبراهيم في النار ، وقال الله : (**يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم**) ؟ ، أما أيد الله شعيباً وصالحاً ولوطاً وموسى وعيسى بمعجزات ظاهرة وآيات باهرة ؟ فهل يستغرب أن يكرم الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بخوارق تؤيده بدعوى النبوة والرسالة بالنسبة للكفار ، أو تزيد في إيمان المؤمنين ، وتقوي النفوس بالنسبة للمسلمين ؟

نعم القرآن المعجزة الكبرى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، لكونه باق ما بقي الدهر ، يتحدى الثقلين أن يأتوا بسورة من مثله ، لا يرتاب في ذلك ذوو النهي ، ولكن ليس معنى ذلك ، أنه لم يكن له معجزات غيره ، أي غير القرآن .

وأما قولهم : لأن العرب لم يتحدوه بأن يأتيهم بمعجزة معلقة في السماء .

فالجــواب : قد سبق أن بينا في شرح حديث أنس ، أن كفار مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية ، فأراهم القمر شقتين ، وقوله في الحديث : اشهدوا اشهدوا ، يدل على أنهم سألوه هذه الآية ، وإلا فلماذا يقول : اشهدوا ؟ .

وقد أخرج أبو نعيم كما سبق : سحر سحركم به ابن أبي كبشة ، قال الحافظ ابن حجر في الفتح : أخرج أبو نعيم في الدلائل من وجه ضعيف عن ابن عباس قال : اجتمع المشركون إلى رسول الله ، منهم

الوليد بن المغيرة وأبو جهل بن هشام والعاصي بن وائل والأسود بن المطلب والنضر بن الحارث ونظراؤهم ، فقالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : إن كنت صادقاً ، فشق لنا القمر فرقتين ، فسأل ربه فانشق . اهـ[1] .

وهذا وإن قال فيه الحافظ من وجه ضعيف ، ولكن يتأيد بحديث أنس المار المخرج في الصحيحين ، وكل ما في الأمر أن حديث أنس أجمل ولم يذكر السائلين بأعيانهم ، وحديث ابن عباس فعل ذلك بأعيانهم إذ ذكر أسماءهم .

وأما قولهم : إنما كان تحديهم له ، ما حكاه القرآن عنهم في قوله تعالى : (**وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً**) إلى قوله تعالى : (**قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولا**)[2] .

وتشبثهم بهذه الآيات على إنكار انشقاق القمر كمعجزة لسيد الأولين والآخرين ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال بعد أن طلبت قريش تلك الطلبات المذكورة في هذه الآيات ، قال كما قال الله : (**هل كنت إلَّا بشراً رسولا**) ، وليس في إمكان البشر أن يأتوا بمثل هذه الآيات وقالوا : لو أن الله يريد أن يؤيد رسوله بالآيات غير القرآن ، لأكرم رسوله بما طلبه المشركون ، لاسيما وأهل مكة كانوا في حاجة ماسة إلى الماء والزرع والنخيل والأعناب والأشجار ، لأن بلادهم قاحلة ومحاطة بالجبال .

فالجواب : من وجوه : أ – أن يقال : إن الله أعلم بمصالح عباده وبطبائعهم وما جبلوا عليه ، ولو علم الله أن في إجابتهم لتلك المقترحات فائدة ـ وهي إيمانهم بالله إيماناً خالصاً من شوائب الشرك ، وتصديقهم برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ـ لأجابهم ، ولكن علم الله أنهم قوم متمردون على الحق ، ومصرون على الشرك والباطل .

---

(١) من فتح الباري ج ٧ باب انشقاق القمر .

(٢) سورة الإسراء : الآيات ٩٠ ـ ٩٣ .

وأن الآيات لا تفيد في كثير منهم ، فلذا لم يجبهم ، كما قال الله تعالى : (**إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم**)[1] ، وقال تعالى : (**ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا**)[2] الآية .

وقال تعالى [3] : (**وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها ، قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون**)[4] .

ب - جرت سنة الله في مكذبي الرسل إذا طلبوا من رسولهم آية ليؤمنوا به ، فإذا أجابهم الله وأيد رسوله بتلك الآية التى طلبوها ثم لم يؤمنوا بها ، أن يهلكهم الله جميعاً ، كما أخبر الله سبحانه وتعالى عن نبيه صالح ، حيث طلبوا منه معجزة ، واقترحوا عليه أن تخرج لهم من صخرة صماء عينوها بأنفسهم ناقة حبلى ، فأخذ عليهم صالح العهود والمواثيق لئن أجابهم الله إلى سؤالهم ليؤمنن به ، وعند ذلك قام صالح

---

(١) سورة يونس : الآية ٩٦ .

(٢) سورة الأنعام : الآية ١١١ .

(٣) يقول تعالى إخباراً عن المشركين : إنهم أقسموا بالله جهد أيمانهم ، أي حلفوا أيماناً مؤكدة ﴿**لئن جاءتهم آية**﴾ أي معجزة وخارق ﴿**ليؤمنن بها**﴾ أي ليصدقنها ﴿**قل إنما الآيات عند الله**﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الذين يسألونك الآيات تعنتاً وكفرا وعناداً ، لا على سبيل الهدى والاسترشاد ، وإنما مرجع هذه الآيات إلى الله ، إن شاء جاءكم بها وإن شاء ترككم ،﴿**ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة**﴾عن ابن عباس في هذه الآية ، لما جحد المشركون ما أنزل الله لم تثبت قلوبهم على شيء وردت عن كل أمر ، وقال مجاهد في قوله : ﴿**ونقلب أفئدتهم وأبصارهم**﴾ نحول بينهم وبين الإيمان ﴿**ولو جاءتهم كل آية فلا يؤمنون**﴾ كما حلنا بينهم وبين الإيمان أول مرة ﴿**ونذرهم**﴾ أى نتركهم (في طغيانهم) في ضلالهم ﴿**يعمهون**﴾ في كفرهم يترددون .

(٤) سورة الأنعام الآية : ١٠٩ .

ودعا الله ، فتحركت تلك الصخرة ثم انصدعت عن ناقة يتحرك جنينها بين جنبيها كما سألوا ، وعند ذلك آمن رئيسهم جندع بن عمرو ومن كان معه على أمره ، وكذب الباقون ولم يكتفوا بتكذيبهم : **(فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين)**[1] .

ولما جاء موسى إلى فرعون يدعوه إلى الإيمان بالله وبرسوله موسى ، وأن يرسل معه بني إسرائيل ، قال كما أخبر الله : **(إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين)**[2]، **(فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين)**[3] ، **(ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين)**[4] ، **(قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم)**[5] ، وبالرغم من تعدد المعجزات التي أكرم الله بها نبيه موسى عليه السلام لم يؤمن اللعين ، بل زاد كفره وعتوه حتى قال : **(أنا ربكم الأعلى فأخذه الله نكال الآخرة والأولى)**[6] ، وذلك بإغراقه وقومه في البحر أجمعين ، كما قال الله تعالى : **(وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ثم أغرقنا الآخرين)**[7] ، **(إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين)**[8] .

ولما طلب الحواريون من عيسى إنزال مائدة لهم من السماء ، دعا عيسى قائلا : **(اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين)**[9] ، قال

---

(١) سورة الأعراف : الآيتان ٧٧ - ٧٨ .
(٢) سورة الأعراف : الآية ١٠٦ .
(٣) سورة الأعراف : الآية ١٠٧ .
(٤) سورة الأعراف : الآية ١٠٨ .
(٥) سورة الأعراف : الآية ١٠٩ .
(٦) سورة النازعات : الآيتان ٢٤ - ٢٥ .
(٧) سورة الشعراء : الآيتان ٦٥ - ٦٦ .
(٨) سورة الشعراء : الآية ٦٧ .
(٩) سورة المائدة : الآية ١١٤ .

الله : **(إني منـزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين)**[١] .

وقـال قوم شعيب كمـا في سورة الشعـراء : **(إنمـا أنت من المسحـرين)**[٢] . يعنون من المسحورين ، **(وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين)** [٣]، أي تتعهد الكذب فيما تقوله ، لا أن الله أرسلك إلينـا ، **(فأسقـط علينـا كسفـاً من السمـاء إن كنت من الصادقين)**[٤] في دعوى النبوة ، ومعنى كسفاً أي قطعاً من السماء ،

---

(١) ولما طلب عيسى من ربه أن ينزل عليهم مائدة من السماء كما طلب الحواريون ، استجاب الله لدعائه ، فأقبلت الملائكة تطير بمائدة من السماء عليها سبعة أحوات وسبعة أرغفة حتى وضعتها بين أيديهم ، فأكل منها آخر الناس كما أكل منها أولهم ، كذا رواه ابن جرير، ورواه ابن أبي حاتم : كان ابن عباس يحدث فذكر نحوه ، روى ابن أبي حاتم عن عمار بن ياسر عن النبي ﷺ قال : «نزلت المائدة من السماء عليها خبز ولحم ، وأمروا أن لا يخونوا ولا يرفعوا لغد ، فخانوا وادخروا ورفعوا ، فمسخوا قردة وخنازير، ورويت أخبار أخرى كلها تدل على أن المائدة نزلت على بني إسرائيل أيام عيسى بن مريم إجابة من الله لدعوته، كما دل على ذلك ظاهر هذا السياق من القرآن العظيم . قال الله ﴿إني منزلها عليكم﴾ الآية ، وقال قائلون : إنها لم تنزل ، وهناك أسانيد صحيحة إلى مجاهد والحسن إنها لم تنزل ، وقد يتقوى ذلك بأن خبر المائدة لا يعرفه النصارى وليس هو في كتابهم ، ولو كانت قد نزلت ، لكان ذلك مما تتوفر الدواعي على نقله ، وكان يكون موجوداً في كتابهم متواتراً ، ولا أقل من آحـاد والله أعلم ، ولكن الذي عليه الجمهور هو الذي اختاره ابن جرير قال : لأن الله تعالى أخبر بنزولها في قوله تعالى : ﴿إني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين﴾ قال : ووعد الله ووعيده حق وصدق ، وهذا القول هو ـ والله أعلم ـ الصواب ، كما دلت عليه الأخبار والآيات عن السلف وغيرهم . ا . هـ . من مختصر ابن كثير.
والآية من سورة المائدة رقم ١١٥ .

(٢) سورة الشعراء : الآية ١٨٥ .

(٣) سورة الشعراء : الآية ١٨٦ .

(٤) سورة الشعراء : الآية ١٨٧ .

وقال بعضهم : عذاباً من السماء ، (**فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب[1] يوم عظيم**)[2] .

وإذا علمت أن الله أهلك مكذبي الرسل ممن عاندوا وأصروا على شركهم وضلالهم ، ولم تفدهم دعوة رسلهم ونصائحهم وتذكيرهم بآيات الله ، ومن طلبوا من رسولهم معجزة تبرهن لهم عن صدق دعوى رسالته ، فأعطاهم الله ولم يؤمنوا فأهلكهم الله كلهم ، فاعلم أن الله لم يجب مقترحات قريش ، لأن الله تعالى لو أجابهم ولم يؤمنوا ، لكان عذاب الله نازلا بهم ، غير مغادر منهم أحداً ، ولكن لما سبق علمه وإرادته ، أن كثيراً من أولئك المشركين الذين طلبوا من الرسول تلك الآيات تعجيزاً وعناداً سيسلمون ويدخلون في حوزة الدين ، ويكونون من المؤمنين الصادقين المجاهدين ، وبالفعل أسلم الكثيرون أو الأكثرون من بعد صلح الحديبية ثم يوم فتح مكة ، لهذا لم يجبهم الله إلى ما طلبوا ، لا لأن الرسول ليس له معجزة إلا القرآن ، كما يقول هؤلاء المنكرون لمعجزة انشقاق القمر .

وإلى القارىء تأييداً لما قلت من كلام المفسرين ، ومن أجلهم ابن جرير وابن كثير رحمهم الله :

قال الحافظ ابن كثير في تفسير قوله تعالى : (**وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها ، قل إنما الآيات عند الله**)[3] .

---

(١) وهذا من جنس ما سألوه من إسقاط الكسف عليهم ، فإن الله سبحانه وتعالى جعل عقوبتهم أن أصابهم حر عظيم مدة سبعة أيام ، لا يكنهم منه شيء ، ثم أقبلت إليهم سحابة أظلتهم ، فجعلوا ينطلقون إليها يستظلون بظلها من الحر ، فلما اجتمعوا كلهم تحتها ، أرسل الله تعالى عليهم منها شرراً من نار ولهباً ووهجاً عظيماً ، ورجفت بهم الأرض ، وجاءتهم صيحة عظيمة أزهقت أرواحهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿**إنه كان عذاب يوم عظيم**﴾ .

(٢) سورة الشعراء : الآية ١٨٩ .

(٣) سورة الأنعام : الآية ١٠٩ .

قال في تفسـيرها : قل يا محمد للمشركين الذين يسـألونك الآيات عناداً لا استهداء واسترشاداً ، إنما مرجع هذه الآيات إلى الله تعالى ، إن شاء جاءكم بها ، أو ترككم .

وهنا نورد حديثاً مرسلا ، ولكن له شواهد من وجوه أخر ، فقد روى ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي قال : كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشاً ، فقالوا : يا محمد تخبرنا أن موسى كان معه عصاً يضرب بهـا الحجر فانفجر اثنتا عشرة عيناً ، وتخبرنا أن عيسى كان يحيي الموتى ، وتخبرنا أن ثمود كانت له ناقة ، فأتنا من الآيات حتى نصدقك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أي شيء تحبون أن آتيكم به ؟ قالوا : تجعـل لنـا الصفـا ذهبـاً ، فقال لهم : فإن فعلت تصدقوني ؟ قالوا : نعم ، والله لئن فعلت لنتبعك أجمعون ، فقام رسول الله يدعـو ، فجاء جبريل عليه السلام فقال له : ما شئت ، إن شئت أصبح الصفا ذهباً ، ولئن أرسل آية فلم يصدقوا عند ذلك ليعذبهم ، وإن شئت فاتركهم حتى يتوب تائبهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بل يتوب تائبهم ، فأنزل الله تعالى : (**وأقسموا جهد أيمانهم**) إلى قوله تعالى : (**ولكن أكثرهم يجهلون**) .

وذكر الحافظ ابن كثير في تفسير قوله تعالى : (**وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً**) [1] .

روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال : قالت قريش للنبى صلى الله عليه وسلم : ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهباً ونؤمن بك ، قال : وتفعلون ، قالوا : نعم ، قال : فدعا جبريل ، فقال : إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول لك : إن شئت أصبح لهم الصفا ذهباً ، فمن كفر منهم بعد ذلك عذبته عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ، وإن شئت فتحت لهم أبواب التوبة والرحمة ، فقال : لا ، بل أبواب التوبة والرحمة .

---

(١) سورة الإسراء : ٥٩ .

وروى الحافظ أبو يعلى عن أم العطاء مولاة الزبير بن العوام حديثاً أطول وبنفس المآل ، إنما قالت أخيراً بروايتها عن الزبير عنه صلى الله عليه وسلم : « والذي نفسي بيده ، لقد أعطاني ما سألتم ، ولو شئت لكان ، ولكنه خيرني بين أن تدخلوا باب الرحمة ، فيؤمن مؤمنكم ، وبين أن يكلكم إلى ما خبرتم لأنفسكم ، فتضلوا عن باب الرحمة ، فلا يؤمن منكم أحد ، فاخترت باب الرحمة ، فيؤمن مؤمنكم ، وأخبرني أنه إن أعطاكم ذلك ثم كفرتم ، أنه يعذبكم عذاباً لا يعذبه أحداً من العاملين » ، ونزلت : (**وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون**) .

والمعنى أن الله تعالى لم يرسل الآيات التي طلبها المشركون من قريش ، إلا أنه قد كذب بها الأولون بعدما سألوها ، وجرت سنته تعالى فيهم وفي أمثالهم ، أنهم لا يؤخرون إن كذبوا بها بعد نزولها ، كما قال تعالى : (**قال الله إني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين**)[1] ، وقال تعالى عن ثمود حين سألوا آية ناقة تخرج من صخرة عينوها ، فدعا صالح عليه السلام ربه ، وأخرج لهم منها ناقة على ما سألوا ، فلما ظلموا بها ، أي كفروا بمن خلقها وأخرجها ، وكذبوا رسوله ، وعقروها فقال تعالى : (**تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب**)[2] ، ولهذا قال تعالى : (**وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها**)[3] أي دالة على من خلقها ، وأنه الواحد الأحد ، وصدق رسوله الذي أجيب دعاؤه فيها ، (**فظلموا بها**) أي كفروا بها ، ومنعوها شربها وقتلوها ، فأبادهم الله عن آخرهم ، وانتقم منهم ، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر ،وقوله تعالى : (**وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً**)[4] ، قال قتادة : إن الله تعالى يخوف الناس بما

---

(١) سورة المائدة : الآية ١١٥ .

(٢) سورة هود : الآية ٦٥ .

(٣) سورة الإسراء : ٥٩ .

(٤) سورة الإسراء : الآية ٥٩ .

شاء من الآيات ، لعلهم يعتبرون ويذكرون ويرجعون ، ذكر لنا أن الكوفة رجفت على عهد ابن مسعود رضي الله عنه ، فقال : يا أيها الناس إن ربكم يستعتبكم فاعتبوه ، وهكذا روي أن المدينة زلزلت على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرات ، فقال عمر : أحدثتم ، والله لئن عادت لأفعلن ولأفعلن . ا هـ[1] .

الشبهة الثالثة والجواب عنها :

إذا كان النبي يريد أن يتحدى قومه بمعجزة مادية ، يطلب من الله أن يؤيده بها ، فلم يختار انشقاق القمر؟ أليس الأولى من ذلك أن يريهم أثراً محسوساً بين أيديهم ؟ كأن يفجر لهم عين ماء ، أو أن يشير إلى جبل من الجبال المحيطة بهم فيتحول عن مكانه ؟ .

الجواب من وجوه :

١ - إن النبي عليه الصلاة والسلام ما تحداهم بمعجزة ، بل هم الذين تحدوه وطلبوا منه ، كما ذكر الله عنهم في سورة الإسراء في قوله تعالى : (**وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً** ..) إلخ ، وهم الذين تحدوه بأن يشق لهم القمر كما سبق في حديث أنس ، فهو عليه الصلاة والسلام لم يختر لهم انشقاق القمر ، بل هم الذين طلبوا ذلك .

٢ - سبق أن بينت الحكمة في عدم إجابتهم لسؤالهم ، وهي أنهم إن لم يؤمنوا بعد ذلك سيعاقبهم الله أجمعين ، كما عاقب الأمم السابقة التي كذبت رسلها ، والتي طلبت الآيات ولم تؤمن بها ، وكانت المصلحة لكفار قريش في عدم الإجابة .

٣ - الله أعلم بمصلح عباده في الحال والمآل ، فإنه وإن لم يفجر لهم من الأرض ينبوعاً ، فقد فجر لهم ينبوعاً من ماء الحياة المعنوية ، وهي حياة الإيمان ، تلك التى سعدوا بها ، وأصبحوا بعد أن كانوا فقراء أغنياء ، وبعد أن كانوا جهالا علماء ، وبعد أن كانوا

(١) من مختصر ابن كثير ج ٢ .

كفـاراً ومشركـين ، صاروا مؤمنين وموحدين ، وبعد أن كانوا فساقاً ، أصبحوا زهاداً ، وبعد أن كانوا مشتتين لا تجمعهم رابطة ، ولا تحكمهم شريعـة ، جمعهم الله على هذا الدين القـويم ، وجعلهم أمـة واحـدة متماسكـة يشد بعضها بعضاً ، وبعد أن كانوا رعاة للإبل والشاة ، أصبحوا رعاة للأمم وملوكاً على سائر العرب والعجم ، وهو إن لم يجعل لهم الصفا ذهباً ، فقد جلبت لهم كنوز كسرى وقيصر ومغانم سائر الأمم التى جاهدوا وانتصروا عليها ، فهل ما أدركوه ونالوه بعد إيمانهم مما ذكرتـه ومما لم أذكره أفضل في ميزان العقل أم الذي سألوه ؟ ذلك السؤال الذي ملؤه الجحد والعناد والعتو والاستكبار وتعجيز النبي صلى الله عليه وسلم ، ولاشك أن ما اختار الله لهم في عدم الإجابة أفضل وأصلح مما طلبوه ، وهنا لا يخلو هذا المقام مع منكري الانشقاق من ثلاثة أمور :

١ - إما يقولوا : إن الله غير قادر على إجابة ما طلبه المشركون ، وطبعاً فإنهم لايقولون بذلك وإلا كفروا .

٢ - أو يقولوا : إن مقام النبي لم يصل عند ربه تلك الدرجة التي يعطى معها ما طلبه المشركون ، وهذا لا أظنه يقوله مسلم ، فما بقي إلا الأمر الثالث وهو :

٣ - أن الله ما أجابهم لذلك ، لما علم أن عدم الإجابة أصلح لهم في الحال والمآل ، وهذا الذي أردناه وقررناه .

أما قولهم : أو يشير إلى جبل من الجبال المحيطة بهم ، فيتحول عن مكانه .

فالجواب : لا يخفى على كل عاقل ما في الجبال من المنافع والحكم للعباد منها :

١ - إنهـا حصـون تحمي أهل البلاد من هجوم الأعداء ، إذا وضعوا حراساً عليها يمنعون من دخول الأعداء .

٢ - إن فيها من الأدوية النافعة والأشجار المثمرة التي قد تكون

فاكهة ، ويكون بعضها قوتاً ، وقد يكون في بعضها عيوناً جارية ، وفيها الكهوف التي تكون في وقت الشدة عند هجوم الأعداء مخبآت لساكني تلك البلاد .

٣ – ومن منافعها ما يكون في حصونها وقللها من المغارات والكهوف والمعاقل التي بمنزلة الحصون والقلاع ، وهي أيضاً أكنان للناس والحيوان .

٤ – ومنها ما ينحت من أحجارها للأبنية على اختلاف أصنافها والأرضية وغيرها .

٥ – ومنها ما يوجد فيها من المعادن على اختلاف أصنافها من الذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص والزبرجد والزمرد ، وأضعاف ذلك من أنواع المعادن التي يعجز البشر عن معرفتها على التفصيل ، حتى أن فيها ما يكون الشيء اليسير منه تزيد قيمته ومنفعته على قيمة الذهب بأضعاف مضاعفة ، وفيها من المنافع مالا يعلمه إلا فاطرها ومبدعها سبحانه .

٦ – ومنها أيضاً أنها ترد الرياح العاصفة ، وتكسر حدتها ، فلا تدعها تصدم ما تحتها ، ولهذا فالساكنون تحتها في أمان من الرياح العظام المؤذية .

٧ – ومنها أيضاً أنها ترد عنهم السيول إذا كانت في مجاريها ، فتصرفها عنهم ذات اليمين وذات الشمال ، ولولاها لخربت السيول في مجاريها ما مرت به ، فتكون لهم بمنزلة السد والسكن .

٨ – ومنها أنها أعلام يستدل بها في الطرقات ، فهي بمنزلة الأدلة المنصوبة المرشدة إلى الطرق ، ولهذا سماها الله أعلاماً فقال : (**ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام**)[1] ، فالجواري هي السفن ، والأعلام الجبال ، وأحدها علم .

قالت الخنساء :

وإن صخراً لتأتم الهداة به ... كأنه علم في رأسه نار

فسمي الجبل علماً من العلامة والظهور .

(١) سورة الشورى : الآية ٣٢

٩ - ومنها أيضاً ماينبت فيها من العقاقير والأدوية التى لا تكون في السهول والرمال ، كما أن ما ينبت في السهول والرمال لا ينبت مثله في الجبال ، وفي كل هذا منافع وحكم لا يحيط بها إلا الخلاق العليم .

١٠ - ومنها أنها تكون حصوناً من الأعداء ، يتحرز فيها عباد الله من أعدائهم ، كما يتحصنون بالقلاع ، بل تكون أبلغ من كثير من القلاع المدن .

١١ - ومنها ما ذكره الله تعالى في كتابه ، أن جعلها للأرض أوتاداً ورواسي بمنزلة مراسي السفن ، وأعظم بها من منفعة وحكمة ، هذا وإذا تأملت خلقتها العجيبة البديعة على هذا الوضع ، وجدتها في غاية المطابقة للحكمة ، فإنها لو طالت واستدقت ، لتعذر الصعود عليها والانتفاع بها ، وسترت عن الناس الشمس والهواء ، فلم يتمكنوا من الانتفاع بها ، ولو بسطت على وجه الأرض ضيقت عليهم المزارع والمساكن ، ولملأت السهل ، ولما حصل لهم بها الانتفاع من التحصن والمغارات والأكنان ، ولما سترت عنهم الرياح ، ولما حجبت السيول ، ولو جعلت مستديرة كشكل الكرة ، لم يتمكنوا من صعودها ، ولما حصل لهم بها الانتفاع التام ، فكان أولى الأشكال والأوضاع بها ، وأليقها وأوقعها على وفق المصلحة ، هذا الشكل الذى نصبت عليه ، ولقد دعانا الله في كتابه إلى النظر وفي كيفية خلقها ، فقال تعالى : (**أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت**)[1]، فخلقها ومنافعها من أكبر الشواهد على قدرة باريها وفاطرها وعلمه وحكمته ووحدانيته أهـ[2] .

فهذه المنافع التي ذكرتها ، والتي ذكرها الحافظ ابن القيم رحمه الله هي حسب علم البشر القاصر ، وإلا فقد تكون لخلقها حكم ومنافع لا يعرفها البشر ، أو الأكثرون منهم .

---

(١) سورة الغاشية : الآيات ١٧ ـ ٢٠ .

(٢) من مفتاح دار السعادة ج ١ .

والحاصل أن مخلوقات الله لا تخلو من حكم ومصالح ، فلو لم يكن في تلك البقعة المكرمة المحاطة بتلك الجبال - التي تشبث بها منكرو شق القمر - من الأسرار والحكم والمصالح العاجلة والآجلة ، لما أمر الله نبيه إبراهيم عليه السلام ، بأن ينقل هاجر وطفلها إسماعيل إلى ذلك المكان الذي وصفه إبراهيم بقوله كما أخبر الله عنه : (**ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم** ..) [1] ، ولما أمره الله أن يبني في ذلك المكان الكعبة المشرفة ، ليقصد إليها العباد حاجين ومعتمرين من سائر أرجاء الأرض ، مع العلم أنه إذ ذاك لم يكن هنا أحد من السكان سوى أصهار إسماعيل ، ولكن قد سبق في علم الله وإرادته ، أنه سيكون ذلك المكان المحاط بالجبال والأودية ، والمقفر من الزرع والأشجار ، أن يكون فيها بيته قبلة للناس ، وأن سيبعث الله فيه سيد الأولين والآخرين ، تعم رحمته العالمين ، وسيكون لذلك المكان المستقبل الزاهر ، والدين الحنيف الباهر ، والحضارة الراقية ، والعدل الشامل ، ذلك الدين الذي فيه كل ما يحتاج إليه البشر من أمور الدنيا والآخرة ، كما فيه حل مشاكلهم وعزهم في الدنيا ، وسعادتهم في العقبى .

أفبعد هذه الحكم التي ذكرتها ، يبقى أدنى ريب لذوي الأحلام ، أن بقاء تلك الجبال أنفع وأصلح من زوالها !! ؟ .

وهنا قد يقول قائل : أنتم قررتم أن الله جل جلاله ، لم يجب سؤال المشركين وتحديهم ، كما أخبر الله عنهم : (**وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً**) إلى قوله : (**أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه ، قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولا**)[2] ، لأن الله لو أجابهم ولم يؤمنوا ، لأهلكهم جميعاً ، وها أنتم قررتم أنهم سألوه أن يشق لهم القمر ، فسأل الله ، وشق لهم القمر ، ولم يؤمنوا ولم يهلكهم ، فما تقولون ؟ .

---

(١) سورة إبراهيم : الآية ٣٧ .

(٢) سورة الإسراء : الآيات ٩٠ ـ ٩٣ .

أقول في الجواب والله أعلم بالصواب :

١ – إن الله لم يجبهم لما قد سبق في الأجوبة السالفة في الفقرة الثالثة ، أن الله أعلم بمصالح عباده في الحال والمآل ، وهنا بقاؤهم وعدم إجابتهم كان أصلح وأنفع لهم ولمن يأتي بعدهم ، وأضيف إلى ذلك أنه لا ريب أن الله لا يعجزه شيء كما قال الله تعالى : (**إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون**) ، ولكن بما أن القوم قد بلغوا منتهى العناد والسفاهة ، فما كانت أسئلتهم تستحق العناية والإجابة .

٢ – فهل من الحكمة أن يجيب الله على رغبات أولئك الذين يتعنتون في تحديهم ، بأن يرقى النبي إلى السماء عياناً يشاهدونه ، ويأتي لهم بالملائكة يشاهدونهم وليشهدوا له ، بل لا يؤمنوا حتى ينزل لهم من السماء كتاباً يقرؤوه ،فهل مثل هؤلاء السخفاء الذين لم يعرفوا أنفسهم ، ولم يعرفوا الله جل جلاله كما ينبغي ، يجابون بكل ما سألوا .

٣ – لو سأل أناس ملكاً من ملوك البشر ، وقالوا : لا نسلم لك الطاعة والإذعان حتى تفعل لنا كذا وكذا من الأمور الجسام ، وكانت داخلة في نطاق قدرة ذلك الملك ، فهل يجيبهم إلى ما سألوا ؟ ، والحال أنه يعرف أن موقفهم موقف عناد وإصرار واستكبار ، لا عن حاجة وافتقار ، فلا يتطرق شك لعاقل أنه لا يجيبهم ، بل إما أن يتركهم ، أو يعلن حرباً شعواء عليهم ، حتى يذعنوا له بالطاعة ، أو يهلكهم كلهم أو بعضهم ، وعند ذلك يدخلون في طاعته قهراً عليهم ، ولكن الله العليم بما هو أنفع لعباده في العاجل والآجل ، الخبير بأحوالهم ، الحليم الذي لا يعجل بالعقوبة ، لم يجبهم إلى سؤالهم ، لما في ذلك من المصلحة والخير لهم .

٤ – لو سأل صبي يبلغ من العمر سنتين أو ثلاثاً أباه ما لا يليق به ، كأن يسأله بأن يأتي له بفرس يركبها أو سيارة يسوقها ، فهل من الحكمة والمصلحة أن يجيبه والده ، أو يتركه ويعطيه ما هو أنفع وأصلح له ؟ فالله ـ ولله المثل الأعلى ـ ، العباد عنده كالصبيان الصغار عندنا

ـ باستثناء الملائكة والأنبياء ـ ، فليس من الحكمة أن يجيبهم بكل ما سألوا ، والحال أن الله تعالى يعلم أن كثيراً مما سألوه ليس تقتضيه المصلحة لهم .

٥ – وأما كونه لم يهلكم ، فما كان الله ليهلك بها جميع من أرسل إليهم النبي صلى الله عليه وسلم ، وهم أهل الأرض جميعاً ، لعدم تمام الحجة عليهم يومئذ ، وقد كان الانشقاق سنة خمس قبل الهجرة ، وقد قال تعالى : (**ليهلك من هلك عن بينة**)[١] .

٦ – وما كان الله ليهلك جميع أهل مكة وحواليها ، خاصة وبينهم جمع من المسلمين كما قال تعالى : (**ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطؤوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً**)[٢] .

٧ – وما كان الله لينجي المؤمنين ويهلك كفارهم ، وقد آمن جمع كثير منهم فيما بين سنة خمس قبل الهجرة وسنة ثمان بعد الهجرة عام فتح مكة ، ثم آمنت عامتهم يوم الفتح ، والإسلام كان يكتفي منهم بظاهر الشهادتين ، ولم تكن عامة أهل مكة وحواليها أهل عناد وجحود ، وإنما كان أهل الجحود والعناد عظماؤهم وصناديدهم المستهزئين بالنبي صلى الله عليه وسلم ، المعذبين للمؤمنين ، المقترحين عليه بالآيات ، وهم الذين يقول تعالى فيهم : (**إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون**)[٣] ، وقد أوعد الله هؤلاء الجاحدين المقترحين ، بعدم الإيمان وبالهلاك في مواضع من كلامه ، فلم يؤمنوا ، وأهلكهم الله يوم بدر ، وتمت كلمة الرب صدقاً وعدلا .

---

(١) سورة الأنفال : الآية ٤٢ .
(٢) سورة الفتح : الآية ٢٥ .
(٣) سورة البقرة : الآية ٦ .

٨ - وقد أوضح سبحانه سبب عدم معالجتهم بالعذاب في قوله : **(وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون)**[١] ، واستبان بذلك ، أن المانع من عذابهم وجود الرسول فيهم ، كما يفيده أيضاً قوله تعالى : **(وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذا لايلبثون خلافك إلا قليلا)**[٢] ثم قال تعالى : **(وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون ، وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون)**[٣] ، والآيات نزلت عقيب غزوة بدر ، وتبين أنه لم يكن من قبلهم مانع من نزول العذاب غير وجود النبي صلى الله عليه وسلم بينهم ، فإذا زال المانع بخروجه من بينهم ، فليذوقوا العذاب ، وهو ما أصابهم في وقعة بدر من القتل الذريع .

وبالجملة كان المانع من إرسال الآيات تكذيب الأولين ، ومماثلتهم لهم في خصيصة التكذيب ، ووجود النبي صلى الله عليه وسلم بينهم المانع من معاجلة العذاب ، فإذا وجد مقتض للعذاب كالصد والمكاء والتصدية ، وزال أحد ركني المانع ، وهو كونه صلى الله عليه وسلم فيهم ، فلا مانع من العذاب ، ولا مانع من نزول الآية وإرسالها ، ليحق عليهم القول ، فيعذبوا بسبب تكذيبهم لها ، وبسبب مقتضيات أخر كالصد ونحوه ، فتحصل أن قوله تعالى : **(وما منعنا أن نرسل بالآيات ..) إلخ** إنما يفيد الإمساك عن إرسال الآيات ، ما دام النبي صلى الله عليه وسلم فيهم ، وأما إرسالها وتأخير العذاب إلى خروجه من بينهم ، فلا دلالة فيه عليه ، وقد صرح سبحانه بأن وقعة بدر كانت آية ، وما أصابهم فيها عذاب ، وكذا لو كان مفاد الآية هو الامتناع عن الإرسال لكونه لغواً ، بسبب كونهم مجبولين على التكذيب ، فإن إرسالها

---

(١) سورة الأنفال : الآية ٣٣ .

(٢) سورة الإسراء : الآية ٧٦ .

(٣) سورة الأنفال : الآيات ٣٤ - ٣٥ .

مع تأخير العذاب والنكال إلى خروج النبي صلى الله عليه وسلم من بينهم فيه من الفائدة، ليحق الله الحق، ويبطل الباطل، فلتكن آية انشقاق القمر من الآيات النازلة التي من فائدتها نزول العذاب عليهم بعد خروج النبي صلى الله عليه وسلم من بينهم.

وأما قوله تعالى: (**قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً**)، فليس مدلوله نفي تأييد النبي صلى الله عليه وسلم بالآيات المعجزة، وإنكار نزولها من أصلها؟ كيف وهو ينفيها عن نفسه بما أنه بشر رسول، ولو كان المراد ذلك، لأفاد إنكار معجزات الأنبياء جميعاً يكون كل منهم بشراً رسولاً، وصريح القرآن فيما حدث من قصص الأنبياء وأخبر عن آياتهم يناقض ذلك، وأوضح من الجميع في مناقضة ذلك، نفس الآية التي هي من القرآن المتحدي بالإعجاز، بل مدلوله أن النبي صلى الله عليه وسلم بشر رسول، غير قادر من حيث نفسه على شيء من الآيات التي يقترحون عليه، وإنما الأمر إلى الله سبحانه، إن شاء أنزلها، وإن لم يشأ لم يفعل، قال تعالى: (**وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون**) (١)، وقال حاكياً عن قوم نوح: (**قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين، قال إنما يأتيكم به الله إن شاء**)(٢)، وقال تعالى: (**وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله**)(٣)، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

والخلاصة: أن عدم إجابتهم لما اقترحوا من الآيات، التي كان باعثها التعنت، هو كما سبق أن قلنا: إنه كان أصلح لهم في العاجل والآجل، وأما عدم أخذهم بالهلاك لما لم يؤمنوا بعد أن سألوا انشقاق القمر، وأتاهم الله سبحانه وتعالى بما سألوا، فليس كذلك، بل أخر

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١٠٩.

(٢) سورة هود: الآيتان ٣٢ ـ ٣٣.

(٣) سورة الرعد: الآية ٣٨.

عنهم العذاب لما تقدم من الأسباب المانعة إذ ذاك ، وتتلخص في كون وجود الرسول فيهم ، وأن الكثيرين منهم أو الأكثرين سيسلمون من بعد ذلك ، وأما هلاك من أصر على شركة وعناده ، فقد أخذهم الله في وقعة بدر ، والدليل على ذلك قوله تعالى : (**اقتربت الساعة وانشق القمر**) .

٩ ـ وبعد هذا كله ، لنا أن نجيب بجواب آخر وهو : أن الله عاقب أولئك الذين سألوا النبي صلى الله عليه وسلم أن يشق لهم القمر ، ثم لم يؤمنوا بعد الانشقاق ، وذلك في وقعة بدر بأن قتلوا ، والدليل عل ذلك قوله تعالى : (**اقتربت الساعة وانشق القمر ، وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر**)(١) ، ثم ذكر الله كثيراً من الأنبياء وأممهم وعقاب تلك الأمم ثم قال : (**أكفاركم (٢) خير من (٣) أولئكم أم لكم براءة في الزبر (٤) ، أم يقولون نحن جميع منتصر (٥) ، سيهزم الجمع ويولون الدبر** (٦)) (٧) ، فقتل منهم في وقعة بدر سبعون ، وأسر منهم سبعون ، أما الذين علم الله منهم الإصرار على الكفر والعناد فقتلوا ، ومن علم الله منهم أنهم سيسلمون وقعوا في الأسر ، وأسلم بعضهم قبل فتح مكة ، وأكثرهم بعد فتح مكة ، فما بقي بعد الفتح في مكة مشرك .

الشبهة الرابعة والجواب عنها :

بقيت شبهة أخرى لهم وهي : أنه بما أن الله جعل نبوة محمد صلى

(١) سورة القمر : الآيتان ١ ـ ٢ .
(٢) أيها المشركون .
(٣) يعني من الذين تقدم ذكرهم ، مَنْ أهلكوا بسبب تكذيبهم الرسل ، أأنتم خير من أولئكم .
(٤) أي أم معكم من الله براءة ، أن لا ينالكم عذاب ولانكال .
(٥) أي يعتقدون أن جمعهم يغني عنهم من أرادهم بسوء .
(٦) أي سيتفرق شملهم ويغلبون ، وقد وقع الاتفاق أن هذه الآيات إخبار عما سيقع في بدر ، لأن السورة مكية .
(٧) سورة القمر : الآيات ٤٣ ـ ٤٥ .

الله عليـه وسلم ورسالته قائمة على قواعد العلم والعقل في ثبوتها وفي موضوعها ، لأن البشر قد بدأوا يدخلون بها في سن الرشد والاستقلال النوعي ، الذي لا يخضـع عقل صاحبه فيه لاتباع من تصـدر عنه أمور عجيبة مخالفة للنظام المألوف في سنن الكون ، فلذا كان معجزة محمد صلى الله عليه وسلم هو كتابه المعجز للبشر ، بهدايتـه وبعلومه وبإعجازه اللفـظي والمعنـوي ، وبأنبـاء الغيب الماضية والحاضرة والآتيـة فيه ، لا بالمعجـزات التي تقولون بها كانشقاق القمر ، وتفجير الماء من بين أصابعه ، يؤيد ما قلنا ما قد ورد في الحديث المتفق عليه من رواية أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما من الأنبياء من نبي إلا وقد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلى ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة » .

فهذا الحديث نص قاطع بأن ليس له من المعجزات إلا القرآن ، لأنـه أتى بأداة من أدوات القصر ، وهي إنمـا ، والمقصـور عليه مع « إنما » هو المذكور بعدها ، وهنا المقصور بعد إنما هو الوحي الذي أوحاه الله إليه ، ويعني به القرآن العظيم ، وعليه فقد صح استدلالنا على نفى انشقاق القمر ؟

الجواب ومن الله أستمد الصواب :

قد سبق الجـواب في أول الأجـوبـة التي أسلفتهـا حول هذا الموضوع ، وهو أن كون القرآن العظيم أعظم معجزة للرسول صلى الله عليه وسلم ، لا ينافي أن تكون له معجزات أخرى ، وإنما القرآن هو أعظم وأكبر معجزة ، وأضيف هنا أن القصر في الحديث الذي أوردوه هو قصر إضافي (١) ، وهوأن يختص المقصور عليه بحسب الإضافة

(١) لأن القصر ينقسم إلى قسمين باعتبار الحقيقة والواقع :
أ - قصر حقيقي وهـو : أن يختص المقصور عليه بحسب الحقيقة والواقع ، بأن لا يتعـداه إلى غيره أصـلا نحو لا إله إلا الله ، ومنه نوع يسمى القصر الحقيقي الادعائي ، ويكون على سبيل المبالغة لفرض أن ما عدا المقصور عليه لا يعتد به .
ب - قصر إضافي هو الذي ذكرناه في الجواب .

والنسبة إلى شيء آخر معين ، لا لجميع ما عداه كما تقول : « ما حاتم إلا كريم » ، فإنك تقصد قصر الكرم عليه بالنسبة لغيره كزيد وعمر ، وليس القصد أن لا يوجد كريم غيره ، وهنا قوله صلى الله عليه وسلم : « وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ » ، فقصر آيته على الوحي الذي أوتيه ، يعني أنه بالنسبة لغير القرآن من المعجزات هو أعظمها وأكبرها ، لا أن ليس له معجزة سوى هذا الكتاب المجيد .

١١ ـ الإسراء والمعراج :

الإسراء والمعراج هما من أكبر معجزاته صلى الله عليه وسلم .

لا خلاف في الإسراء به صلى الله عليه وسلم ، إذ هو نص القرآن على سبيل الإجمال ، قال الله تعالى : **(سبحان (١) الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير)** (٢) .

وقع الإجماع أن المراد بالعبد في هذه الآية محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد وردت أحاديث كثيرة في الإسراء والمعراج عن أكثر من ثلاثين راوياً من الصحابة ، وكان الإسراء والمعراج بجسده وروحه صلى الله عليه وسلم ، قيل قبل الهجرة بسنة في شهر ربيع الأول ، وقيل في رمضان ، وقيل في شهر رجب وهو المشهور (٣) ، وكان الإسراء إلى بيت

---

(١) علم للتسبيح بمعنى التنزيه منصوب على المصدرية ، ـ أسرى وسرى ـ السير بالليل ، بعبده : هو محمد بالإجماع ، ليلا منصوب على الظرفية وتنكيره للدلالة على تقليل المدة الإسرائية .

إلى المسجد الأقصى : هو مسجد البيت المقدس ، ووجه تسميته بالأقصى ، من أجل بعد المسافة بينه وبين المسجد الحرام ، الذي باركنا حوله ببركات الدين والدنيا، لأنه مهبط الوحي ومتعبد الأنبياء من لدن موسى إلى زمن عيسى عليه السلام، وهو محفوف بالأنهار والأشجار والأزهار والأثمار .

(٢) سورة الإسراء : الآية ١ .

(٣) ولم يأت تعيين الليلة التي أسري به ﷺ وعرج به إلى السموات في الأحاديث الصحيحة، وكل ما ورد فهو غير ثابت عن النبي عليه الصلاة والسلام عند أهل العلم بالحديث .

المقدس ، والمعراج به صلى الله عليه وسلم إلى السماوات تشريفاً له وتكريماً ، وليطلع على عجائب الملكوت ، كما قال تعالى : (**لنريه من آياتنا**) .

ولنقتصر على حديثين وهما :

١ ـ ما أخرجه مسلم من طريق ثابت عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أتيت (١) بالبراق (٢) ، وهو دابة أبيض ، (٣) طويل فوق الحمار ودون البغل ، يضع حافره عند منتهى طرفه ، (٤) ، فركبته حتى أتيت بيت المقدس ، (٥) فربطته بالحلقة (٦) التي تربط بها الأنبياء ، ثم دخلت المسجد ، فصليت فيه ركعتين ،

ومن المناسب لهذا المقام أن أقول : ما اعتاده الكثيرون في كثير من الأمصار من الاحتفال بليلة الإسراء والمعراج بدعة لم يفعلها الرسول عليه الصلاة والسلام ولا أصحابه ولا التابعون ولا الأئمة المعتبرون، وإن كان المحتفلون يزعمون أن ما دفعهم وبعثهم على الاحتفال بتلك الليلة إلا محبتهم لرسول الله ﷺ ، فقصدهم إظهار شعورهم نحوه عليه الصلاة والسلام وتعظيمه ؟

فالجواب : أن يقال قد يكون هذا صحيحاً ، وأن الباعث لهم محبة الرسول ، ولكن لا تتمثل المحبة في الاحتفالات المخترعة ، وإنما تتمثل في التأسي به ﷺ ، واتباعه في هديه ، والتمسك بسنته ، ومهما ادعينا من الحب له عليه الصلاة والسلام ، فلن نبلغ معشار حب أبي بكر وعمر وسائر الصحابة له ، وهم لم يقيموا لهذه المناسبة ولا لمناسبة أخرى احتفالا ، وقد وردت الأحاديث الصحيحة والحسنة في النهي عن المحدثات كحديث العرباض بن سارية وفيه : «وإياكم ومحدثات الأمور ، فكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة» رواه الترمذي وزاد أبو داود : «وكل ضلالة في النار» .

(١) بصيغة المجهول المتكلم .

(٢) بضم الباء لشدة بريقه ولمعانه ، وسرعة سيره وطيرانه كالبرق .

(٣) فيه إيماء إلى ما قيل : إنه ليس بذكر ولا أنثى .

(٤) بفتح الطاء وسكون الراء ، أي نظره وبصره .

(٥) يقرأ مقدس بسكون القاف وكسر الدال وفتح الميم ، ومقدس على وزن محمد ، وسمي بذلك لأن فيه يتقدس من الذنوب أي يتطهر .

(٦) بإسكان اللام وفتحها .

ثم خرجت ، فجاءني جبريل بإناء من خمر ، وإناء (١) من لبن ، فاخترت اللبن ، فقال جبريل : اخترت الفطرة (٢) ، ثم عرج بنا إلى السماء الدنيا ، فاستفتح جبريل ، فقيل : من أنت ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل : وقد بعث إليه ؟ قال : قد بعث إليه ، ففتح لنا ، فإذا أنا بآدم ، فرحب بي ، ودعا لي بخير ، ثم عرج بي إلى السماء الثانية ، فاستفتح جبريل ، فقيل : من أنت ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل : وقد بعث إليه (٣) ؟ قال : قد بعث إليه ، ففتح لنا ، فإذا أنا بابني الخالة عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا ، فرحبا بي ، ودعوا لي بخير ، ثم عرج بنا إلى السماء الثالثة ، فاستفتح جبريل ، فقيل : من أنت ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل : وقد بعث إليه ؟ قال : قد بعث إليه ، ففتح لنا ، فإذا أنا بيوسف ، وإذ هو قد أعطى شطر الحسن ، فرحب بي ودعا لي بخير ، ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة ، فاستفتح جبريل فقيل : من هذا ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل : وقد بعث إليه ؟ قال : قد بعث إليه ، ففتح لنا ، فإذا أنا بإدريس ، فرحب بي ودعا لي بخير ، ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة ، فاستفتح جبريل ، فقيل : من هذا ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل : وقد بعث إليه ؟ قال : قد بعث إليه ، ففتح لنا ، فإذا بهارون ، فرحب بي ، ودعا لي بخير ، ثم عرج بنا إلى السماء السادسة ، فاستفتح جبريل فقيل : من هذا ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل : وقد بعث إليه ؟ قال : قد بعث إليه ، ففتح لنا ، فإذا أنا بموسى ، فرحب بي ، ودعا لي بخير ، ثم عرج بنا إلى السماء

---

(١) هكذا في صحيح مسلم ، وفي صحيح البخاري زيادة إناء من ماء .

(٢) أي علامة الإسلام والاستقامة ، لكونه طيباً طاهراً ، سهل المرور في الحلق سليم العاقبة ، سائغاً شرابه ، وطيباً مذاقه ، والخمر أم الخبائث جالبة لأنواع الشرور والحوادث ، ثم عرج بالبناء للفاعل ، والفاعل هو الله أو جبريل ، وفي نسخة صحيحة بصيغة المجهول .

(٣) وقد بعث إليه : أي بعث إليه للإسراء وصعود السماء .

السابعة ، فاستفتح جبريل فقيل : من هذا ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل : وقد بعث إليه ؟ قال : قد بعث إليه ، ففتح لنا ، فإذا أنا بإبراهيم مسنداً (١) ظهره إلى البيت المعمور (٢) ، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه ، ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى (٣) ، فإذا ورقها كآذان (٤) الفيلة ، وإذا ثمرها كالقلال (٥) ، فلما غشيها (٦) من أمر الله ما غشي تغيرت ، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها ، فأوحى الله إليَّ ما أوحى ، ففرض علي خمسين صلاة في كل يوم وليلة ، فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فقال : ما فرض ربك على أمتك ؟ ، قلت : خمسين صلاة ، قال : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف ، فإن أمتك لا تطيق ذلك ، فإني قد بلوت (٧) بني إسرائيل وخبرتهم (٨) ، فرجعت (٩) إلى ربي فقلت : يارب خفف عن أمتي ، فحط عني (١٠) خمساً ، فرجعت إلى موسى فقلت : حط عني خمساً ، قال : إن أمتك لا يطيقون ذلك ، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف ، قال : فلم أزل أرجع بين ربي وبين موسى حتى قال : يا محمد ، إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة ، لكل صلاة عشر ، فتلك

---

(١) بصيغة الفاعل منصوب على الحال، قال الشيخ علي القاري: وفي بعض نسخ المصابيح مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أي وهو مسند .

(٢) فيه دليل على جواز الاستناد إلى القبلة ، وتحويل الظهر إلى الكعبة .

(٣) أي ينتهي علم الخلائق عندها ، وخصت السدرة لأنها ظلها مديد، وطعمها لذيذ ورائحتها طيبة .

(٤) الآذان بالمد : جمع الأذن ، فيلة : بكسر الفاء وفتح الياء .

(٥) بكسر القاف : جمع قلة ، وسميت بذلك لأنها تقل أي ترفع أي تحمل .

(٦) بفتح الغين وكسر الشين أي علاها وغطاها .

(٧) أي جربتهم ، وبلاه وابتلاه بمعنى واحد .

(٨) بتخفيف الباء : عطف تفسيري أو إشارة على أنه جربهم مرة بعد مرة ، يعني امتحنهم وعالجهم ، فلقي منهم الشدة وعدم الطاعة فيما قصد منهم من تحمل الكلفة وقبول الطاعة .

(٩) قال النووي معناه : رجعت إلى الموضع الذي ناجيته أولا ، فناجيته فيه ثانياً .

(١٠) ولم يقل عن أمتي لئلا يتوهم بقاء فرضية الخمسين عليه .

الخمسون (١) صلاة ، ومن هَمَّ بحسنة فلم يعملها ، كتبت له حسنة ، فإن عملها ، كتبت له عشرا ، ومن هم بسيئة، فلم يعملها ، لم تكتب شيئاً ، فإن عملها كتبت سيئة واحدة ، فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فأخبرته ، فقال : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف ، فقلت : قد رجعت إلى ربي حتى استحييت منه (٢) .

وفي البخاري أنه لما مر الرسول على موسى ، فسلم عليه ، فرد ثم قال : مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح ، فلما تجاوز بكى موسى (٣) ، قيل له ما يبكيك ؟ قال : أبكي لأن غلاماً بعث بعدي ، يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي .

---

(١) أي بحسب المضاعفة ، ولعل هذه المراجعة من الرسولين بإلهام ، حيث لم يكن الوجوب حتماً مبرماً ، أو أوجبها أولا ، ثم رحمنا فنسخها ، فيجوز نسخ وجوب الشيء قبل وقوعه ، كنسخ وجوب ذبح إسماعيل تبياناً لمحل فضله وكرمه .

(٢) بيائين ، وفي نسخة بياء واحدة ، ولعل وجه الحياء هو أن المبالغة في تخفيف العبادة نوع من الجفاء، والقيام بما تعين وتحتم من باب الوفاء في تحمل البلاء ، ولعل الحكمة في وجوب الصلاة ليلة الإسراء للإيماء إلى أنها معراج المؤمن إلى أعلى كمالاته ومقاماته ، ومحل مناجاته من بين عباداته وكمال ترقي منازل ساداته .

(٣) قال العلماء : لم يكن بكاء موسى حسداً معاذ الله ، فإن الحسد في ذلك العالم منزوع عن آحاد المؤمنين، فكيف بمن اصطفاه الله تعالى، بل كان أسفاً على ما فاته من الأجر الذي يترتب عليه رفع الدرجة بسبب ما وقع من أمته من كثرة المخالفة المقتضية لتنقيص أجورهم ، المستلزم لتنقيص أجره ، لأن لكل نبي مثل أجر كل من اتبعه ، ولهذا كان من اتبعه من أمته في العدد دون من اتبع نبينا ﷺ مع طول مدتهم بالنسبة لهذه الأمة .

وأما قوله : غلام، فليس على سبيل النقص ، بل على سبيل التنويه بقدرة الله وعظيم كرمه ، إذ أعطى لمن كان في ذلك السن ، ما لم يعطه أحداً من قبله ، ممن هو أسن منه ، وقد وقع من موسى من العناية بهذه الأمة من أمر الصلاة ما لم يقع لغيره ، ووقعت الإشارة لذلك في حديث أبي هريرة عند الطبري والبزار ، قال عليه الصلاة والسلام : «كان موسى أشدهم على حين مررت به ، وخيرهم لي حين رجعت إليه»، وفي حديث أبي سعيد «فأقبلت راجعاً، فمررت بموسى، ونعم الصاحب كان لكم ، فسألني : كم فرض عليك ربك» . الحديث .. وقال ابن أبي جمرة : إن

٢ ـ أخرج الشيخان عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لما كذبتني قريش حين أسري بي إلى بيت المقدس ، قمت في الحجر ، فجلى الله لي بيت المقدس ، فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه ... » .

الله جعل الرحمة في قلوب الأنبياء أكثر مما جعل في قلوب غيرهم ، فلذلك بكى رحمة لأمته .

وأما قوله : هذا الغلام ، فأشار إلى صغر سنه بالنسبة إليه ، قال الخطابي : العرب تسمى الرجل المستجمع السن غلاماً ما دامت فيه بقية من القوة . ا . هـ .

وقال القرطبي : الحكمة في تخصيص موسى بمراجعة النبي ﷺ في أمر الصلاة ، لعلها لكون أمة موسى كلفت من الصلوات بما لم تكلف به غيرها من الأمم ، فثقلت عليهم ، فأشفق موسى على أمة محمد من مثل ذلك ، ويشير إلى ذلك قوله : إني جربت الناس قبلك . ا. هـ .

وقال غيره : لعلها من جهة أنه ليس في الأنبياء من له أتباع أكثر من موسى ، ولا من له كتاب أكبر ولا أجمع للأحكام من كتابه ، فكان من هذه الجهة مضاهياً للنبي ﷺ ، فناسب أن يتمنى أن يكون له مثل ما أنعم به عليه ، من غير أن يريد زواله عنه ، وناسب أن يطلعه على ما وقع له ، وينصحه فيما يتعلق به ، ويحتمل أن يكون موسى غلب عليه في الابتداء الأسف على نقص حظ أمته بالنسبة لأمة محمد ، حتى تمنى ما تمنى أن يكون استدرك ذلك ببذل النصيحة لهم ، والشفقة عليهم ، ليزيل ما عساه أن يتوهم عليه فيما وقع منه في الابتداء .

وقد استشكل رؤية الأنبياء في السماوات ، مع أن أجسادهم مستقرة في قبورهم بالأرض .. ؟

وأجيب : بأن أرواحهم تشكلت بصور أجسادهم ، أو أحضرت أجسادهم لملاقاة النبي تلك الليلة ، تشريفاً له وتكريماً ، ويؤيده عبد الرحمن بن هاشم عن أنس ، ففيه : وبعث له آدم فمن دونه من الأنبياء، فافهم ، هكذا قاله الحافظ ابن حجر في فتح الباري جـ ٧ .

ولا يخفي أن الجواب ، بأن أرواحهم تشكلت هو الصواب .

وقد اختلف في الحكمة في اختصاص كل منهم بالسماء التى التقاه بها ، فقيل : ليظهر تفاضلهم في الدرجات ، وقيل : الإشارة إلى ما سيقع له ﷺ مع قومه من نظير ما وقع لكل منهم ، فأما آدم فوقع التنبيه بما وقع له من الخروج من الجنة إلى الأرض ، بما سيقع للنبي ﷺ من الهجرة إلى المدينة ، والجامع بينها ما حصل لكل

وهناك روايات عديدة في بعضها زيادة بعض الأمور ، وفي بعضها نقصان .

وقد أطال القاضي عياض في الشفاء في بحث الإسراء والمعراج ، وذكر المفسرون والمحدثون الشيء الكثير حول هذا الموضوع ، لا سيما الحافظ العسقلاني في فتح الباري ، والإمام النووي في شرح صحيح مسلم ، ولكن الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ قد استوعب جميع الروايات الواردة في كتب الأحاديث حول الإسراء والمعراج ، فنقل عن صحيح البخاري وصحيح مسلم ومسند الإمام أحمد وسنن البيهقي والبزار وعبد الله بن الإمام أحمد وأبي حاتم والترمذي وابن جرير ، وأكثر النقل عن الإمام أحمد وأبي بكر البيهقي ، ومن روايات كثير من الصحابة منهم أنس بن مالك ، تارة يخبر أنس أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول ، وتارة يروي عن غيره ، كما روى عن مالك بن صعصعة ، وأبي ذر ، وعن أبي بن كعب .

ومن الصحابة الذين رووا حديث الإسراء ، بريدة بن الحصيب الأسلمي ، وجابر بن عبد الله ، وحذيفة بن اليمان ، وسعد بن مالك بن سنان ، وشداد بن أوس ، وعبد الله بن عباس ، وعمر بن الخطاب ، وعبد الله بن مسعود ، وأبو هريرة ، وعائشة أم المؤمنين ، وأم هانيء بنت أبي طالب ، وأبو بكر الصديق .

منهما من المشقة وكراهة فراق ما ألفه من الوطن ، ثم كان مآل كل منهما أن يرجع إلى موطنه الذي أخرج منه ، وبعيسى ، ويحيى ، على ما وقع له من أول الهجرة من عداوة اليهود ، وتماديهم على البغي عليه ، وإرادتهم وصول السوء إليه ، وبيوسف على ما وقع له من إخوته كما وقع للنبي من قريش في نصبهم الحرب له ، وإرادتهم هلاكه ، وكانت العاقبة له ، وقد أشار إلى ذلك بقوله لقريش يوم الفتح ، أقول كما قال يوسف : لا تثريب عليكم اليوم ، وبإدريس على رفيع منزلته عند الله ، وبهارون على أن قومه رجعوا إلى محبته بعد أن آذوه ، وبموسى على ما وقع له من معالجة قومه ، وقد أشار إلى ذلك بقوله ، لقد أوذي موسى بأكثر من هذا فصبر ، وبإبراهيم في استناده إلى البيت المعمور بما ختم له ﷺ في آخر عمره من إقامة منسك الحج ، وتعظيم البيت ، وهذه مناسبات لطيفة أبداها السهيلي ، فأوردتها منقحة ملخصة . ا. هـ . من فتح الباري .

ثم قال الحافظ : بعد أن أطنب في هذا الموضوع إطناباً لا مزيد بعده : **الإسراء به صلى الله عليه وسلم يقظة لا مناماً** :

فصل : وإذا حصل الوقوف على مجموع هذه الأحاديث ، صحيحها وحسنها وضعيفها ، يحصل مضمون ما اتفقت عليه من مسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى بيت المقدس ، وأنه مرة واحدة ، وإن اختلفت عبارات الرواة في آدائه ، أو زاد بعضهم فيه ، أو نقص منه ، فإن الخطأ جائز على من عدا الأنبياء عليهم السلام ، ومن جعل من الناس كل رواية خالفت الأخرى مرة على حدة ، فأثبت إسراءات متعددة ، فقد أبعد وأغرب وهرب إلى غير مهرب ، والحق أنه عليه السلام أسرى به يقظة لا مناماً من مكة إلى البيت المقدس راكباً البراق ، فلما انتهى إلى باب المسجد ، ربط الدابة عند الباب ودخله ، فصلى في قبلته تحية المسجد ركعتين ، ثم أتي بالمعراج وهو كالسلم ذو درج يرقى فيها ، فصعد فيه إلى السماء الدنيا ، ثم إلى بقية السماوات السبع ، فتلقاه من كل سماء مقربوها ، وسلم على الأنبياء الذين في السموات بحسب منازلهم ودرجاتهم ، حتى مر بموسى الكليم في السادسة ، وإبراهيم الخليل في السابعة ، ثم جاوز منزلتيهما صلى الله عليه وسلم وعليهما وعلى سائر الأنبياء ، حتى انتهى إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام ، أي أقلام القدر بما هو كائن ، ورأى سدرة المنتهى ، وغشيها من أمر الله عظمة عظيمة من فراش من ذهب وألوان متعددة ، وغشيتها الملائكة ، ورأى هناك جبريل على صورته وله ستمائة جناح ، ورأى رفرفاً أخضر قد سد الأفق ، ورأى البيت المعمور ، وإبراهيم الخليل باني الكعبة الأرضية مسند ظهره إليه ، لأن الكعبة السماوية يدخلها كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة يتعبدون فيه ثم لا يعودون إليه إلى يوم القيامة ، ورأى الجنة والنار ، وفرض الله عليه هنالك الصلوات الخمسين ، ثم خففها إلى خمس رحمة منه ولطفاً بعباده ، وفي هذا اعتناء عظيم بشرف الصلاة وعظمتها .

ثم هبط إلى بيت المقدس ، وهبط معه الأنبياء ، فصلى بهم فيه

لما حانت الصلاة ، ويحتمل أنها الصبح من يومئذٍ ، ومن الناس من يزعم أنه أمهم في السماء ، والذي تظاهرت به الروايات أنه ببيت المقدس ، ولكن في بعضها أنه كان أول دخوله إليه ، والظاهر أنه بعد رجوعه إليه ، لأنه لما مر بهم في منازلهم ، جعل يسأل عنهم جبريل واحداً واحداً ، وهو يخبره بهم ، وهذ هو اللائق ، لأنه كان أولاً مطلوباً إلى الجناب العلوي ليفرض عليه وعلى أمته ما يشاء الله تعالى ، ثم لما فرغ من الذي أريد به ، اجتمع به هو وإخوانه من النبيين ، ثم أظهر شرفه وفضله عليهم بتقديمه في الإمامة ، وذلك عن إشارة جبريل عليه السلام له في ذلك .

ثم خرج من بيت المقدس ، فركب البراق ، وعاد إلى مكة بغلس . أ هـ (١) .

ولما أصبح صلى الله عليه وسلم أخبر أم هانئ بحديث الإسراء ، فقالت : هل تخبر قومك بما أخبرتني ؟ قال : نعم ، قالت : أخشى أن يكذبك قومك إن أخبرتهم ، قال : وإن كذبوني .

فلما أخبر القوم ، بأن أسري به إلى بيت المقدس ، قالوا : ثم أصبحت بين أظهرنا ؟ قال : نعم ، وهنا منهم من أنكر وازداد كفره ، ومنهم من تملكه العجب فسكت ، ومن ضعفاء الإيمان من ارتد عن دين الإسلام ، فتحدوه أن يصف لهم بيت المقدس ، لأن كثيراً منهم ذهب هناك ورآه ، فنعته لهم عليه الصلاة والسلام ..

وفي الحديث : فما زلت أنعت حتى التبس علي ، فجيئ بالمسجد وأنا أنظر إليه ، حتى وضع دون دار عقيل ، فنعت المسجد وأنا أنظر إليه ، فقال القوم : أما النعت فوالله لقد أصاب ، ثم سألوه عن عير لهم ، فأخبرهم أنه رأى العير بالروحاء (٢) ، وقد أضلوا بعيراً لهم وهم في طلبه ، وفي رحالهم قدح من ماء ، فعطشت فأخذته وشربته ثم وضعته كما كان ، وقال لهم : مررت بعير بني فلان ، وفلان وفلان راكبان قعوداً لهما ، فنفر بعيرهما مني فرمى بفلان فانكسرت يده ..

---

(١) من تفسير ابن كثير الجزء الرابع طبعة دار الأندلس ، بيروت .

(٢) تبعد عن المدينة ستة وثلاثين ميلا .

والحاصل أنه لما قدمت العير ، سألوهم عما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالوا كما قال النبي عليه الصلاة والسلام ، ومع ذلك من غلبت عليه الشقوة ، وران على قلبه الضلال ، لم يؤمن ولج في طغيانه وكفره ، والله يضل من يشاء ، ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ، وأول من صدق أبو بكر الصديق ، ولما قيل له : أتصدقه على ذلك ؟ قال : إني أصدقه على أبعد من ذلك ، أصدقه على خبر السماء في غدوة أو روحة ، فسمي يومئذ الصديق .

تنبيه : سبق أن ذكرت أن الإسراء مجمع عليه لا خلاف فيه ، ولكن وقع الخلاف في المعراج ، والذي عليه جمهور المسلمين ، أنه عليه الصلاة والسلام عرج بروحه وبدنه .

قال الحافظ ابن القيم : والذين قالوا : عرج برسول الله طائفتان ، طائفة قالت : عرج بروحه وبدنه ، وطائفة قالت : عرج بروحه ولم يفقد بدنه ، وهؤلاء لم يريدوا أن المعراج كان مناماً ، وإنما أرادوا أن الروح ذاتها أسري بها ، وعرج بها حقيقة ، وباشرت من جنس ما تباشر بعد المفارقة ، وكان حالها في ذلك كحالها بعد المفارقة في صعودها إلى السماوات سماء سماء ، حتى ينتهي بها إلى السماء السابعة ، فتقف بين يدي الله عز وجل ، فيأمر فيها بما شاء ، ثم تنزل إلى الأرض ، والذي كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء أكمل مما يحصل للروح عند المفارقة ، ومعلوم أن هذا أمر فوق ما يراه النائم ، لكن لما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في مقام خرق العوائد ، حتى شق بطنه وهو حي لا يتألم بذلك ، عرج بذات روحه المقدسة حقيقة من غير إماتة ، ومن سواه لا ينال بذات روحه الصعود إلى السماء إلا بعد الموت والمفارقة ، فالأنبياء إنما استقرت أرواحهم هناك بعد مفارقة الأبدان ، وروح رسول الله صلى الله عليه وسلم صعدت إلى هناك في حال الحياة ثم عادت ، وبعد وفاته استقرت في الرفيق الأعلى مع أرواح الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ومع هذا فلها إشراف على البدن وإشراق ، وتعلق به ، بحيث يرد السلام على من سلم عليه ، وبهذا

التعلق رأى موسى قائماً يصلي في قبره ، ورآه في السماء السادسة ، ومعلوم أنه لم يعرج بموسى من قبره ثم رد إليه ، بل ذلك مقام روحه واستقرارها ، وقبره مقام بدنه واستقراره إلى يوم معاد الأرواح إلى أجسادها ، فرآه يصلي في قبره ، ورآه في السماء السادسة ، كما أنه صلى الله عيله وسلم في أرفع مكان في الرفيق الأعلى مستقراً هناك ، وبدنه في ضريحه غير مفقود ، وإذا سلم عليه المسلم ، رد الله عليه روحه حتى يرد السلام ، ولم يفارق الملأ الأعلى .

هذا ما قاله الحافظ ابن القيم في زاد المعاد ، ولكن الظاهر أن الأقوال ثلاثة :

١ ـ عرج بروحه وبدنه ، وعليه جمهور المسلمين من الصحابة والتابعين وتابعيهم وسائر الأئمة المعتبرين .

٢ ـ وطائفة قالت : عرج بروحه .

٣ ـ وطائفة قالت : عرج بالمنام .

وهناك قول رابع : وهو أنه أسري به بروحه وبدنه إلى البيت المقدس ، وعرج من بيت المقدس إلى السماء بروحه ، ... وكلها بمعزل عن الصواب ، إلا القول الأول ، لما سبق من الأدلة .

شبهات القائلين : إن الإسراء والمعراج كان بالروح أوبالمنام :

١ ـ قالوا : روي عن عائشة أم المؤمنين ، ما فقدت جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن عرج بروحه .

٢ ـ روي عن معاوية بن أبي سفيان : أنه كان بالروح مناماً ، ومعاوية رضي الله عنه من الصحابة الأجلاء ، وأصبح من بعد خليفة للمسلمين ، ويبعد أن يقول ما ليس له مستند ، إما أن يكون سمعه عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أو عن بعض أصحابه .

والجواب : حديث عائشة غير ثابت ، وعلى فرض الثبوت ، فإنها لم تكن في وقت الإسراء زوجاً للنبي عليه الصلاة والسلام ، بل لعلها لم

تكن ولدت إذ ذاك ، على خلاف في زمن الإسراء ، فإذا لم تشاهد ذلك ، دلت الرواية على أنها حدثت به عن غيرها ، فلم يرجع خبرها على قول أم هانئ بخلافه ..

وأما ما يروى عن معاوية فغير ثابت أيضاً ، وعلى فرض الثبوت ، فلعله فهم من قوله تعالى : **(وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس)** هي لرؤيته صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء ، وفهم أن الرؤيا بالألف لا تطلق إلا على الرؤية المنامية ، وهذا الفهم في غير محله ، لأنها كما تطلق على المنامية ، تطلق على رؤية البصر ، كما ذكر في لسان العرب وغيره من كتب اللغة .

قال الحافظ ابن كثير في تفسير هذه الآية : قال البخاري : حدثنا علي بن عبد الله حدثنا السفيان عن عمرو عن عكرمة عن ابن عباس **(وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس)** قال : هي رؤيا عين أريها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسري به ، والشجرة الملعونة في القرآن شجرة الزقوم ، وكذا رواه أحمد وعبد الرزاق وغيرهما عن سفيان بن عيينة به ، أي بهذا السند .

وهكذا فسر ذلك بليلة الإسراء مجاهد وسعيد بن جبير والحسن ومسروق وإبراهيم وقتادة وعبد الرحمن بن زيد وغير واحد . أ هـ (١) .

فالرؤيا بمعنى الرؤية ، يقال : رأيت بعيني رؤية ورؤيا ، فليست الرؤيا مقصورة على رؤيا المنام ، بل تشمل رؤيا العين في اليقظة ، كما حقق علماء اللغة ، فقد ورد في لسان العرب ما نصه ؛ قال ابن بري : وقد جاء الرؤيا في اليقظة ، قال الراعي :

فكبر للرؤيا وهش فؤاده
وبشر نفساً كان قبل يلومها

وعليه فسر قوله تعالى : **(وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس)**(٢) .

---

(١) من تفسير ابن كثير .

(٢) سورة الإسراء : الآية ٦٠ .

وعليه قول أبي الطيب :

مضى الليــل والفــضــل الذي لك لا يمضي
ورؤيــاك أحــلى في العــيـون من الغــمض

وتفـريق من فرق كالحريري بأن يقال : في البصرية رؤية ، وفي الحلميـة رؤيا ، مردود بما ورد عن ابن عباس في صحيح البخاري : « هي رؤيا عين أريها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسري به إلى بيت المقدس » ، أي لا رؤيا منام .

وبما ذكر في لسان العرب من قول الشاعر الراعي : فكبر للرؤيا ، وهش فؤاده ....

ومن المعلوم الثابت في وقت الإسراء ، أن معاوية لم يكن قد أسلم ، بل كان على دين قومه وهو من مسلمة الفتح ، ولم تأت في رواية صحيحة أن معاوية سمع ذلك من النبي أو من أصحابه ، وعلى تقدير أن يكون قد سمع من صحابي .... ؟

فالجواب : أنه قد وردت الروايات العديدة الوفيرة من طريق أكثر من ثلاثين صحابياً ، وكلها تثبت الإسراء والمعراج بروحه وبدنه ، إلا روايــة شريـك (١) في البخاري حيث قال في آخره : واستيقظ وهو في المسجد الحرام .

(١) قال في تفسير الخازن بعد أن ساق روايات الإسراء والمعراج ومنها رواية متفق عليها عن شريك ابن أبي نمر ثم قال : فصل : قال البغوي : قال بعض أهل الحديث : ما وجدنا للبخاري ومسلم في كتابيهما شيء لايحتمل مخرجاً إلا حديث شريك بن أبي نمر عن أنس ، ثم ساق كلاماً طويلا إلى أن قال : قال الشيخ محيي الدين رحمه الله في كتابه شرح مسلم : قد جاء في رواية شريك في هذا الحديث أوهام أنكرها عليه العلماء ، وقد نبه مسلم على ذلك بقوله : قدم وأخر ، وزاد ونقص ، منها قوله : وذلك قبل أن يوحى إليه ، وهو غلط لم يوافق عليه ، إلى أن قال : وأما قوله في رواية شريك : وهو نائم ، وفي الرواية الأخرى : بينا أنا عند البيت بين النائم واليقظان، فقد يحتج به من يجعلها رؤيا نوم ولا حجة فيه ، إذ قد يكون ذلك حاله أول وصول الملك إليه ، وليس في الحديث ما يدل على كونه نائماً في القصة كلها .

ولمنكري الإسراء والمعراج والقائلين أنه كان بالمنام أو بالروح شبهات عقلية :

الشبهة الأولى : أن صعود الجرم الثقيل إلى السماء غير معقول ... ؟

والجواب : أن على المسلم أن يؤمن بما جاء في القرآن ، أو صح في الحديث عن النبي عليه الصلاة والسلام ، ولا يقابل الوحيين بمثل هذه الشبهة العقلية الكاسدة ، لأن الله جل جلاله الذي وهب العقول لذويها ، ولأولئك الذين انقدحت هذه الشبهة في أذهانهم ، هو الذي خرق ناموس الكون لرسوله صلى الله عليه وسلم معجزة ، وأي عقل يستبعد ما يفعله الله أو ما يقوله ، أو ما يقوله الرسول صلى الله عليه وسلم ، لا يستبعد هذا من يملك ذرة من الإيمان ، وليلة الإسراء والمعراج كانت من المعجزات الكبرى لنبيه عليه الصلاة والسلام ، والمعجزة أمر خارق للعادة .

الشبهة الثانية : قالوا : إن الحركة الجسمانية البالغة في السرعة إلى هذا الحد غير معقولة ... ؟

والجواب : هو الجواب الأول ، ونضيف إليه جواباً ثانياً ، وهو أنه قد ثبت في الهندسة ، أن قرص الشمس يساوي كرة الأرض مليوناً وستمائة ألف مرة ، ثم إنا نشاهد أن طلوع قرص الشمس يحصل في

هذا كلام القاضي عياض ، وهذا الذي قاله في رواية شريك ، وأن أهل العلم قد أنكروها ، قد قاله غيره ، وقد ذكر البخاري في رواية شريك هذه عن أنس في كتاب التوحيد من صحيحه وأتى بالحديث مطولا ، وقال الحافظ عبد الحق في كتابه الجمع بين الصحيحين بعد ذكر هذه الرواية : هذا الحديث بهذا اللفظ من رواية شريك بن أبي نمر عن أنس قد زاد فيه زيادة مجهولة ، وأتى فيه بألفاظ غير معروفة ، وقد روى حديث الإسراء جماعة من الحفاظ المتقنين والأئمة المشهورين كابن شهاب وثابت البناني وقتادة ـ يعني عن أنس ـ فلم يأت أحد منهم بما أتى شريك ، وشريك ليس بالحافظ عند أهل الحديث ، قال : والأحاديث التي تقدمت قبل هذا هي المعول عليها .

زمن لطيف سريع ، وذلك يدل على أن بلوغ الحركة في السرعة إلى الحد المذكور أمر ممكن في نفسه ، وإذا ثبت ذلك ، ثبت أن حصول مثل هذه الحركة في جسد الرسول ممكن ، لقيام البرهان على أن الأجسام متماثلة في تمام ماهياتها ، فلما ثبت حصولها في بعض الأجسام ، وجب إمكان حصولها في سائر الأجسام ... إذاً فالمعراج ممكن كما أخبر به الصادق الأمين ، وكل ما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم ، فهو حق يجب تصديقه .

الشبهة الثالثة : إن القول بصعود الرسول إلى السماوات واستفتاحه ، وفتح باب السماء له سماء سماء ، يلزم منه خرق السماء والتآمها ، وهما ممتنعان عند أهل الفلك والهندسة .. ؟

والجـواب : **أولا** : قد قلنا غير مرة : إن الذي خلق السماوات والأرض ، هو الذي أسرى بعبده ، وخرق ناموس الكون ، حسب ما هو متعارف لدينا ، وأي قيمة لقول علماء الفلك بعد ما صح عن رسول الله في ذلك ، وليس من شأن المسلم أن يعارض الحديث الصحيح بقول فلسفي أو فلكي .

وثانياً : قد مر لنا أنه قد ثبت تماثل الأجسام ، وعليه فيجوز على السماوات الخرق والالتئام ، كما يجوز على غيرها كالأرض والماء .

وثالثاً : لو كان القول بمعراج الرسول في بعض ليلة ممتنعاً ، لكان القـول بنـزول جبريل من العرش إلى مكة أو المدينة في لحظة واحدة ممتنعاً ، لأن الملائكة أيضاً أجسام عند جمهور المسلمين ، وتوضيحه : أنه كما يستبعد عقلا صعود الجسم الكثيف من الأرض إلى السماء وإلى العرش ، كذلك يستبعد نزول الجسم اللطيف من السماوات ، ولو قلنا بذلك لكان طعناً[1] في نبوة جميع الأنبياء ، والقول بثبوت المعراج فرع تسليم جواز أصل النبوة .

---

(١) لأن النبي تعريفه رجل يوحى إليه بأمر ، والوحي ينزل به جبريل عليه السلام ، فإذا امتنع نزول الجسم اللطيف في لحظة بطل الوحي ، وبناء عليه فلا نبوة لنبي من الأنبياء، فلا وحي على منطق هذه الشبهة .

ورابعاً : أما أخبر الله عن عرش بلقيس ، بأن يحضره من كان عنده علم من الكتاب قبل أن يرتد طرفه ، كما أخبر الله : **(قال الذي عنده علم**[١] من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك)[٢] ، وبالفعل أحضر عرش بلقيس من سبأ إلى فلسطين بلحظة خفيفة ، ولذا قال الله مخبراً ، فلما رآه (أي العرش) مستقراً عنده ، قال (أي سليمان) **(هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر)**[٣] ، فإذا تأتى إحضار عرش بلقيس من أقصى اليمن إلى الشام في تلك اللحظة القصيرة ، فكيف لا يتأتى من الخالق جل جلاله أن يعرج برسوله صلى الله عليه وسلم في لحظات من الليل ؟ وكيف يقال أيضاً : إن الحركة الجسمانية البالغة السرعة إلى هذا الحد غير معقولة ؟ ، فقد ثبت بدعاء من عنده علم من الكتاب ، أن الله بعث ملائكة حملت عرش بلقيس ، حتى وضعوه بين يدي سليمان .

خامساً : إن الحركة بالأجسام المتناهية في السرعة لا مانع من حصولها ، بل هي موجودة بالفعل وإن لم تدركها العقول بادىء ذي بدء ، وليس كل ما لا تصل العقول إلى إدراكه مستحيل الحصول في ذاته ، فلو قال قائل قبل سبعين سنة : إن هناك طائرات من حديد تطير في الجو ، وعليها مدافع ورشاشات ، وتقطع المسافات البعيدة التي تستغرق بسير الدواب أو السفن الشراعية أياماً عديدة ، تقطعها بساعات قليلة ، لكان كل سامع يكذب القائل ، ويصفه بقلة العقل ، لكونه مخالفاً لذوي التفكير والعقول آنذاك ، ولكن كون عقولنا لا تصل إلى إدراك ذلك ، لا تجعل الطائرات في دائرة المستحيل ، بل قد حصل في هذه الأيام ما هو أسرع من الطائرات الموجودة منذ سنوات ، كالأقمار الصناعية والصواريخ عابرة القارات ، وقد يحصل في المستقبل ما هو

---

(١) هو آصف بن برخيا (وقيل : هو سليمان) ، لأنه كان يعرف اسم الله الأعظم ، وكاف الخطاب في آتيك به للعفريت الذي قال : (أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك) .

(٢) ، (٣) سورة النمل : الآية ٤٠ .

أكثر وأعجب ، قال الله العظيم : **(وما أوتيتم من العلم إلا قليلا)** ،[1] فإذا كان علم البشر وقدرته قد وصل إلى هذا الحد ، بل أعظم من ذلك أنــه قد اخترق الفضاء وصعد إلى القمر ، والحال أنه محدود القدرة والعلم ، فمــا موقف المكــذبــين بالإسراء والمعــراج مع قدرة الله التي لا وصف لها ولا نهاية ... ؟ من يعرف الله معرفة حقيقية ، ويعرف هذه المخلوقات العظيمة التى أوجدها الله من السماوات والكواكب والأقمار والبحار والجبال لا يكذب ، بل لا يستبعد أن يسري الله بعبده إلى بيت المقدس ثم إلى السماوات ، ولكن من سلب العقل أو الإيمان ، واستحوذ عليــه الشيــطان ، وتأثر بآراء الفلاسفة وأشباههم ، هو الذي يماري ويجادل ، ويتسلح بسلاح الإنكار ، **(ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً)**(٢) ..

الشبهة الرابعة : إن الإنسان عبارة عن الروح وحده ، لأنه باق من أول عمره إلى آخره ، والأجزاء البدنية في التغير والانتقال ، والباقي مغاير للمتغير ، فالإنسان مغاير لهذه الأعضاء ، فالعبد في قوله تعالى : **(سبحان الذي أسرى بعبده)** المراد منه الروح ، لأن العبد يطلق على الروح ، كمــا يطلق على الروح والجسد معاً ، بل الروح خلاصته ، فهي أولى بالذكر ، والنتيجة من هذه الشبهة هو أن الإسراء والمعراج كانا بالروح .. ؟

والجــواب : لما كان الإسراء والمعراج من الأمور العجيبة الخارقة للعادة ، افتتح الله آية الإسراء بكلمة **(سبحان)** إشارة إلى تنزيه ذاته العليــة ، وتقــديسها عن شوائب النقص ، وإشارة إلى أن الله أسرى بجســد محمد صلى الله عليه وسلم وروحه ، ولنا على ذلك من الأدلة الشيء الكثير ، وإلى القارىء بعضها :

١ – لو كان الإسراء والمعــراج بالروح أو بالمنام ، لما افتتح الله السورة بكلمة (سبحان) الدالة على تنزيه الله وتعظيمه ، لأن المنام أمر

---

(١) سورة الإسراء : الآية ٨٥ .

(٢) سورة الكهف : الآية ١٧ .

عادي ، يكون للأنبياء ولغير الأنبياء ، فقد يرى النائم أنه صعد إلى السماء ورأى الملائكة أو الجنة والنار ، فأي غرابة وعجب في هذا حتى يستفتح بالتنزيه ؟ .

٢ - لو كان بالمنام أو بالروح ، لما استبعده المشركون وأنكروه وكذبوا الرسول صلى الله عليه وسلم ، وارتد بعض ضعفاء الإيمان ، لأنه لم يكن غريباً عندهم ولا عند غيرهم من بني آدم ، أن يرى الرائي منهم في المنام ما هو على مسيرة سنة أو أكثر ، فكيف على ما هو أقل - ونعنى بذلك المسافة من مكة إلى بيت المقدس - ولما كان هناك وجه للدهشة والاستغراب للجاهلين من المشركين .

٣ - لو كان بالمنام لما ذكر الله صريحاً في القرآن الكريم في سورة الإسراء ، وأشار إلى المعراج في سورة والنجم إذا هوى ، لأن المنام يحصل لكل أحد لا فرق بين نبي وغيره .

٤ - لو كان بالروح لما كان حاجة إلى إتيان البراق ، لأن الروح لا تحمل على الأجسام ، وقد وصف البراق بدابة دون البغل وفوق الحمار ، والدواب لا تحمل إلا الأجسام .

٥ - ولو كان بالروح كما ذكروا ، لما عطش وطلب الماء ، لأن الأرواح المجردة لا تظمأ ولا تجوع ولا تطلب الماء ، وإنما ذلك من خواص الأرواح والأجسام .

٦ - ولو كان مناماً ، لما كان هناك وجه لسؤال جبريل عنه عليه الصلاة والسلام ، لأن الأرواح من أمر الله ، فلا تتناكر حتى تحتاج للسؤال .

٧ - ومنها أنه لو كان بالروح أو مناماً ، لما كان له صلى الله عليه وسلم مزية فيه على غيره ، لأن مطلق مؤمن يرى في منامه أن القيامة قد قامت ، واجتمعت الخلائق ، ونصب الميزان ، وحصل فصل القضاء ، ويرى الصراط والنار ، ويرى أنه قد دخل الجنة ، ومن الناس من يرى أنه صعد السماء ، ورأى فيها الملائكة ، بل يرى ذلك غير

المؤمن ، وإذاً فلا مزية في الإسراء لمحمد عليه الصلاة والسلام على غيره من باقي الأنام ، ولم يكن هناك وجه لذكره في القرآن الكريم مبدوءاً بتنزيه العزيز الحميد .

وأما زعمهم أن العبد عبارة عن الروح ؟

فالجـواب أن نقول أولا : هذا تفسير باطل ، وتحكم لا يحتمله اللفظ ، ولم يرد في كتب اللغة لفظ العبد بمعنى الروح ، ولو كان الإسراء بالروح ، لقال : « أسرى بروح عبده » ، وتقديرهم بأن الكلام على حذف مضاف تقديره أسرى بروح عبده ، تأويل باطل ، لأنه لا يقال بالمجاز إلا تعذر حمل الكلام على الحقيقة ، وهنا لا يتعذر ، ولا هناك مانع من حمل الكلام على حقيقته ، وهو أن الإسراء والمعراج كانا بروحه وبجسمه يقظة لا مناماً ، والدلائل النقلية والعقلية التي سقنا كثيراً منها تؤيدنا ، وتضعف قولهم ، وتبطل شبهتهم ، ومن تدبر قول هؤلاء المنكرين للإسراء والمعراج ، أو القائلين بالروح أو المنام ، يتبين له بكل وضوح فساده وبطلانه ، لأنه يلزم منه نسبة العجز إلى الله العلي القدير ، وإنكار هذه المعجزة الكبرى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يثبت عن صحابي قط ما زعمه هؤلاء المنكرون أو المؤولون ، وما نسب إلى عائشة رضي الله عنها ، ومعاوية رضي الله عنه ، فلا أصل له كما سلف بيانه .

ونقول ثانياً : لو فتح باب التأويل ، لما صحت عقيدة إسلامية ، ولأمكن لكـل ملحـد أن يؤول العقائد والأحكام ، كما أولت الجهمية والمعتزلة صفات الباريء ، وعطلته عن أسمائه وصفاته ، وما أثبتوا إلا ذاتاً مجردة هي قدرة وهي سمع وهي بصر وإرادة ، إلى غير ذلك مما يخالف المعقول والمنقول ، كما سلطت الباطنية التأويل على العقائد وعلى الأحكام الشرعية ، فأصبحوا يظهرون الإسلام ويبطنون الـكفر ، وأكبر معـول لهدم الدين هو التأويل ، باستثناء حالات ضرورية تسوغ لنا التأويل ، كما فسروا قوله تعالى : (**وهو معكم**) بمعية العلم ، لأن الله تعالى قال قبل ذلك : (**يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها**) ثم قال تعالى : (**هو معكم أينما**

كنتم والله بما تعملون بصير) ، وقال تعالى : **(له ملك السموات والأرض وإلى الله ترجع الأمور)** وقال تعالى : **(يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وهو عليم بذات الصدور)** .

فالآيات السابقة واللاحقة ترينا أن المعية هنا بمعنى معية العلم ، كما أن قوله تعالى : **(إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون)** . فإن المعية هنا بمعنى التأييد والنصر ، لا بمعنى معية الذات لاستحالتها ، ولكن أي استحالة في إثبات الصفات لله ، وهي صفات كمال مع تنزيهه عن مشابهة المخلوقات لقوله تعالى : **(ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)** ، وأي استحالة في إسراء الله لنبيه صلى الله عليه وسلم إلى المسجد الأقصى ، ثم إلى السماوات العلى ، وأي محذور في ذلك حتى يوجب علينا التأويل وتفسيره بالروح أو بالمنام ؟ ..

وحيث أننا بينا بعض المعجزات النبوية ، والمعجزة كما سبق أمر خارق للعادة ... إلخ ، وخرق العادة قد يحصل لغير الأنبياء من السحرة والكهان والدجاجلة والمتنبئين الكذابين ، فمن الجدير بنا أن نذكر الفروق بين معجزات الأنبياء وخوارق غيرهم ، فهاك البيان الشافي :

الفروق بين آيات الأنبياء وغيرهم من السحرة والكهان ونحوهم :

هناك فروق كثيرة ، ونحن نذكر بعضها :

١ - إن سيرة النبي وأخلاقه وصفاته ، إذا قورنت بسيرة السحرة والكهان والمتنبئين من الدجاجلة وغيرهم ، تبين بينه وبينهم بون شاسع ، وبعد عظيم ، فالنبي يتمتع بالسيرة الحسنة والأخلاق العظيمة والصفات الجليلة ، كالصدق والمروءة والوفاء بالوعد ، والإعراض عن الدنيا ، والزهد فيها ، وعبادة الله وحده ، والانقطاع إليه ، بينما ترى الساحر والكاهن ديدنه الكذب ، وصفاته الظلم والغدر والكذب ، وشيمته إخلاف الوعد ، وكل همه أن ينال حطام الدنيا ، وهكذا المتنبئون الكذابون لا يتصفون بالصدق ، ولا يبالون بالظلم ، وليس لديهم مروءة ولا وفاء ، وجل همهم الرئاسة على أتباعهم ، ومن يقع في شركهم ، وأن يعيشوا منعمين ، معرضون عن الله وعن الدار الآخرة ، ومقبلون على الدنيا ، ولا أظن أن إنساناً حباه الله ذرة من العقل والتمييز بين الطيب والخبيث والحق والباطل ، ثم لا يميز بين سيرة الأنبياء والمرسلين ، وبين سيرة السحرة والكهان والمتنبئين ، ومن وصلت به الحالة إلى أن لا يميز بين هؤلاء وهؤلاء ، فهو أقرب إلى الحيوان ، ولا ينبغي أن يعد نفسه من بني الإنسان ، وإذا عرفت ما ذكرته من الفرق بين الصنفين ، تعرف الفرق بين خوارق الأنبياء وهي معجزاتهم وآيات نبوتهم ورسالتهم ، وخوارق السحرة والكهان والمشعوذين والدجاجلة المتنبئين الكذابين ، فإن خوارق

الأنبياء منحة ربانية ، وخوارق هؤلاء كسبية بتعلم علوم ، أو معرفة خواص أشجار ونباتات ، أو سحر ، أو من الشياطين .

٢ ـ الأنبياء تأمر بعبادة الله وتوحيده ، والإيمان باليوم الآخر ، ولا تأمر إلا بالعدل ، ولا تفعل إلا العدل ، وهؤلاء المخالفون لهم لا يأمرون بالتوحيد ، بل لا بد لهم من الظلم ، فإن من خالف العدل لا يكون إلا ظلماً ، فيدخلون في العدوان على الخلق ، وفعل الفواحش والشرك ، والقول على الله بغير علم ، وهي المحرمات التي حرمها الله مطلقاً ، كما قال الله تعالى : (**قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والإثم والبغي بغير الحق ، وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون**) (١) .

٣ ـ ما تخبر به الأنبياء لا يكون إلا صدقاً ، وأما ما يخبر به من خالفهم من السحرة والكهان ، وعباد المشركين ، وأهل الكتاب ، وأهل البدع والفجور من المسلمين ، فإنه لا بد فيه من الكذب كما قال تعالى : (**هل أنبؤكم على من تنزل الشياطين ، تنزل على كل أفاك أثيم ، يلقون السمع وأكثرهم كاذبون**) (٢) .

ومن هنا قد تخبر الكهان والسحرة عن بعض أمور الغيب بالنسبة لمن لم يعرف طرقهم الشيطانية ، فهو غيب إضافي مصدره الشياطين ، أما ما تخبر به الأنبياء والرسل ، **فأولا** : مصدره الرب العظيم الذي يعلم ما كان وما سيكون ، كما قال الله تعالى : (**عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً ، إلا من ارتضى من رسول ، فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً**) (٣) .

وثانياً : قد يخبر الرسول بأمور بعيدة كبيرة مفصلاً ، مثل إخباره عليه الصلاة والسلام : « إنكم تقاتلون الترك صغار الأعين ، ذلف

---

(١) سورة الأعراف : الآية ٣٣ .

(٢) سورة الشعراء الآيتين ٢٢١ ـ ٢٢٣ .

(٣) سورة الجن : الآيتين ٢٦ ـ ٢٧ .

الأنف (١) ، ينتعلون الشعـر ، كأن وجوههم المجان المطرقة » (٢) ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجـاز ، تضيءُ لهـا أعناق الإبل ببصرى » ، ونحو ذلك ، فمثل هذه الأخبـار لا يقدر عليه جني ولا إنسي ، والمقصود أن ما يخبر به غير النبي - من ساحر أو كاهن أو منجم أو متنبيء - من الغيب معتاد معروف نظيره من الجن والإنس ، فهو من جنس المقدور لهم ، وما يخبر به النبي خارج عن قدرة هؤلاء وهؤلاء ، فهو من غيب الله الذي اختص به ، كما ذكرته الآية السالفة .

٤ - معجزات الأنبياء خارجة عن مقدور جميع العباد ، ولا تنال بالاكتساب ، بل هي من إمداد الله لهم دليلاً على صدقهم ، أما خوارق غيرهم من السحرة والكهان وأضرابهم ، فإنها معتادة ومقدورة بأسباب يتعاطونها ، فليست خارجة عن نطاق فعل العباد ، لأن السحر والكهانة مما يمكن التوصل إليه بسبب كالتعلم ، وممارسة أعمال خبيثة كالانقياد للجن وطاعتهم ، ومن هنا يتضح لنا أن ما يأتي به النبي من الخوارق ليس له فيها كسب وسبب ، وإنما هي من الله ، لأن النبوة هبة من الله ، فكـذلك المعجـزات المترتبة على النبوة بخلاف السحر والكهانة وادعاء النبوة بالكذب ، فإنها مما يمكن أن يفعله كل أحد إذا أخذ بالأسباب المـوصلة إليـه ، فلذا كان كل ما يأتـون به من خوارق ممـا ينـال بالاكتساب ، وهذا مجرب عند الناس .

٥ - إن النبوة ليست بالاكتساب ، وسبق بيانها في الجزء الأول ، قال اللقاني :

ولم تـكن نبـوة مكتسبة ولو رقى في الخبر أعلى عقبة

---

(١) الذلف بالتحريك قصر الأنف وانبطاحه ، والأنف جمع قلة للأنف وضع موضع الكثرة .

(٢) المجان : جمع المجن وهو الترس ، والمطرقة التي قد عليت بطارق وهو الجلد الذي يغشاه ، شبه وجوههم في عرضها ونتوء وجناتها بالترس قد ألبست الأطرقة .

ولو قدر فرضاً أنها تنال بالكسب ، فإنما تنال بالأعمال الصالحة والصدق والعدل والتوحيد ، لا تحصل مع الكذب على الله .

فالطريق الذي تحصل به ، لو حصلت بالكسب ، مستلزم للصدق على الله فيما يخبر به .

٦ - إن ما يأتي به الكهان والسحرة ، لا يخرج عن كونه مقدوراً للجن والإنس ، وهم مأمورون بطاعة الرسل ، وآيات الرسل لا يقدر عليها جني ولا إنسي ، بل هي خارقة لعادة كل من أرسل النبي إليه ، قال الله تعالى : (**قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً**)(١) .

ولزيادة التوضيح نقول : قد يؤثر الساحر في المسحور بمرض أو موت ، أو قد يطير في الهواء من بلد إلى بلد ، فالمرض والحركة والموت أعراض ، والحيوان يقبل في العادة مثل هذه الأعراض ، ليس في هذا قلب جنس إلى جنس ، ولا في هذا ما يختص الرب بالقدرة عليه ، ولا ما يختص به الملائكة ، وهذا التصرف مقدور للناس أو للحيوان ، فإن تمريض الغير أو قتله يحصل بعدة أسباب ، وهو في مقدور الجن والإنس ، وكذلك الطيران في الهواء من شأن الطير ، وقد تفعله الجن أيضاً ، كما أخبر الله أن العفريت قال لسليمان عليه السلام : (**أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك**) (٢) ، ومثل ذلك ما قد يفعله الكاهن أو الساحر أو المشعوذ من إحضار طعام أو فاكهة من بلد إلى بلد ، فهذا كل ما فيه إنما هو نقل مال من مكان إلى مكان ، وقد تفعله الإنس والجن ، وقد تحضره الشياطين للساحر والكاهن ، إذا كان منقاداً لهم ونازلاً على رغباتهم ، فلم تخرج هذه الأمور وأمثالها عن نطاق قدرة الإنس والجن والحيوان .

---

(١) سورة الإسراء : الآية ٨٨ .

(٢) سورة النمل : الآية ٣٩ .

أما معجزة الرسل مثل فلق البحر لموسى ، وقلب عصاه حيةً تسعى ، ونبع الماء الزلال من بين أصابع المصطفى ، وانشقاق البدر له ، فمثل هذه الآيات أو نقول المعجزات ، ليس من مقدور الإنس والجن ، وليس في الإمكان أن يعارضهم أحد بمثل ما أتوا به .

٧ ـ إن خوارق غير الأنبياء ليست خارقة لعادات بني آدم أو الجن ، بل كل ضرب منها معتاد لطائفة غير الأنبياء ، وأما آيات الأنبياء فليست معتادة لغيرهم .

٨ ـ إن خوارق السحرة والكهان والمشعوذين والدجاجلة وأمثالهم ، يمكن أن تعارض بمثلها .

وآيات الأنبياء لا يمكن لأحد أن يعارضها بمثلها ، كما في قصة موسى والسحرة ، حيث أنهم قد عجزوا عن المعارضة ، وآمنوا بالله إيماناً جازماً ، وخروا لله سجداً ، وكما عجز قوم موسى عليه السلام أن يأتوا بمثل معجزاته ، من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى ، وإخبارهم بما يأكلون ويدخرون في بيوتهم ، وكما عجز مشركو العرب أن يعارضوا الرسول بأن يأتوا بمثل ما أتى به ، فقد أتاهم بالقرآن العظيم ، وتحداهم بأن يأتوا بأقصر سورة من مثله فعجزوا ، وشق الله له القمر ، فهل استطاعوا أن يفعلوا مثل ذلك ؟

٩ ـ إنه إذا كان من الآيات ما يقدر عليه الملائكة ، فإن الملائكة لا تكذب على الله ، ولا تقول لبشر : إن الله أرسلك ولم يرسله ، وإنما يفعل ذلك الشياطين .

والكرامات معتادة (١) في الصالحين منا ومن قبلنا ، وليست خارقة

---

(١) في هذا الكلام إثبات كرامات الصالحين ، وأنها لا تصل إلى درجة معجزات الأنبياء ، وكرامات الأولياء قد تنال بالدعاء والصلاح والتقوى بخلاف معجزات الأنبياء، فهذا من الفارق بينهما ، كما أن كرامات الأولياء تدل على صدق نبوة من كان أولئك الأولياء على شريعتهم ، وكرامة الأولياء ثابتة ، كما ذكر الله عن مريم ﴿**كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً**﴾ وفاكهة الشتاء في الصيف ، وفاكهة الصيف في الشتاء :

لعادة الصالحين ، وآيات الأنبياء خارقة لعادة الصالحين ، وهذه تنال بالصلاح بدعائهم وعبادتهم ، ومعجزات الأنبياء لا تنال بذلك ولو طلبها الناس ، حتى يأذن الله فيها ، قال الله تعالى : (**إنما الآيات عند الله** ،

﴿**قال أنى لك هذا ، قالت هو من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب**﴾ آل عمران : الآية ٣٨ .

ثبت عن بعض الصحابة كرامات لا مجال للريب فيها ، كمشي العلاء بن الحضرمي على الماء ، وشرب خالد بن الوليد للسم ، ومخاطبة عمر لسارية على المنبر ، ولكن مما ينبغي أن يعلم أن ما كل من أتى بخارق من خوارق العادات دل على صلاحه وولايته، لأن الخوارق تأتي بها السحرة والكهان ، والمتنبئون الكاذبون ، والشياطين ، كما يأتي بها من يدعي الصلاح ، فلا ينبغى أن نغتر بمجرد ظهور خارق على يد رجل يدعى الصلاح أو يُدْعَى له ، حتى ولو مشى على الماء أو طار في الهواء ، أو دخل في النار ، لأنه قد تفعل له الشياطين ، أو تفعل به بأن تطير به ، أو تمشي به على الماء أو تدخل به في النار ، ولكن العلامة المميزة بين الصدق والكذب ، وبين كون ذلك الخارق من جنس كرامات الصالحين الصادقين ، وبين خوارق الكهنة والدجاجلة والسحرة والشياطين ، وأمثالهم ، هي اتباع الكتاب والسنة ، كما قال الله تعالى : ﴿**ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون**﴾، فالإيمان والتقوى هما العلامة الفارقة بين أولياء الله الصالحين ، وبين أولياء الشياطين الكاذبين ، فمن كان مؤمناً بالله وموحداً ومتبعاً لسنة رسول الله ، قائماً بالفرائض التي أوجبها الله عليه ، وبالسنن الواردة عن الرسول ﷺ ، تاركاً لجميع المحرمات ، خالصاً في أعماله عن الرياء والسمعة ، وكانت أعماله مطابقة للشريعة المطهرة ، فمثل هذا إذا استجيب له دعاء ، أو أتى بخارق من غير أن يدعي أنه ولي ، ويباهي بما أتى به الناس ، فهذا قد يكون كرامة ولا مانع من ذلك .

وأما من يشرك بالله بأن يستغيث بغير الله بنبي أو ولي أو بشيخه ، أو ينذر لغير الله ، أو يحلف بغير الله ، أو ينتحل بدعة في اعتقاده ، أو أتى ببدع في أعماله التعبدية ، كأذكار غير مشروعة ، وصلوات مخترعة ، أو يترك شيئاً من الفرائض الواجبة ، أو يرتكب محرماً من المحرمات ، ومع ذلك يدعي أنه من أولياء الله الصالحين، ويأتي بخوارق يظنها الجهال أنها من الكرامات ، وأنه قد بلغ درجة الولاية ، فهذا دجال كذاب ، فالمشرك لا يكون ولياً لله ، وتارك الفرض أو فاعل الحرام والمبتدع أقل أحواله أن يكون فاسقاً ، ومتى كان الفاسق ولياً لله ، حتى

وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون)[1] ، وقال تعالى : **(قل إن الله قادر على أن يـنزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون)** [2] .

١٠ - إن النبي قد تقدمه أنبياء ، فهو لا يأمر إلا بجنس ما أمرت به الرسل قبله ، فله نظراء يعتبر بهم ، وكذلك الساحر والكاهن له نظراء يعتبر بهم .

١١ - إن النبي لا يأمر إلا بمصالح العباد في المعاش والمعاد ، فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، فيأمر بالتوحيد والإخلاص والصدق ، وينهى عن الشرك والـكذب والظلم ، فالعقول والنظر توافقـه كما توافقه الأنبيـاء قبله ، فيصدقه صريح المعقول وصحيح المنقول الخارج عما جـاء به ، والله أعلم .

يكـون له كرامة ؟ وقد شرط الله للولاية شرطين ، الإيمان والتقوى ، كما قال الله تعـالى : ﴿**ألا إن أوليـاء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنـون الذين آمنوا وكانوا يتقون**﴾فإذا صدر من هذا المشرك أو الفاسق ما يرى أنه من جنس الخوارق، كأن يطعن نفسه بسكين ، أو يدخل النار ، فاجزم أن ما أتى به تلبيس وتمويه ، فإما أن يكون من قبيل السحر ، أو من فعل الشياطين له .

ومما يدل على كذب أمثال هؤلاء الدجاجلة ، أن التقى الصالح لا يعمل حفلة كحفلة مولد مثلا ويطعن نفسه بخنجر بدعوى الولاية ، أو يدخل النار ، أو يمسك حديداً محمياً من نار ، ليرى النـاس ولايتـه وكـرامته ، بل الأولياء يخفون ولايتهم وكرامتهم ، ولا يظهرونها إلا إذا دعت الضرورة ، مثل أن يقع في شرك ظالم يريد حبسه وإهانته ، فيسأل الله الفرج والخلاص من هذا المأزق ، أو يتحداه قوم كفار ، يقولون له : إن كان دينك ديناً صحيحاً ، ونبيك صادقاً ، فادع الله لنا بكذا ، أو ادخل النار ، فعند ذلك قد يطلب من الله بقصد أن يظهر صحة ديانته ، وأن يهتدي أولئك الكفرة المتحدون له إلى الدين الصحيح .

وأمـا هؤلاء الـدجـاجلة وكثير من المتصوفة ، فجل همهم الشهرة بين الأنام ، والـرئاسة على الطغام ، وابتغاء الدنيا وجمع الحطام ، وهذه أعمال أولياء الشياطين لا أولياء الرحمن .

(١) سورة الأنعام : الآية ١٠٩ .

(٢) سورة الأنعام : الآية ٣٧ .

الأدلة على أن نبوة محمد ﷺ خاتمة النبوات والرسالات

١ ـ الكتاب المجيد .
٢ ـ السنة الصحيحة والحسنة .
٣ ـ اللغة العربية .
٤ ـ الإجماع .
٥ ـ البراهين العقلية .

أولاً : الكتاب :

فحيث أن المتنبئين يعترفون به ، كما يعترفون بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ورسالته العامة ، فنقول لهم : إذا كنتم تعترفون ، بل وتحتجون على بعض مطالبكم بالقرآن ، وببعض الأحاديث ، فالقرآن يقول : **(ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين ، وكان الله بكل شئ عليماً)** (١) .

فهذه الآية صريحة بختم النبوة به صلى الله عليه وسلم ، لا تحتاج لتفسير ولا زيادة إيضاح وبيان ، يعرف معناها كل من ملك مسكة من العقل وشم رائحة من اللغة العربية ، ولم يخالف في هذا المرام أحد من العرب ، ولا من غيرهم ممن دخل في دين الإسلام ، ولم يسترب أحد في هذه الحقيقة طيلة اثني عشر قرناً ، حتى أتى هؤلاء الدجاجلة المتنبئون الأعاجم الكذابون في القرن الثالث عشر الهجرى : محمد علي الباب الإيراني وخليفته عبد البهاء ، وميرزا غلام أحمد القادياني الهندي ، فزعموا ما زعموا من ادعاء النبوة ، وأتوا بتفسير جديد لآية (خاتم النبيين) ، ولا ندري متى كان الأعاجم أعلم بتفسير كتاب الله تعالى من العلماء العرب ، ومن علماء الإسلام قاطبة ، والذين مارسوا كتاب الله وتفسيره ، وأحاديث النبي وسيرته ، واللغة العربية ومفرداتها وعلومها من نحو وصرف وبلاغة وعروض ، وما إلى ذلك من علومها المعروفة ، وفقهها وأسرارها ، وعرفوا الشريعة الإسلامية أصولها وفروعها ، ومقاصدها وأسرارها ، ومن الصحابة الذين شاهدوا رسول الله صلى الله عليه

---

(١) سورة الأحزاب : الآية ٤٠ .

وسلم ، ونقلوا عنه القرآن ، وسنته القولية والفعلية ، وسيرته العطرة بكل دقة وإخلاص ، فإن هؤلاء كلهم مطبقون على أنه لا نبي بعد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا كتاب سماوي بعد القرآن ، ومن ادعى النبوة بعد الرسول والقرآن ، فقد باء بالضلال والكفران ، ووجب قتله إن لم يتب من دعوى النبوة أو الرسالة .

وها أنذا أورد للقارىء ما قاله بعض أئمة التفسير على هذه الآية الكريمة ، وأبتدىء بشيخ المفسرين ـ المتفق على جلالته ـ الإمام الحافظ محمد بن جرير الطبري :

١ ـ قال في تفسير قوله تعالى : **(ما كان محمد أباأحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين)** ، يقول تعالى ذكره : ما كان أيها الناس محمد أبا زيد بن حارثة ، ولا أبا أحد من رجالكم الذين لم يلده محمد ، فيحرم عليه نكاح زوجته بعد فراقه إياها ، ولكنه رسول الله وخاتم النبيين الذي ختم النبوة ، فطبع عليها ، فلا تفتح لأحد بعده إلى قيام الساعة ، وكان الله بكل شئ من أعمالكم ومقالكم وغير ذلك ذا علم ، لا يخفى عليه شيء ، وبنحو الذي قلنا في ذلك ، قال أهل التأويل ، ذكر من قال ذلك : حدثنا بشر قال : ثنا يزيد قال : ثنا سعيد عن قتادة قوله : **(ما كان محمد أبا أحد من رجالكم)** ، قال : نزلت في زيد أنه لم يكن بابنه ، ولعمري ولقد ولد له ذكور ، إنه أبو القاسم وإبراهيم والطيب ، ولكن رسول الله وخاتم النبيين ، أي آخرهم **(وكان الله بكل شئ عليماً)** . أ هـ .

٢ ـ قال الحافظ ابن كثير في تفسيره آية : **(ولكن رسول الله وخاتم النبيين ، وكان الله بكل شئ عليماً)** كقوله عز وجل : **(الله أعلم حيث يجعل رسالته)** ، فهذه الآية نص في أنه لا نبي بعده ، وإذا كان لا نبي بعده ، فلا رسول بالطريق الأولى والأحرى ، لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة ، فإن كل رسول نبي ولا ينعكس .

ثم أورد الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ عدة أحاديث في ختم النبوة ،ثم قال بعد ذلك ما نصه : « والأحاديث في هذا كثيرة ، فمن

رحمة الله تعالى بالعباد إرسال محمد صلى الله عليه وسلم إليهم ، ثم من تشريفه لهم ختم الأنبياء والمرسلين به ، وإكمال الدين الحنيف له ، وقد أخبر الله تبارك وتعالى في كتابه ، ورسوله صلى الله عليه وسلم في السنة المتواترة عنه ، أنه لا نبي بعده ، ليعلموا أن كل من ادعى هذا المقام بعده ، فهو كذاب أفاك دجال ضال مضل ، ولو تخرق وشعبذ وأتى بأنواع السحر والطلاسم ، فكلها محال وضلال عند أولي الألباب ، كما أجرى الله سبحانه وتعالى على يد الأسود العنسي باليمن ، ومسيلمة الكذاب باليمامة ، من الأحوال الفاسدة والأقوال الباردة ، ما علم كل ذي لب وفهم وحجى أنهما كاذبان ضالان لعنهما الله ، وكذلك كل مدع لذلك إلى يوم القيامة حتى يختموا بالمسيح الدجال ، فكل واحد من هؤلاء الكذابين ، يخلق الله تعالى معه من الأمور ما يشهد العلماء والمؤمنون بكذب من جاء بها ، وهذا من تمام لطف الله تعالى بخلقه ، فإنهم بضرورة الواقع لا يأمرون بمعروف ولا ينهون عن منكر إلا على سبيل الإتفاق ، أو لما لهم فيه من المقاصد إلى غيره ، ويكونون في غاية الإفك والفجور في أقوالهم وأفعالهم ، كما قال تعالى : (**هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم**) الآية ، وهذا بخلاف حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فإنهم في غاية البر والصدق ، والرشد والاستقامة والعدل ، فيما يقولونه ويفعلونه ، ويأمرون به وينهون عنه ، مع ما يؤيدون به من الخوارق للعادات ، والأدلة الواضحات ، والبراهين الباهرات ، فصلوات الله وسلامه عليهم دائماً مستمراً ، ما دامت الأرض والسموات .

٣ ـ قال العلامة الألوسي في تفسير الآية المذكورة : والخاتم اسم آلة لما يختم به ، كالطابع لما يطبع به ، فمعنى خاتم النبيين ، الذي ختم النبيون به ، ومآله آخر النبيين ، وقال المبرد : خاتم فعل ماض على فاعل ، وهو في معنى ختم النبيين ، (فالنبيين) منصوب على أنه مفعول به وليس بذلك ، وقرأ الجمهور خاتم بكسر التاء على أنه اسم فاعل ، أي الذي ختم النبيين ، والمراد به آخرهم أيضاً ، وفي حرف ابن مسعود ولكن نبياً ختم النبيين ، والمراد بالنبي ما هو أعم من الرسول ، فيلزم

من كونه صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين كونه خاتم المرسلين ، والمراد بكونه عليه الصلاة والسلام خاتمهم ، انقطاع حدوث وصف النبوة في أحد من الثقلين بعد تحليه عليه الصلاة والسلام بها في هذه النشأة ، ولا يقدح في ذلك ما أجمعت الأمة عليه ، واشتهرت فيه الأخبار ، ولعلها بلغت مبلغ التواتر المعنوي ، ونطق بهٌ الكتاب على قول ، ووجب الإيمان به ، وأكفر منكره كالفلاسفة من نزول عيسى عليه السلام آخر الزمان ، لأنه كان نبياً قبل تحلي نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم بالنبوة في هذه النشأة ، ثم إنه عليه السلام حين ينزل باق على نبوته السابقة لم يعزل عنها بحال ، لكنه لا يتعبد بها بنسخها في حقه وحق غيره ، وتكليفه بأحكام هذه الشريعة أصلاً وفرعاً ، فلا يكون إليه عليه السلام وحي ولا نصب أحكام ، بل يكون خليفة لرسول الله ، وحاكماً من حكام ملته بين أمته بما علمه في السماء قبل نزوله من شريعته عليه الصلاة والسلام كما في بعض الآثار . أ هـ .[1] .

٤ ـ قال العلامة الخطيب الشربيني في تفسير الآية الشريفة : (**لكن**) كان في علم الله غيباً وشهادة : (**رسول الله**) أي الملك الأعظم الذي كل من سواه عبده ، (**وخاتم النبيين**) أي آخرهم ، الذي ختمهم لأن رسالته عامة ، ومعها إعجاز القرآن ، فلا حاجة مع ذلك إلى استنباء ولا إرسال ، وذلك مفض لئلا يبلغ له ولد ، إذ لو بلغ له ولد ، لاق بمنصبه أن يكون نبياً إكراماً له ، وروى عطاء عن ابن عباس رضي الله عنه ، لما حكم أن لا نبي بعده ، لم يعطه ولداً ذكراً يصير رجلاً ، وقيل : من لا نبي بعده ، يكون أشفق على أمته وأهدى لهم ، إذ هو كالوالد لولد ليس له غيره ، والحاصل أنه لا يأتي بعده نبي مطلقاً بشرع جديد ، ولا يتجدد بعده مطلقاً استنباء ، وهذه الآية مثبتة ، لكونه خاتماً على أبلغ وجه وأعظمه ، وذلك أنها في سياق الإنكار ، بأن يكون بينه وبين أحد من رجالهم بنوة حقيقية أو مجازية ، ولو كانت بعده لأحد لم يكن ذلك إلا لولده ، ولأن فائدة مجيء النبي تتميم شيء لم يأت به من

---

(١) من روح المعاني للألوسي .

قبله ، وقد حصل به التمام ، فلم يبق بعد ذلك مرام ، وأما تجديد ماوهى مما أحدث بعض الفسقة ، فالعلماء كافلون فيه ، لوجود ما خص به صلى الله عليه وسلم من هذا القرآن المعجز الذي من سمعه ، فكأنما سمعه من الله عز وجل ، لوقوع التحقق والقطع بأنه لا يقدر غيره أن يقول شيئاً منه . أ هـ (١) .

٥ - وقال العلامة جمال الدين القاسمي في تفسير الآية المذكورة : (**ما كان محمد أبا أحد من رجالكم**) هذا دفع لتعيير من جهل فقال : تزوج محمد زوج ابنه زيد ، فدفعه تعالى بأنه إنما يتصور لو كان صلى الله عليه وسلم أباً لزيد على الحقيقة ، لكنه ليس أباً لأحد من أصحابه حتى بقيت بينه وبينه ما يثبت بين الأب وولده من حرمة الصهر والنكاح ، وزيد واحد منهم ، الذين ليسوا بأولاده حقيقة ، فكان حكمه حكمهم ، والادعاء والتبني من باب الاختصاص والتقريب لا غير ، (**ولكن رسول الله**) أي ولكن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مبلغاً رسالاته ، (**وخاتم النبيين**) بفتح التاء وكسرها ، قراءتان ، أي فهذا نعته ، وهذه صفته ، فليس هو في حكم الأب الحقيقي ، وإنما ختمت النبوة به ، لأنه شرع له من الشرائع ما ينطبق على مصالح الناس في كل زمان وكل مكان ، لأن القرآن الكريم لم يدع أماً من أمهات المصالح إلا جلاها ، ولا لمكرمة من أصول الفضائل إلا أحياها ، فتمت الرسالات برسالته إلى الناس أجمعين ، وظهر مصداق ذلك بخيبة كل من ادعى النبوة بعده ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وهو خير الوارثين (**وكان الله بكل شيء عليماً**) ، أي فلا يقضي إلا بما سبق به علمه ، ونفذت فيه مشيئته ، واقتضته حكمته . أ هـ (٢) .

٦ - قال الشيخ محمد عزة دروزة في تعليقه على جملة : (**وخاتم النبيين**) : ولقد علق المفسرون على هذه الجملة فقالوا : إنه ينطوي فيها أن يكون خاتم الرسل أيضاً ، لأن كل رسول نبي ، وليس كل نبي

---

(١) من السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني ربنا الخبير .

(٢) من محاسن التأويل .

رسولاً ، فما دام أنه خاتم النبيين ، فهو خاتم الرسل ، ثم رووا في سياقها أحاديث نبوية عديدة ، ونقل جملة منها من تفسير ابن كثير ، ثم قال : ولقد رشح القرآن الدين الإسلامي الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم في آيات عديدة ، ليكون دين البشرية جميعاً في كل زمن ومكان ، مثل آية الفتح هذه : **(هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وكفى بالله شهيداً)** (١) ، وآية سورة النور هذه **(وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني ولا يشركون بي شيئاً ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون)** (٢) .

ولقد احتوى القرآن من الأسس والمباديء والتشريعات والتلقينات والنظم والمعالجات في صدد العقائد والمعاملة والحياة الدنيوية والأخروية ، ما يكفل جميع الإشكالات ، والتمشي مع كل طور وزمن ومكان وصلاح البشرية وسعادتها على أتم وجه وأفضله ، وجاءت السنن النبوية متممة موضحة مفسرة ، فلم يعد هناك حاجة إلى أنبياء ورسل بعده ، وذلك هو مصداق قول الله : **(وخاتم النبيين)** صلوات الله وسلامه عليه . أهـ(٣) .

٧ ـ وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب في قوله **(وخاتم النبيين)** : إشارة إلى أنه صلوات الله وسلامه عليه وارث النبيين جميعاً ، والمهيمن برسالته على رسالات الرسل كلهم ، فلا رسول بعده إلى يوم الدين ، لقد ختمت به صلوات الله وسلامه عليه رسالات السماء ، وأضفت شعاعاتها كلها إلى شمس شريعته ، فأصبحت تلك الشعاعات مضموناً من مضامينها ، وقبساً من أقباسها ، فلا هدى بعد هذا إلا من هداها ، ولا

---

(١) سورة الفتح : الآية ٢٨ .

(٢) الآية : ٥٥ .

(٣) من التفسير الحديث .

نور إلا من نورها (**ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين**) . أ هـ . (١) .

وإذ ذكرت كلام بعض مفسري أهل السنة والجماعة سلفاً وخلفاً ، فمن المستحسن أن أذكر كلام بعض مفسري أهل الشيعة والإباضية ، ليعلم القراء أن المسلمين ، وإن تفرقت مذاهبهم ، لكنهم اتفقوا وأجمعوا على ختم النبوة بمحمد صلى الله عليه وسلم .

٨ ـ فإلى القارئ ما قاله الشيخ أبو علي الطبرسي من أكابر علماء الإمامية في القرن السادس في تفسير قوله تعالى : (**ما كان محمد أبا أحد من رجالكم**) الآية بعد كلام سبق : ولما تزوج النبي زينب بنت جحش قال الناس : إن محمداً تزوج زوج ابنه ، فقال سبحانه : (**ما كان محمد أبا أحد من رجالكم**) الذين لم يلدهم ، وفي هذا بيان أنه ليس بأب لزيد فتحرم عليه زوجته ، فإن تحريم زوجة الابن معلق بثبوت النسب ، فمن لا نسب له ، لا حرمة لامرأته ، ولهذا أشار إليهم فقال : من رجالكم ، وقد ولد له صلى الله عليه وسلم أولاد ذكور : إبراهيم والقاسم والطيب والمطهر فكان أباهم ، وقد صح أنه قال للحسن : إن ابني هذا سيد ، وقال صلى الله عليه وسلم : إن كل أبناء بنت يتنسبون إلى أبيهم إلا أولاد فاطمة ، فإني أنا أبوهم ، وقيل : أراد بقوله رجالكم البالغين من رجال ذلك الوقت ، ولم يكن أحد من أبنائه رجلا في ذلك الوقت ، (**ولكن رسول الله**) ، أى ولكن كان رسول الله ، لايترك ما أباحه الله تعالى بقول الجهال ، وقيل : إن الوجه في اتصاله بما قبله ، أنه أراد سبحانه ليس يلزم طاعته وتعظيمه لمكان النسب بينه وبينكم ولمكان الأبوة ، بل إنما يجب ذلك عليكم لمكان النبوة ، (**وخاتم النبيين**) ، أي وآخر النبيين ، ختمت النبوة به ، فشريعته باقية إلى يوم الدين ، وهذا فضيلة له صلوات الله عليه وآله اختص بها من بين سائر المرسلين ، فإن قيل : إن اليهود يدعون في موسى مثل ذلك ، فالجواب :

---

(١) من التفسير القرآني للقرآن .

إن بعض اليهود يدعون أن شريعته [١] لا تنسخ ، وهم مع ذلك يجوزون أن يكون بعده أنبياء ، ونحن إذ أثبتنا نبوة نبينا بالمعجزات القاهرة وجب نسخ شريعته[٢] بذلك . (**وكان الله بكل شيء عليماً**) ، لا يخفى عليه شيء من مصالح العباد ، وصح الحديث عن جابر بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إنما مثل الأنبياء كمثل رجل بنى داراً فأكملها وحسنها إلا موضع لبنة ، فكان من دخل فيها فنظر إليها ، قال : ما أحسنها إلا موضع هذه اللبنة ، قال صلى الله عليه وسلم : فأنا موضع اللبنة ، ختم بي الأنبياء ، وأورده البخاري ومسلم في صحيحيهما . ا هـ[٣] .

٩ - قال الأستاذ السيد محمد حسين الطباطبائي من متأخري الشيعة الإمامية في تفسير قوله تعالى : (**ولكن رسول الله وخاتم النبيين**) : الخاتم بفتح التاء ، ما يختم به كالطابع والقالب ، بمعنى ما يطبع به وما يقلب به ، والمراد بكونه خاتم النبيين ، أن النبوة اختتمت به صلى الله عليه وآله فلا نبي بعده .

وقد عرفت فيما مر معنى الرسالة والنبوة ، وأن الرسول هو الذي يحمل رسالة من الله إلى الناس ، والنبي هو الذي يحمل نبأ الغيب الذي هو الدين وحقائقه ، ولازم ذلك أن ترتفع الرسالة بارتفاع النبوة ، فإن الرسالة من أنباء الغيب ، فإذا انقطعت هذه الأنباء انقطعت الرسالة . ومن هنا يظهر أن كونه صلى الله عليه وآله خاتم النبيين ، يستلزم كونه خاتماً للرسل ، وفي الآية إيماء إلى أن ارتباطه صلى الله عليه وآله وتعلقه بكم تعلق الرسالة والنبوة ، وإن ما يفعله كان بأمر من الله سبحانه ، وقوله : (**وكان الله بكل شيء عليماً**) ، أي ما يبينه لكم إنما كان بعلمه . ا هـ [٤].

---

(١) ، (٢) الضمير عائد إلى موسى عليه السلام .

(٣) من تفسير مجمع البيان ج ٢١ .

(٤) من الميزان في تفسير القرآن ج ١٦ .

١٠ - وقال الشيخ محمد يوسف الإباضي : **(ولكن رسول الله)** ، أي ولكن رسول الله ، وكل رسول أبو أمته فيما يرجع إلى وجوب التوقير والتعظيم له عليهم ، ووجوب الشفقة عليهم والنصيحة لهم ، لا في تحريم أزواج الأمة عليه ، والادعاء والتبني باب اختصاص وتقريب ، وقريء بالرفع أي ولكن هو رسول الله ، وبالتشديد والنصب فيقدر خبر لكن ، أي لكن رسول الله من عرفتموه أي لم يعش له ولد ذكر ، ولكن رسول الله أب من غير وراثة .

(وخاتم النبيين) لا نبي معه ولا بعده ، وأما سيدنا عيسى فإنه ولو كان سينزل ، فإنه قد مضى زمان إرساله ، ولم يجعله الله نبياً في زمان النبي أو بعده فقط ، بل جعله نبياً مرسلا قبل ذلك مستمرة نبوته ورسالته إلى أن يموت ، والمراد لا ينبي الله نبياً ، ولا يرسل نبياً في زمانه ولا بعده ، فلا ينقض أيضاً بالخضر وإلياس[1] ، مع أنهما وعيسى إذا نزل إنما يعملون بشريعته صلى الله عليه وسلم ، ويتعبدون بشريعته لا بشريعتهم ، بل هو بعض أمتـه ، ولا يرد علينـا أن عيسى لا يقبل

---

(١) قضية حياة الخضر وإلياس ، من القضـايا التي روجتهـا الصوفية ، وأشاعتها بين الأنام ، وروت في ذلك أحاديث واهية لايصح منها عند المحققين حديث واحد ، بل الصحيح أن الخضر قد مات ، وممن قال ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية ، وشيخ الإسلام ابن القيم ، والحافظ ابن حجر العسقلاني رحمهم الله ، وذلك لما ورد في الحديث الصحيح : « أرأيتكم ليلتكم هذه ، فإنه إلى مائة سنة لا يبقى ممن هو على وجه الأرض اليوم أحد » .

ولو كان حياً لجاء إلى الرسول ﷺ وجاهد معه .

وفي أسنى المطالب : ليس في السنة ما يدل على حياة الخضر ، ولا على موته ، ولم يصح في حياته شيء ، ولا اجتماعه بإلياس كل عام ، ويلزم عليه أن يكون إلياس حياً ، ولم يقـل هذا أحد من أهل الإسلام ا. هـ من (الخضر وآثاره للشيخ أحمد عبد العزيز الحصين) .

ولو كان موجوداً لبلغ عن رسول الله ﷺ القرآن والسنة .

وكذلك إلياس قد توفي ، ولو كان حياً لجاء إلى النبي ﷺ وتبعه ، كما قال ﷺ ، «لو كان موسى حياً لما وسعه إلا اتباعي » .

الجزية من أهل الكتاب ، بل يؤمنون ويقتل الخنزير ويكسر الصليب ، لأن هذا أيضاً من شريعة نبينا صلى الله عليه وسلم ، مؤقت بنزول عيسى عليه السلام ، وقرأ عاصم خاتم النبيين بفتح الخاء بمعنى آلة الختم ، **(وكان الله بكل شيء عليماً)** ، ومنه علمه أنه لا نبي بعده ولا معه ، وإن من حيا من الأنبياء وعيسى إذا نزل يعملون بشريعته ، ومنه علمه بمن يليق بختم النبوة ، ويسمى صلى الله عليه وسلم الخاتم والمقفى أي الأخير ، وعنه صلى الله عليه وسلم : إن مثلي ومثل الأنبياء قبلي ، كمثل رجل بنى بيتاً وحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه ، فجعل الناس يطوفون ويعجبون له ، ويقولون : هلا وضعت في هذا الموضع هذه اللبنة ، فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين . رواه أبو هريرة وجابر بن عبد الله ، وروى : جئت فختمت الأنبياء ا هـ[1].

١١ - قال الزمخشري في تفسير قوله تعالى : **(ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين ، وكان الله بكل شيء عليماً)** بعد كلام سبق : قرىء ولكن رسول الله بالنصب عطفاً على أبا أحد ، وبالرفع على ولكن هو رسول الله ، ولكن بالتشديد على حذف الخبر وتقديره ولكن رسول الله من عرفتموه ، أي لم يعش له ولد ذكر ، وخاتم بفتح التاء بمعنى الطابع ، وبكسرها بمعنى الطابع وفاعل الختم ، وتقويه قراءة ابن مسعود : ولكن نبياً ختم النبيين ، (فإن قلت : كيف كان آخر الأنبياء وعيسى ينزل في آخر الزمان) ؟ قلت : معنى كونه آخر الأنبياء ، أنه لا ينبؤ أحد بعده وعيسى ممن نبيء قبله ، وحين ينزل ينزل عاملا على شريعة محمد ، مصلياً إلى قبلته ، كأنه بعض أمته . ا هـ[2].

وهـا أنا قد أوردت من كلام أولئك المفسرين الأجلاء حول الآية الشريفة ما يكفي ويشفي .

---

(١) من (هيميان الزاد) .
(٢) من (الكشاف) ج ٢ .

وسائر التفاسير لأهل السنة والشيعة والإباضية والمعتزلة : بين مطول ومختصر تلتقي عند نقطة واحدة وهي : تصريح الآية بختم النبوة بمحمد صلى الله عليه وسلم ، خاتم النبيين وأن لا نبي بعده ، وإذا كان لا نبي بعده فلا رسول بعده من باب أولى .

ومن أراد أن يراجع في هذا المرام ،فليراجع أي تفسير أراد ، وفي أي مذهب من مذاهب المسلمين ، فسيجد أن المفسرين كلهم على هذا المنوال ، وأن حقيقة ختم النبوة لم يتطرق إليها خلاف .

ثانياً : ختم النبوة في الأحاديث الصحاح والحسنة :

١ - قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله ، إلا موضع لبنة من زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ، ويعجبون له ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ، فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين » . رواه البخارى في كتاب المناقب باب ختم النبيين ، ورواه مسلم وأحمد والترمذي وابن أبي حاتم .

٢ - أخرج الإمام مسلم حدثنا يحيى بن أيوب وقتيبة وعلي بن حجر قالوا : حدثنا إسماعيل بن جعفر عن العلاء عن أبيه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « فضلت على الأنبياء بست : أعطيت جوامع الكلم ، ونصرت بالرعب ، وأحلت لي الغنائم ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، وأرسلت إلى الخلق كافة ، وختم بي النبيون » . رواه الترمذي وابن ماجه من حديث إسماعيل بن جعفر ، وقال الترمذي : حسن صحيح .

٣ - قال الزهري : أخبرني محمد بن جبير بن مطعم ، عن أبيه رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن لي أسماء : أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحي الذي يمحو الله تعالى بي الكفر ، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي ، وأنا العاقب الذي ليس بعده نبي » . أخرجاه في الصحيحين .

٤ – قال عليه الصلاة والسلام : « إني آخر الأنبياء ، ومسجدي آخر المساجد » . أخرجه مسلم .

٥ – قال صلى الله عليه وسلم : « أنا آخر الأنبياء ، وأنتم آخر الأمم » . رواه ابن ماجه والحاكم .

٦ – لما أراد الرسول غزوة تبوك ، ترك علي بن أبي طالب يخلفه في المدينة ، قال علي : أتخلفني في النساء والصبيان ، قال : « أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى ، إلا أنه لا نبي بعدي » . أخرجه الشيخان .

٧ – قال صلى الله عليه وسلم : « كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء ، كلما هلك نبي خلفه نبي ، وأنه لا نبي بعدي ، وسيكون الخلفاء فيكثرون » . أخرجه البخاري وابن ماجه وأحمد .

٨ – قال صلى الله عليه وسلم : « سيكون في أمتي كذابون ثلاثون ، كلهم يزعم أنه نبي الله ، وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي » ، وفي رواية : « لا تقوم الساعة حتى يخرج ثلاثون دجالون ، كلهم يزعم أنه رسول الله ، فأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي » . رواه أبو داود والترمذي .

٩ – عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد كان في ما قبلكم من الأمم محدثون ، فإن يكن في أمتي أحد فإنه عمر » . زاد زكريا بن أبي زائدة عن سعد عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد كان فيما كان قبلكم من بني إسرائيل رجال يكلمون من غير أن يكونوا أنبياء ، فإن يكن في أمتي منهم أحد فعمر » . رواه البخاري في صحيحه في مناقب عمر ، وكذلك رواه مسلم[1] .

---

(١) قال الحافظ في الفتح في شرح لفظ المحدث : «قوله محدثون بفتح الدال واختلف في تأويله فقيل ملهم» ، وعند مسلم في رواية وهب : ملهمون وهي الإصابة من غير نبوة ، ووقع في مسند الحميدي عقب حديث عائشة : الملهم بالصواب في رواية الترمذي عن بعض أصحاب ابن عيينة محدثون يعني «مفهمون» انتهى الكلام .

١٠ – عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا أيها الناس إنه لم يبق من النبوة إلا المبشرات » . رواه البخاري في كتاب التعبير على هامش الفتح ومسلم .

ثالثاً : اللغة العربية :

١ – قال ابن منظور : ختم فلان القرآن إذا قرأه إلى آخره ، قال ابن سيده : ختم الشيء يختمه ختماً بلغ آخره ، وخاتم كل شيء وخاتمته عاقبته وآخره ، واختتمت الشيء ، نقيض افتتحته ، وخاتمة السورة آخرها ، وختام القوم وخاتمهم وخاتمتهم آخرهم ، ومحمد خاتم الأنبياء وخاتم الأنبياء ، والخاتم والخاتم من أسماء النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي التنزيل العزيز : (**ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين**) أي آخرهم . قال : وقد قرأ وخاتم ، وقول العجاج : (مبارك للأنبياء خاتم) ، إنما حمله على القراءة المشهورة فكسر ، ومن أسمائه صلى الله عليه وسلم العاقب : ومعناه آخر الأنبياء[1] .

٢ – قال السيد مرتضى الزبيدي : الخاتم من كل شيء عاقبته وآخرته ، كخاتمته ، والخاتم آخر القوم كالخاتم ، ومنه قوله تعالى : (**وخاتم النبيين**) أي آخرهم ، إلى أن قال : وختام كل مشروب آخره . وقوله تعالى : (**ختامه مسك**) أى آخر ما يجدونه رائحة المسك ، وختام الوادي أقصاه ، وختام القوم آخرهم ، ومن أسمائه صلى الله عليه وسلم : الخاتَم والخاتِم ، وهو الذي ختم النبوة بمجيئه[2].

٣ – قال أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا : (ختم) هو بلوغ آخر الشيء ، يقال : ختمتُ العمل ، وختم القاريء السورة ، فأما الختم ، بسكون التاء ، وهو الطبع على الشيء ، فذلك من الباب أيضاً ، لأن الطبع على الشيء لا يكون إلا بعد بلوغ آخره في الإحراز ، والخاتم

---

(١) ا. هـ. ملخصاً من لسان العرب المجلد الثاني عشر .

(٢) ا. هـ. تاج العروس الجزء ٨ .

مشتق منه ، لأن به يختم ، ويقال : الختم (بكسر التاء) ، والنبي صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء ، لأنه آخرهم ، وختام كل مشروب آخره ، قال الله تعالى : (**ختامه مسك**) أي أن آخر ما يجدونه منه عند شربهم إياه رائحة المسك[1].

٤ – قال العلامة محمود بن أحمد الزنجاني : فصل الخاء ، « ختم » ، الخاتِمُ والخاتَم والخيتام ، كلمة بمعنى واحد ، والجمع الخواتيم ، وختام الشيء آخره ، ا هـ[2].

٥ – قال سعيد الخوري الشرتوني اللبناني : ختمه ختماً وختاماً ، طبعه ووضع عليه الخاتم ، ويتعدى أيضاً بعلى ، يقال : ختم الكتاب وعلى الكتاب ، والشيء ختماً بلغ آخره ، والكتاب قرأه كله وأتمه ، وختم العمل فرغ منه ، والخاتَم والخاتِم ، والخاتام ، وآخر القوم ، وعاقبة كل شيء[3].

٦ – قال الشيخ أحمد رضا عضو المجمع العلمي العربي بدمشق : ختم ختماً وختاماً الكتاب ، طبعه بالخاتم وهو خاتم والكتاب مختوم ، قال أبو إسحاق : الختم والطبع في اللغة واحد ، وهو التغطية على الشيء ، والاستيثاق من أن لا يدخله شيء ، وختم الشيء بلغ آخره ، ومنه ختم القرآن ، وختم له بخير بلغه آخرته بخير ، والخاتم والخاتمة والختام من كل شيء آخره ، الخاتم والخاتم من أسماء الرسول المصطفى ، وهو خاتم النبيين .

وها أنا قد أوردت كلام ستة من أئمة اللغة العربية الكبار ، وتراهم قد نص كل واحد منهم ، أن الخاتم آخر الشيء ونهايته .

ولو ذهبنا نتتبع كتب اللغة ، لوجدناها كلهاعلى هذا المنوال ، فلا حاجة إلى تكثير النقل من نصوص أئمة اللغة ، لأنها من البديهيات

---

(١) ا. هـ. من معجم مقاييس اللغة الجزء الثاني .

(٢) ا. هـ. من تهذيب الصحاح القسم الثاني .

(٣) ا. هـ. من أقرب الموارد في مصح العربية والشوارد الجزء الأول.

المسلمة ، لم يسترب في هذه الحقيقة إلا من أعمى الله بصيرته وأغواه الشيطان ، والقصد بيان أن القرآن عربي ، وهذا كلام أئمة اللغة في معنى كلمة الخاتَم والخاتِم ، وبه يتضح معنى قوله تعالى : **(ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين ، وكان الله بكل شيء عليماً)** .

رابعاً : الإجماع :

قال العلامة أبو الحسن الندوي : « أجمع الصحابة رضي الله عنهم ، ـ وإجماعهم أكبر دليل من دلائل الثبوت الشرعي ـ على انقطاع النبوة بعد النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنه لا نبي بعده في كل مفهوم من مفاهيم الكلمة العربية التى كانوا يحسنون فهمها ، ولذلك اتفقت كلمتهم عن آخرهم على قتال مسيلمة الكذاب ، والحكم بكفره وردته ، لم يشذ منهم في ذلك شاذ ، مع أن مسيلمة كان مقراً بنبوة محمد صلى عليه وسلم ، وكان يؤذن للنبي صلى الله عليه وسلم ، ويشهد في الأذان أن محمداً رسول الله ، وكان مؤمناً بالقرآن ، يرى العمل به فرضاً ، وإنما كان يفسر القرآن حسب أهوائه ، ويدعي الإلهام ، وكان يدعي أنه أشرك في نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، فكان أول فاتح لباب نبوة تابعة للشريعة المحمدية ، وكل من ادعى ذلك في العصور الأخيرة كان تابعاً له ، وقد قتل في حرب اليمامة ألف ومائتا رجل من خيار المسلمين ، كما جاء في كتاب كتبه أبو بكر إلى خالد بن الوليد ، وقتل الأسود العنسي الذي ادعى النبوة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم أجمع المسلمون في كل عصر على انقطاع النبوة بعد محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن كل من يدعيها مارق من الدين ، متبع غير سبيل المؤمنين .

واستفاضت هذه العقيدة في العالم الإسلامي كله ، وأصبحت جزءاً من عقائد المسلمين التي يدينون بها ، ويعضون عليها بالنواجذ ، وتتوارثها الأجيال بعد الأجيال ، حتى أصبحت عقول المسلمين وطبيعتهم لا تسيغ ادعاء النبوة ولا تحتمله ، ولذلك قل عدد المتنبئين في المجتمع

الإسلامي بالنسبة إلى اتساع العالم الإسلامي ، وتفاوته في فهم الدين والتمسك به ، وبالنسبة إلى عدد المسلمين الضخم ، واضطراب الأمور فيهم ، وبالقياس إلى كثرة الدواعي إلى هذه الادعاءات بالعكس من الأمم السابقة ، التي كثر فيها عدد المتنبئين مع ضيق رقعة الأرض التى كانت تسكنها ، وقلة عدد المتدينين الذين كانوا يتدينون بهذه الديانات[1].

خامساً : الأدلة العقلية على ختم النبوة والرسالة بمحمد صلى الله عليه وسلم :

١ - خلق الله عباده حنفاء على الفطرة التي لو لم تتأثر بالميول والنزغات الشيطانية ، وتأثيرات البيئة والمجتمع ، لما أشركوا بالله أحداً ، ولكن خلقوا على طبيعة فيها استعداد لقبول الخير والشر ، ومن هذه الطبيعة وتلك المؤثرات السالفة حصل منهم الشرك والبغي وعدم إقامة ميزان الحق والإنصاف ، الأمر الذي أوجب كما سبق علم الله وإرادته أن يرسل رسلا ، ترشدهم إلى عبادة الله ، وإلى حسن معاملة بعضهم بعضاً ، ولكن كان البشر إذ ذاك في دور الطفولة ، فكانت التعاليم السماوية تأتي إذ ذاك على قدر استعداد البشر وقابليتهم وأهليتهم ، فلذا كانت الشرائع السابقة مؤقتة ، بعضها محدودة في شعب ، أو مختصة بإقليم ، أو خاصة بفترة زمنية ، قصيرة أو طويلة ، وقد وردت في العهد القديم نصوص وتصريحات ، بأن رسالات أنبياء بني إسرائيل كانت مؤقتة ، ومختصة بزمن خاص ، وكذلك كانت دعوة سيدنا المسيح خاصة لبني إسرائيل ، وقد صرح بأنه لم يبعث إلا ليرعى خراف بني إسرائيل الضالة ، ولما تم استعداد العباد ، وبلغ بهم النضوج الفكري ما يؤهلهم لقبول شريعة عامة ، بحيث لا يحتاجون بعد هذه الشريعة إلى شريعة أخرى ، بعث الله سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم بالرسالة العامة للأمم والشعوب وطبقات الناس جميعاً ، غير مختصة بشعب أو بإقليم أو بأمة ، بل للثقلين جميعاً ، قال الله : (**يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السموات والأرض لا إله**

(١) ا. هـ. من كتاب النبي الخاتم .

إلا هو يحيي ويميت) (١) ، وقال الله : (**تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً**) (٢) ، فالدين الإسلامي حق مشاع ، وثروة مشتركة لجميع الشعوب والأمم والعناصر والأجناس ، وقد جاءت الشريعة الإسلامية سهلة سمحة ، توافق الفطرة المستقيمة ، والعقول السليمة في كل زمان ، كما قال الله تعالى : (**وما جعل عليكم في الدين من حرج**) (٣) ، وقال : (**يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر**)(٤) .

واستوفت الشريعة كل ما يحتاجه العباد من العقائد والعبادات والأخلاق والمعاملات ، وشؤون الجهاد والسلم والمعاهدات والقضاء ، وبالجملة لم تغادر صغيرة ولا كبيرة إلا ووضع القرآن أو السنة من القواعد والكليات ما هو كفيل بأن يستنبط منه حكم ما لم ينص عليه ، حسب تجدد الحوادث والمشاكل على مر العصور وكر الدهور ، وإنما كانت هذه الشريعة الإسلامية ، بهذه المثابة وبهذه الأهلية الفائقة ، لأنها أتت كي تبقى إلى أن تقوم الساعة ، لأن الله ختم سلسة النبوات بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وسلسلة الشرائع بهذه الشريعة الغراء التي فاقت جميع الشرائع الماضية ، ووافقت جميع العقول السليمة ، والطبائع الصحيحة ، والأفكار المستنيرة ، وعليه فأي حاجة إلى بعثة نبي جديد ؟

٢ ـ إن القرآن صرح بلسان عربي مبين ، لا غموض فيه ولا خفاء ، بأن هذا الدين قد بلغ طوره الأخير من الكمال والوفاء بحاجات البشر ، والصلاحية للبقاء والاستمرار ، وقال الله : (**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الإسلام دينا**) (٥) .

---

(١) سورة الأعراف : الآية ١٥٨ .

(٢) سورة الفرقان : الآية ١ .

(٣) سورة الحج : الآية ٧٨ .

(٤) سورة البقرة : الآية ١٨٥ .

(٥) سورة المائدة : الآية ٣ .

قال العلامة أبو الجسن الندوي : « وقد نزلت هذه الآية يوم عرفة في حجة الوداع سنة عشر للهجرة ولم ينزل بعدها ـ كما تقول أكثر الآثار ـ حلال ولا حرام ، ولم يعش رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذا اليوم إلا إحدى وثمانين ليلة ، وقد فهم كبار الصحابة الذين كانوا من أعرف الناس بأسرار هذا الدين ، ومقاصد التشريع ، وأقرب الناس إلى صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم ، وأعظم الناس حباً له ، وحرصاً على بقائه ، كان في مقدمتهم أبو بكر وعمر ، دنو ما كانوا يحذرونه من مفارقة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولحوقه بالرفيق الأعلى ، قد بلغ رسالة الله ، وكمل الدين ، وتمت نعمة الله على عباده ، فمنهم من بكى ، ومنهم من تنبأ بدنو هذه الساعة ، ومنهم علماء اليهود والأذكياء الذين كانوا من أعرف الناس بالعلم القديم ، وتاريخ الديانات ، أنها كرامة خص بها المسلمون ، ومفخرة لهذا الدين لا يشاركه فيها دين آخر ، ورأوا أن اليوم الذي نزلت فيه هذه الآية جدير بأن يخلد ، ويحتفل به على مر العصور ، ويبدي فيه المسلمون سرورهم وامتنانهم ، وهكذا فهمها رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ وهو الذي نزلت عليه هذه الآية ـ فقال في خطبته يوم حجة الوداع ، ينصت إليها أكثر من مائة ألف إنسان ويحفظونها : « أيها الناس إنه لا نبي بعدي ، ولا أمة بعدكم ، ألا فاعبدوا ربكم ، وصلوا خمسكم ، وصوموا شهركم ، وأدوا زكاة أموالكم طيبة بها أنفسكم ، وأطيعوا ولاة أمركم ، تدخلوا جنة ربكم » .

وكذلك صرح القرآن بأن هذا الدين قد قدر له البقاء والغلبة والانتشار ، وأنه سيبلغ ذروة المجد والعز ، وتعلو كلمته ، ويمتد ضؤوه ، ويتبين صدقه ، قال تعالى : (**هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله . وكفى بالله شهيداً**)[1]، وقال تعالى : (**هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون**)[2]، وقال : (**يريدون ليطفئوا نور الله**

---

(١) سورة الفتح : الآية ٢٨ .

(٢) سورة الصف : الآية ٩ .

بأفـواههم ، والله متم نـوره ولو كره الكـافـرون)[1] . وكـل هذه الكفالات والضمانات والنبوءات والإعلانات ، تدل بدلالة النص وإشارته على أن هـــذا الدين هو رسالة الله الأخيرة ، وحاجة البشرية كلها على اختلاف العصور والأمصار ، وأن الله هو بالغ أمره فيه ، كره الناس ذلك أو أحبوه ، وسالمه الملحدون والمعارضـــون أو حاربوه ، وكل ما كان ذلك شأنه،ووردت فيه هذه الأخبار الصادقة ، والتحديات البالغة في كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، لا يقبـــل العقل السليم أن يقبل النسخ والتغيير ، أو يحتـــاج إلى نبي جديد ، ورسول مبعوث .

---

(١) سورة الصف : الآية ٨ .

بعض بشارات التوراة [1] والإنجيل
بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم

وإذ قدمت لك بعض الدلائل الدالة على نبوته صلى اللهعليه وسلم من النقليـة والعقلية ، بما في تلك من المعجزات النبوية التى أعظمها القرآن العظيم ، فمن الجدير والمستحسن جداً أن أذكر بعض بشارات التوراة والإنجيل بنبينا صلى الله عليه وسلم ، لتقوم الحجة النيرة على اليهـود والنصارى الذين كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم بعد تلك الدلائل الواضحة والحجج الساطعة ، وبكفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم كفروا بكتابيهما المنزلين على موسى وعيسى عليهما السلام ، لأنهما لم يعملا بما فيهما ، إذ لو عملا بما فيهما لآمنا بالرسول العظيم صلى الله عليه وسلم ، لأن الله تعالى قال وهو أصدق القائلين : (**يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل**) (٢) .

فهاك أيها القارىء بعض بشارات الكتابين ، وقبل أن أتلو عليك تلك البشـائـر ، أحب أن أقدم لك ما ينير الطريق ويزيل اللبس ويجلو الحقيقة ، فأقول وبالله التوفيق :

اعلم أن الله بعدما أخبرنا في القرآن العظيم أن محمداً صلى الله عليـه وسلم مرسـل من ربه للعالمين ، وأن اليهود والنصارى يجدونه

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : ولفظ التوراة : قد عرف أنه يراد به جنس الكتب التي يقر بها أهل الكتاب ، فيدخل في ذلك الزبور ، ونبوة أشعيا ، وسائر النبوات غير الإنجيل (ا. هـ من الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح) .

(٢) سورة الأعراف ١٥٦ .

مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ، فلا حاجة لنا إلى الاستدلال بغير القرآن العظيم : (**ومن أصدق من الله قيلا**) .

قال الله تعالى : (**ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ، الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة[1] والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون**)[2] .

وقال الله مخبراً عن المسيح عليه السلام أنه بشر بالرسول في قوله تعالى : (**يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين**)[3] .

ومن المحال أن يخبر الله في قرآنه المجيد ، ويكون ذلك خلاف الواقع ، لأن القرآن كلام الله المجيد ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ، حفظه الله من أن تصل إليه يد التغيير والتحريف كما قال الله : (**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**)[4] وهذه الخصيصة اختص بها القرآن من بين الكتب

---

(١) ولقد ترجم القسيس أوسكان الأرمني سفر أشعيا إلى اللغة الأرمنية ، وطبعت ترجمته عام ١٧٣٣ ، وقد جاء في الإصحاح الثاني والأربعين منه هذه الفقرة : «سبحوا الله تسبيحاً جديداً وأثر سلطنة على ظهره ، واسمه أحمد» (من كتاب خلاصة سيف المسلمين تأليف حيدر علي القرشي) .

(٢) سورة الأعراف : الآيات ١٥٦ ـ ١٥٨ .

(٣) سورة الصف : الآية ٦ .

(٤) سورة الحجر : الآية ٩ .

الإلهيـة ، لأن تلك الكتب لم يخبر الله عنها ، أنه حفظها عن التغيير والتبديل ، بل وكلها إليهم ، قال الله تعالى : (**إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونـور يحكم بهـا النبيـون الذين أسلمـوا للذين هادوا والربـانيـون والأحبـار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلا ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون**)[1] .

وقـال الله في شأن اليهـود : (**ومن الذين هادوا سمـاعـون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه ، يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فأحذروا**)(٢) .

وقـال الله : (**أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسـمـعـون كلام الله ثم يحـرفـونـه من بعـد ما عقلـوه وهم يعلمون**)[3]

وقال الله : (**فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون**)[4] .

فهذه الآيات التي أوردتها من سورة المائدة والبقرة ، تصرح أن التوراة والإنجيل لم يصنهما الله كما صان القرآن ، لذلك امتدت إليهما أيدي التحريف والتبديل ، وعليه فلا وثوق بهما فيما يخالف القرآن ، لأن ما خالفه ـ وقد أخبر الله أنه موجود فيهما أو في أحدهما ـ لابد أن يكون مما تصرف فيه القسيسون والأحبار ، وعليه فلا قيمة لإنكار اليهـود والنصـارى بشـارة كتبهم بالنبي العظيم ، لأنه إما من قبيل التحريف والتبديل ، وإما استكباراً وعناداً كما قال الله تعالى : (**ولما جاءهم كتـاب من عنـد الله مصـدق لما معهم وكـانـوا من قبـل**

(١) سوة المائدة : الآية ٤٤ .

(٢) سورة المائدة : الآية ٤١ .

(٣) سورة البقرة : الآية ٧٥ .

(٤) سورة البقرة الآية ٧٩ .

يستفتحون على الذين كفروا ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين)[١] ، وإما كتماناً للحق وتلبيساً على عوامهم ، وحباً في الرئاسة ، وفي نيل الحطام ، كما قال الله عنهم : (**الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون**)[٢] وقال الله تعالى : (**سماعون للكذب أكالون للسحت فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم ، وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين**)[٣] .

وقد سجلت الآية الأولى عليهم كتمان الحق بعدما عرفوه ، والحق هنا أوصاف النبي الموجودة في التوراة ، كما سجلت الآية الثانية سماعهم للكذب والباطل بصيغة المبالغة ، وأكلهم السحت وهو كل مال حرام من الرشا والربا ونحوهما ، فقدروا في أنفسهم أنهم إذا أسلموا تزول عنهم الرئاسة عن العوام ، كما يحرمون من أكل أموال أولئك الجهال من الطرق المحرمة باسم الدين .

ولعل مما يؤيد ما أسلفناه هو ما احتواه القرآن من مشاهد وإشارات ، تدل على أن من أهل الكتاب في مكة والمدينة أو وفودهم ـ ومنهم الأحبار والرهبان والقسس والراسخون في العلم ـ من آمنوا بالرسالة النبوية وصدقوا بما جاء في القرآن ، وقرروا أنه متطابق مع ما عندهم ، كما جاء في الآية التي نحن في صددها ثم في آيتي آل عمران هذه : (**ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين**)[٤]

---

(١) سورة البقرة : الآية ٨٩ .

(٢) سورة البقرة : الآية ١٤٦ .

(٣) سورة المائدة : الآية : ٤٢ .

(٤) سورة آل عمران : الآيتان ١١٣ و ١١٤ .

وقال الله تعالى في سورة آل عمران أيضاً : (**وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلا أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب**)[1] .

وفي سورة النساء : (**لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجراً عظيماً**)[2]

وفي آية سورة المائدة هذه : (**لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين ، وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين**)[3] .

وآيتي سورة القصص هذه : (**الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون ، وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين**)[4] .

وآية سورة الأحقاف هذه : (**قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم إن الله لا يهدي القوم الظالمين**)[5] .

وآية سورة العنكبوت هذه : (**وكذلك أنزلنا إليك الكتاب فالذين**

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١٩٩ .

(٢) سورة النساء : الآية ١٦٢ .

(٣) سورة المائدة : الآيات ٨٢ ـ ٨٤ .

(٤) سورة القصص : الآيتان ٥٢ و ٥٣ .

(٥) سورة الأحقاف : الآية ١٠ .

آتينــاهم الكتــاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن به وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون)[1] .

وفي كل هذا شواهد عيانية مكية ومدنية حاسمة ، لا يسع منصفاً أن يكابر فيه حتى من الكتابيين أنفسهم فيما نعتقد ، ومما يصح أن يقــال في هذا المقام : (إن مما في أيدي اليهود والنصارى اليوم من أسفار ، لا يمكن أن يجزم بأنه هو نفس ما كان في أيديهم في عهد النبي صلى الله عليه وسلم بدون نقص أو زيادة أو جميع ما كان في أيديهم ، وأن جملة : **(الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل)** الواردة في سورة الأعراف لا يمكن أن تكون جزافاً وهي تتلى على مسمع من اليهود والنصارى ، ونشير خاصة إلى الإنجيل المعروف باسم برنابا أحد الحواريين الذي فيه نصوص القرآن عن عيسى وحياته ورسالة النبي وصفاته ، ومهما يكن من المآخذ التى توجه إلى هذا الإنجيل فإن نصوص القرآن الذي لايشك أحد في أنه يرجع تاريخياً إلى ألف وأربعمائة سنة ونيف ، دليل قاطع على أن فيما كان متداولا في أيدي اليهود والنصارى من أسفار إشارات إلى صفة النبي صلى الله عليه وسلم ورسالته) . ا هـ[2].

وستــأتي بعض تلك الآثار التي هي بشارات النبي صلى الله عليه وسلم .

بعد هذه المقدمة وقبل الدخول في الموضوع أقدم لك مقدمة أخرى تحتوي على عدة أمور تنير لك الطريق ، وتؤيد البشارات الآتية ، فإلى القــارىء ما قاله الشيخ رحمة الله الهندي رحمه الله قال : كان أهل الكتاب من اليهود والنصارى يتناقلون خبر بعثته صلى الله عليه وسلم فيما بينهم ، ويذكرون البشارات من كتبهم ، حتى إذا ما بعثه الله تعالى بالهدى ودين الحق آمن به كثيرون ، وكان علماؤهم يصرحون بذلك كعبد الله بن سلام وأصحــابه من علماء اليهود ، وتميم الداري من علماء

(١) سورة العنكبوت : الآية ٤٧ .

(٢) من التفسير الحديث للشيخ محمد عزة دروزة ، ج ٢ .

النصارى ، وغيرهم ممن أسلموا في عصر النبي صلى الله عليه وسلم ورضي عنهم ، والروايـات في هذا كثـيرة ، ومن أعجبهـا قصة سلمان الفـارسي رضي الله عنـه ، وأمـا الذين أبوا واستكبروا فكانوا يكتمون البشارات به في كتبهم ، ويؤولون ما بقي منها لمن اطلع عليه ويكتمون عمن لم يطلع عليه ، وقد أربى المتأخرون ولاسيما الإفرنج منهم على المتقدمين في المكابرة والتأويل والتضليل ، لذلك وضح العلامة المحقق الشيخ رحمة الله الهندي هذه المسألة في كتاب (إظهار الحق) بأمور جعلها مقدمات لبشارات تلك الكتب به صلى الله عليه وسلم ، فرأينا أن نقتبسها بنصها .

كلام الشيخ رحمة الله الهندي في البشارات :

قال رحمه الله تعالى في سياق مسالك الاستدلال على نبوته صلى الله عليه وسلم ما نصه :

المسلك السادس :

أخبـار الأنبياء المتقدمين عليه عن نبوته عليه السلام ، ولما كان القسيسون يغالطون العوام في هذا الباب تغليطاً عظيماً ، استحسنت أن أقدم على نقل تلك الأخبار أموراً ثمانية تفيد الناظر بصيرة :

الأمـــر الأول :

إن أنبياء بني إسرائيل مثل أشعيا وأرميا ودانيال وحزقيال وعيسى عليهم السـلام أخبـروا عن الحـوادث الآتيـة : كحادثة بخت نصر ، وقـورش ، والإسكنـدر وخلفـائـه ، وحوادث أرض أدوم ومصر ونينوى وبابل ، ويبعد كل البعد أن لا يخبر أحد منهم عن خروج محمد صلى الله عليه وسلم الذي كان وقت ظهوره كأصغر البقول ، ثم صار شجرة عظيمة تأوي طيور السماء في أغصانها ، فـكسر الجبابرة والأكاسرة ، وبلغ دينه شرقاً وغرباً وغلب الأديان ، وامتد دهراً بحيث مضى على ظهوره مدة ألف ومائتين وثمانين[1] إلى هذا الحين ، ويمتد إن شاء الله إلى آخر

---

(١) هذا عصر المؤلف ونحن الآن في سنة ١٤١٥ هـ .

بقاء الدنيا ، وظهر في أمته ألوف ألوف من العلماء الربانيين ، والحكماء المتقين ، والأولياء ذوي الكرامات والمجاهدات ، والسلاطين العظام ، وهذه الحادثة كانت أعظم الحوادث ، وما كانت أقل من حادثة أرض أدوم ونينوى وغيرهما ، فكيف يجوز العقل السليم أنهم أخبروا عن الحوادث الضعيفة ، وتركوا الإخبار عن هذه الحادثة العظيمة ؟ .

الأمـــر الثـــاني :

إن النبي المتقدم إذا أخبر عن النبي المتأخر ، لا يشترط في إخباره أن يخبر بالتفصيل التام بأنه يخرج من القبيلة الفلانية ، في السنة الفلانية ، في البلد الفلاني ، وتكون صفته كيت وكيت ، بل يكون هذا الإخبار في غالب الأوقات مجملاً عند العوام ، وأما عند الخواص فقد يصير جلياً بواسطة القرائن ، وقد يبقى خفياً عليهم أيضاً لا يعرفون مصداقه إلا بعد ادعاء النبي اللاحق أن النبي المتقدم أخبر عنه ، وظهور مصداق ادعائه بالمعجزات وعلامات النبوة ، وبعد الادعاء ، وظهور صدقه ، يصير جلياً عندهم بلا ريب ، ولذلك يعاتبون كما عاتب المسيح عليه السلام علماء اليهود بقوله : (ويل لكم أيها الناموسيون ، لأنكم أخذتم مفتاح المعرفة ما دخلتم أنتم والداخلون منعتموهم) كما هو مصرح به في الباب الحادي عشر من إنجيل لوقا ، وعلى مذاق المسيحيين قد يبقى خفياً على الأنبياء فضلا عن العلماء ، بل قد يبقى خفياً على النبي المخبر عنه على زعمهم في الباب الأول من إنجيل يوحنا هكذا ١٩ (وهذه شهادة يوحنا حين أرسل اليهود من أورشليم كهنة ولاويين ليسألوه من أنت ؟) ٢٠ (فاعترف ولم ينكر ، وأقر أني لست أنا المسيح) ٢١ (فسألوا إذاً ماذا ؟ أنت إيليا ؟ فقال : أنا لست إيليا ، فسألوه أنت النبي ؟ فأجاب : لا) ٢٢ (فقالوا له : من أنت لنعطي جواباً للذين أرسلونا ؟ ماذا تقول عن نفسك ؟) ٢٣ (قال : أنا صوت صارخ في البرية قوّموا طريق الرب ، كما قال أشعيا النبي) ٢٤ (وكان المرسلون من الفريسيين) ٢٥ (فسألوه وقالوا له : فما بالك تعمد إن كنت لست المسيح ولا إيليا ولا النبي ؟) والألف واللام في لفظ

النبي الواقع في الآية ٢١ ، ٢٥ للعهد ، والمراد النبي المعهود الذي أخبر عنه موسى عليه السلام في الباب الثامن عشر من سفر الاستثناء (١) على ما صرح به علماء المسيحية ، فالكهنة واللاويون كانوا من علماء اليهود ، وعرفوا أيضاً أن يحيى عليه السلام نبي ، ولكن شكوا في أنه المسيح عليه السلام ، أو إيليا أو النبي المعهود الذي أخبر عنه موسى ، فظهر منه أن علامات هؤلاء الأنبياء الثلاثة لم تكن مصرحة في كتبهم ، بحيث لا يبقى فيها اشتباه على الخواص فضلاً عن العوام (٢) ، فلذلك سألوا أولا أنت المسيح ، فبعدما أنكر يحيى عليه السلام عن كونه مسيحاً ، سألوه أنت إيليا ؟ فعندما أنكر كونه إيليا ، سألوه أنت النبي (أي المعهود) ؟ ولو كانت العلامات مصرحة لما كان للشك محل ، بل ظهر منه أن يحيى عليه السلام لم يعرف نفسه أنه إيليا حتى أنكر ، فقال : لست أنا ، وقد شهد عيسى أنه إيليا (أي يحيى) في الباب الحادي عشر من إنجيل متى .

الأمـــر الثـــالث :

ادعـاء أن أهل الـكتاب ما كانوا ينتظرون نبياً آخر غير المسيح وإيليا ، ادعاء باطل لا أصل له ، بل كانوا منتظرين لغيرهما أيضاً ، لما علمت في الأمر الثاني أن علماء اليهود المعاصرين لعيسى عليه السلام سألوا يحيى عليه السلام أولاً أنت المسيح ؟ ولما أنكر سألوه أنت إيليا ؟ ولما أنكر سألوه أنت النبي ؟ ، أي النبي المعهود الذي أخبر به موسى ، فعلم أن هذا النبي كان منتظراً مثل المسيح وإيليا ، وكان مشهوراً بحيث ما كان محتـاجاً إلى ذكر الاسم ، بل الإشارة إليه كانت كافية ، وفي الباب السابع من إنجيل يوحنا بعد نقل قول عيسى عليه السلام هكذا ،

(١) هو سفر تثنية الاشتراع وهو الخامس والأخير من أسفار التوراة ، ويعبر عنه صاحب الحق بسفر الاستثناء أخذاً من بعض التراجم.

(٢) بل كانت مجملة لا تخلو من الخفاء والاشتباه ، والقصد من هذا الكلام ، أن البشارات التي وردت عن النبي محمد ﷺ كانت بإشارات لا يعرفها إلا الراسخون في العلم ، ولو كانت واضحة للعوام لما عوتب علماؤهم في كتمانه .

٤٠ (فكثيرون من الجمع لما سمعوا هذا الكلام قالوا : هذا بالحقيقة هو النبي) ٤١ (وآخرون قالوا : هذا هو المسيح) وظهر من الكلام أيضاً أن النبي المعهود عندهم كان غير المسيح ، ولذلك قابلوه بالمسيح .

الأمــــر الــــرابع :

ادعاء أن المسيح خاتم النبيين ولا نبي بعده باطل ، لما عرفت في الأمر الثالث : أنهم كانوا منتظرين للنبي المعهود الآخر الذي يكون غير المسيح وإيليا عليهم السلام ، ولما لم يثبت بالبرهان مجيئه قبل المسيح فهــو بعده ، ولأنهم يعترفون بنبوة الحواريين وبولس بل بنبوة غيرهم أيضاً ، وفي الباب الحادي عشر من كتاب الأعمال هكذا ، ٢٧ (وفي تلك الأيام انحدر الأنبياء من أورشليم إلى إنطاكية) ٢٨ (وقام واحد منهم اسمــه آغابوس وأشار بالروح أن جوعاً عظيماً كان عتيداً يصير على جميع المسكونة الذي صار في أيام كلوديوس قيصر) فهؤلاء كلهم كانوا أنبياء على تصريح إنجيلهم ، وأخبر واحد منهم اسمه آغابوس عن وقوع الجدب (١) العظيم .

---

(١) القصد من إيراد هذا الكلام تفنيد زعم المسيحيين أن المسيح خاتم النبيين ومما يفنده .

أولا : أنهم كانوا منتظرين للنبي المعهود الذى يكون غير المسيح وإيليا ، وهو يحيى عليه السلام .

ثانيـا : أنهم اعـترفـوا بأنبياء بعد المسيح كالحواريين وبولس وآغابوس وهو من اليهود ، وهنا قد يجيب المسيحيون لإثبات زعمهم بأن المسيح قال : كما في الباب السـابع من إنجيل متى هكذا (احترزوا من الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم بثياب الحملان ، ولكنهم من داخل ذئاب خاطفة) والتمسك به عجيب ، لأن المسيح عليه السلام أمر بالاحتراز من الأنبياء الكذبة لا الأنبياء الصادقين ، ولذلك قيد بالكذبة ، نعم لو قال : احـترزوا من كل نبي يجيء بعـدي، لكـان بحسب الـظاهـر وجه للتمسك ، وإن كان واجب التأويل عندهم لثبوت نبوة الأشخاص المذكورين ، وقد ظهر الأنبياء الكذبة الكثيرون في الطبقة الأولى بعد صعوده ، كما يظهر من الرسائل الموجودة في العهد الجديد في الباب الحادي عشر من الرسالة الثانية إلى أهل قورنيثوس هكذا ١٢ (ولكن ما أفعله لأقطع فرصة الذين يريدون فرصة كي يوجدا كما نحن

الأمـــر الخـــامس :

الأخبـار التي نقلهـا المسيحيـون في حق عيسى عليـه السـلام ، لا تصدق عليه على تفسير اليهود وتأويلاتهم ، ولذلك هم ينكرونه أشد الإنكـار ، وعلمـاء المسيحيـة لا يلتفتـون في هذا الباب إلى تفاسيرهم وتأويلاتهم ، ويفسرونها ويؤولونها بحيث تصدق في زعمهم على عيسى عليه السلام ، كما أن تأويلات اليهود في الآيات المذكورة مردودة غير صحيحـة وغـير لائقـة عند المسيحيين ، كذلك تأويلات المسيحيين في الأخبار التي هي في حق محمد صلى الله عليه وسلم مردودة غير مقبولة عندنا ، وسترى أن الأخبار التي ننقلها في حق محمد صلى الله عليه وسلم أظهر صدقاً من الأخبار التي نقلها الإنجيليون في حق عيسى عليه السلام ، فلا بأس علينا إن لم نلتفت إلى تأويلاتهم الفاسدة ، وكما أن اليهود ادعوا في حق بعض الأخبار التي هي في حق عيسى عليه السلام على زعم المسيحيين ، أنها في حق مسيحهم المنتظر ، أو في حق غيره ، أو ليست في حق أحـد ، والمسيحيون يدعون أنها في حق عيسى عليه السلام ، ولا يبالون بمخالفتهم ، فكذا نحن لا نبالي بمخالفة المسيحيين في حق بعض الأخبار التى هي في حق محمد صلى الله عليه وسلم لو قالوا أنها في حق عيسى عليه السلام ، وسترى أيضاً أن صدقها في حق محمد صلى الله عليه وسلم أليق من صدقها في حق عيسى عليه السلام ، فادعاؤنا أحق من ادعائهم .

بشارات التوراة بالرسول :

وهاك بشارات التوراة بالرسول صلى الله عليه وسلم :

البشارة الأولى :

في الباب الثامن عشر من سفر الاستثناء ، هكذا ١٧ (فقال الرب لي نعم جميع ما قالوا) ١٨ (وسوف أقيم لهم نبياً مثلك من بين إخوتهم

= أيضاً فيما يفتخرون به) ١٣ (لأن مثل هؤلاء رسل كذبة فعلة ماكرون مغيرون شكلهم إلى شبه رسل المسيح) فمقدسهم ينادي بأعلى نداء أن الرسل الكذبة الغدارين ظهروا في عهده ، وقد تشبهوا برسل المسيح .

وأجعل كلامي في فمه ، ويكلمهم بكل شيء آمره به) ١٩ (ومن لم يطع كلامه الذي يتكلم به باسمي فأنا أكون المنتقم من ذلك) ٢٠ (فأما النبي الذي يجترىء بالكبرياء ، ويتكلم في اسمي ما لم آمره بأنه يقوله أم باسم آلهة غيري فليقتل) .

وهذه البشارة ليست بشارة بيوشع عليه السلام كما يزعم أحبار اليهود ، ولا بشارة بعيسى كما زعم علماء البروتستنت ، بل هي بشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم لعشرة أوجه :

الوجه الأول : قد عرفت في الأمر الثالث ، أن اليهود المعاصرين لعيسى عليه السلام ، كانوا ينتظرون نبياً آخر مبشراً به في هذا الباب ، وكان هذا المبشر به عندهم غير المسيح ، فلا يكون هذا المبشر به يوشع ولا عيسى .

الوجه الثاني : أنه وقع في هذه البشارة لفظ مثلك ، ويوشع وعيسى لا يصح أن يكون مثل موسى ، أما أولا ، فلأنهما من بني إسرائيل ، ولم يوجد أحد من بني إسرائيل مثل موسى ، كما تدل عليه الآية العاشرة من الباب الرابع والثلاثين من سفر الاستثناء وهي هكذا (ولم يقم بعد ذلك في بني إسرائيل مثل موسى يوافه الرب وجهاً لوجه) ، فإن قام أحد مثل موسى بعده من بني إسرائيل يلزم تكذيب هذا القول ، وأما ثانياً : فلأنه لا مماثلة بين يوشع وبين موسى ، لأن موسى صاحب كتاب وشريعة جديدة ، ويوشع ليس كذلك ، بل هو متبع لشريعة موسى ، كما لا توجد المماثلة التامة بين موسى وعيسى ، لأن عيسى كان إلهاً ورباً على زعم النصارى ، وموسى كان عبداً لله ، وأن عيسى دخل الجحيم بعد موته ، كما هو مصرح به في عقائد أهل التثليث ، وموسى ما دخل الجحيم ، وأن شريعة موسى مشتملة على الحدود والتعزيرات وأحكام الغسل والطهارات والمحرمات من المأكولات والمشروبات ، بخلاف شريعة عيسى فإنها فارغة عنها .

الوجه الثالث : أنه وقع في هذه البشارة لفظ من بين إخوتهم ، ولاشك أن الأسباط الإثني عشر كانوا موجودين في ذلك الوقت مع موسى

حاضرين عنده ، فلو كان المقصود كون النبي المبشر به منهم لقال منهم ، لا من بين إخوتهم ، لأن الاستعمال الحقيقي لهذا اللفظ ، أن لا يكون المبشر به له علاقة الصلبية والبطنية ببني إسرائيل .

الوجه الرابع : أنه وقع في هذه البشارة لفظ سوف أقيم ، ويوشع عليه السلام كان حاضراً عند موسى داخلا في بني إسرائيل ، فكيف يصدق عليه هذا اللفظ ؟ .

الوجه الخامس : أنه وقع في هذه البشارة لفظ أجعل كلامي في فمه ، وهو إشارة إلى أن ذلك النبي ينزل عليه كتاب سماوي ، وإلى أنه يكون أمياً حافظاً للكلام ، وهذا لا يصدق على يوشع عليه السلام لانتفاء كلا الأمرين فيه .

الوجه السادس : أنه وقع في هذه البشارة ، ومن لم يطع كلامه الذي يتكلم به ، فأنا أكون المنتقم من ذلك ، وهذه الوجوه تصدق في حق محمد صلى الله عليه وسلم أكمل صدق ، لأنه غير المسيح ، ويماثل موسى عليه السلام في أمور كثيرة منها :

١ – كونه عبد الله ورسوله .

٢ – وكونه ذا والدين .

٣ – له زوجات وأولاد .

٤ – شريعته مشتملة على السياسات المدنية والعبادات ، كاشتراط الطهارة وقت العبادة ، ووجوب الغسل للجنب والحائض والنفساء ، والأمر بالجهاد ، وتعيين الحدود والتعزيرات والقصاص ، وكونه مدفوناً كموسى ، إلى غير ذلك من الأمور التي إذا تأملها العاقل يجد صحة ما قلناه ، قال الله : (**إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهداً عليكم ، كما أرسلنا إلى فرعون رسولا**)(١) .

وكان من إخوة بني إسرائيل ، وليس منهم لأنه من بني إسماعيل ، وأنزل الله عليه الكتاب المجيد ، وكان أمياً ، جعل كلام الله في فمه كما قال الله : (**وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى**)(٢) .

---

(١) سورة المزمل : الآية ١٥ .

(٢) سورة النجم : الآية ٤ .

وكان مأموراً بالجهاد ، وقد انتقم الله لأجله من صناديد قريش ومن الأكاسرة والقياصرة وغيرهم .

الوجـه السابع : أنه صرح في هذه البشارة ، بأن النبي الذي ينسب إلى الله ما لم يأمره يقتل ، ولو لم يكن محمد نبياً حقاً لقتل ، وقد قال الله : (**ولو تقول علينا بعض الأقاويل ، لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين**)(١) .

وما قتل بل قال الله في حقه : (**والله يعصمك من الناس**)(٢) .

وأوفى بوعده فلم يقدر على قتله أحد ، حتى لحق بالرفيق الأعلى صلى الله عليه وسلم ، وعيسى عليه السلام قتل وصلب على زعم أهل الكتاب ، فلو كانت هذه البشارة في حقه ، فيلزم أن يكون نبياً كاذباً ، كما يزعمه اليهود والعياذ بالله .

وتركنا بقية الوجوه وهي ثلاثة اختصاراً .

البشارة الثانية :

في البـاب الثـالث والثلاثين من سفر الاستثناء بالترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٨٤ م ، هكذا وقال : جاء الرب من سيناء ، وأشرق لنا من ساعير ، واستعلن من جبل فاران ومعه ألوف الأطهار في يمينه سنة من نار ، فمجيئـه من سينـاء ، إعـطاؤه التوراة لموسى ، وإشراقه من ساعـير ، إعطاؤه الإنجيل لعيسى ، واستعلانه من جبل فاران ، إنزاله القرآن ، لأن فاران جبل من جبال مكة ، بدليل ما جاء في الباب الحادي والعشرين من سفر التكوين في حال إسماعيل عليه السلام هكذا ٢٠ (وكان الله معه ، ونما وسكن في البرية وصار شاباً يرمي السهام) ٢١ (وسكن برية فاران وأخذت له أمه امرأة من أرض مصر) ، ولاشك أن إسماعيل عليه السلام كان سكناه بمكة المكرمة ، ولا يصح أن يراد أن النـار لما ظهرت من طور سيناء ظهرت من ساعير ومن فاران أيضاً ، فانتشرت في هذه المواضع ، لأن الله لو خلق ناراً في موضع ، لا يقال جاء

(١) سورة الحاقة : الآية ٤٦ .

(٢) سورة المائدة : الآية ٦٧ .

الله من ذلك الموضع ، إلا إذا اتبع تلك الواقعة وحي نزل في ذلك الموضع ، أوعقوبة أو ما أشبه ذلك ، وقد اعترفوا أن الوحي اتبع تلك في طور سيناء ، فكذا لابد أن يكون في ساعير وفاران .

البشارة الثالثة :

في الآية العشرين من الباب السابع عشر من سفر التكوين ، وعد الله في حق إسماعيل عليه السلام لإبراهيم عليه السلام في الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٨٤ م (وعلى إسماعيل أستجيب لك هوذا أباركه وأكبره وأكثره جداً فسيلد إثني عشر رئيساً وأجعله لشعب كبير) وقوله أجعله لشعب كبير يشير إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، لأنه لم يكن في ولد إسماعيل من كان لشعب كبير غيره ، وقد قال الله ناقلاً دعاء إبراهيم وإسماعيل في حقه عليه السلام في كلامه المجيد أيضاً : (**ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم**) (١) .

وقال الإمام القرطبي في الفصل الأول من القسم الثاني من كتابه :

وقد تفطن بعض النبهاء ممن نشأ على لسان اليهود وقرأ بعض كتبهم ، فقال يخرج مما ذكر من عبارة التوراة في موضعين اسم محمد صلى الله عليه وسلم بالعدد على ما يستعمله اليهود فيما بينهم : الأول قوله : جداً جداً بتلك اللغة بماد ماد وعدد هذه الحروف اثنان وتسعون ، لأن الباء اثنان والميم أربعون والألف واحد والدال أربعة والميم الثانية أربعون والألف واحد والدال أربعة كذلك الميم من محمد أربعون والحاء ثمانية والميم أربعون والدال أربعة ، والثاني قوله : لشعب كبير بتلك اللغة لغوي عذول فاللام عندهم ثلاثون والغين ثلاثة ، لأنه عندهم في مقام الجيم إذ ليس في لغتهم جيم ولا صاد ، والواو ستة والياء عشرة والغين أيضاً ثلاثة والدال أربعة والواو ستة واللام ثلاثون ، فمجموع هذه أيضاً اثنان وتسعون .ا ـ هـ .

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٢٩ .

(واعترضوا على هذا الدليل بأن الباء في بماد ماد ليست من نفس الكلمة بل هي أداة وحرف جيء به للصلة ، فلو أخرج منه اسم محمد لاحتاج إلى باء ثانية ، ويقال ببماد ماد قلنا من المشهور عندهم إذا اجتمع الباءان أحدهما أداة والآخر من نفس الكلمة ، تحذف الأداة وتبقى التي هي من نفس الكلمة ، وهذا شائع عندهم في مواضع غير معدودة ، فلا حاجة إلى إيرادها) ا ـ هـ .

كلامه بلفظ أقول قد صرح العلماء بأن من أسمائه صلى الله عليه وسلم ماد ماد كما في شفاء القاضي عياض .

بشارة إنجيل يوحنا :

ففي الفصل الخامس عشر منه قال يسوع المسيح : إن الفارقليط روح الحق الذي يرسله أبي يعلمكم كل شئ ، وقال يوحنا أيضاً : قال المسيح من يحبني يحفظ كلمتي وأبى يحبه وإليه يأتي وعنده يتخذ المنزلة ، كلمتكم بهذا لأني لست عندكم بمقيم ، والفارقليط روح القدس الذي يرسله أبي هو يعلمكم كل شئ ، وهو يذكركم كل ما قلت لكم أستودعكم سلامي ، لا تقلق قلوبكم ولا تجزع ، فإني منطلق وعائد إليكم ، لو كنتم تحبوني كنتم تفرحون بمضيِّ إلى الأب ، وقال أيضاً : إن خيراً لكم أن أنطلق لأبي ، لأني إن لم أذهب لم يأتكم الفارقليط ، فإذا جاء فهو يوبخ العالم على الخطيئة ، وإن لي كلاماً كثيراً أريد قوله ولكنكم لا تستطيعون حمله ، ولكن إذا جاء روح الحق ذاك الذي يرشدكم إلى جميع الحق ، لأنه ليس ينطق من عنده ، بل يتكلم بما يسمع ويخبركم بكل ما يأتي ، ويعرفكم جميع ما للأب ، وقال أيضاً : إن كنتم تحبوني فاحفظوا وصاياي ، وأنا أطلب من الأب أن يعطيكم فارقليطاً آخر يثبت معكم إلى الأبد [1] ، روح الحق الذي لم يطق العالم

---

(١) وأما قوله : يثبت معكم إلى الأبد ، فلا يعني أنه ليس لحياته نهاية ، لأن التلاميذ الذين قيل لهم هذا الكلام لم يمكثوا إلى الأبد ، لكنهم ماتوا أو قتلوا جميعاً منذ تسعة عشر قرناً ، فهذا القول لا يصمد للتأويل حرفياً ، ولكنه يمكن أن يعني أن ما يأتي به روح الحق إلى الأجيال اللاحقة لكم يبقى إلى الأبد .

أن يقبلوه ، لأنهم لم يعرفوه ، ولست أدعكم أيتاماً ، لأني سآتيكم من قريب[1] .

والفارقليط لفظ يؤذن بالحمد ، وتعين إرادته صلى الله عليه وسلم من كلامه عليه السلام ، مما لا غبار عليه لمن كشف الله تعالى غشاوة التعصب عن عينيه ، وقد فسره بعض النصارى بالحماد ، وبعضهم بالحامد ، فيكون في مدلوله إشارة إلى اسمه عليه الصلاة والسلام أحمد .

هذا اللفظ (الفارقليط) يوناني ، ويكتب بالإنجليزية بارقليط ، أي (المعزى) ويتضمن أيضاً معنى المحاج ، ولا يخفى أن المسيح كان يتكلم بالعبرية ، فلا ندري ماذا كان اللفظ الذي نطق به عليه السلام ، وهل كانت ترجمة مؤلف إنجيل يوحنا صحيحة أو خطأ ، لأننا نعلم أن كثيراً من الألفاظ والعبارات وقع فيها التحريف من الكتاب سهواً أو قصداً ، كما اعترفوا به في جميع كتب العهدين .

قال الشيخ رحمة الله الهندي : إنه قد وصلت إليه رسالة صغيرة بلسان الأردو من رسائل القسيسين في سنة ١٢٦٨ هـ ، وكانت هذه الرسالة طبعت في كلكته ، وكانت في تحقيق لفظ فارقليط ، وكان ملخص كلامه : إن قلنا إن هذا اللفظ اليوناني الأصل باركلي طوس ، فيكون بمعنى المعزى والمعين والوكيل ، وإن قلنا إن اللفظ الأصل بيركلوطوس يكون قريباً من معنى محمد وأحمد ، فمن استدل من علماء الإسلام بهذه البشارة ، فهم أن اللفظ الأصل بيركلوطوس ، ومعناه قريب من

= وأما قوله عن روح الحق : الذي لا يستطيع العالم أن يراه ولا يعرفه ، وأما أنتم فتعرفونه لأنه ماكث معكم ويكون فيكم ، فقد بينا أن المكث معهم لا يعني مع التلاميذ ، لأنهم لم يمكثوا إلى الأبد ، وإنما المقصود به أجيال لاحقة لهم ، وأما حديثه عن عدم استطاعة العالم رؤيته ومعرفته ، فلا يقصد به سوى الإيمان القلبي الخالص ، فلقد كان في الشعب الإسرائيلي من يبصر المسيح ويعرفه شخصياً ، لكنه في حقيقة الأمر كان أعمى وجاهلا لأنه لم يؤمن به .

(١) ا. هـ. من الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح .

معنى محمد وأحمد ، فادعى أن عيسى عليه السلام أخبر بمحمد أو أحمد ، لكن الصحيح أنه باراكلي طوس . انتهى ملخصاً من كلامه .

وقال الشـيخ رحمة الله بعد ذلك : إن التفاوت بين اللفظين يسير جداً ، فتبدل بيركلوطوس بباراكلي طوس من الكاتب قريب القياس ، ومن نظر بعـين الإنصـاف اعتقد يقيناً أن مثل هذا الأمر من ديانة أهل التثليث ليس ببعيد ، يقصد تبديل بيركلوطوس بباراكلي طوس ، فإن كان اللفظ اليوناني الأصلي بيروكلوطوس فالأمر ظاهر ، وتكون بشارة المسيح في حقه عليه الصلاة والسلام بلفظ هو قريب من محمد أو أحمد ، وهذا وإن كان قريب القياس بالنظر إلى عاداتهم ، لكنني أترك هذا الاحتمال لأنه لا يتم عليهم إلزاماً ، وأقول : إن كان اللفظ اليوناني الأصل باراكلى طوس كما يدعون ، فهذا لا ينافي الاستدلال أيضاً ، لأن معناه المعزى والمعين والوكيل على ما بين صاحب الرسالة ، أو الشافع كما يوجد في الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١٦ م ، وهذه المعاني كلها تصدق على محمد صلى الله عليه وسلم[١] ا. هـ .

وإن من تأمـل بعـين البصـيرة والإنصـاف ، وتـرك التعصب والاعتسـاف وتقليد الآباء والأجداد ، عرف أن الأوصاف التي ذكرها المسيح عليه السلام تطابق تمام المطابقة على وصف النبي عليه الصلاة والسـلام ، وشرح كلام المسيـح مطول ، وقد شرحه الشيخ رحمة الله الهندي كما نقله سيد رشيد رضا ، وشرحه صاحب فتح الملك العلام في بشائر دين الإسلام ، ومن جملة ما قاله : « إن الفارقليط روح الحق الذي يرسله أبي يعلمكم كل شيء » ، وهذا ما ترى معناه أن شريعة رسـول الله عليه الصلاة والسلام أتت وافية بحاجات البشر في أمور دينهم ودنياهم ، بحيث لا يحتاجون إلى كتاب غير القرآن ، ولا إلى نبي غير محمد عليه الصلاة والسلام .

وقوله : « إن خيراً لكم أن أنطلق ، لأني إن لم أذهب لم يأتكم

---

(١) ا. هـ ملخصاً من تفسير المنار ج ٩ .

الفارقليط » معناه لا يأتي الرسول العربي محمد صلى الله عليه وسلم في زمن عيسى ، ولابد أن يكون بعد عيسى عليه السلام .

وقوله : « فهو يوبخ العالم على الخطيئة » فهذا القول بمنزلة النص الجلي لمحمد صلى الله عليه وسلم ، لأنه وبخ العالم على ضلاله وكفره وشركه وجوره ، لاسيما اليهود على عدم إيمانهم بعيسى عليه السلام .

وقوله : « إذا جاء روح الحق ، ذلك الذي يرشدكم إلى جميع الحق » معناه والله أعلم أن النبي يبين للأمة كل ما يحتاجون إليه من العقائد والآداب والأخلاق والأحكام والمعاملات والحدود ونحوها ، كما جاء في الحديث : « تركتكم على المحجة البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك » .

وقوله : « لأنه ليس ينطق من عنده بل يتكلمْ بما يسمع » ، هذا بمعنى قوله تعالى في شأن الرسول صلى الله عليه وسلم : **(وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى)**(١) .

وقوله : « يخبركم بكل ما يأتي ويعرفكم بجميع ما للرب » .

قال شيخ الإسلام : وكذلك كان محمد صلى الله عليه وسلم أرشد الناس إلى جميع الحق ، حتى أكمل الله له الدين ، وأتم به النعمة ، ولهذا كان خاتم الأنبياء ، فإنه لم يبق شيء يأتي به غيره ، وأخبر محمد صلى الله عليه وسلم بكل ما يأتي من أشراط الساعة والقيامة والحساب والصراط ، ووزن الأعمال والجنة وأنواع نعيمها ، والنار وأنواع عذابها ، فلهذا كان في القرآن من تفصيل أمر الآخرة وذكر الجنة والنار ، وما يأتي من ذلك أمور كثيرة ، لا توجد لا في التوراة ولا في الإنجيل ، وذلك تصديق قول المسيح : « إنه يخبر بكل ما يأتي » .

ومحمد بعثه الله بين يدي الساعة كما قال : « بعثت أنا والساعة كهاتين ، وأشار بأصبعيه ، السبابة والوسطى » ، وكان إذا ذكر

---

(١) سورة النجم : الآية ٤ .

الساعة ، علا صوته ، واحمر وجهه ، واشتد غضبه ، كأنه منذر جيش ، وقال : « إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد » .

وقال : « أنا النذير العريان » .

فأخبر من الأمور التي تأتي في المستقبل بما لم يخبر به نبي من الأنبياء ، كما نعته به المسيح حيث قال : « إنه يخبركم بكل ما يأتي » ، ولا يوجد مثل هذا قط عن أحد من الأنبياء قبل محمد صلى الله عليه وسلم ، فضلا عن أن يوجد شيء ينزل على قلب بعض الحواريين .

وأيضاً فقال : « ويعرفكم جميع ما للرب » فبين أنه يعرف الناس جميع ما لله ، وذلك يتناول ما لله من الأسماء والصفات ، وما له من الحقوق ، وما يجب من الإيمان به وبملائكته وكتبه ورسله ، بحيث يكون ما يأتي به جامعاً لكل ما يستحقه الرب ، وهذا لم يأت به أحد غير محمد ، حيث يتضمن ما جاء به من الكتاب والحكمة[1].

الفصل الثاني والسبعون من إنجيل برنابا :

(١) « وفي الليل تكلم يسوع سراً مع تلاميذه قائلا :
(٢) الحق أقول لكم إن الشيطان يريد أن يغربلكم كالحنطة » .
(٣) « ولكني توسلت إلى الله لأجلكم فلا يهلك منكم إلا الذى يلقي الحبائل لي » .
(٤) « وهو إنما قال هذا عن يهوذا لأن الملاك جبريل قال له كيف كانت ليهوذا يدمع الكهنة وأخبرهم بكل ما تكلم به يسوع » .
(٥) « فاقترب الذي يكتب هذا إلى يسوع بدموع قائلا : يا معلم قل من هو الذي يسلمك » .
(٦) « أجاب يسوع قائلا : يا برنابا[2] ليست هذه الساعة هي التي

---

(١) ا. هـ من الجواب الصحيح .

(٢) إنجيل برنابا بقى مخفياً طيلة سبعة عشر قرناً ، وأول من عثر على النسخة الإيطالية وهي الوحيدة المعروفة الآن في العالم والتي ترجمت إلى العربية وغيرها ، هو الرجل كريمر أحد مستشاري ملك بروسيا ، وكان مقيماً وقتئذ في أمستردام فأخذها سنة

تعرفه فيها ، ولكن يعلن الشرير نفسه قريباً لأني سأنصرف عن العالم » .

(٧) « فبكى حينئذ الرسل قائلين : يا معلم لماذا تتركنا لأن الأحرى بنا أن نموت من أن تتركنا » .

(٨) « أجاب يسوع : لا تضطرب قلوبكم ولا تخافوا » .

(٩) « لأني لست أنا الذي خلقكم بل الله الذي خلقكم يحميكم » .

(١٠) « أما من خصوصي ، فإني قد أتيت لأهيىء الطريق لرسول الله الذي سيأتي بخلاص للعالم ، ولكن احذروا أن تفشوا ، لأنه سيأتي أنبياء كذبة كثيرون يأخذون كلامي وينجسون إنجيلي » .

(١١) « حينئذ قال إندراوس : يا معلم اذكر لنا علامة لنعرفه » .

(١٢) « أجاب يسوع : إنه لا يأتي في زمنكم ، بل يأتي بعدكم بعدة سنين ، حينما يبطل إنجيلي ، ولا يكاد يوجد ثلاثون مؤمناً » .

(١٣) « في ذلك الوقت يرحم الله العالم ، فيرسل رسوله الذي تستقر على رأسه غمامة بيضاء ، يعرفه أحد مختاري الله وهو سيظهره للعالم » .

(١٤) « وسيأتي بقوة عظيمة على الفجار ، ويبيد عباد الأصنام من العالم » .

(١٥) « وإني أسر بذلك لأنه بواسطته سيعلن ويمجد الله ويظهر صدقي » .

(١٦) « وسينتقم من الذين سيقولون إني أكبر من إنسان »[١] » .

= ١٧٠٩ م من مكتبة أحد مشاهير المدينة المذكورة ، ويقال إنه أقرضها ذلك الوجيه المشهور لكريمر ، ثم أهداها بعد ذلك بأربع سنين إلى الأمير أيوجين الذي كان على كثرة حروبه ومشاغله السياسية شديد الولع بالعلوم والآثار التاريخية ، ثم انتقلت النسخة المذكورة سنة ١٧٣٨ م مع سائر مكتبة الأمير إلى مكتبة البلاط الملكي في فيينا حيث لا تزال هناك حتى الآن . (راجع مقدمة المترجم لإنجيل برنابا الدكتور خليل سعادة) .

(١) ا. هـ . من « إنجيل برنابا » ترجمه من الإنجليزية الدكتور خليل سعادة وطبع بمطبعة المنار .

تأمل ما قاله برنابا في وصف الرسول عليه الصلاة والسلام ، تجد الأوصاف بكل وضوح منطبقة على الرسول صلى الله عليه وسلم ، من تلك الأوصاف :

« أهييء الطريق لرسول الله الذي سيأتي بخلاص العالم » ، يقصد والله أعلم أنه يقضي على مادية اليهود ويأتي بروح الزهد ، كما وأنه بشر برسولنا العظيم ، فتبشيره به كتهيئة له ، ثم قال : « سيأتي بخلاص للعالم » ، يعني أن رسالة رسولنا عامة ، وليست بخاصة كرسالات الأنبياء السابقين ، حيث كان يبعث كل رسول إلى قومه ، وتخليص النبي للعالم من رذائل الوثنية وشرور الملوك الظلمة ، وتطهيرهم من العادات الرذيلة ، وإخراجهم من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد ، وقال : « إنه لا يأتي في زمنكم بل يأتي بعدكم بعدة سنين ، حينما يبطل إنجيلي ، ولايكاد يوجد ثلاثون مؤمناً » .

ولاشك لدى كل عاقل ، أنه لم يأت بعد عيسى عليه السلام رسول إلا محمد صلى الله عليه وسلم ، ومعنى يبطل إنجيلي : « أن القرآن ناسخ للإنجيل » ، وقوله : « ولا يكاد يوجد ثلاثون مؤمناً » ، يعني أن النصارى لا يتمسكون بالإنجيل الصحيح المنزل على عيسى عليه السلام ، بل يخترعون لهم أناجيل ، ولا يبقى مؤمن إيماناً صحيحاً بالله وبالمسيح إلا عدد قليل ، وكان في المدينة الكبيرة تجد فيها الألوف من النصارى وعشرات من الأحبار والرهبان ، ولكن لاتجد المسيحي الصحيح إلا واحداً أو اثنين ، اقرأ قصة إسلام سلمان الفارسي لتعرف صحة ما أقول ، ومن الذي أتى بقوة عظيمة ، وقضى على عباد الأصنام ، وعباد النيران والكواكب وغيرها إلا محمد عليه الصلاة والسلام ، ومن الذي أظهر صدق المسيح ، وأظهر منزلته التي أنزله الله فيها غير النبي صلى الله عليه وسلم ، لأنه برأه مما اتهمه اليهود من قولهم : إنه ابن زنا ، وأنهم صلبوه ، وكذبوا ، قال الله تعالى : **(وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم)** (١) ، كما أبطل قول النصارى من كونه ابن الإله أو ثالث ثلاثة ، وأبطل قولهم بالصلب والفداء .

(١) سورة النساء : الآية ١٥٧

ولما كان إنجيل برنابا هو الإنجيل الصحيح بالنسبة لغيره ، وفيه من أوصاف النبي عليه الصلاة والسلام ما لا يحتاج إلى تفسير وبيان لوضوحه ، أنكره عباد الصليب لأنه يقضي على معتقداتهم الفاسدة .

كلام لشيخ الإسلام ابن تيمية
منقول من الجواب الصحيح

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه « الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح » الجزء الرابع :

فصـــــل :

وقال دانيال عليه السلام وذكر محمداً صلى الله عليه وسلم باسمه ، فقال : « ستنزع في قسيك إغراقاً ، وترتوي السهام بأمرك يا محمد ارتواء » ، فهذا تصريح بغير تعريض ، وتصحيح ليس فيه تمريض ، فإن نازع في ذلك منازع ، فليوجد لنا آخر ، اسمه محمد ، له سهام تنزع ، وأمر مطاع لا يدفع .

وقال دانيال النبي أيضاً ، حين سأله بخت نصر ، عن تأويل رؤيا رآها ، ثم نسيها : رأيت أيها الملك صنماً عظيماً قائماً بين يديك ، رأسه من ذهب ، وساعده من الفضة ، وبطنه وفخذاه من النحاس ، وساقاه من الحديد ، ورجلاه من الخزف ، ورأيت حجراً لم تقطعه يد إنسان ، قد جاء وَصَكَّ ذلك الصنم ، فتفتت وتلاشى ، وعاد رفاتاً ، ثم نسفته الرياح ، فذهب وتحول ذلك الحجر فصار جيلا عظيماً حتى ملأ الأرض كلها ، فهذا ما رأيت أيها الملك ؟

قال بخت نصر : صدقت فما تأويلها ؟

قال دانيال : أنت الرأس الذي رأيته من الذهب ، ويقوم بعدك ولداك اللذان رأيت من الفضة وهما دونك ، ويقوم بعدها مملكة أخرى هي دونها ، وهي التي تشبه النحاس ، والمملكة الرابعة تكون قوية مثل الحديد الذي يدق كل شئ .

فأما الرجلان اللتان رأيت من خزف ، فمملكة ضعيفة ، وكلمتها سخيفة ، وأما الحجر الذي رأيت قد صك ذلك الصنم العظيم ففتته ، فهو نبي يقيمه الله إله السماء والأرض هنا ، من قبيلة بشريعة قوية ، فيدق جميع ملوك الأرض وأممها حتى تمتلئ منه الأرض ومن أمته ، ويدوم سلطان ذلك النبي إلى انقضاء الدنيا ، فهذا تعبير رؤياك أيها الملك .

قلت : فهذا بعث محمد صلى الله عليه وسلم لا بعث المسيح ، فهو الذي بعث بشريعة قوية دون جميع ملوك الأرض وأممها ، حتى تمتلئ الأرض منه ومن أمته في مشارق الأرض ومغاربها ، وسلطانهم دائم لايقدر أحد أن يزيله ، كما زال ملك اليهود ، وزال ملك النصارى عن خيار الأرض وأوساطها .

أدلة صحة بشارات التوراة والإنجيل بالنبي صلى الله عليه وسلم

الدليل الأول :

من أقوى الدلائل على صحة تلك البشارات التي أسلفتها من التوراة والإنجيل بالنبي عليه الصلاة والسلام ، أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يخاطب اليهود والنصارى ، لأنه مبشر به في التوراة والإنجيل ، وأنه مرسل إلى العالمين ، فلذلك كتب (١) إلى ملوك النصارى ، وإلى ملوك الفرس ، وإلى ملوك العرب ، يدعوهم للإيمان بالله وبرسوله ، فهذا النجاشي ملك الحبشة عندما هاجر بعض الصحابة إلى الحبشة وكان منهم جعفر بن أبي طالب ، فأرسلت قريش عمرو بن العاص وعبد الله بن ربيعة لإرجاعهم إلى مكة ، وقدموا هدية للملك ثم قالا له : أيها الملك أنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا في دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن

---

(١) الكتب التي أرسلها النبي إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام كلها بعد صلح الحديبية، والحديبية سنة ٦ من الهجرة .

ولا أنت ، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم عليهم ، فعند ذلك أحضرهم الملك وسألهم : ماهذا الدين الذي قد فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا في ديني ولا دين أحد من الملل ؟

وهنا تكلم جعفر بن أبي طالب ، وأعرب عما كانوا عليه في الجاهلية من عبادة الأصنام ، وأكل الميتة ، وإتيان الفواحش ، وأكل القوي للضعيف ، حتى بعث الله إليهم رسولا منهم ، يعرفون نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعاهم إلى الله ليوحدوه ويعبدوه ويخلعوا ما كان يعبدون هم وآباؤهم من دونه من الحجارة والأوثان .

قال : وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، وهنا قال النجاشي : هل معك مما جاء به عن الله من شئ ؟ فقال له جعفر : نعم ، فقال له النجاشي : فاقرأه علي ، فقرأ عليه صدراً من سورة مريم،فبكى النجاشي حتى اخضلت لحيته ، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلاه عليهم .

فقال النجاشي : إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة ، انطلقا فلا والله لا أسلمهم إليكما ، وأكرم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وآمن بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وهو الذي أخبر أصحابه بموته ، وصلى عليه صلاة الغائب .

وهذا النجاشي كان ملكاً نصرانياً ، وكان عالماً بدين المسيح ، فلما قرأ عليه جعفر ، وعرف أن هذا الكلام كلام الله ، وأنه موافق لما في الإنجيل الصحيح بوصف المسيح وأمه ، وأنه رسول لا إله ولا ابن إله ، أسلم ، ولو لم يكن مسلماً لما صلى عليه النبي وأصحابه ، ولو لم يعرف صدق الرسول وصحة نبوته ورسالته ، وأنه ناسخ لدين عيسى وموسى ، لما أسلم .

الدليل الثاني :

أن الرسول صلى الله عليه وسلم كتب إلى قيصر ملك الروم بعد صلح الحديبية كتاباً قال فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد عبد الله ورسوله ، إلى « هرقل » عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد ، فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم ، يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت ، فإن عليك إثم اليريسيين :[1] (يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ، ألا نعبد إلا الله ، ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) [2] .

فلما ورد إليه الكتاب ، أراد أن يتثبت في أمر النبي ، وبحث عمن يستخبره في شأنه ، فقال كما في صحيح مسلم : هل ها هنا أحد من قوم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي ، قالوا : نعم ، فقال أبو سفيان : فدعيت في نفر من قريش ودار بينهما الحوار الآتي :

هرقل : كيف نسبه فيكم ؟

أبوسفيان : هو فينا ذو نسب .

هرقل : فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله ؟

أبوسفيان : لا .

هرقل : فهل كان من آبائه من ملك ؟

أبوسفيان : لا .

هرقل : فأشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟

أبوسفيان : بل ضعفاؤهم .

هرقل : أيزيدون أم ينقصون ؟

أبوسفيان : بل يزيدون .

---

(١) اليريسيون قيل : هم الفلاحون ، وقيل هم أتباع «أريوس المصري» مؤسس فرقة مسيحية كان لها دور كبير في تاريخ العقائد المسيحية والإصلاح الديني .

(٢) سورة آل عمران : الآية ٦٤ .

هرقل : فهل يرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟

أبو سفيان : لا .

هرقل : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟

أبو سفيان : لا .

هرقل : فهل يغدر ؟

أبو سفيان : لا ، ونحن منه في مدة لا ندر ما هو فاعل فيها ؟

قال : (ولم تمكني كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة) .

هرقل : فهل قاتلتموه ؟

أبو سفيان : نعم .

هرقل : فكيف كان قتالكم إياه ؟

أبو سفيان : الحرب بيننا وبينه سجال ، ينال منا ، وننال منه .

هرقل : ماذا يأمركم ؟

أبو سفيان : يقول : اعبدوا الله وحده ، ولاتشركوا به شيئاً ، واتركوا ما يقول آباؤكم ، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة .

فقال للترجمان : قل له ، سألتك عن نسبه ، فذكرت أنه فيكم ذو نسب ، وكذلك الرسل تبعث في نسب قومها ، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول ؟ فذكرت : أن لا ، قلت : لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت : رجل يأتسي بقول قيل قبله ، وسألتك هل كان من آبائه من ملك فذكرت : أن لا ، فقلت : فلو كان من آبائه من ملك ، قلت : رجل يطلب ملك أبيه ، وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قاله ؟ فذكرت : أن لا ، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله ، وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ فذكرت : أن ضعفاؤهم اتبعوه ، وهم أتباع الرسل ، وسألتك أيزيدون ، أم ينقصون ؟ فذكرت: أنهم يزيدون ، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم ، وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ فذكرت : أنه لا ، وكذلك الإيمان حتى تخالط بشاشته القلوب ، وسألتك هل يغدر ؟ فذكرت : أن لا ، وكذلك الرسل لا تغدر ، وسألتك بما يأمركم ؟ فذكرت :

أنه يأمركم أن تعبدوا الله ، ولا تشركوا به شيئاً ، وينهاكم عن عبادة الأوثان ، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف ، فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين ، وقد كنت أعلم أنه خارج (١) ، ولم أكن أظن أنه منكم ، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه .. وأذن بعظماء الروم في القصر وأمر بأبوابه فغلقت ، ثم أطلع فقال : يامعشر الروم ، هل لكم في الفلاح والرشد ، وأن يثبت ملككم وتبايعوا هذا النبي ؟ ففروا وبادروا إلى الأبواب ، فوجدوها قد غلقت ، فلما رأى هرقل نفرتهم ، وأيس من الإيمان ، قال : ردوهم عليّ ، وقال : إني قلت مقالتي آنفاً أختبر بها شدتكم على دينكم ، فقد رأيت فسجدوا له ورضوا عنه.

هكذا آثر هرقل الملك على الهداية ، ووقعت بينه وبين المسلمين في خلافة أبي بكر وعمر حروب ومعارك ، وكان فيها ذهاب ملكه وسلطانه .

الدليل الثالث :

وكتب إلى المقوقس (٢) عظيم القبط : سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد ، فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله

---

(١) قف قليلا على قول هرقل مخاطباً لأبي سفيان : «فسيملك موضع قدمي هاتين ، وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أكن أظن أنه منكم» تصريح واضح أنه كان يعرف أنه سيأتي نبي بعد عيسى ، وفي قرارة نفسه علم صدق الرسول ، ولذا قال : ولو كنت عنده لغسلت قدميه ، ويزيد هذا وضوحاً، أنه قال لعظماء الروم : هل لكم في الفلاح والرشد ، وأن يثبت ملككم ؟ تبايعوا هذا النبي ، وأما قوله بعد ذلك لما رأى نفرتهم : أختبر بها شدتكم على دينكم ، فهذا تضليل منه على قومه ، ولكن في هذه القصة لنا دليل على أن كثيراً من أحبار النصارى وعظمائهم وكذلك اليهود، كانوا يعرفون أن محمداً رسول الله صدقا ، وأنه رسول الله حقاً ، لما يجدونه عندهم في التوراة والإنجيل من أوصافه العظيمة ، التي تنطبق عليه تمام الانطباق عندما شاهدوه وشاهدوا سيرته ، لكن الهداية بيد الله ، فمنهم من آمن ، ومنهم من كفر .

(٢) هو حاكم الإسكندرية والنائب العام للدولة البيزنطية في مصر ، وذكره مؤرخو العرب باسم المقوقس ، وسماه بعضهم جريج بن مينا المقوقس .

أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم القبط (**يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون**) (١) ، وبعث به مع حاطب بن أبي بلتعة .

وأخذ كتاب النبي صلى الله عليه وسلم ، فجعله في حُق من عاج ، وختم عليه ودفعه إلى جارية له ، ثم دعا كاتباً له يكتب بالعربية ، فكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط ، سلام عليك أما بعد : فقد قرأت كتابك ، وفهمت ما ذكرت فيه ، وما تدعو إليه ، وقد علمت أن نبياً بقي(٢)، وكنت أظن أنه يخرج بالشام ، وقد أكرمت رسولك ، وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم وبكسوة ، وأهديت إليك بغلة لتركبها ؛ والسلام عليك ، ولم يزد على هذا ، ولم يسلم ، والجاريتان مارية وسيرين ، والبغلة دلدل بقيت إلى زمن معاوية .

---

(١) سورة آل عمران : الآية ٦٤ .

(٢) فيه اعتراف صريح بأن اليهود والنصارى كانوا في انتظار نبي بعد عيسى عليه السلام ، وأما قوله : وكنت أظن أنه يخرج بالشام ، فلعله ظن ذلك بناء على أن أكثر الأنبياء بعثوا من الشام كأنبياء بني إسرائيل ، أو أنه أراد أن يعتذر لعدم إسلامه ، لأن أولئك العظماء كهرقل والمقوقس والنجاشي كانوا دارسين الديانة النصرانية ، ومن لوازم ذلك أن يتفقهوا في التوراة ، لأن التوراة هي الأصل ، والبشارات في التوراة والإنجيل حتى بعد التحريف والتبديل كثيرة ، فيبعد أن يكون المقوقس غير عارف بالرسول وبمبعثه ، لأن في التوراة أنه سيكون من نسل إسماعيل أمة عظيمة ومنهم نبي عظيم ، ومن نصوص التوراة ، جاء الرب من سيناء ، وأشرق من ساعير ، واستعلن من فاران . (وفاران هي جبال مكة والحجاز والصحراء الممتدة إلى قرب فلسطين) .

الدليل الرابع : إسلام عبد الله بن سلام :

هو عبد الله بن سلام بن الحارث الإسرائيلي الأنصاري ، ويكنى أبا يوسف ، وهو من ولد يوسف بن يعقوب عليهما السلام ، خرج عبد الله بن سلام مع جماعة من أهل المدينة لما سمعوا بقدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة لينظروا إليه ، فنظر عبد الله بن سلام إليه وتأمل وجهه ، فعلم أنه ليس بوجه كذاب ، فعاد إلى نخله وجنى منه الثمار لأهله ، وعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نزل على أبي أيوب الأنصاري ، فجاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم والثمار معه ، فسمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « أيها الناس أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وصلوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام » ، فقال : إني أشهد أنك رسول الله ، وأنك جئت بحق ، وقد علمت يهود أني سيدهم وابن سيدهم ، وأعلمهم وابن أعلمهم ، فادعهم فاسألهم عني قبل أن يعلموا أني قد أسلمت ، فإنهم إن يعلموا أني قد أسلمت ، قالوا في ما ليس في ، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليهود ، فأقبلوا فدخلوا عليه ، فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : يا معشر اليهود ، ويلكم اتقوا الله ، فوالله الذي لا إله إلا هو ، إنكم لتعلمون أني رسول الله حقاً ، وإني جئتكم بحق فأسلموا ، قالوا : ما نعلم ، قال : فأي رجل فيكم عبد الله بن سلام ؟ قالوا : ذلك سيدنا وابن سيدنا ، وأعلمنا وابن أعلمنا ، قال : أفرأيتم إن أسلم ؟ قالوا : حاشا لله ما كان ليسلم ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا ابن سلام أخرج عليهم ، فخرج فقال : يا معشر اليهود ، اتقوا الله ، فوالله الذي لا إله إلا هو ، إنكم لتعلمون أنه رسول الله ، وأنه جاء بالحق ، فقالوا له : كذبت ، فأخرجهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من عنده .

فمن هذا الوقت ، أخذ اليهود يتظاهرون بما تكنه صدورهم من الحسد والبغضاء ، ووضع العراقيل لعدم نمو الإسلام .

الدليل الخامس : حديث مخيريق :

كان مخيريق حبراً عالماً ، وكان غنياً كثير الأموال من النخل ، وكان

يعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم بصفته ، وما يجده في علمه ، وغلب عليه إلف دينه ، فلم يزل على ذلك حتى إذا كان يوم أُحُدٍ يوم السبت قال : يا معشر اليهود ، والله إنكم لتعلمون أن نصر محمد عليكم لحق ، قالوا : إن اليوم يوم السبت ، قال : لا سبت لكم ، ثم أخذ سلاحه فخرج حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأحد ، وعهد إلى من وراءه من قومه ، إن قتلت هذا اليوم ، فأموالي لمحمد صلى الله عليه وسلم ، يصنع فيها ما أراه الله ، فلما اقتتل الناس قاتل حتى قتل ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : مخيريق خير يهود ، وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم أمواله ، فعامة صدقات رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة منها . رواه ابن هشام عن ابن إسحاق[1] .

الدليل السادس : كتاب رسول الله إلى أهل نجران :

قال الحافظ ابن القيم رحمه الله :

« وروينا عن أبي عبد الله الحاكم ، وعن الأصم ، عن أحمد بن عبد الجبار ، عن يونس بن بكير ، عن سلمة بن عبد يسوع ، عن أبيه ، عن جده ، قال يونس وكان نصرانياً فأسلم : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب إلى أهل نجران باسم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب : « أما بعد ، فإني أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد ، وأدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد ، فإن أبيتم فالجزية ، فإن أبيتم فقد آذنتكم بحرب ، والسلام » .

فلما أتى الأسقف الكتاب فقرأه ، فظع به ، وذعر به ذعراً شديداً ،

---

(١) ا. هـ . من حياة سيد العرب ، الجزء الأول .

إن قول مخيريق وهو من أحبار اليهود وعلمائهم : إن نصر محمد عليكم لحق ، دليل على أنه كان يعلم صدق رسول الله لما يجد صفته في التوراة ، ولهذا جاهد مع المسلمين في أحد ضد المشركين وأوصى بأمواله للرسول ﷺ ، ولا يضرنا أنه لم يسلم ، فاعترافه بصدق الرسول وقوله لليهود : إن نصر محمد عليكم لحق كاف في الدلالة على المرام .

فبعث إلى رجل من أهل نجران يقال له : شرحبيل بن وداعة ، وكان من همدان ، ولم يكن أحد يدعى إذا نزل معضلة قبله ، لا الأيهم ، ولا السيد ، ولا العاقب ، فدفع الأسقف كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه فقرأه ، فقال الأسقف : يا أبا مريم ما رأيك ؟ فقال شرحبيل : قد علمت ما وعد الله إبراهيم في ذرية إسماعيل من النبوة ، فما يؤمن أن يكون هذا ذلك الرجل ، ليس لي في النبوة رأى حتى سأل ثلاثة من كبرائهم ، وكان جواب الكل كجواب شرحبيل ، فانطلق الوفد حتى وصلوا إلى المدينة .

وفد نصـــارى نجران :

فلما قدم الوفد كان مؤلفاً من ستين راكباً ، منهم : أربعة وعشرون رجـلا من أشرافهم ، والأربعة والعشرون منهم ثلاثة نفر إليهم يؤول أمـرهم : العـاقب أمـير القوم وذو رأيهم وصاحب مشورتهم ، والذي لا يصـدرون إلا عن رأيـه وأمـره ، واسمـه عبد المسيح ، والسيد : ثمالهم ، وصاحب رحلهم ومجتمعهم ، واسمه الأيهم ، وأبو حارثة بن علقمـة أخـو بني بكـر بن وائل ، أسقفهم وحبرهم وإمامهم وصاحب مدارسهم ، وكان أبو حارثة قد شرف فيهم ودرس كتبهم ، وكانت ملوك الروم من أهل النصرانية قد شرفوه ومولوه وأخدموه ، وبنوا له الكنائس وبسطوا عليه الكرامات ، لما يبلغهم عنه من علمه واجتهاده في دينهم .

وجـرى النقاش بينهم وبين الرســول حتى قالوا له : ما تقول في عيسى ؟ فإنا نرجع إلى قومنا ونحن نصارى ، فيسرنا إن كنت نبياً أن نعلم ما تقول فيه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما عندي فيه شيء يومي هذا ، فأقيمـوا حتى أخبـركم بمـا يقال لي في عيسى عليه السلام ، فأصبح الغد وقد أنزل الله عز وجل : (**إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له : كن فيكون ، الحق من ربك فلا تكن من الممترين ، فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعـالوا ندع أبنـاءنـا وأبنـاءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين**)[١] .

(١) سورة آل عمران : الآيات ٥٩ ـ ٦١ .

فلما أبوا أن يقروا بأن عيسى عبد الله ورسوله ، وليس بإله ولا بابنه ، دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المباهلة ، وأتى بالحسن والحسين وفاطمة ، لأن الله قال : (**فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم** ..) الآية فرفضوا أن يباهلوا ، لأنهم لو علموا أنهم على حق والرسول على باطل لباهلوا ، ولكن بما أنهم كانوا يعرفون صدقه لم يقبلوا المباهلة .

وقال شرحبيل لصاحبيه : إن كان هذا الرجل نبياً مرسلا فلاعناه ، فلا يبقى على وجه الأرض منا شعرة ولا ظفر إلا هلك ، فعند ذلك لجأوا إلى الصلح ، فقرر عليهم الرسول أن يسلموا في كل شهر رجب ألف حلة ، وفي كل شهر صفر ألف حلة ، وعلى أهل نجران مثوى رسله ومتعتهم بها عشرين فدونه ، وعليهم أن يسلموا عارية ثلاثين درعاً وثلاثين فرساً وثلاثين بعيراً إذا كان كيد باليمن ومغدرة ، وكتب لهم كتاباً طويلا في ذلك كما ذكره الحافظ ابن القيم في زاد المعاد وغيره .

ومن هنا تعرف أيها القارىء أن هذا الوفد النصراني كان فيه من أحبارهم وكبرائهم ما سبق ذكره ، وإن شرحبيل بن وداعة قال : قد علمت ما وعد الله إبراهيم في ذرية إسماعيل من النبوة ، ثم رفضهم للمباهلة وقبولهم للصلح والجزية ، لأدلة واضحة على صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ورسالته إلى العالمين ، وأن أحبار اليهود والنصارى كانوا يعرفون ذلك أو كثير منهم ولاسيما الوفد النجراني .

وما ذكرته من كتب الرسول إلى الملوك ، ومن حديث عبد الله بن سلام ومخيريق ، وهذا الوفد السالف الذكر ، وقصة إسلام سلمان الفارسي الذي خرج من أصفهان مع قافلة من النصارى إلى الشام تابعاً لدين الحق لأنه كان مجوسياً ، فدل على راهب وجلس عنده حتى حانت وفاة الراهب حتى مر على ثلاثة رهبان ، ولما حانت وفاة الثالث أخبره أنه لم يبق على دين عيسى من هو متمسك بالنصرانية الحقة ، وأخبره ببعثة نبي العرب عن قريب ونعت له المدينة مهجره ، وأنه لا يأكل الصدقة ، وبين كتفيه خاتم النبوة ، فأسلم سلمان لما وصل إلى المدينة ، وتحقق العلامات كما ذكر له .

كل ما ذكرته ذكرتها الأحاديث وكتب السير والتواريخ ، وثبتت واشتهرت عند أهل الحديث والمؤرخين والمفسرين والفقهاء ، حتى أصبحت أجلى من الشمس في رائعة النهار ، لايشك فيها عاقل ولو لم يكن مسلماً ، لثبوت ما ذكرته واستفاضته وشهرته .

الدليل السابع : وهو خاتمة الأدلة :

الأدلة على صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحة نبوته وكونه مرسلا إلى العالمين ، وختم الله به النبيين والمرسلين ، أكثر من أن تحصر ، وقد ذكرت من الدلائل الدالة الشيء الكثير ، ووفيت بما وعدت من بشارات التوراة والإنجيل ، كما ذكرت كتابته إلى الملوك ، وما كان من جواب هرقل والمقوقس وملك الحبشة ، وما حصل من الوفد النجراني ، وإسلام من أسلم في عصره صلى الله عليه وسلم من اليهود والنصارى .

ولكن ألفت نظر القاريء إلى ما لعله من قوة البرهان ووضوحه للعيان ، مالا يخفى على من سلك سبيل الإنصاف ، ولم يسلك سبيل الاعتساف ، وهو أنه من الثابت بالتاريخ والحس والمشاهدة بالعيان ، ومن الأمور التى لا يسع فيها المكابرة ، أن بعدما امتدت الفتوحات الإسلامية في عصر الخلفاء إلى العراق والشام ومصر وفارس وأفريقيا وغيرها من البلدان حتى ما وراء النهر ، أسلم من اليهود والنصارى والمجوس من مواطني تلك الأمصار والبلدان مئات الألوف ، بما فيهم من الأحبار والرهبان طوعاً ورغبة من غير جبر ولا اضطرار ، فلو لم يجدوا وصف النبي صلى الله عليه وسلم كما بشرت به التوراة والإنجيل لما أسلموا ، ومن الذي أجبرهم على دخول دين الإسلام ، وقد أعطاهم الإسلام الحرية الكاملة في دينهم ودنياهم ، ولو لم يجدوا نعته كما قال الله في سورة الأعراف : (**الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل**) .(١) ورأوا أوصافه في

(١) سورة الأعراف : الآية ١٥٧ .

كتبهم كما ذكر القرآن وكما قال الله في سورة الفتح : (**محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلا من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطئه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً**)(١) .

لما دخلوا في دين الله أفواجاً أفواجاً ، وأصبح كثير منهم من علماء الدين ومن الناصرين له ، فوالله إن هذا لبرهان ساطع معقول وملموس ، لا يأبى الإذعان له إلا من كان من أهل الشقاوة ومن أهل النار .

فلو لم أذكر من الدلائل إلا هذا الدليل الباهر ، لكفى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

---

(١) سورة الفتح : الآية ٢٩ .

شهادات بعض منصفي المسيحيين

وإذ ذكرت بشارات التوراة والإنجيل التي تنبئنا عن النبي الكريم محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه ، وبعض شهادات المسيحيين السالفين كالنجاشي ملك الحبشة وغيره ، وكنت قد وعدت بأن أذكر شهادات بعض المنصفين من مسيحيي الغرب ، فإلى القارىء ماوعدته به ليزداد إيماناً بصدق الرسالة المحمدية ، وأنها آخر الرسالات السماوية .

١ - قال فارس الخوري بك أحد وزراء سورية المسيحيين في خطبة له ، في إحدى الحفلات العظيمة التي أقيمت بدمشق عام ١٩٣٥ م ، لإحياء ذكرى مولد محمد صلوات الله وسلامه عليه ، وذلك في رسول الإسلام وفي مبادئه الخالدة :

إن محمداً أعظم عظماء العالم ، ولم يجيء الدهر بمثله ، والدين الذي جاء به أولى الأديان وأتمها وأكملها ، وإن محمداً أودع شريعته المطهرة أربعة آلاف[1] مسألة علمية واجتماعية وتشريعية ، ولم يستطع علماء القانون المنصفون إلا الاعتراف بفضل الذي دعا الناس إليه باسم الله ، وبأنها متفقة مع العلم مطابقة لأرقى النظريات والحقائق العلمية ، وأن محمداً الذي تحتلفون به وتكرمون ذكراه ، أعظم عظماء الأرض كافة ، فلقد استطاع توحيد العرب بعد شتاتهم ، وأنشأ منهم أمة موحدة فتحت العالم المعروف يومئذ ، وجاء لهم بأعظم ديانة عينت للناس حقوقهم وواجباتهم وأصول تعاملهم ، على أسس تعد من أرقى دساتير العالم وأكملها .

(١) تحديده بأربعة آلاف مسألة ، لعله بحسب فهمه وعلمه ، وإلا فما جاء به الرسول الأعظم مما حواه القرآن والسنة لا يدخل تحت الحصر .

٢ - **وقال الدكتور شلبي شمبل وهو نصراني :**

بحاثة حر ملحد :

لا يوجد دين في الأديان يتفق مع الرقي الاجتماعي والعلمي سوى دين الإسلام ، وأن محمداً لهو أكمل وأعظم بشر في الأقدمين والحاضرين ، ولايتصور وجود مثله في المستقبل ، ويقول أيضاً في سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم :

نعم المدبر والحكيم وأنه — رب الفصاحة مصطفى الكلمات
رجل الحجا رجل السياسة والدهى — بطل حليف النصر في الغارات
ببلاغة القرآن قد خلب النهى — وبسيفه أنحى على الهامات
من دونه الأبطال في كل الورى — من سابق أو لاحق أو آت

٣ - **وقال الكاتب الإنجليزي المعروف كارليل :**

إنه لا يمكن أن يكون محمد كذوباً ، فإنه إذا كان كذلك ، فلا يستطيع أن يأتي بمثل هذا الدين العجيب ، والله إن الرجل الكاذب لا يستطيع أن يبني بيتاً من اللبن إذا لم يكن عليماً بمواد البناء على اختلاف أنواعها ، فما بالك بمواد بناء صرح شامخ البنيان مدعم الأركان مثل دين الإسلام ، الذي ظل على قوته وعظمته قروناً طوالا .

وقال أيضاً في كتابه الأبطال :

لقد أصبح من أكبر العار على أي فرد متمدين من أبناء هذا العصر ، أن يصغي إلى تلك الاتهامات التي وجهت إلى الإسلام وإلى نبيه ، وواجبنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة ، فإن الرسالة التي أداها الرسول الكريم مازالت السراج المنير لنحو أربعمائة مليون من الناس [١] .

وقال أيضاً في اعترافه بالقرآن :

إن القرآن كتاب لا ريب فيه ، وإن الإحساسات الصادقة الشريفة

(١) هذا الإحصاء كان في وقته ، أما اليوم فقد تبين أن عدد المسلمين يبلغ المليار (١,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠) أو أكثر .

والنيات الكريمة تظهر لي فضل القرآن ، والقرآن هو أول وآخر فضل وجد في كتاب نتجت عنه جميع الفضائل على اختلافها ، بل هو الكتاب الذي يقال عنه في الختام : (**وفي ذلك فليتنافس المتنافسون**) لكثرة ما فيه من الفضائل المتعددة[1] .

٤ - وقد كتبت دائرة المعارف البريطانية - الطبعة الحادية عشرة :

كان محمد أظهر الشخصيات الدينية العظيمة ، وأكثرها نجاحاً وتوفيقاً ، ظهر النبي في وقت كان العرب فيه قد هووا إلى الحضيض ، فما كانت لهم تعاليم دينية محترمة ، ولا مباديء مدنية أو سياسية أو اجتماعية ، ولم يكن لهم ما يفاخرون به من الفن والعلوم ، وما كانوا على اتصال بالعالم الخارجي ، وكانوا مفككين لا رابطة بينهم ، كل قبيلة وحدة مستقلة وكل منها في قتال مع الأخرى ، وحاولت اليهودية أن تهديهم ، فما استطاعت ، وباءت محاولات المسيحية بالخيبة ، كما خابت جميع المحاولات السابقة للإصلاح ، ولكن ظهر محمد صلى الله عليه وسلم الذي أرسل هدى للعالمين ، فاستطاع في سنوات معدودات أن يقتلع جميع العادات الفاسدة من جزيرة العرب ، وأن يرفعها من الوثنية المنحطة إلى التوحيد ، وحول أبناء العرب الذين كانوا أنصاف برابرة إلى طريق الهدى والفرقان ، فأصبحوا دعاة هدى ورشاد ، بعد أن كانوا دعاة وثنية وفساد ، وانتشروا في الأرض ، يعملون على رفع كلمة الله ، وعبدوا الله حق العبادة ، حتى فاقوا النساك والزاهدين ، ولقد وصل المسلمون إلى ذروة السمو الروحي والرخاء الاقتصادي، وتثقفوا بعلوم الإسلام ، التي فاض خيرها على العالم أجمع في ذلك الوقت ، والتي تغلغل ضوؤها ليبدد دياجير الجهل المتفشي في كل مكان ، وإنه لعجيب حقاً أن يتم هذا في عشرين عاماً فقط ، إذاً لقد كانت تعاليمه سهلة من الميسور الأخذ بها ، وناجعة قاضية على جميع العلل الاجتماعية والأمراض الخلقية .. وليس الطبيب البارع من يدعي أنه

(١) من كتاب الأبطال .

الطبيب الأول ، بل الطبيب البارع من يشفي أكبر عدد من الحالات المستعصية ، كذلك المصلح الناجح ليس من يدعي أنه المصلح الأول ، بل من يقوم بإصلاح العالم ،فيهديه إلى الصراط المستقيم ، وهذا هو الذي رفع النبي فوق هامات المصلحين والهادين في أعين المفكرين من ذوي العقول الناضجة .

ثم ذكرت الميزات التى اختص بها الرسول صلى الله عليه وسلم من بين سائر الرسل ، فعددت ما يلي :

١ - إنه أرسل إلى العالم كافة ، بينما كانت رسالات غيره محددة ، كل رسول لأمة واحدة خاصة ، وهكذا كانت كتبهم المنزلة ، كل كتاب لشعب معين ، أما النبي محمد فكانت رسالته عالمية [١] .

٢ - إنه كان هدف الرسالات السابقة السمو بطبيعة من طبائع البشر المتعددة ، فكان كل نبي من الأنبياء آية في صفة واحدة من الصفات ، ولكن النبي محمد كان آية في جميع السجايا ، وجاء ليسمو بأخلاق الناس كلهم ، وكان المثل الأعلى للإنسان الكامل .

٣ - إن ميزة النبي العظمي ، هي وضع أسس السلم العالمي ، فهو لم يضع الأسس التي يعيش الأفراد بمقتضاها في سلام جنباً إلى جنب فحسب ، بل علمهم كيف تعيش القبائل والشعوب في سلام ووئام ، ألم يكن أعظم من ظهر على وجه الأرض ، ومع ذلك كان عظيم التواضع لا يعتبر نفسه إلا إنساناً عادياً كسائر البشر : (**قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي**)[٢] كان يعتبر نفسه فرداً من الأفراد ، له ما لهم من حقوق ، وعليه ما عليهم من واجبات .. حقوق للجميع متساوية ، وواجبات على الجميع متساوية ، لا فرق بين كبير وصغير ، ولا ذكر وأنثى ، ولا عربي وأعجمي ، وهذه هي عدالة الإسلام[٣].

---

(١) بدليل قوله تعالى : ﴿ تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً﴾ وقوله : ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السموات والأرض﴾ وقوله : ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ .

(٢) سورة الكهف : الآية ١١٠ .

(٣) الإسلام والمستشرقين .

٥ - ويقول « الفريد غليوم » أستاذ الدراسات الشرقية بجامعة لندن :

علينا من المبدأ أن نقرر أن محمداً صلى الله عليه وسلم كان واحداً من أعلام التاريخ العظماء ، وكان يقينه الغالب أنه لا إله إلا الله ، وأنه يدعو إلى ملةواحدة ، وكانت قدرته على التدبير بين المشاكل المعقدة التي تواجهه قدرة خارقة بغير مراء ، فما استطاع عربي بعزة الجيوش والشرطة والدواوين أن يجمع شمل قومه كما فعل ، فإن قيل : إن العالم الإسلامي عند وفاته كان عالماً صغيراً بالقياس إلى دولة خلفائه ، فالجواب عن ذلك : أن إخلاص خلفائه لدعوته ، وإيمانهم بها ، وفهمهم لها ، قد جعلهم يعملون على تعميم الدعوة المحمدية مصداقاً لقوله تعالى : (**وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**)[1] .

٦ - وقال المستر « ولز » :

كل دين لا يسير مع المدنية في كل طور من أطوارها ، فاضرب به عرض الحائط ولا تبال به ، لأن الدين الذي لايسير مع المدنية جنباً إلى جنب ، لهو شر مستطير على أصحابه ، يجرهم إلى الهلاك ، وأن الديانة الحقة التي وجدتها تسير مع المدنية أنى سارت هي الديانة الإسلامية ، فإذا أراد الإنسان أن يعرف شيئاً من هذا ، فليقرأ القرآن[2] وما فيه من نظرات علمية وقوانين وأنظمة لربط المجتمع ، فهو كتاب ديني علمي اجتماعي تهذيبي خلقي تاريخي .. كثير من أنظمته وقوانينه تستعمل حتى في وقتنا الحالي ، وستبقى حتى قيام الساعة ، وإذا طلب مني أحد القراء أن أحدد الإسلام فإني أحدده بالعبارة التالية :

وهل في استطاعة إنسان أن يأتيني بدور من الأدوار كان فيه الدين الإسلامي مغايراً للمدنية والتقدم ، كان النبي محمد صلى الله عليه وسلم زراعياً وطبيباً وقانونياً وقائداً ، واقرأ ما جاء في أحاديثه تتحقق صدق ما أقول ، ويكفي أن قوله المأثور : « نحن قوم لا نأكل حتى نجوع ، وإذا أكلنا لا نشبع » هو الأساس الذي بني عليه علم

(١) سورة الأنبياء : الآية ١٠٧ .

(٢) الحديقة جـ ٧ .

الصحة ، ولم يستطع الأطباء على كثرتهم ومهارتهم أن يأتوا حتى اليوم بنصيحة أثمن من هذه ، والخلاصة : أن محمداً كان مجموعة من الحسن والنبوغ والبخت ، وهذا هو التحديد الصحيح الذي يجب على كل مسلم أن يعرفه .

ثم قال : إن محمداً هو الذي استطاع في مدة وجيزة - لا تقل[١] عن ربع قرنٍ - أن يكتسح دولتين من أعظم دول العالم ، وأن يقلب التاريخ رأساً على عقب ، وأن يكبح جماح أمة اتخذت الصحراء المحرقة سكناً لها ، واشتهرت بالشجاعة ورباطة الجأش والأخذ بالثأر واتباع آثار آبائها .. ولم تستطع الدولة الرومانية أن تغلب الأمة العربية على أمرها ، فمن الذي يشك أن القوة الخارقة للعادة التي استطاع محمد أن يقهر خصومه بها ، هي من عند الله[٢].

٧ - قال العلامة بارتلمي سانت هيلر :

كان محمد أكثر عرب زمانه ذكاء وأشدهم تديناً وأعظمهم رأفة ، ونال[٣]محمد سلطانه الكبير بفضل تفوقه عليهم ، ونعد دينه - الذي دعا إلى اعتناقه - من جزيل النعم على جميع الشعوب التى اعتنقته ، ونستنشق سهولة الإسلام العظيمة من التوحيد المحض ، وفي هذه السهولة سر قوة الإسلام ، والإسلام إدراكه سهل خال مما نراه من الأديان الأخرى ، مما يأباه الذوق السليم من المتناقضات والغوامض ، ولا شيء أكثر وضوحاً وأقل غموضاً من أصول الإسلام القائلة بإله

---

(١) لعله يريد أن يقول : لا تزيد .

(٢) الحديقة جـ ٧ .

(٣) لم ينل ما ناله الرسول بتفوقه كما قال هذا المستشرق ، ويقصد بذلك تفوقه في صفاته الفاضلة ، ولكن نال تلك المنزلة العالية وهي دخول الملايين من البشر في دينه وخضوعهم لحكمه ، بفضل الله الذي وهبه النبوة والرسالة ، وأمره بتبليغها إلى جميع الأمم ، وأيده بتوفيقه ونصره ، وبإسلام السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، وبسهولة مبادئه التي أتى بها ووضوحها ويسرها ، كما هو معلوم لدى كل منصف ، وكما اعترف هذا المستشرق ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين .

واحد ، وبمساواة جميع الناس أمام الله ، وببضعة فروض يدخل الجنة من يقوم بها ، ويدخل النار من يعرض عنها ، وإنك إذا ما اجتمعت بأي مسلم من أية طبقة رأيته يعرف ماذا يجب عليه أن يعتقده ، ويسرد لك أصول الإسلام في بعض كلمات بسهولة ، وهو بذلك عكس النصراني الذي لا يستطيع حديثاً عن التثليث ، والاستحالة ، وما ماثلها من الغوامض من غير أن يكون من علماء اللاهوت الواقفين على دقائق الجدل .

وساعد في وضوح الإسلام ، وما أمر به من العدل والإحسان على انتشاره في العالم ، وبتلك المزايا نفسر سبب اعتناق كثير من الشعوب النصرانية للإسلام ، كالمصريين الذين كانوا نصارى أيام حكم قياصرة القسطنطينية ، فأصبحوا مسلمين حين عرفوا أصول الإسلام ، كما نفسر به السبب في عدم تنصر أية أمة بعد أن رضيت بالإسلام ديناً ، سواء كانت هذه الأمة غالبة أم مغلوبة(١) .

٨ - ويقول المنصف المحقق « وليام موير » في كتابه « حياة محمد » .

وبالإختصار فإنه مهما درس الباحث حياة محمد ، وجد فيها على الدوام كتلة فضائل مجسمة مع نقاء سريرة وخلق عظيم ، وستبقى تلك الفضائل عديمة النظير على الإطلاق في جميع الأزمان في الماضي والحاضر والمستقبل .

٩ - وقال المؤرخ والكاتب « فرنسيسكو أيزولدو » :

جاء محمد فأحيا البلاد العربية ، وقاد العرب في سبيل المجد ، ونهض بهم فبلغوا أسمى المراتب ، وفي أقل من قرن واحد أشرقت أنوار محمد في العالم ، وقدر الناس عبقريته ومواهبه ، إن هذا الحادث العظيم الذي وقع ما بين القرنين السادس والسابع ، لهو حادث فريد مبتكر ، ولم يعرف له التاريخ مثيلا ، ولم يدون قط في صفحاته وثبة هائلة ونهضة نادرة كنهضة العرب في فجر الإسلام ، إن الشعب العربي

---

(١) من كتاب « نظرات في الشريعة » لزيد بن عبد العزيز بن فياض .

الذي قام بواجبه التاريخي ومهمته الإنسانية ، لهو شعب يستحق الإعجاب والإكرام ، وإن الفضل في هذه النهضة العلمية المجيدة يعود إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، لذلك يجدر بالشعوب المتمدنة أن تعترف بجميله وتحيي ذكراه .

١٠ - وقال الأستاذ « **بورست سميث** » :

إنني مصمم على الاعتقاد أنه سيأتي يوم ، فيه يتفق علية القوم - يعني المسلمين - وزعماء النصرانية الحقة ، على أن محمداً نبي ، وأن الله بعثه حقاً .

١١ - وقال السير وليم سوبر في كتابه « **سيرة محمد صلى الله عليه وسلم** » :

امتاز محمد بوضوح كلامه ويسر دينه ، وأنه أتى من الأعمال ما أدهش الألباب ، ولم يشهد التاريخ مصلحاً أيقظ النفوس ، وأحيا الأخلاق الحسنة ، ورفع شأن الفضيلة في زمن قصير ، كما فعل محمد صلى الله عليه وسلم .

١٢ - وقال الأستاذ الكبير الشجاع المنصف « **خليل إسكندر قبرصي** » :

ناشراً في صحيفة الفتح وغيرها عدة مقالات جمعت في رسالة بعنوان « دعوة نصارى العرب إلى الدخول في الإسلام » ، وقال : **(ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن)**[1] .

إن العرب أول من علم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين ، إنني لا أدعو إلى بدعة مستحدثة ولا إلى ضلالة مستهجنة ، بل إلى دين عربي قويم ، أوحاه الله سبحانه إلى رسوله الكريم محمد صلى الله عليه وسلم ، فكان أميناً على رسالته ، حريصاً على بعث دعوته بين قبائل رحل تلهث بعبادة الأصنام ، فجمع بين صفوفهم بعد أن كانت

---

(١) سورة النحل : الآية ١٢٥ .

مبعثـرة ، ووحد كلمتهم بعد أن كانت متفرقة ، ووجه أنظارهم لعبادة الخالق وحده ، فـكان خير البرية على الإطلاق ، حسباً ونسـباً وزعامة ونبـوة ، هذا النبي الذي اعتنق شريعتـه أربعمـائة مليون مسلم [١] منتشرين في جميـع أنحـاء العالم ، يرتلون قرآناً عربياً مبيناً ، هذا فخر العـرب جميعاً ، وأساس عزهم ومجدهم ومدنيتهم ، هذا الذي امتدت أيدي خلفائه إلى أقصى حدود أوروبا ، فأناروا بحسن عدلهم وأمانتهم وجميل تقواهم ظلماتها ، ومزقوا بنور الفرقان دياجير جهالاتها[٢] .

١٣ - وقـال عبد الله بوركي حلاق ، صاحب ورئيس تحرير مجلة الصفاء السورية قصيدة شعرية بعنوان « إني مسيحي أجل محمداً » :

قبس من الصحراء شعشع نوره — فجلا ظلام الجهـل عن دنيـاه
ومشى وفي أدرانه عبق الهدى — وأريج فضل عطـر الأكوانـا
بعث الشريعة من عميق ضريحها — فرعى الحقوق وفتـح الأذهانا
مـرحى لأمي يعلم سـفره — نبغاء يعرب حكمـة وبيانا
أمحمد والمجـد نسـج يمينه — مجدت في تعليمك الأديانـا
ونشرت ذكر الله في أمـة — وثنيـة ونفحتهـا الإيمانـا
بعث الجهاد لدن بعث وجردت — أسـياف صحبك تقمع الطغيانـا
وتساعد الضعفا وتصفع من بغى — صفحات صـدق تزهق البهتانا
إني مسيحي أجـل محمـداً — وأراه في سـفر العـلا عنوانا
وأطأطيء الرأس الرفيع لذكر من — صاغ الحديث وعلم القرآنـا
إنـي أباهي بالرسـول لأنـه — صقل النفوس وهـذب الوجدانا
صان الفخار البكر ذكر محمد — وهفا[٣] وشنف باسمه الأذانا
إنـا حلفنا أن نصون إخاءنـا — بسياج عـز لن يمس هوانـا
وغداً نزيل العار عن أوطاننا — لنرى الجنوب محرراً وعمانا[٤]

---

(١) هذا العدد كان في زمانه ، أما اليوم فعدد المسلمين تجاوز المليار .

(٢) عبد الفتاح الإمام في تفسيره العصري القديم جـ ٧ .

(٣) أسرع ذكره في الخافقين ، أو ارتفع ذكره وذهب ما ذهب الليل والنهار .

(٤) ا. هـ. من الإسلام والرسول في نظر منصفي الشرق والغرب للمؤلف ، وعنوانه يبين موضوعه .

فصـــــل

أفضل الورى محمد صلى الله عليه وسلم

بما أني قد ذكرت الدلائل الدالة على نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ورسالته العامة إلى جميع الثقلين ، تلك الدلائل المنوعـة من النقليـة والعقلية ، والمعجزات وبشائر التوراة والإنجيل ، وكلام بعض منصفي الغرب ، والأجوبة عن الشبهات حول الرسالة والوحي ، وعموم رسالته إلى غير ذلك مما سبق ذكره ، ناسب هنا أن أذكر بأنه أفضل خلق الله على الإطلاق ، ثم أفردت فصلين مستقلين : الأول : نسخ الدين الإسلامي للأديان السابقة ، والثاني : في أن فصل الدين عن الدولة ، قول مردود .

وهاك النظم بأن النبي صلى الله عليه وسلم أفضل الخلق ثم شرحه :

وأفضـــل الورى بلا امتـــراء   محمـــد رســـول ذي النعمـــاء

اتفقت كلمة أهل الحق ، أن سيدنا محمداً أفضل جميع المخلوقين من الملائـكة والنبيين والمرسـلين ، وإليك بـرهان تفضـيله على ســائر العباد :

١ - أن الله أقسم بحياته صلى الله عليه وسلم في قوله : (**لعمرك إنهم لفي سكـرتهم يعمهـون**)[1] ، والإقسام بحياته يدل على شرف

---

(١) سورة الحجر : الآية ٧٢ .

حياته وعزته عند الله ، وللخالق أن يقسم بما شاء[1] إظهاراً لمقام ذلك المقسم به .

٢ – قوله تعالى : (**إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله**) وفيه من الشرف والتفضيل مالا يخفى ، حيث جعل بيعتهم له كبيعتهم لله تعالى .

٣ – نادى الأنبياء بأسمائهم فقال : (**يا آدم أسكن أنت وزوجك الجنة**) ، (**يا نوح اهبط بسلام منا**) ، (**يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالتي وبكلامي**) ، وقال الله : (**يا يحيى خذ الكتاب بقوة**) وهكذا ، ونادى محمد صلى الله عليه وسلم بالنبوة والرسالة تشريفاً له وتعظيماً وقال : (**يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً**) وقال : (**يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك**) .

٤ – إن الله أثنى على خلقه فقال : (**وإنك لعلى خلق عظيم**) وهذا غاية الثناء والمجد .

٥ – إن الله جل ثناؤه أخبر أنه وملائكته يصلون على النبي صلى الله عليه وسلم ، وأمر المؤمنين بالصلاة والتسليم عليه ، وليس هناك رفعة وشرف فوق هذا .

---

(١) كما أقسم بقوله تعالى : ﴿**والتين والزيتون وطور سنين وهذا البلد الأمين لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم**﴾ لأن في هذه الأمكنة التى أقسم الله بها ، ظهرت النبوات العظيمة من نبوة سيدنا موسى وعيسى ومحمد ﷺ في قوله : ﴿**وهذا البلد الأمين**﴾ كما جاء في التوراة جاء الله من سيناء ، وأشرق من ساعير ، واستعلن من فاران وهي الحجاز .

وأقسم بقوله تعالى : ﴿**والشمس وضحاها ، والقمر إذا تلاها ، والنهار إذا جلاها ، والليل إذا يغشاها**﴾ ، وهناك آيات كثيرة أقسم الله بمخلوقاته إلفاتاً لنظر العباد ، لما في تلك المقسمات بها من آيات دالة على ربوبيته وعظمته ، وعلى ما فيها من المنافع والحكم ، أما المخلوق فليس له أن يقسم بمخلوق ولو كان المحلوف به نبياً أو ملكاً ، كما جاء في الحديث الصحيح : «من حلف بغير الله فقد أشرك» ، فالذين يحلفون بالنبي أو بالكعبة أو بالولي أو بالشرف أو بالآباء مبتدعون ضالون ما لم يعتقدوا تعظيمهم كتعظيم الله ، وإلا فقد كفروا كفراً صريحاً .

٦ - إن الله أخذ الميثاق على النبيين ، آدم فمن بعده أن يؤمنوا به وينصروه ، قال الله تعالى : **(وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ، قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري ، قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين)**[1] ففي هذه الآية من التنويه بمحمد صلى الله عليه وسلم وتعظيم قدره ما ليس وراءه زيادة لمستزيد .

٧ - إن الله جل ثناؤه خصه بخمس لم يعطهن أحداً من خلقه ، تأمل ما رواه جابر عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي ، كان النبي يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى كل أحمر وأسود - وفي رواية وإلى الناس كافة - وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، فأيما رجل أدركته الصلاة فليصل حيث كان ، ونصرت بالرعب مسيرة شهر وأعطيت الشفاعة » . وفي حديث مسلم : « أعطيت ستاً » بزيادة أعطيت جوامع الكلم ، وختم بي النبيون .

٨ - إن معجزة كل نبي انصرمت وانقضت ، ومعجزة سيد الأولين والآخرين وهي القرآن باقية إلى يوم الدين .

٩ - إن الكتب القديمة السالفة حوت من البشائر[2] بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ما لا سبيل لإنكاره .

١٠ - إن الله تعالى[3] علم عباده كيف يخاطبونه في قوله تعالى : **(لاتجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً)** [4] وقد كانوا يخاطبونه بمحمد أو بابن عبد الله ، فنهاهم الله في هذه الآية عن

---

(١) سورة آل عمران : الآية ٨١ .

(٢) قد سبق ذكر تلك البشائر من التوراة والإنجيل وشهادة المنصفين من الغربيين .

(٣) هذه العشرة التي ذكرتها بجعل حديث جابر : (أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي) فضيلة واحدة مع أنها في الحديث خمس أو ست فضائل، وبالتفصيل تكون خمس عشرة فضيلة .

(٤) سورة النور : الآية ٦٣ .

خطابهم السالف ، بل يقولوا : يا رسول الله ، يا نبي الله ، عندما يريدون أن يخاطبوه تشريفاً له وتعظيماً ، بل بلغ من سمو المكانة ورفعة المقام ، أن الله تعالى قال في شأنه : (**يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون**)(١) ، يالها من درجة سامية ومقام عظيم ، حيث أن رفع الصوت على صوته موجب لإحباط الأعمال .

هذا وفضائله وخصائصه كثيرة ، وقد ألف العلماء في ذلك كتباً ، ومن أحسنها وأجمعها الخصائص الكبرى للحافظ السيوطي رحمه الله .

تعقيب على حديث :

وهنا يرد سؤال وهو أنه ورد في الحديث : « لا تفاضلوا بين الأنبياء » ، وفي حديث آخر : « لا يقل عبد أنا خير من يونس بن متى » .

فقد أجاب العلماء بأجوبة عديدة أحسنها : أنه عليه الصلاة والسلام قال ذلك قبل أن يخبره الله بتفضيله ، أو المراد أن لا يفضل تفضيلا يؤدي إلى تنقيص النبي الآخر ، أو يؤدي إلى النزاع والخصومة ، وإلا فدلائل تفضيله كثيرة وواضحة ، ومن ذلك أنه قال عليه الصلاة والسلام كما في رواية مسلم من حديث أبي هريرة : « أنا سيد ولد آدم ، ولا فخر ، وأنا أول من ينشق عنه القبر ، وأنا أول شافع وأول مشفع يوم القيامة » .

وبعده في الفضل أهل العزم   فالرسل ثم الأنبياء بالجزم

ومن بعده في الفضيلة والرفعة أهل العزم من المرسلين ، وهم أولو العزم والثبات والمجد ، وعددهم على المشهور أربع : إبراهيم الخليل وموسى وعيسى ونوح ، قال بعض الفضلاء :

محمد ثم الخليل والكليم   عيسى المسيح ثم نوح يا فهيم

---

(١) سورة الحجرات : الآية ٢ .

وسموا بأهل العزم ، لأنهم اجتهدوا في تأسيس الشرائع ، وصبروا على تحمل المشاق ، وزعمت طائفة بأن جميع الرسل أولو العزم ، ومن بعد هؤلاء في الفضيلة والرتبة بقية المرسلين ، وإن كان بعضهم أعلى درجة من بعض كما في آية : (**تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض**)، ثم سائر النبيين صلوات الله وسلامه عليهم :

ولم يرد في عد الأنبياء   نص صحيح يا أولي الذكاء

قوله ولم يرد في عدد الأنبياء .. إلخ ، بين هنا أن ما اشتهر من أن عدد الأنبياء مائة وأربعة وعشرون ألفاً ، والرسل عددهم ثلاثمائة وثلاثة عشر لم يصح ، وإن كثر في ألسنة المتكلمين والفقهاء معتمدين على رواية ابن حبان من حديث أبي ذر ، قال : دخلت المسجد فإذا رسول الله جالس وحده وفيه قلت : يا رسول الله كم الرسل من ذلك ؟ قال : ثلاثمائة وثلاثة عشر ، ثم ذكر عدد الكتب .. إلخ وقد انتقده الحفاظ ومنهم الولي العراقي ولم يصححوه ، والأسلم الإيمان بالجميع وعدم التعرض للعدد لقوله تعالى : (**منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك وكلم الله موسى تكليماً**)(١) .

---

(١) سورة النساء : الآية ١٦٤ .

نسخ الدين الإسلامي للأديان السابقة

ودينه قد نسخ الأديانا ومن يشك كفره استبانا
ودينه باق إلى القيامة ومن يخالف فانبذن كلامه

تعريف النسخ :

النسخ [١] لغة بمعنى : الإزالة ، ومنه بهذا المعنى نسخت الشمس الظل ، أي أزالته ، ومنه قوله تعالى : (**فينسخ الله ما يلقي الشيطان**) ويأتي بمعنى (النقل) ، ومنه نسخت الكتاب ، أي نقلت ما فيه باللفظ والمعنى نقلا صحيحاً ، ومنه قوله تعالى : (**إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون**) ويأتى بمعنى (التبديل) تقول : نسخ القاضي الحكم أي بدله وغيره ، ونسخ الشارع السورة أو الآية ، أي بدلها بآية أخرى ، ومنه قوله تعالى : (**وإذا بدلنا آية مكان آية**) .

وفي اصطلاح الأصوليين ، رفع الحكم الشرعي [٢] بدليل شرعي

---

(١) قال في شرح الترتيب : الفرق بين النسخ والسلخ والمسخ : إن النسخ نقل اللفظ والمعنى نقلا صحيحاً، وأن السلخ نقل المعنى دون اللفظ، وأن المسخ إفساد اللفظ والمعنى إفساداً كلياً كما في اللؤلؤة .

(٢) فخرج بالشرعي أي المأخوذ من الشرع رفع الإباحة الأصلية المأخوذة من العقل ، وبخطاب الرفع بالموت والجنون والغفلة، فكل ذلك لايسمى نسخاً، لأنه ليس رفع تلك الأمور حاصلا من الخطاب الإلهي .

وهل يدخل النسخ في الأخبار ؟ فالجمهور أن النسخ إنما هو مختص بالأوامر والنواهي، والخبر لا يدخله النسخ ، وقيل إذا تضمن الخبر حكماً شرعياً ، فقد يجوز أن ينسخ كقوله تعالى : ﴿**ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً وحسناً ، إن في ذلك لآية لقوم يعقلون**﴾ قال ابن عباس : نزلت الآية قبل تحريم.

متأخر ، لولاه لكان الأول ثابتاً ، وبذلك نتبين الفرق بين النسخ والتخصيص ، فالنسخ يكون فيه النصان ، الناسخ والمنسوخ غير مقترنين زماناً ، بل يكون الناسخ متأخراً عن المنسوخ .

وإذا عرفت تعريف النسخ لغة واصطلاحاً فمن المهم أن تعرف ما يلي :

أولا : إن الشريعة الإسلامية قد نسخت الشرائع السابقة ، وبيان ذلك مقروناً بالأدلة ، وأن من لم يعتقد نسخ تلك الشرائع السالفة بدين الإسلام فهو كافر .

ثانياً :هل وقع النسخ في الشريعة الإسلامية ؟ وبيان ذلك بالأدلة والأمثلة .

أما الأمثلة ، فإلى القاريء البيان :

الشرائع السماوية كلها متفقة على توحيد الله وإفراده بالعبادة ، والاعتقاد بالملائكة والكتب واليوم الآخر ، ومحاسن الآداب ومكارم الأخلاق ، فلا نسخ في شيء من هذه الأمور ، ولكن النسخ في الشرائع التفصيلية التي تختلف باختلاف الأجيال والأزمان ، حسب تطور البشر وظروفهم وبيئاتهم .

قوله : « وإنه قد نسخ الأديانا » :

كما أن شريعة التوراة نسخت ما قبلها من الأديان ، وشريعة عيسى

=الخمر ، وأراد بالسكر الخمر ، وبالرزق الحسن جميع ما يؤكل ويشرب حلالا منه هاتين الشجرتين ، فعلى هذا أفادت الآية إباحة الخمر ، ثم نسخ إباحتها آيات تحريم الخمر ، وقيل : السكر بمعنى العصر الحلال ، وسمي سكراً لأنه قد يصير سكراً إذا بقي ، وقيل : السكر الخل بلغة الحبشة ، فعلى التفسير الأخير ، لا يستفاد من الآية إباحة الخمر ، ولا نسخ يعتريها ، وتكون آية محكمة ، وهذا القول هو الأرجح ، والله أعلم .

عليه السلام نسخت بعض شريعة التوراة ، فكذلك شريعة محمد نسخت جميع الشرائع الماضية ، فهو خاتم النبيين وليس بعده نبي بإجماع الأمة الإسلامية ، وليس بعده دين ينسخ دين محمد صلى الله عليه وسلم .

قال بعضهم :

وديـنـه لا ينسـخـه دين وهـو لنسـخ غيره قمـين

قال في الجوهرة :

ونـسـخـه لشرع غيره وقـع حتمـاً أذل الله من له منـع

والدليـل على أن دين محمـد صلى الله عليه وسلم نسخ الأديان السابقة كما في قوله تعالى : (**إن الدين عند الله الإسلام**) .

وقوله تعالى : (**ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين**) .

ودعوة القرآن اليهود والنصارى وسائر الملل إلى الدخول في دين الإسـلام كقوله تعالى : (**قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم**)الآية[1] .

إنـكار اليهود للنسخ وإبطال شبهاتهم :

حيث أن اليهـود مرنت طبـائعهم على القسـوة والعنـاد ، وعدم الانصياع إلى الحق ولو كان أجلى من الشمس في رائعة النهار إلا القليل ممن هداه الله ، والدليل على ذلك ما قصه الله علينا من بيان موقفهم

(١) سيأتي مزيد من الأدلـة من حيث عموم رسالته لجميع الخلق ، لا فرق بين اليهود والنصاري ولا غيرهم ، لأنه إذا كانت رسالته عامة فمعناها أن دين اليهود والنصارى منسوخ ، وعليهم محتم أن يؤمنوا بمحمد ﷺ ويمتثلوا أوامره وينتهوا عن نواهيه .

من أنبيـائهم وأعـظمهم موسى عليه السلام ، ذلك الموقف السافر عن عنادهم أمام الحق ، واستكبارهم وغلظة طبائعهم مع ظهور المعجزات الواضحة من موسى عليه السلام ، المؤيدة لنبوته ورسالته كقلب العصا حيـة ، وإغراق فرعون ، ومن عنادهم وجحدهم للحق أنهم كانوا إذا حاربتهم العرب قبل مجيء الرسول ، يستنصرون بمجيئه على أعدائهم المشركين ، يقولون : إنه سيبعث نبي في آخر الزمان ، نقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فعن ابن عباس : أن اليهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله قبل بعثه ، فلما بعثه الله من العرب كفروا وجحدوا ما كانوا يقولون فيه ، فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء بن معرور وداود بن سلمـة : يا معشر اليهـود : اتقـوا الله وأسلموا ، فقد كنتم تستفتحـون علينـا بمحمـد صلى الله عليـه وسلم ونحن أهل شرك ، وتخبـروننـا بأنـه هو المبعـوث ، وتصفونه بصفته ، فقال سلام بن مشكم ، أخو بني النضير ، ما جاءنا بشيء نعرفه ، وما هو بالذي نذكره لكم ، قال الله : (**ولمـا جـاءهم**) جاء اليهود (**كتاب من عند الله مصدق لما معهم**) يعني من التوراة (**وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفـروا**) يعني مشركي العرب (**فلما جاءهم ما عرفوا**) وهو محمد (**كفروا به**) فلعنة الله على الكافرين .

ولما كان اليهود مجبولين على العناد والجحد وعدم الاعتراف بالحق ـ إلا من قلَّ منهم ممن أراد الله له الهداية ـ وقفوا تجاه رسول الله صلى الله عليه وسلم موقف العناد والاستكبار ، بعد أن كانوا يستفتحون به ويصفـونـه للأوس والخـزرج ، وحينمـا أرادوا أن يؤيـدوا موقفهم الاستكبـاري ، زعموا أنهم شعب الله المختار ، وأن شريعة موسى هي الشريعة المؤبدة في زعمهم ، فلذا حاولوا أن يعززوا هذا الزعم السخيف بإنكار النسخ ، ويحتجوا بذلك للبقـاء على دينهم والتمسك به ، وعـدم

الاعتراف بدين الإسلام ، وبرسالة محمد عليه أفضل الصلاة والسلام .

فقالوا : إن نسخ الدين على الله محال ، ولكن اختلفوا إلى ثلاث فرق ، بعد أن اتفقوا على شيء واحد ، وهو أن الشريعة الإسلامية لم تنسخ شريعتهم :

الفرقة الأولى : وتعرف بالشمعونية ، نسبة إلى شمعون بن يعقوب :

الشبهة الأولى للشمعونية وردها :

ادعت هذه الفرقة أن النسخ لا يجوز عقلا ولم يقع سمعاً .. قال العلامة ابن حزم رحمه الله : وعمدة حجة من أبطل النسخ أن قالوا : إن الله يستحيل منه أن يأمر به ثم ينهى عنه .

ولو كان كذلك لعاد الحق باطلا ، والطاعة معصية ، والباطل حقاً ، والمعصية طاعة .

وأجاب أن من تدبر أفعال الله كلها ، وجميع أحكامه وآثاره ، يتيقن بطلان قولهم ، ومما يبطل قولهم :

١ - إن الله يحيي ويميت ، ويعز ويذل ، وينقل الدولة من قوم ويمنحها آخرين ، فهل يقول عاقل : إن هذا لا يجوز على الله ؟

٢ - قال : ما تقولون فيمن كان قبلكم من الأمم المقبول دخولها فيكم إذا غزوكم ؟ ، أليست دماؤهم لكم حلالا ، وقتلهم حقاً وفرضاً وطاعة ؟ ، ولابد من الإجابة بنعم ، فإن دخلوا في شريعتكم ، أليست قد حرمت دماؤهم ، وصار عندكم قتلهم حراماً وباطلا ومعصية ، بعد أن كان فرضاً وحقاً وطاعة ، فلابد من الإجابة بنعم ، يقال لهم : أما انقلب الحرام حلالاً حينئذ والطاعة معصية وبالعكس ؟

٣ - إنهم إن عدوا في السبت وعملوا ، أليس قد عاد قتلهم فرضاً بعد أن كان حراماً ؟ ولابد من جوابهم بنعم ، فإذا كان الجواب بنعم ،

كان إقراراً ظاهراً ببطلان قولهم ، وإثبات ما سجلوه من الإنكار بأن الحق يعود باطلا ، والأمر يعود نهياً ، والطاعة تصبح معصية .

٤ - هكذا القول في جميع شرائعهم ، لأن ما هي أوامر في وقت محدود بعمل محدود ، فإذا خرج ذلك الوقت عاد ذلك الأمر نهياً عنه ، كالعمل مباح عندهم في الجمعة محرم يوم السبت ، ثم يعود مباحاً يوم الأحد ، وكالصيام والقرابين ، وسائر الشرائع كلها ، وهذا بعينه هو نسخ الشرائع الذي أبوه وامتنعوا منه ، إذ ليس معنى النسخ إلا أن يأمر الله بعمل ما مدة ، ثم ينهى عنه بعد انقضاء تلك المدة ، ولا فرق في شيء من العقول بين أن يعرف الله ويخبر عباده بمايريد أن يأمرهم قبل أن يأمرهم به ، ثم بأن ينهى عنه بعد ذلك ، وبين أن لا يعرفهم به ، إذ ليس عليه شرط أن يعرف عباده بما يريد أن يأمرهم قبل أن يأتي الوقت الذي يريد إلزامهم فيه الشريعة[1] .

٥ - ممـا يبطل شبهتهم ، أننا وإياهم متفقون على أنه كان في شريعة آدم عليه السلام مباح أن يتزوج الأخ أخته ، ثم حرم بعد ذلك .

٦ - جاء في توراتهم : أن الله قال لنوح عليه السلام عند خروجه من السفينة : أني جعلت كل دابة مأكلاً لك ولذريتك ، وأطلقت ذلك لكم في النبات والعشب ما خلا الدم فلا تأكلوه ، ثم قد حرم على موسى وعلى بني إسرائيل كثيراً من الحيوان .

٧ - إننا وإياهم قد اتفقنا على أن الله أمر الخليل بذبح ابنه ، وإن اختلفنا في تعيينه ، هل هو إسماعيل أو إسحاق ؟ قالت اليهود : إن الذبيح إسحاق ، وقال جمهور المسلمين : إنه إسماعيل وهو الصحيح ، ثم نسخ ذلك بأن يذبح كبشاً فداء عن ابنه ، كما قال الله : (**وفديناه بذبح عظيم**) .

---

(١) من الفصل بتوضيح وتصرف .

٨ – أمر الله بني إسرائيل أن يقتلوا من عبد منهم العجل ، ثم أمرهم برفع السيف عنهم بعد أن قتلوا ألوفاً .

٩ – قد اتفقنا وإياهم أن شريعة يعقوب عليه السلام كانت غير شريعة موسى ، وأن يعقوب عليه السلام تزوج ليسا وراحيل ابنتي لابان وجمعهمامعاً ، وهذا حرام في شريعة موسى .

١٠ – وفي توراتهم البداء الذي هو أشد من النسخ ، وذلك فيما قال الله لموسى : سأهلك هذه الأمة ، وأقدمك على أمة أخرى عظيمة ، فلم يزل موسى يرغب إلى الله في أن لا يفعل ذلك حتى أجابه ، وأمسك عنهم ، وهذا هو البداء بعينه والكذب المنفيان عن الله ، لأنه سيهلكهم ويقدمه على غيرهم ، ثم لم يفعل .

الشبهة الثانية للشمعونية وردها :

قالوا : لو جاز النسخ على الله عز وجل ، لكان إما : لحكمة ظهرت له بعد أن لم تكن ظاهرة ، أو لغير حكمة ، وكلا الأمرين باطل ، لأن الأول بداء ، والثاني عبث ، والبداء والعبث لا يجوزان على الله سبحانه ، إذ كل منهما نقص ينزه الله عن أن يوصف به .

نقول : إنهم لم يستوفوا جميع الاحتمالات بترديدهم هذا ، ولو أنهم أرادوا أن يستوفوها ، لوجب أن يقولوا : النسخ إما أن يكون لحكمة ظهرت لله كانت خافية عليه ، أو لحكمة كانت معلومة لله ولم تكن خافية عليه ، أو لغير حكمة ، وإذن لوجدوا في الاحتمال الثاني مساغاً للنسخ ، دون أن يستلزم بداء وعبثاً ، وبيان هذا : أنه مادام قد أمكن بناء النسخ على احتمال لا يأباه العقل ، فمن الخطأ الحكم باستحالته عقلا ، وما في النسخ من جديد على هذا ، إنما يعتبر جديداً بالنسبة لنا نحن ، أما بالنسبة لله عز وجل فقد سبق به علمه ، ثم جاء النسخ تحقيقاً لهذا العلم ، ولا اعتراض عليه .

الفرقة الثانية : العنانية ، نسبة إلى عنان بن داؤود[1] :

ترى أنه لا بأس بالنسخ في حكم العقل ، ولكنه لم يقع .

والجواب : أننا قد أريناك أيها القاريء إبطال شبه الشمعونية ، وإثبات جواز النسخ عقلاً ووقوعه نقلا ، وهذه الأجوبة كما أبطلت مذهب الشمعونية الذي هو أوغل في بطلان دعوى النسخ ، فقد أبطلت أيضاً شبهة العنانية .

الفرقة الثالثة : العيسوية ، نسبة إلى ابن عيسى الأصفهاني :

وتعرف باسم العيسوية ، نسبة إلى ابن عيسى[2] إسحاق بن يعقوب الأصفهاني ، ذهبت هذه الفرقة إلى أن النسخ جائز في حكم العقل ،

---

(١) قال الشهرستاني : يخالفون سائر اليهود في السبت والأعياد ، ويقتصرون على أكل الطير والظباء والسمك ، ويصدقون عيسى عليه السلام في مواعظه وإرشاداته ، ويقولون : إنه لم يخالف التوراة البتة ، بل قررها ودعا الناس إليها ، وهو من بني إسرائيل المتعبدين بالتوراة ، ومن المستجيبين لموسى عليه السلام، إلا أنهم لا يقولون بنبوته ورسالته ، ومن هؤلاء من يقول : إن عيسى عليه السلام لم يدع أنه نبي مرسل ، وأنه صاحب شريعة ناسخة لشريعة موسى، بل هو من أولياء الله المخلصين والعارفين أحكام التوراة، والإنجيل ليس كتاباً منزلا عليه ، بل فيه جميع أحواله من مبدئه إلى كماله ، وإنما جمعه أربعة من أصحاب الحواريين ، فكيف يكون كتاباً منزلا ؟ من الملل والنحل للشهرستاني الجزء الثاني .

(٢) كان في زمن المنصور ، وابتدأ دعوته في زمن آخر ملوك بني أمية ، فاتبعه كثير من اليهود وادعوا له آيات ومعجزات ، ولما حارب المنصور أصحاب هذا الرأي قتل وقتل أصحابه ، وكان يزعم أنه نبيٌّ وأنه رسول النبي المنتظر ، وأن المسيح أفضل ولد آدم ، وأنه أعلى منزلة من الأنبياء الماضين ، ولما خالف اليهود في هذا ، خالفهم في كثير من أحكام التوراة ، وكان يوجب تصديق المسيح ، وحرم في كتابه الذبائح كلها ، ونهى عن أكل ذي روح على الإطلاق ، طيراً كان أو بهيمة ، وأوجب عشرة صلوات ، وأمر أصحابه بإقامتها وذكر أوقاتها .

وأنه قد وقع فعلا ، لكنها تمنع أن تكون شريعة محمد ناسخة لشريعة موسى عليه السلام ، وتزعم أن رسالة محمد إلى العرب خاصة ،ولم تكن عامة إلى جميع الناس .

الجواب : أن يقال لهم : إذا صدقتم الكافة في نقل القرآن عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي نقل معجزاته ، وصدقتم بأنه نبي مرسل ، فقد لزمكم الانقياد لما في القرآن من أنه عليه الصلاة والسلام بعث إلى الناس كافة ، والدليل من القرآن قوله تعالى أمراً لرسوله أن يقول : (**قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السموات والأرض**)[1] . فالناس شامل للعرب ولغيرهم من الأمم ، وزاده تأكيداً بالأمر الصادر من الله مخاطباً لجميع العباد بقوله : (**فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي**)[2] ، ثم جاء الأمر الثاني فقال : (**واتبعوه لعلكم تهتدون**) [3] وقال الله تعالى : (**تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً**) [4] وقال الله تعالى : (**وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**)[5]فكلمة العالمين تشمل الإنس والجن .

وقال جمع من محققي الشافعية : وإلى الملائكة تشريفاً وتكريماً لهم ، وقال الله تعالى : (**ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه**)[6]. فكل من لم يؤمن بالرسول صلى الله عليه وسلم فهو كافر غير مسلم ، وسيأتي في بحث إثبات نبوته ورسالته صلى الله عليه وسلم مزيد بيان لعموم رسالته عليه الصلاة والسلام .

وإذ بينا نسخ الشريعة الإسلامية للشرائع السابقة ، ودحضنا شبهات اليهود القائلين بعدم النسخ ، فهاك المبحث الثاني .

(١ ، ٢ ، ٣) سورة الأعراف : الآية ١٥٨ .

(٤) سورة الفرقان : الآية ١ .

(٥) سورة الأنبياء : الآية ١٠٧ .

(٦) سورة آل عمران : الآية ٨٥ .

هل وقع النسخ في الشريعة الإسلامية ؟

نعم وقع النسخ[1] ، وإليك البيان :

الدليل من القرآن : قوله تعالى : (**ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ، ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير**)(٢) .

أي مانبدل من حكم آية فنغيره ، أو نترك تبديله فنقره بحاله ، نأت بخير لكم منها أيها المؤمنون ، في العاجل أو الآجل ، إما برفع مشقة عنكم ، أو بزيادة الأجر لكم والثواب ، أو بمثلها في الفائدة للعباد ، ألم تعلموا أن الله عليم حكيم قدير ، لا يصدر منه إلا كل خير وإحسان ، وأنه جل وعلا شرع هذه الملة الحنيفية السمحة ، ليرفع عن عباده الأغلال والآصار ، فلا تظنوا أن تبديله للأحكام لعجز في القدرة ، أو جهل في المصلحة ، وإنما تغييرها يرجع إلى منفعة العباد ، فهو المالك المتصرف في شؤون الخلق ، يحكم بما شاء ويأمر بما شاء ، ويبدل وينسخ الأحكام حسب ما يريد[3]، ومن هنا تعرف الحكمة في النسخ

---

(١) أجمع المسلمون على وقوع النسخ في بعض أحكام الشريعة ، ولم يخالف في ذلك إلا أبو مسلم الأصفهاني ، قائلا : إن جميع ما ذكر من النسخ ، فالمراد نسخ شرائع الأنبياء المتقدمين ، واحتج لقوله بقوله تعالى : ﴿**لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد**﴾ فلو وقع النسخ لكان قد أتاه الباطل .

والجواب : المعنى أن هذا الكتاب لا يتطرق إليه تحريف ولا تبديل ، ولا يكون فيه تناقض ولا اختلاف ، قال تعالى : ﴿**لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً**﴾ . والمقصود من الآية ، أن الله تعالى حفظ كتابه العظيم من أيدي العابثين من تبديل كلمة ، وأولى أن لا يحصل التبديل في آية ، أو تحريف في معناها ، وعلى فرض أن يحصل ، فسرعان ما يفتضح الفاعل ، فتنكشف سوأته ، ومن حفظ الله لهذا القرآن وإعجازه ، أنه لو زيد كلمة في آية من الآيات ، أو حذف منها فسرعان ما يتنبه القاريء ، ويعرف أن هذا زيادة لا تناسب سياق الآية ، وليست لها بلاغة القرآن .

(٢) سورة البقرة : الآية ١٠٦ .

(٣) ولتوضيح ذلك للقاريء : كان في زمن آدم لقلة عدد البشر الناتجين من صلبه ، كانت المصلحة تقتضي إباحة زواج الأخت لأخيها ، وعندما رست السفينة على

الواقع في الشريعة الإسلامية ، وهي أنه تعالى قد يشرع لعباده شيئاً يكون فيه مصلحة لوقت ما ، ثم ينهى عنه لما يرى فيه من الخير لهم ، لأنه أعلم بمصالح عباده ، ولا عيب في ذلك ، ولا ينسب بالنسخ جهل لله تعالى ، لأن الله يعلم ما كان وما يكون ، وقد خلق عباده ، ويعلم ما جبلوا عليه ، ويعلم دخائل أنفسهم ، فأنزل الشريعة مبنية على جلب المصالح للعباد ، ودرء المفاسد ، فما يصلح لزمن بالنسبة لأمة من الأمم ، قد لا يصلح لأمة أخرى بعد ذلك الزمن .

ومن الجدير أن تعرف أن الشرائع السماوية كلها أتت لإصلاح البشر ، وهي واحدة في أصولها لا تتعدد كما قال الله تعالى : **(شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه)** [1] .

وإنما النسخ في الأمور التي تختلف فيها الأجيال الإنسانية حسب البيئات والأزمنة والتطورات البشرية ، لأن البشر في أوائله يعتبر كالطفل ، وكل ما مضت قرون نما وتطور كالطفل الذي ينمو بمرور الأيام ويكبر ، فما يصلح للطفل لا يصلح للصبي ، وما يصلح للصبي لا يصلح للبالغ الكامل لنضوج عقله واكتمال قواه .

الحكمة في وقوع النسخ :

ولذا كانت الشرائع السابقة تأتي كعلاج مؤقت حسب ما تقتضيه المصلحة ، وتناسب طبائعهم وعقولهم ، وحينما وصل البشر منتهاه ، واكتمل نضجه ، وصار فيه استعداد مؤهل للتفهم والعلم والإدراك أكثر من قبل ، جاءت الشريعة الإسلامية شاملة لكل ما يحتاجه البشر ، وبكل

الجودي ، وخرج نوح ومن معه ، وكان على ما يقال عددهم اثنان وسبعون من الرجال والنساء ، ولعدم استعدادهم ومعرفتهم وتسهيلا لهم ، أباح الله لهم كل شيء إلا الدم ، وهكذا كلما تطور البشر وتقدموا ، جاءت الشرائع بما يناسب حالهم ، ويجلب لهم المصالح ويدريء عنهم المفاسد .

(١) سورة الشورى : الآية ١٣ .

ما يسعدهم في دنياهم وأخراهم ، ناسخة لما قبلها من الشرائع ، باقية ما بقيت الدنيا ، لأنها أتت بتشريعات صالحة لكل زمن وجيل وقبيل ، ولكل أمة من الأمم ، وإذا كانت الشريعة الإسلامية شريعة خالدة جامعة وشاملة ، فلا شريعة بعدها ، لأن الله تعالى ختم بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم النبيين ، وبشريعته ختم الشرائع ، ومن باب أولى أن لا حاجة للأمة الإسلامية بالقوانين الوضعية ، لأنها زبالة أفكار بني الإنسان ، وقابلة للتغيير والتبديل في كل زمان ومكان .

ولا بأس أن أتحف القارىء حكمة أخرى لوقوع النسخ في شريعتنا الغراء : أن النبي صلى الله عليه وسلم بعثه الله تعالى في قوم لم يكونوا ذوي دين ، ولم يتقيدوا من قبله بقانون ولا نظام ، فلو خوطبوا بالأحكام الشرعية دفعة واحدة ما أطاقوها ، ولذلك أخذهم الله سبحانه وتعالى بالتدريج ، فنزل على الرسول من الأحكام ما يطيقون .. حتى إذا ذاقوا حلاوة الإسلام والإيمان ، وراضوا أنفسهم على أخلاقه الفاضلة ، خوطبوا بأحكام الشريعة الخالدة .

أمثلة وقوع النسخ من الكتاب والسنة :

ولا بأس ببيان بعض الأمثال حتى يتضح للقارىء وضوحاً لا يتسرب إليه شك ولا إشكال :

١ - إن الميراث في الجاهلية لم يكن يسير على نظام محكم ثابت ، فقد كان أكبر الأولاد يأخذ التركة ، وأحياناً يوصي بها لمن يشاء ، والمرأة في كل الأحوال ليس لها نصيب ، فأوجب أولا أن تكون الوصية للوالدين والأقربين من غير تعيين ، حتى إذا ألفوا ذلك جاءت آية الميراث المحكمة ، ووزعت التركة بأحكام الفرائض ذلك التوزيع العادل (**للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون**)[1] وجعل لقرابة الأم ميراثاً ، كما لقرابة الأب ميراثاً ، وإن كانت قرابة الأب تأخذ قدراً أكبر .

(١) سورة النساء : الآية ٧ .

٢ – فرض الله صيام رمضان ، ولكن جعله مخيراً بين أمرين ، إما أن يصــوم ، وإما أن يدفع فدية طعام مسكين ، قال تعالى : **(وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين)** ، فلما امتثلوا أمر الله ورسوله وصاموا وتمرنت نفوسهم على الصوم نسخ التخيير بقوله تعالى : **(فمن شهد منكم الشهر فليصمه)** ووجب الصوم على كل مسلم مكلف ، وما قلناه من التخيير هذا هو رأي الأكثرين ، كما روى البخارى عن سلمة ابن الأكوع .

٣ – كان العرب مولعين بشرب الخمر ولعب الميسر ، ويتفاخرون بهما ، وقد نشأوا عليهما خلفاً عن سلف ، شب عليهما الصغير ، وهرم عليهما الكبير ، ورسخا في طبائعهم ، حتى أصبحا كالصفة اللازمة لهم ، فلهـذه الأسبـاب ، لم يحرمها الإسلام دفعة واحدة لئلا ينفروا ، بل أخـذهم على سنـة التـدريـج ، فنـزلت الآية أولا من سورة البقرة : **(يسـألونـك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما)**[1] ، ومن هذه الآية التي تقول ما كان ضرره أكثـر من نفعه ينبغي اجتنابه ، ترك شرب الخمر ولعب الميسر بعض الصحابة ، ثم دعا عبد الرحمن بن عوف أناساً منهم فشربوا وسكروا ، فقام بعضهم يصلي فقرأ : **(قل يا أيها الكافرون ، أعبد ما تعبدون)** فنـزلت : **(لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى)** فقل من شربها ، ثم اجتمـع قوم من الأنصــار ومنهم سعد بن أبي وقاص ، فلما سكروا افتخـروا وتنـاشـدوا الأشعـار ، حتى أنشـد سعـد شعراً فيه هجاء للأنصار ، فضربه أنصاري بلحى بعير فشجه شجة موضحة ، فشكا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عمر : اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافيـاً فنـزل : **(إنما الخمر والميسر)**إلى قوله تعالى : **(فهل أنتم منتهون)** فقال عمر : انتهينا يارب .

٤ – فرض الله الجهاد ، وأوجب أن يقابل كل عشرين من المؤمنين مائتـين من الكـافـرين ، أي واحـد مقابل عشرة ، ويثبتوا أمامهم في

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢١٩ .

الجهاد ، فلما امتثلوا وجاهدوا ، نسخ الله ذلك بأن يقابل كل مائة من المسلمين مائتين من الكافرين ، أي واحد باثنين ، قال تعالى : (**إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين**) الآية ، ثم قال : (**الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً ، فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين**) .

٥ - قال الله تعالى : (**والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً**[١] **وصية لأزواجهم متاعاً إلى الحول غير إخراج فإن خرجن فلا جناح عليكم في ما فعلن في أنفسهن من معروف والله عزيز حكيم**)[٢] فقد ذكر علماء التفسير : أن أهل الجاهلية كانوا إذا مات أحدهم ، مكثت زوجته في بيته حولا ينفق عليها من ميراثه ، ثم جاء الإسلام فأقرهم على ماكانوا عليه من مكث الحول بهذه الآية ، ثم نسخ ذلك بالآية التي قبلها بآيات ، وهي قوله تعالى : (**والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً**) فصارت عدة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشرة أيام بعد أن كانت عدتها سنة .

٦ - لما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة صلى متوجهاً إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر ، ثم نزلت الآيات من سورة البقرة آمرة بالتوجه إلى الكعبة المشرفة ، وناسخة ما سبق ،

---

(١) روى البخاري عن ابن الزبير قال : قلت لعثمان بن عفان ﴿والذين يتوفون منهم ويذرون أزواجاً﴾ الآية قد نسختها الآية الأخرى ، فلم تكتبها أو تدعها قال : يا ابن أخي لا أغير شيئاً منه من مكانه .

وقال الحافظ ابن كثير ، معنى هذا الإشكال الذي قاله ابن الزبير لعثمان بن عفان ، إذا كان حكمها قد نسخ بالأربعة أشهر ، فما الحكمة في إبقاء رسمها مع زوال حكمها ، وبقاء رسمها بعد التي نسخها ألا يوهم بقاء حكمها ؟ فأجابه أمير المؤمنين : بأن هذا أمر توقيفي ، وأنا وجدتها مثبتة في المصحف كذلك بعدها ، فأثبتها حيث وجدتها ، والقول بأن هذه الآية منسوخة بالآية التي قبلها بآيات هو قول الجمهور ، ومن السلف من ذهب إلى أنها ليست منسوخة وإنما خص من الحول بعضه ، وبقى البعض وصية لها إن شاءت أقامت .

(٢) سورة البقرة : الآية ٢٤٠ .

قال الله تعالى : (**قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها ، فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره وإن الذين أتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون**)(١) ، (**ومن حيث خرجت فولّ وجهك شطر المسجد الحرام وإنه للحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون**)(٢).

٧ – جاء في الحديث الشريف عن النبي صلى الله عليه وسلم : كنت نهيتكم عن زيارة القبور ، ألا فزوروها ، فإنها تذكر الآخرة ، فقد حرم النبي أول الإسلام زيارة القبور ، لأن الناس كانوا حديثي عهد بالشرك والتعلق بالأنبياء والصالحين ، فلما استنارت قلوبهم بالإيمان ، ورسخ التوحيد في الجنان ، أذن لهم في زيارة القبور ، ناسخاً ذلك التحريم السابق بالإذن اللاحق .

وبحث النسخ وما منه من أقسام وخلاف ، قد تكفلت به كتب الأصول ، وإنما ذكرت للقاريء نموذجاً ليعلم أن النسخ قد وقع في الشريعة ولا عيب في ذلك ، لأن الشريعة مبنية على جلب المصالح ودرء المفاسد .

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٤٤ .

(٢) سورة البقرة : الآية ١٤٩ .

فصل الدين عن الدولة قول مردود

وجـاءهم للدين والدنيـا معـاً فدين الإســلام لذين جمعـا

الشــرح :

الإسلام في اللغة : الطاعة والإذعان : وينقسم إلى قسمين :

١ - الإسلام الكوني ، ومعناه أن العالم بما فيه بأجمعه خاضع لله ، مسخـر بإرادتـه وقدرته كما قال الله تعالى : (**وله أسلم من في الأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون**)[١] ، أي خضع لأمر الله وأطاع لما وضع في العالم من القوانين .

٢ - والإسلام الشرعي ، معناه : توحيد الله ، والاستسلام والانقياد لله طوعاً ولرسوله ، وهو بهذا المعنى دين جميع الأنبياء والمرسلين ، وهو الاسم الذي عرف به الدين الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، ولم تـكن هذه التسمية عن اجتهاد من الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، وإنما كانت من الله كما قال الله : (**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً**)[٢] .

وبعدما جاء الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا الدين الحنيف ، أصبـح لا يطلق دين الإسلام إلا على ما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام ، فالمسلم يجتمع فيه الإسلامان ، الكوني والشرعي ، والكافر فيه الإسلام الكوني فقط ، والـكلام على الإسلام والإيمان سبق مفصلا

---

(١) سورة آل عمران : الآية ٨٣ .

(٢) سورة المائدة : الآية ٣ .

في الجزء الأول من الكتاب ، والقصد هنا ، بيان أن الإسلام أتى بكل ما يحتاج إليه البشر ، فهو شامل للعقائد والعبادات والأخلاق والمعاملات والجنايات وفصل الخصومات وإقامة الدولة العادلة ، وبالإجمال هو النظام العام الشامل لأمور الحياة كلها ، ومناهج السلوك الإنساني التي أوحى الله بها إلى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وعلى هذا كان الإسلام عقيدة وشريعة ومنهج حياة .

فالعقيدة : هي توحيد الله في الذات والأفعال والصفات وإفراده بالعبادة ، فالمؤمن يوحد الله ، ويفرده بالعبادة ، ويؤمن بالأنبياء والكتب والرسل واليوم الآخر والقضاء والقدر ، والقرآن مملوء بذكر التوحيد والإيمان به وباليوم الآخر وسائر الأصول الإيمانية ، وقد شغل التوحيد في السور المكية حيزاً كبيراً ، وركزت كثيراً على توحيده تعالى والإيمان بالبعث والرسل .

أما الشريعة : فهي طريق العابد الذي يسلكه إلى ربه كما رسمه القرآن والسنة ، لا يرتد عنه ولا يخالف إلى طريق غيره ، وتشمل جميع شؤون الحياة وسلوك الإنسان ، محققة ما ينفعهم في حياتهم ، ويحفظهم من الفساد والفوضى في دنياهم ، فإذا كانت شاملة لجميع شؤون الحياة ، فمن هنا نفهم أنها لم تأت للعبادات والأخلاق فقط ، بل كما أتت لهذين ، جاءت تنظم أمور الفرد مع الفرد ومع الجماعة ومع الحاكم ، والحاكم مع الرعية ، فلذا ترى القرآن والسنة كما أتيا بالعقائد ، شرعا لنا العبادات والأخلاق ، وشرعا لنا نظام المعاملات .

وعلى ما قلناه من كون الدين شاملا لجميع نواحي الحياة الإنسانية والمعادية ، اتفق جميع المسلمين سلفاً وخلفاً بالرغم من تعدد المذاهب فيه ، وعلى هذا جرى المسلمون ، ولم يقل أحد منهم أن الدين لا شغل له في الحياة ، وأنه منحصر في العبادات والأخلاق ، حتى جاء الغرب بغزوه الفكري غازياً الشرق الإسلامي بالمباديء الهدامة والأفكار المنافية لدين الإسلام ، بقصد إضعاف المسلمين وتشتيتهم وإضعاف الثقة بدينهم ، وبالتالي الاستيلاء عليهم ونهب خيراتهم وأموالهم

واستعبـادهم ، فعل ذلك بعد أن فشل في الحروب الصليبية وغيرها ، وعرف أن إعلان الحرب على المسلمين لا يجدي شيئاً ، بل يزيدهم قوة ووحدة وتمسكاً بالدين ، فلذا لجأ إلى هذا الغزو اللعين ، وأنجب من الشرق تلاميذ درسوا في مدارس الغرب ، ونهلوا من ثقافتهم ، وتشبعوا بأفكـارهم المسمومة ، فرجعوا دعاة مبشرين لكل ما ينعق به الغرب ، معززين ذلك بحضارة الغرب واختراعاته الصناعية وكشوفاته العلمية ، وأن المسلمين إذا أرادوا التقدم ، فعليهم بتقليد الغربيين والتبعية لهم .

شبهة القائلين بفصل الدين عن الدولة وردها :

فمن تلك الأفكار التي صدرها الغرب إلى الشرق بشتى الوسائل من كتب وصحف ونشرات ومبشرين وتلاميذ أخلصوا لأسيادهم الغربيين ، وهي في نفس الوقت تأتي على الدين من قواعده ، وتفصل المسلم عن إيمانه وتبعده عن إسلامه وقرآنه ، مبدأ فصل الدين عن الحياة عموماً وعن السياسة خصوصاً ، وأنه لا علاقة له بالمجتمع ، بل علاقته مع الخالق ، ووظيفته التمسك والزهد وحصره في المساجد والزوايا ، فراجت هذه الفكرة الكافرة على الشرق الإسلامي إلا من عصمه الله ، ونفذها أذنـاب الغربيين ممن لا يعرف لحقيقة الدين الإسلامي سبيلا ، ولم يدرس محاسنه ، ولم يدقق النظر في سيرة الرسول وخلفائه وسائر من أتى من بعدهم ، وتأثر كثير من الحكام والزعماء بهذا الفكر الخاطيء ، فأقصـوا أحكـام الكتـاب والسنة ، وأتوا بالقوانين الغربية والشرقية ، وحبذها لهم شياطين الغرب والشرق وأذنابهم ممن تسموا بالإسلام ، والإسلام منهم بريء كبراءة الذئب من دم يوسف ، بشبهة أن أوروبا لما كانت متقيدة بأوامر الدين لم يحصل لها تقدم ورقي وحضارة ، بل كانت تتخبط في ظلمات الجهل ، وترتمي في أحضان الفقر ، ولما فصلت الدين عن الدولة ، بلغت من المجـد الدنيوي والحضارة الراقية ما لا يختلف فيه اثنان ، لأن الدولة تريد أن تكون متقدمة متطورة ، تساير تطور الفكـر الإنسـاني ، والدين لا يسمـح بذلك ، لأن مبادءه ثابتة لا تتطور ولا تتغير .

الجواب : إن الدين الذي وصفتموه بالجمود وعدم التطور ، ليس هو دين الإسلام ، ذلك هو الدين المسيحي ، دين القسس والرهبان ورجال الكنائس وعباد الصلبان ، ذلك الدين الذي من أسسه « أعط لله ما لله وأعط لقيصر ما لقيصر » ، ذلك الدين الذي ليس له تدخل في شؤون الدولة ، ولا عناية بقضايا الحكم والإدارة ، ولكن رجال الدين المسيحي بمرور القرون والأزمنة ، أخذوا يتدخلون في شؤون الممالك ، ويتحكمون في الملوك والشعوب ، حتى أصبح رجال الدين طبقة لها محاكمها الخاصة وسجونها الخاصة ، وبذلك أصبحت الكنيسة دولة في دولة ، وكم أعلن رجال الكنائس الحروب الشعواء على المصلحين من المسيحيين أنفسهم ، وجرت أنهار الدماء من جراء أحكام البابوات والقسس ضد كل من لا يأخذ برأيهم ولا ينقاد لأوامرهم ، وكم طاردت الكنيسة رجال الفكر والعلم ، وأحرقت كتبهم وصادرتها حتى لا يطلع الناس على ما فيها من آراء تحرمها الكنيسة .

ومن جراء ذلك انفجر بركان الغضب أولا من الملوك ، ثم سائر الشعوب ، لاسيما ذوي الأقلام والأفكار ، حتى أنهم فصلوا الدين عن السياسة ،وحصروا سلطة رجال الكنائس على كنائسهم وأتباعهم ، لا علاقة لهم بالدولة وشؤونها ، ولم يحصل ذلك إلا بعد حروب دامية ، ونحن نسأل هؤلاء الذين يحبذون فكرة الفصل ، أعني فصل الدين عن الدولة ، هل جاء دين الإسلام بما جاء به الدين المسيحي ؟ هل قال الإسلام أعطوا ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله ؟ لا لم يقل بل قال الله مخاطباً نبيه صلى الله عليه وسلم (**وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم ، وإن كثيراً من الناس لفاسقون**)[1] .

هل في دين الإسلام رجال دينٍ يتحكمون في الناس ، ويريدون السيطرة على الملوك وعلى العباد ، ويزعمون بأنهم وسطاء بين الله وبين خلقه ، وأن

---

(١) سورة المائدة : الآية ٤٩ .

الدعــاء من العبـد إلى ربـه لغفـران الذنوب لا يمكن إلا بواسطةِ أولئك الرجال ؟ هل قال علماء الدين الإسلامي : هنالك دولة الدين ودولة الملوك أو السيـاسـة ، ودولة الدين لها السـيطرة على دولة الملوك ؟ أم جاء الدين الإسلامي بأن الناس أحرار ، لا يمكن لفئة من الفئات أن تسيطر على الفئة الأخـرى ، وتجعلهـا أرقـاء لها ، وتسلب حرياتها ، وليس لها حل وعقد ، لا بينهـا وبـين ربهـا ، ولا بينهـا وبين العباد ، إلا بواسطة أولئك الرجال المتزعمين للدين ؟

كلا وألف كلا ، لم يأت الإسلام بشيء من ذلك ، بل نهى الإسلام عن الخضـوع لسيطرة الأحبار والرهبان ، وجعل الخضوع لهم وتقليدهم فيما يحللون ويحرمون شركاً برب العالمين كما قال الله تعالى : (**اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً سبحانه وتعالى عما يشركون**)[1] .

هل في دين الإسلام تناف بين الدين والدولة ؟ أم الدين والدولة في نظر الإسلام جزء لا يتجزأ ، لأن الإسلام يوجب على الناس أن ينصبوا حاكماً لهم ، يرعى مصالحهم ، ويقيم ميزان العدل بينهم ، ويجاهد الأعداء ، ويأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، ويساوي الناس في الحقوق ، ولا يحجر على أحد حريته إلا فيما يخالف الشريعة ، فإذا كان الدين الإسلامي يأمر بإقامة الحاكم ، ويأمر الناس بطاعته ، كما قال الله تعالى : (**وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم**)[2] .

ونظم الدينُ الدَّوْلَةَ ووضع لها أسساً وقواعد لنظامها السياسي ، فمن أين يأتي التنافي بين الدين والدولة ؟ .

وقيـاس دعاة فصل الدين عن السياسة على الغربيين ، حينما قاموا وقاوموا سيطرة الكنائس ، وفصلوا الدين عن الدولة ، قياس باطل ليس له ما يسنده ، لا من عقل ولا من نقل ولا من واقع التاريخ ، ولا من واقع ذلك الدين المسيحي قبل أن يبدله رجال الكنائس .

(١) سورة التوبة : الآية ٣١ .

(٢) سورة النساء : الآية ٥٩ .

ولو ذهبنا نعد البواعث والأسباب التي ألجأت الغربيين إلى فصل الدين عن الحياة والسياسة لطال بنا الكلام ، مما ليس لدينا سبب واحد يسوغ لنا ما سوغ للغربيين .

ولكن ألفت نظر القـاريء والسامع إلى أن يتأمل كتاب الله ، فسيراه مملوءاً من الآيـات التي فيها تشريع الأحكام الجنائية والمدنية والسياسية والشخصية والأخلاقية ، وكذلك السنة الغراء .

فقوله تعالى : (**اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الإسلام ديناً**)(١) ، تصريح واضح وبيان شامل على إكمال هذا الدين وشموله لجميع جزئيات حاجات البشر ، وكذلك كتب الأحاديث والفقهاء التي لا حصر لها ولا عد ، فهي تشمل العبادات وأحكام البيوع والجنايات والحدود وغيرها .

وممـا يوضح لك اهتمام الشريعة الإسلامية بالسياسة ، أن الصحابة رضوان الله عليهم اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة ونصبوا الخليفة الأول أبا بكر الصديق قبل أن يدفنوا الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولازال الصحابة وأمراء بني أمية وبني العباس وسائر من أتى بعدهم من الملوك من السنة وغيرهم ، يحكمون الشريعة الغراء ويطبقون الحدود ، وإن كان عندهم شيء من الظلم والترف ، حتى جاء كمال أتاتورك وقضى على الخلافة الإسلامية والدين الإسلامي ، متأثراً بالغربيين خادماً لهم .

---

(١) سورة المائدة : الآية ٣ .

فصل

في بيان بعض الفرق الضالة
التي فتحت باب النبوة والرد عليها

فأفضل الورى بلا امتراء — محمد رسول ذي النعماء
وأنه خاتم كل الأنبيا — ورسله المكرمين الأصفيا
ودينه قد نسخ الأديانا — ومن يشك كفره استبانا
ودينه باق إلى القيامة — ومن يخالف فانبذن كلامه
وليس بعده نبي أبدا — من ادعاها كفره فقد بدا
كما ادعاها الفارسي الباب — والكافر الهندي ذا الكذاب

وحيث قد بينت أن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم أفضل خلق الله على الإطلاق ، وأن دين الإسلام قد نسخ الأديان ، وأنه باق إلى يوم القيامة ، وذكرت الأدلة على ذلك ، والأمثلة في وقوع النسخ في الشرائع الماضية وفي شريعتنا الغراء ، ففرعت على ذلك بأنه إذا كان دين الإسلام دين عام شامل لكل البشر والجن ، وأنه الباقي إلى أن تقوم الساعة ، فليس بعد النبي صلى الله عليه وسلم نبي ولا رسول ، ولا ينزل كتاب بعد القرآن ، وكل من ادعى النبوة والوحي بعد خاتم النبيين فكذاب مرتد كافر يجب أن يستتاب ، فإن تاب وإلا قتل كافراً .

وبما أن علي محمد الباب الإيراني قد ادعى النبوة ، وتبعه عبد البهاء من بعده ، ثم جاء ميرزا غلام أحمد الهندي فادعى النبوة ، وفتح كل من الباب وميرزا باب النبوة على مصراعيه ، فناسب أن أذكر نبذة عن هاتين الفرقتين ، ليكون القاريء على بينة من الأمر ، وليقف على شبههم السقيمة ، والأجوبة القويمة .

البهائيــــة

منذ أن ولد الإسلام ببعثة محمد سيد الأنام ، الذي قد أرسله الله بشيراً ونذيراً وسراجاً منيراً ، أرسله الله على حين فترة من الرسل حينما اختفى توحيد الله وعبادته كما شرعه على لسان أنبيائه من الكرة الأرضية ، ما سوى عدد ضئيل من المتمسكين بالنصرانية الصحيحة ، وقليل من حنفاء العرب .

حورب الإسلام بشتى الطرق ، حاربته قريش بالدعاية واللسان ، ثم بالحرب والسنان كما حاربه سائر العرب ، وأخيراً خرج الإسلام من المعركة منتصراً على خصومه ، وأسلم الأكثرون ، وانضموا تحت لوائه ، وحاربته الفرس والروم وهما أكبر دولتي الشرق إذ ذاك ، فنصره الله عليهم وبدد شملهم وفتح ملكهم ، ودخل أكثرهم في دين الله طائعين مختارين ، ولما رأى أعداء الله أن دين الإسلام قد قوي وأصبح دولة عظيمة تخشى بأسها الدول ، قالوا: لا طاقة لنا اليوم بحربه ، فلابد من الكيد والمكر حتى ندرك ثأرنا من هؤلاء الذين قضوا على أدياننا وأمجادنا وملوكنا ودولنا ، ومن هنا أظهر بعضهم الإسلام نفاقاً وخداعاً وكيداً له وللمسلمين حتى ينفثوا سمومهم باسم الدين ، فمن أولئك الخداعين الماكرين عبد الله بن سبأ ، وكان يهودياً من يهود صنعاء ، فأسلم نفاقاً من أجل أن يوقع الفرقة بين المسلمين ويمزق وحدتهم ، ظهر هذا الخبيث في عهد عثمان رضي الله عنه في صورة زاهد ورع يفيض حباً للإسلام ، وتلمس الماكر السبيل إلى عاطفتي الحب والكراهية ، حب أهل البيت وكراهية للعرب في نفوس بعض الموالي ومن على شاكلتهم ، فظل يحث على حب أهل البيت ، وأن علياً هو الخليفة

المحق ، وسائر الخلفاء غاصبون ظالمون ، وهيج الكراهية للعرب عموماً ولبني أمية خصوصاً ، وألب الناس على عثمان وألصق به من التهم ما هو بريء منه ، وأخيراً تم له ولأتباعه القضاء على عثمان ، ثم جرت حرب الجمل وصفين ، ومن ظهــور هذا الماكر اللعين تكون مذهب التشيع ، وأخـذ يتطور المذهب حتى وجد فيهم الغلاة بمرور الأيــام ، وكفروا جميع الصحابة ما عدا سبعة أو اثني عشر ، منهم ، علي بن أبي طالب ، وسلمــان الفارسي وأبو ذر الغفاري والمقداد . وقالوا : « إن المصحف الذي أنزل على محمد سرق عثمان منه ثلاثة أرباعه ، وما بقي إلا الربع » .

ثم ظهر التصوف وجنى على الدين الإسلامي ، وحاربه باسم الدين والزهد والعبادة ، وحربه ليس بالسنان والسيوف ، ولكن ببث المباديء الهدامة كالقول بالحلول والاتحاد ، وأن الولي يأخذ من حيث ما يأخذ الرسول ، ولا يجب عليه أن يتقيد بالشريعة إذا بلغ درجة الكشف ، وأصبح يكاشف ويتجلى له اللوح المحفوظ ويأخذ منه ، ولا حاجة له إلى الرسول ، وقال بعضهم : تسقط عنهم التكاليف الشرعية عندما يبلغ هذه الدرجة المزعومة باستثناء قلة صالحة لم يتأثروا بهذا المذهب الكفري ، والتصــوف خليـط من الإسلام والمسيحية والفلسفة ومذهب البراهمة والبوذية ، ودخل التصوف في الشيعة كما دخل في أهل السنة .

ومن القــرن الثــامن عشر الميــلادي زاد كيد دول الغرب والشرق للإسلام والمسلمين ، بغية القضاء عليهم وعلى دينهم وسلب خيراتهم ، فأخـذوا يغزون الشرق تارة بالقوة ، وتارة بالمباديء الكفرية ، وأخرى بالديــانات الهدامة ، ولما كان التصوف والتشيع مرتعاً خصباً ومجالا واسعــاً لنبت نحـل وديانات تلبس لباس الدين ، وتقضي على الإسلام والمسلمين ، وتهدم أسسه بالدعايات الخلابة والأسس الكفرية ، فمن تلك النحل أن تحت سمع وبصر الروس نبتت البابية والبهائية في إيران ، فأحاطتها دولة الروس إذ ذاك بالحماية والرعاية ، كما أيدتها الصهيونية والإنجليز .

ثم ظهرت القاديانية في الهند بإيعاز من الإنجليز حتى يقضوا على وحـدة مسلمي الهنـد أولا وغيرهم ثانياً ، ويميتوا فيهم روح المقاومة والجهاد ، ويبثوا التفرقة بينهم ويشتتوا شملهم ، وترى ذلك واضحاً في حب ميرزا غلام أحمد القادياني للإنجليز ، والتفاني في ولائهم ، وفرض الطاعة على المسلمين لهم ، وتحريم جهادهم ، وسننقل شيئاً من كتابات ميرزا غلام أحمد القادياني تأييداً لما قلنا (١) .

إذا تمهد ما ذكرته لك ، فإليك الآن نبذة من تاريخ البابية والبهائية وديانتها الهدامة وشبهاتها السقيمة ، ثم نقفي على ذلك بذكر نبذة من تاريخ القاديانية وتعاليمها وشبهاتها وبيان بطلانها .

الميرزا علي محمد الباب الشيرازي :

ولد في شيراز عام ١٢٣٥ هـ الموافق لعام ١٨١٩ م ، توفي والده وهو صغير ، فكفله خاله الميرزا علي الشيرازي ، وعهد به إلى الشيخ عابد أحد تلامذة كاظم الرشتي ، ورجاه أن يرعاه جيداً ، وينشؤه النشأة الصالحة ، ولم يدر أنه أوقع ابن أخته في الرشتية ، اشتغل في أيام شبابه بفن تسخير روحانيات الكواكب والدراسات الرياضية الفلسفية ، ولما رأى خاله شذوذاً في سلوكه نتيجة تلك الدراسات ، أرسله إلى كربلاء والنجف ، وكـان عمره يومئذ عشرون عاماً ، فتتلمذ على السيد كاظم الرشتي ، فلازمه ملازمة شديدة ، وسقاه من تعاليمه المسمومة ، وأوحى إليه ما أوحى ، وعينه خلفاً له بعد موته ، وأفهمه بأنه هو الذي سيدعي المهدية والظهور .

وفي سنة ١٢٦٠ هـ أعلن الميرزا عن دعوته ، وكان عمره يومذاك خمساً وعشرين سنة ، فادعى أولا أنه الباب(٢) إلى الإمام المنتظر ، ثم ادعى أنه هو نفسه ، وبعد ذلك ادعى النبوة ، ثم تعداها إلى ادعاء الربوبية عن طريق حلول روح الإله فيه .

---

(١) سبق وأن كتبنا ونشرنا في مجلة التوعية عام ١٣٩٦ هـ .

(٢) فلذلك سميت دعوته فيما بعد بالبابية ، ويعنى بذلك أن الناس عن طريقه يتصلون بالغائب صاحب الزمان ، ويأخذون أوامره ونواهيه ، وكان كثيراً ما يستشهد بالقول المشهور : «أنا مدينة العلم وعلي بابها» يعني بذلك نفسه .

وكـان يدعـو سراً أحيـاناً وجهراً أحياناً مثيراً للفتن والقلاقل بين المسلمـين ، حتى أصـدر العلماء الفتوى بقتله لارتداده عن الإسلام وادعائه النبوة ، وتأكيده على إبطال الشريعة الإسلامية ، فنفذ فيه حكم الإعـدام بأمر الشاه ناصر الدين القاجاري صبيحة يوم الاثنين عام ١٢٦٥ هـ الموافق عام ١٨٤٩ م .

ديـــن البابيـــة :

قال الشيخ عبد الرحمن الوكيل : ـ الباب ـ يعتقد فيه البابيون أنه أتم وأكمل هيكل بشري ظهرت فيه الحقيقة الإلهية ، وأنه هو الذي خلق كل شيء بكلمته ، والمبدأ الذي ظهرت عنه جميع الأشياء ، أو هو كما يعبر « جولدزيهر » أرفع مراتب الحقيقة الإلهية التي حلت في شخصه حلولا مادياً وجسمانياً ، وهو حقيقة كل نبي ورسول وقديس . ا هـ .

من عقائد الباب :

أنه كفر بالقيامة ، وأخذ بتفسير الباطنية فقال عنها : « إنها الروح الإلهية من مظهر بشري جديد » .

وعن البعث : أنه إيمان بألوهية هذا المظهر ، يعني نفسه .

وعن النار : أنها الحرمان من معرفة الله في تجلياته في مظاهر البشرية .

وعن الجنة : أنها الفرح الروحي الذي يشعر به من يؤمن بالمظهر الإلهي .

شريعة البـــاب :

ألغى البـاب الصلوات الخمس وصلاة الجماعة إلا في الجنازة ، وقرر أن الطهر من الجنابة غير واجب ، وأن القبلة هي البيت الذي ولد فيه بشيراز .

أما الصوم : فمن شروق الشمس إلى غروبها ، ومدته شهر بابي ، وعدته تسعة عشر يوماً .

أما الزكاة : فخمس العقار ، وتؤخذ في آخر العام من رأس المال ، وتعطى للمجلس البابي المؤلف من تسعة عشر عضواً .

العيد الرئيسي عندهم هو عيد النيروز مدته تسعة عشر يوماً ، وفي صباح كل جمعة يجب استقبال الشمس بالسلام .

نسخ جميع الأديان :

زعم الشيطان أن دينه نسخ جميع الأديان السالفة ، وأعلن أنه القائم والمظهر الإلهي الجديد ، وحرم على أتباعه جميعاً قراءة القرآن ، فقام البابيون بتحريق المصاحف وذر رمادها ، وكل امريء لا يدخل دين البابية كافر جاحد مهدور الدم .

البهـــاء :

وكان البهاء في غاية من المكر والدهاء ونفاق من الزهد المكذوب ، من ذلك أنه أقام في صحاري العراق ، وصرف سنتين وحده في فيافي الهجر ، وزعم أنه لم يرجع إلى بغداد إلا بوحي من الله ، وصمم البهاء على التمادي في غيه وضلاله ، فزعم أولا أن الباب بشر به ، وأنه كان كممهد لظهوره ، وأن الباب منه بمنزلة يحيى من عيسى ، وأن عيسى وموسى ومحمداً إنما جاؤوا ليبشروا بمجيئه ، وظهور الله فيه ، وأن جميع الديانات جاءت مقدمات لظهوره ، وأنها ناقصة لا يكملها إلا دينه ، وأنه هو المتصف بصفات الله من دون الله ، وهو مصدر أفعال الله ، وأن اسم الله الأعظم اسم له ، وأنه هو المعني برب العالمين وأنه المعني **(بوجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة)** .

ديـــن البهائيـــة :

يتفق دين البهائية والبابية في جل الأمور التي أتى بها الميرزا علي

محمد الباب ، غير أنه قال : « يجب التوجه إلى البيت الذي ولد به في شيراز ، وأن يحج إليه » .

القبلــة :

أوجب البـاب أن يتوجهوا إلي البيت الذي ولد فيه بشيراز ، وأن يحجوا إليه ، بينما يقول البهاء في الأقدس : (إذا أردتم الصلاة ولوا وجوهكم شطري الأقدس ، المقام المقدس الذي جعله الله مطاف الملأ الأعلى) يعنى قصره في عكا ، أما بعد هلاكه فقبره هوقبلة البهائية .

الزكـاة :

ألغى البـاب فريضــة الزكـاة ، وأوجب الخمس في آخر الحول ، وتعـطى للمجلس البابي المؤلف من تسعة عشر عضواً ، بينما أوجب البهاء على ممن يملك مائة مثقال من الذهب أن يؤخذ منه تسعة عشر مثقالا .

الحــج :

فمفروض على الرجال فقط لقصره في حياته في عكا ، ولقبره بعد موته .

العقوبـــات :

ألغى الباب جميع العقوبات ، وقال البهاء في الأقدس : (كتب على السارق النفي والحبس ، وفي الثالث فاجعلوا في جبينه علامة يعرف بها لئلا تقبله مدن الله ودياره) .

ويقول عن الزنا : (حكم الله لكل زان أو زانية دية مسلمة إلى بيت العـدل ، وهي تسعة عشر مثقال من الذهب ، وإن مرة أخرى عودوا بضعف الجزاء) وهكذا يعيش بيت عدله على ثمن الأعراض ، ويكفي من يريد اقتراف هذه الخطيئة أن يدفع ثمنها لبيت العدل .

شبهات البابية والبهائية على خاتم النبيين :

تتفق البابية والبهائية والقاديانية في الشبهات التي أوردوها ، وانفردت البابية والبهائية بثلاث شبهات ، وإلى القارئ البيان :

الشبهة الأولى : والجواب عنها :

هي أن شريعة الإسلام لم تعد صالحة لهذا العصر ، ولم تعد مقبولة في ظل الحضارة المادية الحاضرة ، وسوغ دعايته الضالة ، بقوله : « الإنسان مازال في تطور ورقي ، فكذلك الشرائع في تطور وتبدل على مقتضى الأزمان والأدوار ، والشريعة التي تصلح لزمان قد لاتصلح لزمان آخر ، فهذه الأمة المحمدية قد كانت مستظلة بسماء شريعة القرآن أكثر من اثني عشر قرناً ، تركتها واستعاضت عنها بالقوانين الوضعية ، ولا تكاد تجد الآن دولة من دول أمة القرآن تحكم بشريعة القرآن كاملا إلا في بعض الأحوال الشخصية ، وما ذاك إلا لأنهم لم يجدوا أنها تصلح لزمانهم هذا »[1] .

أقول وبالله التوفيق : « الجواب عن شبهة هذا الكذاب » :

أما قوله : إن شريعة الإسلام لم تعد صالحة لهذا العصر .. إلخ ، فكلام باطل مسروق من كلام المستشرقين الذين يحملون الحقد الدفين على الإسلام والمسلمين ، ويطعنون في هذا الدين القيم مثل هذا الطعن الذي لم يكتسب وصف الصحة يوماً قط ، ولم يتأيد ببرهان ، بل الشريعة الإسلامية شريعة كاملة وافية بحاجات البشر من يوم أن نزلت من السماء على رسول رب العالمين وخاتم النبيين ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

والدليل الأول على ذلك قوله تعالى : (**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً**)[2] ، يصرح الله

---

(١) من حقيقة البابية والبهائية للشيخ محسن عبد الحميد نقلا عن (التبيان والبرهان) ج ٢ ، ص ٧ .

(٢) سورة المائدة : الآية ٣ .

بكمال هذه الشريعة الغراء ، ويطعن فيها هذا الدجال بأنها لم تعد صالحة لهذا العصر ، يعني أنها ناقصة ، إن صلحت للعصر النبوي فلا تصلح لهذا العصر ، أي فيحتاج الناس إلى نبي جديد ، وكذب في ذلك وقلب الحقائق وموه على خفافيش الأبصار ، وقال الله في آية أخرى : **(وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون)**[1] ، أمرنا الله باتباع سبيل القرآن والسنة ، فلو كانت غير صالحة لما أمرنا الله باتباعها .

وفي الحديث الشريف عن النبي عليه الصلاة والسلام : « تركتكم على المحجة البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك » .

قال أبو ذر رضي الله عنه : « لقد توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علماً » أو كما قال .

والشريعة الإسلامية شريعة عالمية صالحة لجميع الأقوام والأجناس ، وبالاختصار نقول : صالحة لسكان الكرة الأرضية كلهم خالدة ، جاءت لتبقى على كر الدهور ومر العصور إلى يوم ينفخ في الصور ، وما أتت الشريعة يوماً قط لقوم دون قوم أو لعصر دون عصر ، ومن ادعى خلاف هذا القول فقد كفر بالله العظيم ، واتبع غير سبيل المؤمنين .

ولو ذهبنا نسرد الأدلة من الكتاب والسنة لطال بنا المقال ، ولكن نكتفي بالآيتين والحديث الآنف الذكر .

الدليل الثاني :

قلنا جاءت هذه الشريعة لتبقى دائماً لا ينسخها ناسخ كما مر في باب النسخ[2]، وأنها تعطي للثقلين متطلبات الحياة ، ولها رصيد من

---

(١) سورة الأنعام : الآية ١٥٣ .

(٢) ذكرت في باب نسخ الشريعة الإسلامية للشرائع السابقة الأدلة النقلية والعقلية في هذا الجزء ، وقدمر .

التشريعـات لكل ما يفتقر إليه الناس في أمور دينهم ودنياهم ، وفيها الاستعداد الكامل لحل كل مشكلة تحدث للأنام ، وذلك لما في الكتاب العـزيـز والسنة المطهرة من القواعد والأسس والنصوص العامة ، ما يتمكن منـه المجتهد على اختلاف العصور والبلدان والمجتمعات ، أن يستخرج من الوحيين ما يحل كل مشكل ويحكم في كل نازلة ، وإن لم تـكن حدثت في عصر الرسول وأصحابه أو في العصور التي بعدهم .

وقوله : « والشريعة التي تصلح لزمان قد لا تصلح لزمان آخر ؟ » .

الجواب : قد قدمنا غير مرة أن الشريعة الإسلامية جاءت صالحة لكـل زمـان ولكل بلد ومكان ، لما فيها من النصوص والقواعد العامة الباقية ما بقي الدهر ، والتي يمكن أن يستنبط منها المجتهد ما يحل كل مشكل ، ويعطي كل حادثة حكمها .

وقـوله : « إن الأمـة المحمدية يعني دولها استعاضت بالقوانين الوضعية .. إلخ » .

الجـــواب : إن التعميم الحاصل منه لجميع الأمة الإسلامية في كونها تركت أحكام الشريعة الإسلامية غير صحيح ، بل لازال ولله الحمد كثير من الدول تحكم بالشريعة المحمدية ، وأما احتجاجه بالدول الآخذة بالقوانين فحجة أوهى من بين العنكبوت ، إذ فعل هؤلاء ليس حجة على شريعة الله ورسوله ، هؤلاء الآخذون بالقوانين متأثرون بدعاية الغربيين والمستشرقين ، ولقلة علمهم بدين الإسلام الصحيح ، وما أتى به من حل كل المشاكل التي تحصل للبشر ، ومن خضوعهم لدول الغرب والشرق وجعل أنفسهم أذناباً لهم ، تركوا بعض الأحكام الشرعية وجنحوا إلى القوانين الأوروبية ، أفي فعل هؤلاء حجة ؟ وأحوالهم معلومة من كونهم يدورون في فلك الدول المستعمـرة ، لا يبـالون بدين ولا بشريعـة ، وبعضهم قد دخـل في مبـدأ المـاسـونيـة ، أنـاس لا يعرفون الله ، ولا يخضعون لشريعة الله ، ويستبيحون المحرمات ، ويقرون المنكرات في بلادهم ، فهل يحتج عاقل بفعل هؤلاء ؟ ولو فرضنا أن تنصر أو تهود بعض المسلمين ، أفيكون حجة لليهود والنصارى على أن دين الإسلام

غير صحيح ؟ والحجة دائماً إما أن تكون عقلية أو نقلية ، والنقلية إما من كتاب ربنا أو من سنة نبينا ، وليس هنا حجة لا من عقل ولا من نقل ، فإذا كان البهائي ومثله القادياني يعترف أن محمداً رسول الله ، والرسول باتفاق المسلمين واليهود والنصارى وسائر الملل من صفاته الصدق وعدم الكذب ، فإذا كان كذلك ، فالرسول صلى الله عليه وسلم قد أخبر إضافة إلى القرآن ، أن الله ختم به النبوة في أحاديث كثيرة متواترة ، والتواتر يفيد القطع بالاتفاق ، وقيام الدين البهائي لم يخف على أحد أنه قام على أكتاف دولة الروس ، وأن هذه الدولة هي التي حضنت البهائية وربتها ، ولما ترعرعت هذه الديانة وشبت وأعلنت كفرها الصريح وقتل الميرزا علي محمد الباب ونفي أتباعه ، احتضنهم الإنجليز وأوحي لهم أن يتخذوا عكا مركزاً لهم ، ديانة هذه أصولها ، فكيف يقبلها عاقل ويصدق بأنها سماوية ؟

والتشريعات التي أتى بها هي من السخف والهذيان بمكان لا يخفى ، ويكفي أنه قد أباح الزنا لقاء مثاقيل من الذهب ، تؤخذ من الزاني لبيت الباب ، وكفى بهذا قبحاً وضلالاً .

الشبهة الثانية : والجواب عنها :

الشبهة الثانية للبابية والبهائية على ختم النبوة بمحمد صلى الله عليه وسلم هي أن الله قال : **(ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليماً)** ولم يقل وخاتم المرسلين ؟

والجواب : عن هذه الشبهة السقيمة أن نقول : إن الآية الكريمة نص في أن لا نبي بعده ، وإذا كان لا نبي بعده ، فلا رسول بعده بالطريق الأولى والأحرى ، لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة ، فإن كل رسول نبي ولا ينعكس ، لأنه يلزم من ختم النبوة وهي الأعم ختم الرسالة وهي الأخص ، وذكر ذلك أكثر المفسرين ، وهذا من بلاغة القرآن ودقة تعبيره حيث لم يقل وخاتم المرسلين ، لأنه لو قال كذلك ، لقال المتنبئون الكذابون : ولم يقل وخاتم النبيين على اعتبار خصوصية

الرسالة ، ولكن الله قطع عليهم الطريق بقوله : **(وخاتم النبيين)** لأن الرسالة مبنية على النبوة ، فإذا احتجبت النبوة ، احتجبت الرسالة معها ، وهذا على القول بالفرق بين النبي والرسول كما هو قول الجمهور ، قائلين : إن النبي من أوحي إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه ، والرسول من أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه ، وقال بعضهم : إنهما مترادفان[1] فلا فرق بينهما ، واستدلوا بالآيات والأحاديث التى أطلقت لفظ الرسول والنبي على رجل واحد ، فإذا كانا مترادفين ، فلا مستمسك للبهائية والقاديانية بأنه لم يقل وخاتم المرسلين كما لا يخفى .

والجواب الثاني أن نقول : ذكر الله في القرآن آيات كثيرة تدل على انقطاع النبوة بعد محمد صلى الله عليه وسلم منها قوله تعالى : **(اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي)** الآية ، فإنها دلت على أنه تعالى أكمل لهذه الأمة دينه من جميع الوجوه ، بحيث يكفي لكافة الورى إلى يوم القيامة ، فلا حاجة لها إلى نبي بعد نبيها صلى الله عليه وسلم ، ولا إلى دين غير دينها ، كما صرح به ابن كثير وعامة المفسرين ، وبالجملة فهذه الآية صرحت بختم النبوة ، وبه تجلى لك معنى الآية المذكورة .

ومنها قوله تعالى : **(يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً)** فقد صرح بعموم بعثته لكافة الورى إلى يوم القيامة ، وهو إعلان بختم النبوة بعده عليه السلام .

---

(١) وقال بعضهم : إن الرسول من خصه الله بكتاب جديد وشريعة مستقلة ، بخلاف النبي أنه يشمل من له كتاب وشريعة جديدة ، ومن ليس كذلك من الأنبياء كأكثر أنبياء بني إسرائيل ، ولا ينكر الجمهور إطلاق أحدهما في موضع الآخر توسعاً ومجازاً ، فلا يرد عليهم إطلاق النبي والرسول على رجل واحد في بعض الآيات ، هذا ما صرح به القاضي عياض في شفائه ، وابن الهمام في مسايرته ، ووقع مثله في حواشي شرح العقائد النسفية ، ونص عليه الحافظ في الفتح ، ا. هـ . ملخصاً من هدية المهديين في آية خاتم النبيين للشيخ محمد شفيع الديوبندي رحمه الله .

ومنهـا قوله تعـالى : (**ومـا أرسلنـاك إلا كافـة للناس بشيراً ونذيراً**) ، دلت على عموم البعثة وختم النبوة .

ومنها قوله تعالى : (**وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**) فإنه عليه السـلام لما كان رحمـة للعالمين كافياً في هدايتهم ، فلا يحتاجون إلى الإيمان برسول أو نبي بعده ، بل جريان النبوة بعده عليه السلام ، يستلزم أن يكفر من أمته من لم يؤمن بأنبياء ما بعده بعدما آمن به عليه السلام ، واتبعه وعمل بشريعته ، وحينئذ لم يبعث النبي صلى الله عليه وسلم رحمة لجميع العالمين ، فقد صرحت الآية بختم النبوة بعده عليه السلام ، وبالجملة فغير آية من القرآن دلت على أن المراد بكونه عليه الصلاة والسلام خاتم النبيين آخرهم أجمعين من دون تأويل ولا تخصيص ، أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها .

الشبهة الثالثة : والجواب عنها :

هي أن قوله تعالى : (**خاتم النبيين**) بمعنى الزينة وهي الحلي المعروف ، وليس معنى الآية آخر النبيين كما يقول المسلمون ؟

والجواب : عجباً لهؤلاء الأعاجم الذين طبع الله على قلوبهم ، فهم لا يفقهون ولا يسمعون ، بل ما زالوا في غيهم يعمهون ، أما علموا أن الله أنزل القرآن بلسان عربي مبين ويؤخذ تفسيره :

أولا : من القـرآن نفسه : لأنه إذا أجمل في آية فصلها في آية أخرى ، وقد ألف العلماء في تفسير القرآن بالقرآن تفاسير عديدة .

ثانياً : ممن أنزل عليه وهو الرسول العظيم .

ثالثـاً : من أصحابه الكرام الذين صحبوه ، وبذلك كانوا أدرى بمعانيه ، لما وهبهم الله من الفهم التام والعلم الصحيح ، ولما شاهدوا من القرائن والأحوال عند نزوله ، ولأنهم تعلموا القرآن من صاحب الوحي .

رابعاً : إذا لم يوجد تفسيره في الكتاب العزيز، ولا في أحاديث الرسول ، ولا في تفاسير الصحابة ، يرجع إلى اللغة العربية ، ولكن يجب أن يعلم أن المعنى المحتمل من حيث اللغة يقبل ، إذا لم يخالف التفسير المأثور عن النبي وأصحابه والسلف الصالحين بإجماع المسلمين .

وإذا فهمت ما قدمته لك ، فأقرأ ما أتلوه عليك .

إن لفظ الخاتم فيه قراءتان : **(الأولى)** : وهي المشهورة التي اختارها جمهور القراء بكسر التاء ، **(والثانية)** : خاتم بفتح التاء ، وحيث جاءت فيه قراءتان وجب بيان معناهما ، فاعلم أن الخاتم بكسر التاء يطلق على معان :

١ - آخر القوم .

٢ - فاعل الختم .

٣ - الطابع .

٤ - الحلي المعروف للأصبع .

٥ - خاتم القفا أي نقرته .

أما بفتح التاء فيستعمل بمعنى آخر القوم ، وبمعنى الطابع الذي يوضع على الطينة ، قال الشيخ محمد شفيع الديوبندى : وإذا استقريت معاني الخاتم والخاتم فانظر أيها يكون مراداً في الآية ، وأنت تعلم أن إطلاق الخاتم أو الخاتم على النبي بحسب المعاني الأخيرة لا يمكن إلا مجازاً كما هو ظاهر غني عن البيان ، ولا حاجة إلى ارتكاب المجاز لجواز إرادة الحقيقة بالمعنى الأول والثاني بلا تكلف ، فتبين أن المعنى الأول أو الثاني هو المراد في الآية لا غير ، سواء قريء بفتح التاء أو بكسرها ، ثم مآل هذين المعنيين واحد ، فإن المعنى آخر النبيين على الأول ، والذي ختمهم على الثاني ، ومرجعهما ههنا واحد ، قال في روح المعاني : خاتم النبيين الذي ختم النبيون به ومآله آخر النبيين ، وبمثله صرح الشيخ زاده في حاشيته على البيضاوي ، ثم ذكر بعض كلام علماء اللغة » . ا هـ[1] .

---

(١) من هداية المهديين .

إذا تمهد ما سبق فأقول : غير خاف أن تفسير الآية بما فسره هذا الدجال ، يفتح باب النبوة على مصراعيه بعد خاتم النبيين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، والقرآن يرد هذا التفسير كما سبق في الأجوبة للشبهة الثانية ، كما أن أحاديث الرسول وأقوال الصحابة والتابعين ترد هذا الزعم الفاسد ، وتصفع وجه صاحبها وتقول له : إنك لغوي مبين ، حيث أن الأحاديث التي بلغت مبلغ التواتر قد نصت على انقطاع النبوة والرسالة بعد محمد صلى عليه وسلم ، كما أن المسلمين سلفاً وخلفاً بما فيهم من المذاهب المتعددة ، قد أجمعوا على أن محمداً خاتم النبيين والمرسلين ، وأنه لا نبي بعده إلى يوم الدين ، واللغة العربية ترده ، ومن أجل ذلك لما ادعى الميرزا علي محمد الباب ، أنه رسول أوحى الله إليه ، حكمت علماء الشيعة في المملكة الإيرانية بكفره وارتداده ، وأنه يجب قتله إن لم يتب ، ولما لم يتب قتله ناصر الدين القاجاري .

قال الدكتور محسن عبد الحميد نقلا عن الشيخ محمد الكاظمي القزويني : على أنا لو سلمنا جدلا صحة ذلك ، لكان على بطلان دعوى التبيان[1] أدل ، وذلك لأنه إذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم زينة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وأنهم يتزينون به كما يقول ، لزم أن يكون أفضلهم قطعاً ، والأفضل لا يصح أن تختم بنبوته بمن هو دونه ، كما لا يصح التقدم عليه ، يقبح ذلك في أوائل العقول ، وعليه يجب أن يكون خاتمهم ، لأن به كمالهم وتمامهم ، وتلك قضيته على حد تعبيره ، وأقول : إذا كان هذا القول صحيحاً ، وإذا كان الأنبياء سابقين ولاحقين يتزينون برسول الله لأنه أفضلهم ، فكيف جاز لهم أن ينسخوا أحكامه ؟ ويبطلوا قرآنه ؟ كما ادعى بذلك الكذابان الباب والبهاء . اهـ[2] .

---

(١) (التبيان والبيان) كتاب بهائيٌ لمؤلفه أحمد حمدي وهو محشو بتأويلات باطنية وتوجيهات سخيفة ، ومفعم بالأباطيل والأكاذيب التي يسمو عليها الإنسان العاقل المثقف .

(٢) البهائية في الميزان .

القاديـــانيـــة

ميرزا غلام أحمد القادياني

ولد ميرزا غلام أحمد بن غلام مرتضى في سنة ١٨٣٩ م ويوافق ١٢٥٥ هـ ، أو سنة ١٨٤٠ م ، في مدينة قاديان إحدى مدن مقاطعة بنجـاب بالهنـد ، في بيت من البيوتات التي اشتهرت بخدمة سياسة الإنجليـز الاستعمارية ، وتوفي في مايو سنة ١٩٠٨ م بمرض الهيضة (الكوليرا) ، وفي سنة ١٨٨٠ م ظهر الميرزا غلام أحمد كأحد الدعاة إلى الإسلام والمناظرين لخصومه من غير المسلمين حتى سنة ١٨٨٨ م ، وبـدأ منذ أوائل سنة ١٨٨٩ م يأخذ منهم البيعة ويدعي أنه مجدد العصر مأمور من الله ، ويظهر للناس مماثلته للمسيح الموعود ، والمهدي المعهود .

وفي سنة ١٩٠٠ م بدأ الخواص من أتباعه يلقبونه بالنبي صراحة ، أما ميرزا غلام أحمد فكان يصدقهم تارة ، ويحاول أخرى إقناع الذين كانوا مترددين في الإيمان بنبوته ، بتأويل نبوته بكلمات النبي الناقص ، والنبي الجزئي ، أو النبي المحدث ، وفي سنة ١٩٠١ م أعلن الميرزا بوجه سافر أنه النبي والرسول ، ولم يقيد نبوته ورسالته بكلمات النقص أو الجزئية أو المحدثية ، وفي هذا يقول الميرزا بشير الدين محمود بن أحمد أحـد أتبـاعه : إن الميرزا غير عقيدته في سنة ١٩٠١ م ، وكانت هذه السنة فترة انتقال من العقيدة الأولى إلى العقيدة الثانية وهي النبوة ، وصار كلامه السابق منسوخاً ، وفي سنة ١٩٠٤ م أضاف الميرزا دعوى

جديدة إلى دعاواه السابقة وهي أنه كرشن[1] ، وبعد أن كان يقول بأن لا نبي بعد محمد صلى الله عليه وسلم مثل قوله : (ولا يجوز أن يأتي أحد بعد نبينا من حيث هو نبي مرسل من الله)[2] .

(لا يجوز القرآن أن يأتي رسول بعد خاتم النبيين جديداً كان أو قديماً)[3] .

كما قال بعد كلام : (إن كل من يدعي النبوة بعد سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم ، هو كاذب وكافر)[4] .

بعد هذه التصريحات التي صرح بها غير مرة ، أعلن دعواه النبوة ، فقال : (أحلف بالله الذي في قبضته روحي ، هو الذي أرسلني وسماني نبياً ، وناداني المسيح الموعود ، وأنزل لصدق دعواي بينات بلغ عددها ثلاثمائة ألف بينة)[5] .

ويقول : (إن الله أرسل لإثبات رسالتي آيات ، لو وزعت على ألف نبي لثبتت بها رسالتهم ، ولكن الشياطين من الناس لا يصدقون هذا)[6] .

وكتبت جريدة قاديانية « الفضل » : (إن غلام أحمد كان نبياً ورسولا في المعنى الذي يراد به الأنبياء والرسل السابقون) .

ويقول الغلام : (والله العظيم أؤمن بوحيي كما أؤمن بالقرآن وبقية

---

(١) وهم يعتقدون فيه ما يعتقد المسلمون في الله عز وجل ، وكرشن هذا معبود من معبودي الهنادك .

(٢) من كتاب البرية لميرزا غلام أحمد القادياني ، ص ١٤٤ .

(٣) إزالة الأوهام لميرزا غلام أحمد ص ٥٧٧ .

(٤) نشرة من الميرزا غلام أحمد المنشورة في ٢/١٠/١٨٩١م وهي مندرجة في تبليغ الرسالة ج ٢٠ ص٢ ا. هـ . ملخصاً من كتاب (ما هي القاديانية لأبي الأعلى المودودي) .

(٥) تتمة حقيقة الوحي لغلام أحمد القادياني ص ٦٨ .

(٦) عين المعرفة ص ٣١٧ لغلام أحمد القادياني .

الكتب التي أنزلت من السماء ، وأنا أؤمن بأن الكلام الذي ينزل عليّ ينزل من الله ، كما أؤمن بأن القرآن نزل من عنده)[١] .

(وقد زعموا ـ أي المسلمين ـ أن خزائن الله قد نفدت .. وما زعمهم هذا إلا لأنهم لم يقدروا الله حق قدره ، وإلا فإني أقول إنه لا يأتي نبي واحد فقط بل يأتي ألوف من الأنبياء)[٢] .

خدمات الميرزا في تأييد الحكومة الإنجليزية :

قال : لقد نشرت خمسين ألف كتاب ورسالة وإعلان في هذه البلاد وفي البلاد الإسلامية ، تفيد أن الحكومة الإنجليزية صاحبة الفضل والمنة على المسلمين ، فيجب على كل مسلم أن يطيع هذه الحكومة طاعة صادقة ، وقد ألفت الكتب في اللغات الأردوية والعربية والفارسية ، وأذعتها في العالم الإسلامي ، حتى وصلت وذاعت في البلدين المقدسين مكة والمدينة ، وفي الآستانة وبلاد الشام ومصر وأفغانستان ، وكان نتيجة ذلك أن أقلع ألوف من الناس عن فكرة الجهاد التى كانت من وحي العلماء[٣] الجامدين ، وهذه مأثرة أتباهى بها ، يعجز المسلمون في الهند أن ينافسوني فيها[٤] .

تكفيره للمسلمين :

يقول حضرة الميرزا : (أن لا بأس بالزواج من بنات غير الأحمديين ، لأنه من الجائز الزواج من بنات أهل الكتاب)[٥] .

---

(١) حقيقة الوحي ص ٢١١ لغلام أحمد القادياني .

(٢) أنوار الخلافة : تأليف الميرزا بشير الدين محمد أحمد ص ٦٢ .

(٣) كذب الدجال ، بل الجهاد من وحي القرآن والسنة ، ولا تخفى آيات الجهاد وأحاديثه التي زخرت بها كتب السنة إلا على جاهل أو متجاهل أو متنبيء كذاب يريد خدمة المستعمرين وإذلال المسلمين كالميرزا غلام أحمد ، ومحمد علي الباب ، وعبد البهاء ومن دار في فلكهم واتبع نهجهم المعوج .

(٤) ا. هـ. من ستارة قيصر تأليف الميرزا غلام أحمد (من القادياني والقاديانية) للشيخ أبي الحسن الندوي .

(٥) جريدة الفضل ١٦/١٢/١٩٢٠م .

(نعلن ليعرف الجميع أنه لا يجوز لأحمديين أن ينكحوا بناتهم من غير الأحمديين ، وعليهم بأخذ الحيطة في هذا الباب في المستقبل)[1] .

(إن حضرة المسيح عليه السلام ما صلى على ولده الميرزا أفضل أحمد ، لا لشيء إلا لأنه كان من غير الأحمدية) .

موجبات كفر الميرزا غلام أحمد القادياني :

١ – ادعاؤه النبوة ادعاءً صريحاً ، وجعل نفسه كالأنبياء السالفين ، بل أفضل منهم .

٢ – إلغاؤه جهاد الكافرين خدمة لأسياده المستعمرين .

٣ – تكفيره لجميع المسلمين الذين لايعترفون بنبوته ورسالته .

٤ – الولاء والطاعة للحكومة الإنجليزية ، وهذان من معتقدات الميرزا غلام أحمد وأتباعه الأصولية .

٥ – الحج هو الحضور في المؤتمر السنوي في القاديان ، فيقول ابن الغلام وخليفته الثاني : (إن مؤتمرنا السنوي هو الحج ، وأن الله اختار المقام لهذا الحج القديان) .

٦ – تشبيه الله بالبشر ، فقال المنتبيء القادياني غلام أحمد (قال لي الله : إني أصلى وأصوم وأصحو وأنام) .

٧ – التناسخ والحلول كما قال العلامة الشيخ أبو الحسن الندوي : في عبارات الميرزا ما يدل على حقيقة التناسخ والحلول ، وعلى أن الأنبياء تتناسخ أرواحهم ، ويتقمص روح بعضهم وحقيقتهم جسد بعضهم ، وتظهر في مظهر الآخر ، كما في صريح عبارته في « ترياق القلوب » .

---

(١) إعلان مراقب الأمور العامة (بقاديان) المنقول من جريدة الفضل ١٤/٢/١٩٣٣ م .

٨ – الطامة الكبرى : (أنه ابن الإله) وادعى أنه مظهر لكرشن ، وأنــه برز فيه وتجلى ، وخاطبه الله مرة بقوله : (اسمع يا ولدي) ، يا قمر يا شمس ، أنت مني ، وأنا منك ، (ظهورك ظهوري) .

وبعد أن أتيت بنبذة كافية ، وإن كانت وجيزة عن دعاية ميرزا غلام أحمــد الضــال المضل المتنبيء الكذاب ، فلا بأس أن أذكر للقاريء شبهاته التي استند إليها في دعوى النبوة .

الأولى : زعمه أن النبوة لم تختم بنبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وإبطال هذه الشبهة :

قال : وكلمة : (**ولكن رسول الله وخاتم النبيين**) في الآية الشريفة ليست بدليل على أن لا نبي بعد سيدنا محمد ، لأن خاتم ليس بمعنى آخر ، ولكن بمعنى أفضل ، يعني أن محمداً أفضل النبيين لا بمعنى انقطاع النبوة بعده ، فلذا ادعى النبوة ، وفتح باب النبوة على مصراعيه لغيره .

الجواب : إن الله أنزل القرآن بلغة العرب ، كما قال الله تعــالى : (**إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون**) ، ولم ينزله بلغة العجم والفرس والهنود وغيرهم ، والرسول أفصح العرب ، والصحابة وغيرهم من فصحاء العرب ، وجاء بعد ذلك التابعون وفيهم من الشعراء والأدباء والبلغاء ما يفوق العد والإحصاء ، ولم يقل أحد من الصحابة ولا من التابعين ولا من أتباعهم من الفقهاء والمحدثين واللغويين من أن خاتم النبيين أفضل ، بل كلهم فهموا من الآية وجزموا واعتقدوا أن النبوة ختمت بسيــدنــا محمــد عليــه الصلاة والسلام ، وها هي القواميس والمعــاجم العــربيــة بين أيدينا ، هل فيها حرف واحد مما زعمه هذا الكذاب ، كما أن كل نبي باتفاق من المسلمين ومن اليهود والمسيحيين وغيرهم ، وحتى من ميرزا غلام أحمد هذا المتنبىء ، أن يكون النبي صادقاً معصوماً من الكذب فإذا كان كذلك ، فقد وردت الأحــاديث العديدة الكثيرة التي بلغت مبلغ التواتر عن النبي أنه خاتم النبيين ، وأنه لا نبي بعده ، ومن تلك الأحاديث :

١ - ما جاء في البخاري في كتاب المناقب ، باب ما ذكر عن بني إسرائيل ، ومسلم في باب الإمارة ، وأحمد في مسنده « قال النبي صلى الله عليه وسلم : كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء ، كلما هلك نبي خلفه نبي ، وأنه لا نبي بعدي وسيكون خلفاء » .

٢ - وقال عليه الصلاة والسلام كما أخرجه مسلم والترمذي وابن ماجه : « فضلت على الأنبياء بست : أعطيت جوامع الكلم ، ونصرت بالرعب ، وأحلت لي الغنائم ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، وأرسلت إلى الخلق كافة ، وختم بين النبيون » . وذكرت كثيراً من الأحاديث في كتابي القاديانية .

الشبهة الثانية : زعم الكذاب أن معنى الخاتم المهر وإبطالها :

أنه صلى الله عليه وسلم يمهر الناس ، وبمهره يصير الواحد نبياً .

الجـواب :

أولا : إن هذا الكلام سخيف لا يعرفه العرب ، وإنما هو من مخترعات هذا الكذاب ، وبهذه السفاهة والأكاذيب يريد أن يصبح نبياً متبوعاً ، ويريد أتباعه أن يثبتوا نبوة متنبئهم الكذاب ، ليخدعوا به المسلمين ، ويخدموا مصالح المستعمرين .

ثانياً : إذا كان هذا المتنبيء رسولا أرسله الله ، فأي حاجة أن يمهره سيدنا محمد ، مع العلم أن الرسول قد انتقل إلى الرفيق الأعلى في عالم غير هذا العالم ، فأين اتصل به حتى يمهره ، وهذا المتنبيء زعم أن الله كاشفه وخاطبه وأرسله ، فأي حاجة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم لكي يختم له .

ثالثاً : ليس في كتب اللغة ولا في قواميسها أن الخاتم يكون بمعنى المهر ، وإذا كان معنى الخاتم الطابع ، فليس يراد به الطابع الذي يطبع به على الرسائل في دائرة البريد عند توزيعها ، وإنما المراد به الطابع

الذي يطبع به على الغلاف حتى لا يدخل فيه شيء ولا يخرج منه شيء ، وعليه فإذا كان الخاتم بمعنى الطابع بهذا المعنى الصحيح ، فقد ختم الله النبوة بمحمد عليه الصلاة والسلام بحيث لا يأتي نبي بعده .

والحاصل أن كلام هذا السخيف قبحه واضح ، وكذبه أوضح من الشمس في رائعة النهار ، لا يحتاج إلى كبير جهد وعناء ، ولاسيما لمن استقرأ أحواله من حين ولادته إلى حين وفاته وتطوراته وتفانيه في حب الإنجليز ، فيعلم علماً جازماً أن هذا الرجل كذاب ، وأنه صنيعة من صناعة الدولة البريطانية ، وكفى ذلك قبحاً وضلالاً ، والله الهادي إلى سواء السبيل .

فضائل آل البيت النبوى

فصل في فضائل أهل البيت النبوي

حب النبي وآله الكرام فرض محتم على الأنام
ففضلهم قد جاء في الكتاب وفي الأحاديث بلا ارتياب

عقيدة أهل السنة والجماعة ، أنهم يرون حب أهل البيت فرضا ، لأنهم من ذرية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحب الرسول صلى الله عليه وسلم واجب على كل مسلم ، فأهل السنة لا يفرقون بين الصحابة وأهل البيت رضي الله عنهم أجمعين ، فكما يحبون صحابته صلى الله عليه وسلم ، فإنهم يحبون أهل بيته صلى الله عليه وسلم ، بل يرون حب أهل البيت آكد من حب الصحابة .

وما أحسن ما قال بعضهم :

يا أهل بيت رسول الله حبكم فرض من الله في القرآن أنزله
يكفيكم من عظيم الفضل أنكم من لم يصل عليكم لا صلاة له

وهذا القول يوافق مذهب الشافعي في بعض أقواله : إن الصلاة على الآل في التشهد الأخير فرض ، فمن لم يصل عليهم لا تصح له الصلاة ، ولكن المعتمد أن الصلاة عليهم سنة مؤكدة .

ذكر بعض الآيات في فضائل أهل البيت النبوي :

١ - قـال الله تعـالى : (**إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً**)[١].

قال كثير من المفسرين : إن الآية نزلت في علي وفاطمة والحسن والحسين ، لتذكير ضمير عنكم وبعده .

وقيل : نزلت في نسائه صلى الله عليه وسلم لقوله تعالى في الآية التالية لها (**واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة**)[٢]، ونسب لابن عبـاس ، لأنهن في بيت سكنـاه صلى الله عليـه وسلم ، واعتمده جمع ورجحوه ، وأيده ابن كثير بأنهن رضي الله عنهن سبب النزول .

ثم إن هذه الآية منبع فضائل أهل البيت النبوي ، لاشتمالها على غرر من مآثرهم ، والاعتناء بشأنهم ، حيث ابتدئت بإنما المفيدة لحصر إرادته تعالى في أمرهم على إذهاب الرجس ، الذي هو الإثم أو الشك فيما يجب الإيمان به عنهم ، وتطهيرهم من سائر الأخلاق والأحوال المذمومة .

ومن تطهيرهم تحريم صدقة الفرض - بل والنفل - على قول لمالك - عليهم ، لأنها أوساخ الناس ، مع كونها تنبيء عن ذل الآخذ وعز المأخوذ منه ، وعوضوا عنها خمس خمس الفييء والغنيمة المنبيء عن عز الآخـذ وذل المأخوذ منه ، ومن ثم كان المعتمد دخول أهل البيت النبوي النسب في الآية ، ولذا اختصوا بمشاركته صلى الله عليه وسلم في تحريم صدقة الفرض: الزكاة والنذر والكفارة وغيرها .

٢ - قوله تعالى : (**إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً**)[٣].

صح عن كعب بن عجرة قال : لما نزلت هذه الآية ، قلنا : يا رسول الله قد علمنا كيف نسلم عليك ، فكيف نصلي عليك ؟ فقال : قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد .. إلخ .

---

(١) سورة الأحزاب : الآية ٣٣ .

(٢) سورة الأحزاب : الآية ٣٤ .

(٣) سورة الأحزاب : الآية ٥٦

فسؤالهم بعد نزول الآية ، وإجابتهم باللهم صل على محمد وعلى آل محمد .. إلخ ، دليل ظاهر على أن الأمر بالصلاة على أهل بيته وبقية آله مراد من هذه الآية ، وإلا لم يسألوا عن الصلاة على أهل بيته وآله عقب نزولها ولم يجابوا بما ذكر ، فلما أجيبوا به دل على أن الصلاة عليهم من جملة المأمور به ، وأنه صلى الله عليه وسلم أقامهم في ذلك مقام نفسه ، لأن القصد من الصلاة عليه مزيد تعظيمه ومنه تعظيمهم ، ومن ثم لما أدخل من مر - وهم علي وفاطمة والحسن والحسين - في الكساء ، قال : اللهم إنهم مني وأنا منهم ، فاجعل صلاتك ورحمتك ومغفرتك ورضوانك علي وعليهم .

وأما الأحاديث الواردة في فضائلهم فكثيرة ومنها :

١ - حديث مسلم عن زيد بن أرقم قال : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « أما بعد ، أيها الناس إنما أنا بشر مثلكم ، يوشك أن يأتيني رسول ربي عزّ وجل فأجيبه ، وإني تارك فيكم الثقلين ، أولهما : كتاب الله عز وجل ، فيه الهدى والنور ، فتمسكوا بكتاب الله عز وجل ، وخذوا به » وحث فيه ورغب فيه ثم قال : « وأهل بيتي أذكركم الله عز وجل في أهل بيتى » ثلاث مرات ، فقيل لزيد : من أهل بيته ؟ أليس نساؤه من أهل بيته ؟ قال : بلى ، إن نساءه من أهل بيته ، ولكن أهل بيته من حرم عليهم الصدقة بعده ، قال : ومن هم ؟ قال : هم آل علي وآل عقيل وآل عباس ، قال : كل هؤلاء حرم عليهم الصدقة ؟ قال : نعم .

وفي بعض الروايات حث النبي صلى الله عليه وسلم على الكتاب والسنة مقتصراً عليهما ، وهنا ذكر أهل البيت ولم يذكر السنة ، لأنَ السنة داخلة في الكتاب .

٢ - قال العلامة ابن حجر في الصواعق : صح عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال على المنبر : « ما بال أقوام يقولون : إن رحم رسول الله لاينفع قومه يوم القيامة ؟ بلى والله إن رحمي موصولة في الدنيا والآخرة » .

٣ – عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يا أيها الناس ، ارقبوا محمداً في أهل بيته » . أخرجه البخاري .

٤ – عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أحبوا الله لما يغذوكم به ، وأحبوني لحب الله ، وأحبوا أهل بيتي بحبي » . أخرجه الترمذي وقال : حسن غريب .

٥ – عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أبغض أهل البيت فهو منافق » . أخرجه أحمد في المناقب .

هذه الأحاديث في فضل آل البيت من حيث العموم .

أما من حيث الخصوص : فأفضلهم الخليفة الراشد الرابع علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وسيأتي الكلام عنه بالتفصيل .

كما سيأتي الحديث عن الحسن والحسين وفاطمة رضي الله عنهم أجمعين .

فضائل آل البيت من حيث الخصوص :

١ – أخرج الترمذي وابن حبان عن أسامة بن زيد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « هذان ابناي ، وابنا ابنتي ، اللهم إني أحبهما ، فأحبهما ، وأحب من يحبهما » .

٢ – أخرج البخاري وأبو يعلى وابن حبان والطبراني والحاكم عن أبي سعيد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة ، إلا ابني الخالة عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا ، وفاطمة سيدة نساء أهل الجنة إلا ما كان مريم » .

٣ – وأخرج أحمد والبخاري وأبو داود والترمذي والنسائي عن أبي بكرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن ابني هذا سيد ، ولعل الله يصلح به بين فئتين من المسلمين ، يعني الحسن » .

٤ – وأخرج البخاري في الأدب المفرد والترمذي وابن ماجه عن يعلى ابن مرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « حسين مني وأنا منه ، أحب الله من أحب حسيناً » .

٥ – أخرج الترمذي عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أحب أهل بيتي إليَّ الحسن والحسين » .

٦ – أخرج الشيخان عن فاطمة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لها : « إن جبريل كان يعارضني القرآن كل سنة مرة ، وأنه عارضني العام مرتين ، ولا أراه إلا حضر أجلي ، وإنك أول أهل بيتي لحاقا بي ، فاتقي الله واصبري ، فإنه نعم السلف أنا لك » .

٧ – أخرج أحمد والترمذي والحاكم عن ابن الزبير أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إنما فاطمة بضعة مني ، يؤذيني ما آذاها ، وينصبني ما أنصبها » .

٨ – أخرج الشيخان عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لها : « يا فاطمة ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين ؟ » .

٩ – أخرج الترمذي والحاكم عن أسامة بن زيد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أحب أهلي إليَّ فاطمة » .

١٠ – أخرج الحاكم عن أبي سعيد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « فاطمة سيدة نساء أهل الجنة إلا مريم بنت عمران » .

١١ – عن أبي هريرة قال : إن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعلي : « فاطمة أحب إليَّ منك ، وأنت أعز عليَّ منها » .

فضائل أصحاب رسول الله ﷺ

من القرآن والأحاديث

فأفضل الأنام بعد الأنبيا　　صحب الرسول الأتقيا الأصفيا
ترتيبهم في الفضل كالخلافة　　ومن يخالف فانبذن خلافه

لا يخفى على أحد ممن قرأ تاريخ الرسول وسيرته وتاريخ أصحابه رضوان الله عليهم من المسلمين وغيرهم ، أنهم قد حازوا قصب السبق والفضائل بما قاموا به من خدمة عظيمة ، ومبادرات كريمة ، لنصر هذا الدين الحنيف بتأييدهم لرسول الله صلى عليه وسلم ونصرهم له ، ومواقفهم مشهورة معلومة لا ينكرها إلا من طمس الله بصيرته ، وهل ظهر هذا الدين الحنيف إلا بالله أولا ، ثم بما قاموا به من نصر وجهاد وبذل نفوس وأموال ، حتى أن بعضهم كان يقتل قريبه في الجهاد ويتبرأ من أخيه إذا كان مشركاً ؟ ، وكذلك أثنى الله عليهم في كتابه الكريم في آيات عديدة أذكر منها ما تيسر :

١ - قال تعالى في سورة آل عمران : **(كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله)**[١] .

هذه الآية نص صريح في كون هذه الأمة المحمدية أفضل من جميع الأمم التي دانت بالدين الإلهي وصدقت الرسل ، ومدح عظيم لها على تفوقها على الأمم قبلها بهذه الأوصاف ، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله .

---

(١) سورة آل عمران:الآية ١١٠ .

وإذا تقرر هذا ، فهذا الخطاب ـ الذي تشرفت به هذه الأمة النبيلة ـ موجه مباشرة إلى جميع الصحابة رضوان الله عليهم ، وإلى من بعدهم من الأمة بطريق التبع ، وقد ثبتت أحاديث كثيرة في فضل هذه الأمة ، وفي كونها مرحومة ، وفي كثرتها ودخولها الجنة ، فمنها :

(أ) ما أخرجه الإمام البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى » قالوا ومن يأبى ؟ قال : « من أطاعني دخل الجنة ، ومن عصاني فقد أبى » .

(ب) وأخرج الترمذي عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله لا يجمع أمتي على ضلالة ، ويد الله على الجماعة ، ومن شذ شذ في النار » .

(ت) وأخرج الشيخان عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليدخلن الجنة من أمتي سبعون ألفاً أو سبع مائة ألف ، متماسكين آخذ بعضهم بيد بعض ، لا يدخل أولهم حتى يدخل آخرهم ، وجوههم على صورة القمر ليلة البدر » .

(ث) وأخرج الشيخان والإمام أحمد والترمذي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال : « خير الناس قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم يجيء أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه ، ويمينه شهادته » .

فإذا كان هذا الفضل العظيم في هذه الأحاديث التي ذكرتها وما لم أذكره أكثر في هذه الأمة ، فلا يرقى أدنى شك ولا ريب ، أن الصحابة الكرام هم المقدمون في الفضائل والدرجات .

٢ - قال تعالى في سورة آل عمران : (**الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم ، الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل**)[1] .

(١) سورة آل عمران : الآيتان ١٧٢ ، ١٧٣ .

اشتملت هذه الآية على مدح عظيم للصحابة رضي الله عنهم ، بقوة الإيمان والصبر على البلاء ، وتفويض كل الأمور باللجوء إلى الله تعالى ، وعلى وعده تعالى للمحسنين المتقين منهم بالثواب العظيم ، وقد فعلوا رضي الله عنهم ما وعدهم بالثواب عليه ، ولا خلاف بين العلماء أن الذين استجابوا لله والرسول ، هم المهاجرون والأنصار الذين حضروا معه صلى الله عليه وسلم وقعة أحد ، أجابوه في ثاني يومها حين دعاهم إلى الخروج وراء قريش قال لهم : « ولا يخرج معنا إلا من حضر أحداً » (**من بعد ما أصابهم القرح** » الجروح الكثيرة بأحد ، فخرجوا معه مع ما بهم من القروح صابرين راضين حتى بلغوا حمراء الأسد ، ولم يدركوا قريشاً (**الذين**)بدل من الذين السابق (**قال لهم الناس**) أي ركب من عبد القيس مروا بأبي سفيان قاصدين المدينة ، فدسهم إلى المسلمين ليثبطوهم عن الخروج وراء قريش ويخوفونهم منهم ، (**إن الناس**) أي قريشاً (**قد جمعوا لكم**) أي عزموا على الرجوع إليكم ليستأصلوا بقيتكم في زعمهم (**فاخشوهم**) أي خافوهم واحذروهم فإنه لا طاقة لكم بهم (**فزادهم إيماناً**) أي زاد ذلك التخويف من الركب المسلمين تصديقاً ويقيناً وقوة في دينهم وثباتاً على نصر نبيهم صلى الله عليه وسلم .

٣ - قال تعالى في سورة التوبة : (**والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم**)[١] .

هذه الآية صريحة في تفضيل المهاجرين والأنصار ومن اتبعهم من بعدهم بإحسان ، شرط في التابعين أن يتبعوهم في أعمالهم الحسنة دون السيئة ، لأنهم غير معصومين من الهفوات لكنها مغفورة لهم . اهـ [٢] .

---

(١) سورة التوبة : الآية ١٠٠ .

(٢) من إتحاف ذوي النجابة ملخصاً .

يخبر تعالى عن رضاه عن السابقين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسانهم ، ورضاهم عنه بما أعد لهم في الجنات من النعيم المقيم ، روى محمد بن كعب القرظي : مر عمر بن الخطاب برجل يقرأ هذه الآية : **(والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار)** .. الآية فأخذ عمر بيده ، فقال : من أقرأك هذا ؟ قال : أبي بن كعب ، فقال : لا تفارقني حتى أذهب بك إليه ، فلما جاءه ، قال : أنت أقرأت هذا هذه الآية هكذا ؟ قال : نعم ، قال : وسمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم ، قال : لقد كنت أرى أنا رفعنا رفعة لا يبلغها أحد بعدنا ، فقال : إني أره تصديق هذه الآية في أول سورة الجمعة :**(وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم)** وفي سورة الحشر : **(والذين جاءوا من بعدهم)** وفي الأنفال : **(والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم)** رواه ابن جرير .

فياويل من أبغضهم أو سبهم - كلهم أو بعضهم - ولاسيما سيد الصحابة بعد الرسول ، وخيرهم وأفضلهم أعني الصديق الأكبر والخليفة الأعظم أبا بكر بن أبي قحافة رضي الله عنه ، فكل من يبغضهم أو يسبهم ، فإن عقولهم معكوسة ، وقلوبهم منكوسة ، وأين هؤلاء من القرآن الذي وصفهم بالآية : **(والسابقون الأولون ...)** فيسبون من رضي الله عنهم ورضوا عنه ، وأما أهل السنة فإنهم يترضون عمن رضي الله عنه ، ويسبون من سبه الله ورسوله ، ويوالون من يوالي الله ورسوله ، ويعادون من يعادي الله ورسوله ، وهم متبعون لا مبتدعون ، ويقتدون ولا يبتدعون ، وهؤلاء هم حزب الله المفلحون وعباده المؤمنون[1] .

٤ - وقال تعالى في سورة الفتح : **(لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزاً حكيماً)**[2] .

---

(١) ا. هـ. من اختصار تفسير ابن كثير محمد نسيب الرفاعي .

(٢) سورة الفتح : الآية ١٨ .

هذه البيعة هي بيعة الرضوان ، وكانت بالحديبية ، وعدد المبايعين له عليه الصلاة والسلام فيها ألف وخمسمائة من الصحابة كما في الصحيحين من رواية جابر بن عبد الله ومجمع بن جارية رضي الله تعالى عنهما ، فصرح تعالى برضاه عن هذا العدد منهم ، ومن رضي عنه تعالى لا يمكن موته على الكفر ، لأن العبرة بالوفاة على الإسلام ، فلا يقع الرضا منه تعالى إلا على من علم موته على الإسلام ، وأما من علم موته على الكفر فلا يمكن أن يخبر بأنه رضي عنه ، فعلم أن كلا من هذه الآية وما تقدم قبلها وما سيأتي بعدها صريح في الرد على المبتدعة القائلين : إنهم ليسوا بمؤمنين ، وكل من قال : إنهم ليسوا بمؤمنين فهو غير مؤمن بالقرآن ، إذ يلزم من الإيمان به الإيمان بما فيه ، وقد علم أن الذي فيه أنهم خيار عدول ، وأنهم خير الأمم ، وأنه رضي عنهم وأن الله لايخزيهم ، فمن لم يصدق بذلك فيهم فهو مكذب لما في القرآن ، ومن كذب بما فيه مما لا يحتمل التأويل فهو جاحد ملحد مارق ، وقوله تعالى : (**فعلم ما في قلوبهم**) يعني من الصدق والإخلاص والوفاء ، كما علم ما في قلوب المنافقين من المرض والنفاق (**فأنزل السكينة**) يعني الطمأنينة (**عليهم**) على المؤمنين المخلصين ، حتى ثبتوا وبايعوك على الموت وعلى أن لايفروا .

وفي هذه الآية لطيفة : وهي أن هذه البيعة كانت في طاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وذلك موجب لرضوان الله عزّ وجلّ ، وهو موجب لدخول الجنة ، ويدل عليه قوله تعالى في الآية المتقدمة : (**ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار**) فثبت بهذا البيان أن أهل بيعة الرضوان من أهل الجنة ، ويشهد له حديث جابر ابن عبد الله رضي الله عنهما في صحيح مسلم قال : قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة » . وقوله تعالى :(**وأثابهم فتحاً قريباً ومغانم كثيرة يأخذونها**) ، إخبار بغيب ومعجزة له صلى الله عليه وسلم ، فالفتح القريب فتح خيبر ، والمغانم الكثيرة مغانمها من نخيل وعقار وغيرهما ، وكانت الحديبية في آخر السنة السادسة للهجرة في ذي القعدة ، وخيبر في أول محرم السنة

السابعة للهجرة ، وقد حضر فتح خيبر جميع من حضر الحديبية من الصحابة رضي الله عنهم . اهـ .[1] .

تنبيه : لا يفهم من هذه الآية أن الإيمان والفضل مختصان ببيعة أهل الرضوان ، بل الصحابة كلهم مؤمنون صادقون في إيمانهم ، متبعون القرآن والسنة ، زكاهم الله وأثنى عليهم في عدة آيات ، وأثنى الرسول صلى الله عليه وسلم عليهم في عدة أحاديث سنذكر بعضها إن شاء الله ، ولكن أهل بيعة الرضوان لهم خصوصية لعدم دخولهم النار لقوله صلى عليه وسلم : « لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة » وقد سبق آية التوبة : « **والسابقون** ... » .

فقد صرح الله بالرضا عنهم جميعاً ، وإنما تأتي الآيات بصيغة العموم كما لا يخفى .

٥ - قال تعالى في سورة الفتح : (**محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلا من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطئه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً**)[2] .

بعد أن أثنى الله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : (**هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً**) : قال : (**محمد رسول الله والذين** ..) الآية فثنى بالثناء على جميع أصحابه بقوله : (**والذين معه**) كما قال الله فيهم : (**فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين** ...) الآية فوصفهم الله تعالى بالشدة والغلظة على الكفار ، وبالرحمة والبر والعطف على المؤمنين ، والذلة

---

(١) من إتحاف ذوي النجابة ملخصاً .

(٢) الآية : ٢٩ .

والخضوع لهم ، وقد جاءت أحاديث صحيحة تحث على تراحم المؤمنين عموماً ، منها :

(أ) ما أخـرجه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي والحاكم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الراحمون يرحمهم الرحمن تبارك وتعالى ، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء » .

(ب) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من لا يرحم لا يُرحم » أخرجه الشيخان والإمام أحمد وأبو داود والترمذي ، وأخرجه الشيخان أيضاً وابن ماجه عن جرير بن عبد الله وهو متواتر .

(ت) ومنها ما أخرجه الشيخان والإمام أحمد أيضاً والترمذي عن جريـر بن عبـد الله أيضاً بلفظ : « من لا يرحم الناس لا يرحمه الله » . وأخرجه الإمام أحمد والترمذي أيضاً عن أبي سعيد الخدري .

(ث) وأخرج الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وابن حبان والحاكم عن أبي هريـرة بإسنـاد صحيـح عنـه عليه الصلاة والسلام أنه قال : « لا تنزع الرحمة إلا من شقي » .

(جـ) وجـاء في مقدار الرحمة ما أخرجه الإمامان أحمد بن حنبل ومسلم بن الحجاج عن سلمان رضي الله عنه ، عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : « إن لله عزّ وجلّ مائة رحمة ، فمنها رحمة يتراحم بها الخلق ، وبها تعطف الوحوش على أولادها ، وأخّر تسعة وتسعين إلى يوم القيامة » .

ولا ريب عند كل مسلم عاقل أن الحظ الأعظم من هذه الرحمة الواحدة التي يتراحم بها خلقه تعالى للصحابة رضوان الله عليهم كما وصفهم الله بذلك ، وقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم ثناءهم بالخير والشر على الجنائز حجة وشهادة مقبوله عند الله تعالى ، ففي الصحيحين عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : مروا بجنازة فأثنوا عليها خيراً ـ يعني الصحابة ـ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « وجبت » ، ثم مروا بأخرى فأثنوا عليها شراً

فقال : « وجبت » ، فقال : عمر رضي الله عنه ، ما وجبت يا رسول الله ؟ فقال : « هذا أثنيتم عليه خيراً فوجبت له الجنة ، وهذا أثنيتم عليه شراً فوجبت له النار ، أنتم شهداء الله في الأرض » ، ثم أثنى عليهم تعالى بكثرة الأعمال مع الإخلاص وسعة الرجاء في فضل الله ورحمته بابتغائهم فضله ورضوانه ، وبأن آثار ذلك الإخلاص وغيره من أعمالهم الصالحة ظهرت في وجوههم ، حتى أن من نظر إليهم بهره حسن سمتهم وهديهم ، ومن ثم قال مالك رضي الله عنه : بلغني أن النصارى كانوا إذا رأوا الصحابة الذين فتحوا الشام ، قالوا : والله لهؤلاء خير من الحواريين فيما بلغنا ، وقد صدقوا في ذلك ، فإن هذه الأمة المحمدية خصوصاً الصحابة رضوان الله عليهم لم يزل ذكرهم معظماً في الكتب السماوية ، كما قال تعالى في هذه الآية : (**ذلك مثلهم**) أى وصفهم (**في التوراة ومثلهم**) أي وصفهم (**في الإنجيل**) .

وقوله تعالى : (**كزرع أخرج شطئه**) إلخ مثل للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه في كونه عليه الصلاة والسلام بعث وحده ، فكان كالزرع حبة واحدة يبدو بعد البذر ضعيفاً ، فيقوى حالا بعد حال حتى يغلظ نباته ، وشطء الزرع نباته وفراخه والجمع أشطاء ، وفي كون أصحابه كانوا قليلين أول دعوته إلى الله ثم لازالوا يزدادون ويكثرون .

والمعنى : هم أي محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضوان الله عليهم كزرع أخرج شطأه أي فراخه ، فآزره أي شده وقواه ، (**فاستغلظ**) أي شب وطال ، (**فاستوى على سوقه يعجب الزراع**) أي يعجبهم قوته وغلظه وحسن منظره ، فكذلك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم آزروه وأيدوه ونصروه ، فهم معه كالشطء مع الزرع ، وقوله تعالى : (**ليغيظ بهم الكفار**) ابتداء كلام قبله محذوف تقديره : جعلهم الله بهذه الصفة ليغيظ بهم الكفار ، فهو تعليل كما دل عليه تشبيههم بالزرع من نمائهم وترقيهم في الزيادة والقوة ، ويجوز أن يعلق به قوله تعالى : (**وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً**) لأن الكفار إذا سمعوا بما أعد الله لهم في الآخرة مع ما يعزهم به في الدنيا غاظهم ذلك ، ومن في قوله : منهم ، لبيان الجنس لا للتبعيض ، والمعنى وعد الله جميع الصحابة

الجنة ، وكذلك كل من آمن وعمل صالحاً من أمة الإجابة ، روى أبوعروة الزبيري قال : كنا عند مالك بن أنس (الإمام) فذكروا رجلا ينتقص أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ مالك هذه الآية : (**محمد رسول الله والذين معه**) حتى بلغ (**يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار**) ، فقال مالك من أصبح من الناس في قلبه غيظ على أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد أصابته هذه الآية[1] .

والآيات في فضائل الصحابة كثيرة ، ونكتفي بما ذكرناه من الآيات الخمس .

٦ – قال الله تبارك وتعالى في سورة الحديد : (**لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى**)[2] .

والمعنى : لا يستوي في الفضل من أنفق ماله وقاتل العدو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل فتح مكة مع من أنفق ماله وقاتل بعد الفتح ، فقد نفى سبحانه وتعالى المساواة بين من أنفق قبل فتح مكة وبين من أنفق ذلك بعده ، لأن حاجة الناس كانت قبل الفتح أكثر لضعف الإسلام ، وفعل ذلك كان على المنافقين أشق ، والأجر على قدر المشقة ، (**أولئك**) الذين أنفقوا قبل الفتح وهم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ، الذين قال فيهم النبي صلى الله عليه وسلم كما في الصحيح : « لو أنفق أحدكم مثل أُحُدٍ ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه » (**أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا**) أي كل واحد من الفريقين (**وعد الله الحسنى**) أي المثوبة الحسنى وهي الجنة مع تفاوت الدرجات .

قال عطاء : درجات الجنة تتفاضل ، فالذين أنفقوا قبل الفتح في أفضلها ، والتقييد بالإنفاق والقتال خرج مخرج الغالب ، والمراد من اتصف بالإنفاق والقتال بالفعل أو بالقوة عند المحققين ، فهذه الآية تصريح في تفاوت الصحابة رضي الله عنهم في الدرجات والمراتب ، ونص صريح أيضاً في كون جميعهم في الجنة . ا هـ[3] .

(١ ، ٣) ا. هـ. ملخصاً من إتحاف ذوي النجابة .
(٢) سورة الحديد : الآية ١٠ .

فعلم من هذه الآية أن من أسلم في يوم فتح مكة أو أسلم من بعده ، فهـو من الذين شملتهم الآيـة كلها ولاسيما في ختامها (**وكلا وعد الله الحسنى**) أي الجنة .

فلا مسوغ لمن يتـكلم في معاوية أو في أبيه أبي سفيان ، ممن أسلموا يوم الفتح وبعده ، لأن الآية صريحة في ثناء الله عليهم مع تفاوت الدرجات .

وأبو سفيان رضي الله عنه وإن كان قد حارب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقاد الأحزاب ، وأصر على شركه وكفره حتى يوم الفتح ، لكنه بعدما أسلم ، حسن إسـلامه ، حتى ولاه النبي صلى الله عليه وسلم نجران ، وحارب في الفتوحات التي كانت أيام أبي بكر وعمر رضي الله عنهم ، وتزوج النبي صلى الله عليه وسلم ابنته حبيبة رضي الله عنهما .

وكان معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما من كتاب الوحي ، وهو أخو زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، والله سبحانه وتعالى قد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بالمنافقين ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يعرفهم معرفة حقيقية ، وإن كان قد قبل منهم الإسلام الظاهرى ولم يقتلهم ، فلو كان من الصحابة أو بعضهم نفر ، لأخبر الله تعالى النبي صلى الله عليه وسلم عنهم حتى يحذرهم ولا يغتر بهم .

وكان حذيفة بن اليمان رضي الله عنه صاحب سر رسول الله صلى الله عليـه وسلم ، فقـد أفضى إليه النبي صلى الله عليه وسلم أموراً كثيرة لم يفضهـا إلى غيره ، ومنهـا أسماء المنافقين ، حتى قال عمر رضي الله عنه لحـذيفـة بن اليمان : أذكرني رسول الله صلى الله عليه وسلم عندك من المنافقين ، فقال : لا .

وسـؤال عمـر لحذيفة رضي الله عنهما ، مع أعماله الجليلة في نصرة الإسلام ، وخلافته بالعدل الذي اشتهر به ، حتى سلم له الكافرون فضلا عن المؤمنين ، يدل على كمال إيمانه ، وكمال خوفه من الله سبحانه وتعالى ، والخوف من الله نتيجة الإيمان القوي ، ومن كان أعرف بالله كان أخوف منه .

فصل في بعض ما ورد في فضل الصحابة رضوان الله عليهم عموماً من الأحاديث

وإذ ذكرت بعض الآيات القرآنية في فضائل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإليكم الآن بعض الأحاديث الواردة :

١ – أخرج الشيخان وأصحاب السنن من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، ومن بعض طرق عند مسلم قال : كان بين خالد ابن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف شيء فسبه خالد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه » .

٢ – وتواتر عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : « خير الناس قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » .

٣ – وأخرج الترمذي وابن حبان في صحيحه من حديث عبد الله ابن مغفل رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضاً ، فمن أحبهم فبحبي أحبهم ، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم ، ومن آذاهم فقد آذاني ، ومن آذاني فقد آذى الله ، ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه » .

٤ – وروى البزار في مسنده بسند رجاله موثوقون عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله اختار أصحابي على الثقلين سوى النبيين والمرسلين » .

٥ – وأخرج أحمد ومسلم عن أبي موسى : « النجوم أمنة للسماء ، فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد ، وأنا أمنة لأصحابي ، فإذا ذهبت ، أتى أصحابي ما يوعدون ، وأصحابي أمنة لأمتي ، فإذا ذهبت أصحابي ، أتى أمتي ما يوعدون » .

٦ – وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم

قال : « خير أمتي القرن الذي بعثت فيه ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم يخلف قوم يحبون السمانة ، يشهدون قبل أن يستشهدوا » . رواه مسلم .

٧ - وعن عمران بن حصين رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « خير القرون قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، - فلا أدري أذكر مرتين أو ثلاثة - ثم إن بعدهم قوماً يشهدون ولا يستشهدون ، ويخونون ولا يؤتمنون ، وينذرون ولا يوفون ، ويظهر فيهم السمن » .

زاد في رواية « ويحلفون ولا يستحلفون » . رواه البخاري ومسلم والنسائي والترمذي وأبو داود .

الصحابة وبيــان فضائلهم

بعدهم الصديق ثم عمر وبعده عثمان ثم حيدر
يليهم في الفضل باقي العشرة فأهل بدر الكرام البررة
كذاك من بايع تحت الشجرة فأهل أحد الكرام الخيرة

بعد أن أتممت الكلام على الأنبياء ، وبيان فضائلهم ، وفضل بعضهم على بعض ، وبيان فضل آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم من حيث العموم والخصوص ، فأتكلم في بيان فضائل الصحابة رضي الله عنهم عموماً ، ثم أبدأ ببيان رفعة بعضهم على بعض ، مقدماً الصديق كترتيبهم في الخلافة : وإليك البيان مختصراً .

الصديق رضي الله عنه

هو أبو بكر بن أبي قحافة بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر ، ولد لسنتين من عام الفيل ، وشب على الأخلاق الفاضلة والسيرة الكريمة ، وكان ذا يسار يحمل الكل ويكسب المعدوم ، وكان محبباً إلى قريش يعرف من أنسابهم ما لا يعرفه غيره ، وكان حبّاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم قبل النبوة ، فلما شرف الله محمداً برسالته كان أبو بكر أول رجل أجابه حتى قال في ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كبوة غير أبي بكر» رواه ابن إسحاق .

بعض ما ود في فضله من الآيات :

١ - قال الله تعالى : **(وسيجنبها الأتقى الذي يُؤتي ماله يتزكى)**[1] قال ابن الجوزي : أجمعوا أنها نزلت في أبي بكر .

٢ - قال الله تعالى : **(ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا)**[2] .

هو الصاحب بإجماع المسلمين ، ولهذا يكفر من أنكر صحبته لتكذيبه القرآن .

٣ - وقال تعالى : **(والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون)**[3] .

---

(١) سورة الليل : الآيتين ١٧ - ١٨ .

(٢) سورة التوبة : الآية ٤٠ .

(٣) سورة الزمر : الآية ٣٣ .

فالذي جاء بالصدق هو النبي صلى الله عليه وسلم ، وصدق به هو أبو بكر ، وإن قيل إن الآية عامة في كل من صدق بالنبي عليه الصلاة والسلام ، فأبو بكر في المقدمة لأنه أول من أسلم من الرجال الأحرار ، ومن الصبيان علي ، ومن الأرقاء بلال ، ومن الموالي زيد بن حارثة ، ومن النساء خديجة بنت خويلد .

٤ – ومما جاء مع تشريك عمر له في الفضيلة قوله تعالى : **(وشاورهم في الأمر)**[١] .

عن ابن عباس أنها نزلت في أبي بكر وعمر ويؤيده ما ورد : « إن الله أمرني أن أستشير أبا بكر وعمر » .

٥ – وقوله تعالى : **(فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين)**[٢] ، أخرج الطبراني عن ابن عمر وابن عباس أنها نزلت فيهما .

بعض الأحاديث الواردة في فضله :

١ – ورد في الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم : « لو كنت متخذاً خليلاً غير ربي ، لاتخذت أبا بكر خليلاً ، ولكن أخوة الإسلام » .

٢ – وأخرج الشيخان عن عمرو بن العاص أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أي الناس أحب إليك ؟ قال : عائشة ، قلت من الرجال ، قال : أبوها ، فقلت : ثم من ؟ قال : عمر بن الخطاب » .

٣ – وأخرج مسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه والحاكم والبيهقي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أرحم أمتي بأمتي أبو بكر » .

٤ – كما أخرج الترمذي عن علي أن رسول الله قال : « رحم الله

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١٥٩ .

(٢) سورة التحريم : الآية ٤ .

أبا بكر ، زوجني ابنته ، وحملني إلى دار الهجرة ، وأعتق بلالاً من ماله ، وما نفعني مال في الإسلام ما نفعني مال أبي بكر » .

٥ - وثبت أنه بشر بالجنة ، وذكر في الصواعق في فضله سبعين حديثاً ، وتواتر عن علي رضي الله عنه : خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر وعمر ، وأنه قال : لا يفضلني أحد على أبي بكر وعمر إلا جلدته حد المفتري[١] .

خلافتـه :

في السنة الحادية عشرة من الهجرة يوم الإثنين ١٣ ربيع الأول لحق صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى ، لم يرَ المسلمون حينئذٍ بداً من إقامة من يخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم في خلافة المسلمين ، ومن الواضح والمحقق أن الكتاب لم يشر أي إشارة إلى تعيين بيت أو بطن أو شعب يكون منه خليفة المسلمين ، وأما الرسول فقد وردت عنه أحاديث تدل على خلافة أبي بكر وسيأتي بيانها إن شاء الله تعالى ، كما اجتمع كبار الأنصار في سقيفة بني ساعدة من الأوس والخزرج يريدون انتخاب خليفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان نظرهم متوجهاً إلى اختيار سعد بن عبادة أحد النقباء الذين انتخبوا ليلة العقبة ، لأن سعـداً خطب فيهم مبينـاً ما للأنصار من الفضل والسبق إلى حماية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبلغ هذا الاجتماع كبار المهاجرين أبا

(١) روى المحـدثـون والمؤرخـون هذا عنه من أكثر من ثمانين وجهاً ، ورواه البخاري وغيره ، وكان علي رضي الله عنه يقول : «لاأوتي بأحد يفضلني على أبي بكر وعمر إلا ضربته حد المفتري . .» ولهذا كان الشيعة المتقدمون متفقين على تفضيل أبي بكر وعمر ، ونقل عبد الجبار الهمداني في كتاب (تثبيت النبوة) أن أبا القاسم نصر بن الصباح البلخي قال في كتاب (النقض على ابن الراوندي) : سأل سائل شريك بن عبد الله فقال له : أيهما أفضل ؟ أبو بكر ، أو عمر ؟ فقال له : أبو بكـر . فقال السائل : تقول هذا وأنت شيعي ؟ فقال له : نعم ، من لم يقل هذا فليس شيعياً !! والله لقد رقي هذه الأعواد علي فقال : «ألا إن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر ، فكيف نرد قوله ، وكيف نكذبه ؟ والله ما كان كذاباً !!» .

بكر وعمر وغيرهما فساروا إلى السقيفة مسرعين ، وأراد أن يتكلم عمر فقال له أبو بكر : على رسلك ، ثم تكلم فذكر تاريخ المهاجرين وما لهم من فَضل السبق ، وتحمل المصاعب في سبيل دينهم ، ثم كر على ذكر الأنصار فأثنى عليهم ولم يترك شيئاً مما لهم من المآثر إلا ذكره ، ثم ذكر لهم ما ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم من تخصيص قريش بالخلافة ، كما بين لهم مصلحة الاتفاق ، ومضار الشقاق ، ثم تكلم أبو عبيدة قائلا : يا معشر الأنصار ، إنكم أول من نصر وآزر ، فلا تكونوا أول من بدل وغير ، فقام بشير بن سعد وهو من بني زيد بن مالك من الخزرج مؤيداً لكلمة المهاجرين ، فقال أبو بكر : هذا عمر ، وهذا أبو عبيدة ، فأيهما شئتم فبايعوا ، فأبوا أن يتقدما عليه لما له من الفضل والمناقب ، ولاسيما وقد قدمه صلى الله عليه وسلم للصلاة بالناس ، فمد عمر يده فبايعه ، ثم أبو عبيدة ، ثم بشير بن سعد ، ثم أقبل الناس من كل جانب يبايعون أبا بكر حتى كادوا يطئون سعد بن عبادة ، ولم يتخلف عن هذه البيعة إلا علي بن أبي طالب والزبير والعباس معتذرين بأنهم أخروا عن المشورة ، مع أن لهم فيها حقاً لا القدح في خلافة الصديق ، قيل:تأخر علي ثلاثة أيام،وقيل:ستة أشهر لما رأى من فاطمة ما رأى ، ثم بايع واعتذر بما تقدم مبيناً عظم حق أبي بكر ومزاياه الحميدة ، وبهذا تمت البيعة لأبي بكر ، وانعقد الإجماع على صحة خلافته[1] ، ولم يأت علي ولا العباس بدليل يعارضون به خلافته مع

---

(١) روى البخاري أن الإمام علياًعندما أراد مبايعة الصديق رضي الله تعالى عنهما أرسل إليه فجاءه ، فتشهد علي فقال : إنا قد عرفنا فضلك وما أعطاك الله ، ولم ننفس عليك خيراً ساقه الله إليك ، ولكنك استبددت علينا بالأمر ، وكنا نرى لقرابتنا من رسول الله ﷺ نصيباً ، حتى فاضت عينا أبي بكر ، فلما تكلم أبو بكر قال : والذي نفسي بيده ، لقرابة رسول الله أحب إليَّ أن أصل من قرابتي ، وأما الذي شجر بيني وبينكم من هذه الأموال فلم آل فيها عن الخير ، ولم أترك أمراً رأيت رسول الله ﷺ يصنعه فيها إلا صنعته ، فقال علي لأبي بكر : موعدك العشية البيعة ، فلما صلى أبو بكر الظهر رقى على المنبر فتشهد ، وذكر شأن علي وتخلفه عن البيعة ، وعذره بالذي اعتذر إليه ، ثم استغفر وتشهد علي ، فعظم حق أبي بكر ، وحدث أنه لم يحمل على

مالهم من النصرة والمنعة والشوكة والقوة ، يوضحه أن الأنصار لما كان لديهم ما يورث شبهة استحقاقهم عارضوا في الابتداء ، ثم بعد بيان البرهان رجعوا مذعنين للمهاجرين مبايعين أبا بكر ،وحيث أن علياً ومن معه لم يبدوا شيئاً دل على صحة خلافته .

بعض الآيات المشـــيرة لخلافته ، وإذا صحت خلافته فغيره تبعاً له :

١ - قال تعالى : **(يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم)**[(١)] .

من المعلوم أن حين ما ذاع خبر وفاته صلى الله عليه وسلم ، ارتدت طوائف كثيرة من العرب ، منهم من ارتد عن الدين خالعاً ربقته بالكلية ، ومنهم من منع الزكاة ، فجاهدهم أبو بكر حق الجهاد ، وأظهر من صدق العـزيمة وقوة الشكيمة ونهاية الشجاعة ما أعجب به أولوا الألباب ، واعترفت له جميع الأصحاب ، وأعز الله به الدين ، وجمع الله به كلمة المسلمـين ، وأذل الله به الكـافـرين ، كمـا أعـز به المؤمنين بجهاده المستميت لرفـع كلمـة التـوحيـد ، وإظهار شعائر الإسلام والمسلمين والموحدين ، بما يبرهن بأن الآية دالة على صحة خلافته ، ومشيرة لكمال فضله .

الذي صنع نفاسة على أبي بكر ، ولا إنكاراً للذي فضله الله به ، ولكنا نرى لنا في هذا الأمر نصيباً فاستبد علينا ، فوجدنا في أنفسنا ، فسر بذلك المسلمون وقالوا : أصبت .

وروى مسلم أكثر من رواية تفيد ما سبق ، وفي إحدى رواياته : ثم قام علي فعظم من حق أبي بكر ، وذكر فضيلته وسابقته ، ثم مضى إلى أبي بكر فبايعه ، فأقبل الناس إلى علي فقالوا : أصبت وأحسنت ، كتاب (الجهاد) باب قول النبي ﷺ لا نورث ما تركنا فهو صدقة ، واستبد بالأمر ، إذا انفرد به من غير مشارك له فيه ، وقول الإمام : ولكن استبددت علينا بالأمر ، أي لم تشاورنا في أمر الخلافة .

(١) سورة المائدة : الآية ٥٤ .

٢ - ومنها قوله تعالى :(**وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم**) [١] .

ففي هذه الآية دلالة واضحة على صحة خلافته ، وخلافة الثلاثة ، حيث أن الله لا يخلف وعده ، فقد تم وعده لهؤلاء الراشدين باستخلافهم وتمكينهم وحيازتهم النصر المبين ، ونشر الإسلام والدين وجهاد أعداء الله الكافرين ، ورفع منار الدين الحنيف ، وتدويخ تلك الممالك العظيمة الشاسعة التي شيدت فيها صروح الإسلام ، وذكر على منابرها اسم الله واسم محمد ، وذلك لما اتصفوا به من الإيمان الكامل والعمل الصالح والنصح والإخلاص ، ولا ريب أنه لم تكن الآية إلا عن المستقبل كما يصرح به (**كما استخلف الذين من قبلهم**) ولم يحصل ذلك الاستخلاف والتمكين إلا لهؤلاء الراشدين المهديين ، وأئمة أهل البيت لم يحصل منهم ذلك ، فلا يجوز أن يمنحوا بما هنالك .

٣ - ومنها قوله تعالى : (**للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون والذين تبؤوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم**)[٢] .

فقد وسمهم بسيما الصدق بصيغة الحصر بعد أن وصفهم بالهجرة وابتغاء الفضل ونصر الله ورسوله ، ثم ذكر الأنصار مثنياً عليهم ، وحكم لهم بالفلاح بقوله : (فأولئك هم المفلحون) وقد اتفقت كلمة من سماهم صادقين ومن حكم لهم بكونهم مفلحين على بيعته واصطفائه وتسميته خليفةرسول الله، فثبتت صحتها وجدارتها بالرشد والفلاح ، وإلا لزم كونهم غير صادقين وغير مفلحين ، وذلك واضح بطلانه وشناعته بمكان لا يخفى .

---

(١) سورة النور : الآية ٥٥ .

(٢) سورة الحشر : الآية ٩ .

بعض الأحاديث الواردة المشيرة لخلافته ، أو الناصة عند من يقول ثبتت بالنص :

١ - أخرج الشيخان عن جبير بن مُطعم قال : « أتت امرأة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأمرها أن ترجع إليه ، فقالت : أرأيت إن جئت ولم أجدك كأنها تقول الموت ، فقال : إن لم تجديني فأتى أبا بكر » .

٢ - أخرج مسلم عن عائشة قالت : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم في المرض الذي مات فيه : ادعي لي أباك وأخاك حتى أكتب كتاباً ، فإني أخاف أن يتمنى متمنٍ ، أو يقول قائل : أنا أولى ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر .

٣ - وثبت عند الموافق والمخالف لأنه متواتر ، أنه قدم أبا بكر للصلاة بالناس مع حضور المهاجرين والأنصار ومنهم علي .

٤ - وأخرج ابن عساكر عن علي : لقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر أن يصلي وإني لشاهد وما أنا بغائب وما بي مرض ، فرضينا لدنيانا مارضيه النبي صلى الله عليه وسلم لديننا .

٥ - وثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين . رواه أبو داود والترمذي ، وقال : حديث حسن صحيح .

ففي هذه الأحاديث واضح البيان وساطع البرهان على صحة خلافته ، كما صحت خلافة من بعده ، ومن لم يقل بالنص يقول : صحت بيعة المهاجرين والأنصار ، وإن لم يكن هناك نص عن النبي المختار ، كيف وقد جاءت الأحاديث الكثيرة الدالة في بعضها على فضائله ومناقبه الحميدة ، وفي بعضها الإشارة إلى خلافته ، ولاشك أنه أجدر وأحرى من غيره ، لما امتاز به من الخلال المحمودة وتلك المناقب المشهورة .

شبه الشيعة ودحضها :

للشيعة شبه منسوجة من خيالات أفكارهم الفاسدة ، يروجونها على خفافيش الأبصار وحلفاء الجهل ، وهي مبنية على شفا جُرف هار ، مسبوكة في قوالب حب أهل البيت ورد الحق لأهله ، وتحته تقويض لصرح الدين الحنيف ، لأن مؤسس المذهب كان يهودياً دخل الإسلام نفاقاً بقصد الإفساد وهدم عروشه المشيدة ـ اسمه عبد الله بن سبأ [١]، فأخذ يتظاهر بحب أهل البيت ، وتنقيص الخلفاء ، وازدراء بالصحابة ونسبتهم إلى الغصب والحيف ، وترويجاً لتعاليمه المسمومة ، أخذ ينوع مقالاته بحسب ما تواتيه الظروف ، وبحسب الأقوام جهالة وعلماً ، وقد ذكر علماء الملل والنحل والباحثون عن الفرق والمذاهب والتواريخ أخباره ومذهبه كسائر الفرق ، بما يغنينا ويكفينا عن الإتيان به ، لأن القصد هنا الإيجاز .

بيان شبهات الشيعة حول خلافة أبي بكر :

١ - قالوا : إن أبا بكر ومن معه قد ظلموا علياً بجعلهم الخلافة للصديق ثم عمر وهكذا ، لأن علياً ابن عم الرسول وزوج بنته وهو إمام معصوم ، والمعصوم أحق بالخلافة ، ، كما زعموا أن هناك آيات قرآنية تنص على خلافته ، والنبي صلى الله عليه وسلم جعله وصياً وخليفة من بعده ، مؤيدين تلك المزاعم بأحاديث أكثرها مختلق موضوع ، والصحيح منها لا يمت بأي صلة بالخلافة كزعمهم في الآيات القرآنية .

والجواب :

الخلافة لاشك من الأمور التي يهتم بها ، لهذا قدموها على دفنه صلى الله عليه وسلم ، ولو كان هناك برهان على إمامة علي أو غيره يقضي على الشكوك والأوهام والاحتمالات والتأويلات ، لما كان هناك مجال لأن يتحاور المهاجرون والأنصار ، وكل يريد رجلا من قبيلته ، وغاية ما هناك أحاديث يؤخذ منها بأن الخلافة تصلح لفلان ، فإن كان هذا ، فما أتى

---

(١) وسنتكلم عنه تفصيلا إن شاء الله تعالى في موضع آخر عند الحديث عن ذي النورين سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه .

في أبي بكر أصرح وأوضح مما أتى لعلي ، وعلي لم يأت بأدنى مستمسك يشم منه رائحة دعوى الخلافة ، والقوم ما كانوا معروفين بالظلم والاستبداد ، ولم يكونوا من بيوت الأكاسرة والقياصرة حتى أنهم لا يقبلون نصوص الحق ، بل كانوا معروفين بالديانة الكاملة ، وكانوا يخضعون تمام الخضوع لأوامر الشرع ، لا يخافون في الله لومة لائم ، ووسع عدلهم جميع العباد ، وطبقت شهرتهم جميع الآفاق ، وكتب التاريخ على اختلاف أنواعها وتباين مشارب مؤلفيها شاهدة بذلك ، فكيف يقال : لم يعترفوا بالحق ؟ وعلي لاشك أنه أعلم من أئمة المذهب الإمامي في معرفة جميع الأخبار ، ولاسيما نصوص الخلافة التي هي حقه بزعمهم ، فكيف يكون هو يعلم ولا يبدي أي برهان لأخذ حقه ؟ ، وحيث لم يكن هذا ، لزم أن هؤلاء بزعمهم أعلم من علي وأولاده ، ولا تنفعهم كلمتهم بأنهم ما سمعوا منه ولم يقبلوا كلامه ، لأن القوم كما ذكرنا كانوا إذا أصابت امرأة أو أحقر إنسان الحق ، قبلوه ورفضوا قولهم لقوله ، فكيف بأمير المؤمنين ؟ على أن القوم لم يكونوا في غابر الزمن مع علي في حالة سيئة ، ولم يكن هناك أدنى شيء من الضغن والحقد والبغضاء[1] ، حتى يقال تلك أورثت هذه .

---

(١) وما تقوله الشيعة منْ أن كانت أحقاد من قريش على علي رضي الله عنه ، لأنه قتل صناديد قريش في الغزوات ، ومن هنا تكالبوا عليه وظلموه بدافع الحقد والانتقام ؟

فالجواب : أولا : أن علي بن أبي طالب لم ينفرد في الغزوات بالقتل فقط ، بل تلك الغزوات ، علي وغيره شاركوا في القتل والأسر ونصر الإسلام ، وهذه من الأمور الواضحة التى لا تفتقر إلى إقامة دليل ، بل قراءة سيرة النبي ﷺ ولاسيما تلك الغزوات والجهاد يبرهن لنا صحة ما قلنا ، وخطأ ما قالوا .

وثانياً : على الفرض أن هناك كانت أحقاد ، فالإسلام قضى عليها قضاء مبرماً ، فالقوم كانوا بعد الشر والضلال ، وبعد ما جرى بينهم من أيام الجاهلية خصوصاً بين الأوس والخزرج ، فإن الإسلام جب كل ما سبق ، وأبدلهم إيماناً قوياً ، لا يبالي الرجل منهم في نصر الدين بابن ولا بأخ ، فترى بعضهم يأسر أخاه المشرك ويشد عليه لأن أمه غنية ، وقتل بعضهم بعض أقاربه كأبي عبيدة قتل أباه ، ومصعب بن عمير قتل أخاه ، وكل من قرأ سيرة الصحابة بإنصاف ، يرى أن القوم منزهون عن إثارة الأحقاد ، والكلام في هذا يطول ، وسيرة النبي ﷺ وأصحابه شاهدة بذلك ، فلن نطيل الكلام عن هذا .

ونقول ثانياً : أبو بكر مثلا أو عمر يريد الخلافة ، فما بال بقية المهاجرين والأنصار ؟ هل كل فرد يريد لنفسه الخلافة ، هذا غير معقول ، فإن كان لأجل المال ، فعبد الرحمن بن عوف وعثمان والزبير كانوا من الأغنياء المكثرين ، فلماذا يكون أبو بكر وهو فقير ؟ وإن كان بالقرب والوراثة ، فالعباس أقرب ، فلماذا أبو بكر ؟ وإن كان بالعشيرة والمنعة ، فما كان بنو هاشم وبنو المطلب وبنو عبد مناف أقل من أبي بكر ، بل كانوا أعز وأكثر وأمنع .

وثالثاً : هل القرآن نزل بعد علي والأحاديث ؟ لأننا نرى هذه الاستدلالات نسجتها علماء المذهب بعد علي ، أكان علي لم يعرف ، أم هؤلاء أعلم ؟ ، قال بعضهم : لم يقل علي لأنه رأى أن الكلام لايفيد وأظهر التقية ، نقول : إن هذا كما يقال عذره أقبح من فعله ، ولا يخفى ما فيه من نسبة الجبن والخور والضعف لأمير المؤمنين وأحد الخلفاء الراشدين ، وأقوالهم كلها متناقضة ومضطربة لأنها من خيالات الأذهان ، لا مؤيدة بنص القرآن ، فتارة يقولون : خليفة معصوم .

وتارة يقولون : القرآن نزل في إثبات خلافته ، وأنه طالب وادعى ولم يظفر ولم ينتصر مع قولهم : إنه منصور ومؤيد من الله ، وتارة يقولون : لم يدع لكونه لا تفيد الدعوى مع القوم ، ويعنون الصحابة ، أو للتقية ، وتارة يقولون : يوحى إليه وإلى الأئمة ، وأخرى يقولون : إن مصحف علي وفاطمة غير هذا المصحف ، إلى غير ذلك مما لا يخفى شناعته واضطرابه ، فنقول : قولهم للتقية باطل بالبديهة كما سبق ذكره ، لأنه لماذا لم يتسلح بسلاح التقية مع طلحة ومعاوية ، ولماذا حارب ؟ ، وما خاض غمار الحرب إلا لما رأى أن معه ما يؤيده من البرهان ، ما يتضح بكل جلاء أنه احتج على معاوية بكونه خليفة ببيعة من بايعوا أبا بكر كما في نهج البلاغة المقدس والمعتمد لديهم ، ولما لم يبد أدنى دليل مما يؤيد كون الخلافة له عند بيعة الصديق ، علم أنه لم يكن يرى أنه أحق بالخلافة ، وأن خلافة الصديق كانت صحيحة بلا ريب .

وعلى فرض أنه كان معه سلاح من البرهان الذي يكفل له ثبوت أحقيته ، فحيث لم يأت به ، وأولئك ما كان معلوماً لديهم ، فلا مجال للوم وتخطئة أولئك الأبرار ، فإن قالوا : لأنه علم أن القوم لا يؤازرونه ولا ينصرونه ، ولاينضمون تحت لوائه ؟ قلنا : لا يصح هذا ، لأنهم لما اشتبك مع طلحة ومعاوية قام كثير منهم معه ، فثبت بطلان هذه المزاعم .

وقولهم : إن هناك آيات وأحاديث تنص بعضها ، ويؤخذ من بعضها أحقية خلافته .

فجوابه : لم يكن شيء من ذلك كما ذكرنا ، ولو وجد لما كانوا يأبون ، وقد عهد انقيادهم التام لأوامره صلى الله عليه وسلم ، وقد آزروه ونصروه وأنفقوا أموالهم وباعوا مهجهم في سبيل تأييده ونصره ، فكيف يقال : إنهم خالفوا أمره ؟ اللهم إن هذا مستحيل ، وقد أثنى الله عليهم في كتابه ، كما تصرح بذلك عدة آيات كقوله تعالى :(**والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه**) الآية ، فقد أخبر الله أنهم من السابقين ، وأنهم ممن نالوا رضاه ، وهل يرضى الله عن قوم يخالفون أمره وأمر رسوله ، ويظلمون أهل بيت نبيه المطهر ؟ ، وهل لا يعلم الله بأنهم في المستقبل سيكونون خارجين عن الطاعة ، وأن هذا الإسلام الذي ينتحلونه لم يتمكن من قلوبهم ؟ أم هؤلاء مقالاتهم خاطئة ، يبين هذا أن المنافقين في عصره صلى الله عليه وسلم كانوا معتنقي الإسلام ، وخاضعين لأوامره ظاهراً ، وحيث أن قلوبهم تخالف ظواهرهم ، وأن ذلك تصنع ونفاق ، هتك الله أستارهم ، وسجل عليهم الكفر والنفاق والكذب في المقال كما في قوله تعالى : **(إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله ، والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد أن المنافقين لكاذبون)** الآية .

وهل كان شيء من ذلك في هؤلاء الأبرار ؟ ، فليوجدوا لنا ولو كلمة واحدة .

يقـول الله تعالى : (**محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفـار رحمـاء بينهم تراهم ركعـاً سجـداً يبتغون فضلا من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطئه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً**)[1] .

تأمـل هذه الآيـة لاسيمـا قوله : (**أشداء على الكفار**) وقوله : (**ليغيظ بهم الكفار**) ، ووازن بين الآية وقول هؤلاء : إنهم غصبوا حقه ، وتجبروا عليه وعلى أهل البيت ، وكانوا شديدين عليه وعلى أهل البيت ، تجد الطعن والازدراء ونسبة الكفر إلى الإمام علي ، وحاشاه كما لا يخفى ، لأنه نعتهم بأنهم أشداء غلاظ على الكفار ، وهنا لا محيص من أحد أمرين : إما ما قلنا أولا في حق الإمام ، وإما أن هؤلاء خارجون من ربقة الحق كما هو واضح .

٢ - **وقولهم** : إن الأمير كان متظلماً ومشتكياً ومعلناً بأنه مظلوم ومقهور مدة حياته في زمانهم .

فالجـواب أن نقـول : بطلان هذا أجـلى من الشمس في رائعة النهـار ، كمـا يعلم مما سلف ، ومما يبطل هذه المزاعم ، ويهدم تلك الأسس المبنيـة على شفا جرف هار ، ثناء الله عليهم ، وثناء رسوله ، وثناء جميع الناس ، لاسيما ثناء أمير المؤمنين وعترته الطاهرين ، فقد ثبت في نهج البلاغة أن عمر رضي الله عنه لما أراد الخروج إلى دفع فتنة نهاوند ، استشار علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال له : إن هذا الأمـر لم يكن نصره ولا خذلانـه بكثرة ولا بقلة ، وهو دين الله الذي أظهـره ، وجنـده الذي أعزه حتى بلغ ما بلغ ، وطلع حيث ما طلع ، ونحن على موعـد من الله ، والله منجز وعده ، وناصر جنده ، قال الله تعالى : (**وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في**

---

(١) سورة الفتح : الآية ٢٩ .

الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك أولئك هم الفاسقون)[(١)] .

ومكان القيم في الإسلام مكان النظام من الخرز ، فإن انقطع النظام تفرق وذهب ثم لم يجمع أبداً ، والعرب وإن كانوا قليلا ، فهم كثيرون بالإسلام ، عزيزون بالاجتماع ، فكن قطباً ، واستدر الرحا بالحرب ..

انظر نصح الأمير لعمر وإخلاصه ، وثنائه عليه ، والإشارة بالرأي السديد ، والاستدلال بنصره وتمكينه بالآية الشريفة ، هل يتفوه بالثناء على الغاصب الجائر ، وهل يكون لهم عيناً وناصراً ومشيراً ؟ .

وإليك ثناء الأمير على أبي بكر في رواية محمد بن عقيل بن أبي طالب ، أنه لما قبض أبو بكر الصديق ، وسجى عليه ، ارتجت المدينة بالبكاء كيوم قبض فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاء علي باكياً مسترجعاً وهو يقول : اليوم انقطعت خلافة النبوة ، فوقف على باب البيت الذي فيه أبو بكر مسجى فقال : « رحمك الله أبا بكر ، كنت إلف رسول الله وأنيسه ومستروحه ، وموضع سره ومشورته ، كنت أول قومه إسلاماً ، وأخلصهم إيماناً،وأشدهم يقيناً ، وأخوفهم في الله ، وأعظمهم غناء لدين الله ، وأحوطهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأشفقهم عليه ، وأحبهم صحبة ، وأكثرهم مناقباً ، وأفضلهم سوابق ، وأرفعهم درجة ، وأشبههم برسول الله صلى الله عليه وسلم هدياً وسمتاً ورحمة وفضلا وخلقاً ، وأشرفهم عنده منزلة ، جزاك الله عن الإسلام وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن المسلمين خيراً ، كنت عنده بمنزلة السمع والبصر ، صدقت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين كذبه الناس ، إلى أن قال : ورفيقه في الهجرة،وخليفته في دين الله ، أحسنت الخلافة حين ارتد الناس ، وقمت بما لم يقم به خليفة نبي ، نهضت حين وهن أصحابك ، ولزمت منهاج رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ كنت خليفة

(١) سورة النور : الآية ٥٥ .

حقاً ، ثم أخذ علي في الثناء عليه وأكثرها في نصر الحق ، وقوة الإيمان ، وإعلاء كلمة الله بما هو جدير به ، إلى أن قال : شأنك الحق والصدق والرفق ، فجللت عن البكاء ، وعظمت رزيتك ، إنا لله وإنا إليه راجعون » .

هذه قطرة من بحر ثناء أمير المؤمنين علي بن أبي طالب على الصديق ، فهل يبقى بعد هذا أدني شك وريب في أن ما عليه زعماء الإمامية ، من توليد آرائهم وخيالة أذهانهم ، ليس له نصيب من الحق والبرهان ؟ ، وقد اشتهر عند أهل الحديث ، ونقلت الأخبار في ثناء أمير المؤمنين وعترته الطيبين بما لا مزيد بعده على الصحابة ، ولاسيما على الخلفاء الراشدين .

فإن زعموا أن ما يرويه أهل السنة من ثناء علي ، وإقراره بالفضل لأولئك ، وعدم طلبه للخلافة هو مما وضعه ونسجه علماؤهم .

قلنا : إن هذا الكلام من البطلان بمكان لا حاجة إلى تدعيمه بالحجة .

أولا : إن أهل السنة وعلى الأخص علماء الحديث مشهورون بالديانة الكاملة ، وتحري الصدق في نقل الخبر وإذاعته ، كما أنهم متصفون بقول الحق والحكم العدل مع خصومهم من مختلف المذاهب والآراء ، فكيف يصح أن يقال إن هذا مما أوحت أذهانهم وولدته أفكارهم ، على أن أهل التاريخ من مسلم وكافر وسنّي وغيره قد باح بهذا وقرره معترفاً به ، فأنى يصح بعد هذا ما يقولون ؟ وأي غرض للناس في نقل مثل هذه الآثار ، بل تواريخهم التي ألفتها علماؤهم ذكرت هذا .

ثانياً : إن جاز هذا ، جاز لنا أن نقول : ما أوردتم وذكرتم من تلك الشبه والاستدلالات المزعومة لأحقية أمير المؤمنين ، ودعوى أنه كان مظلوماً ومضطهداً ، إلى آخر تلك الكلمات التي هي أشبه بالسخف والهذيان في أن تسمى دليلا وبرهاناً ، هو من نسيج زعماء المذهب ، ولم يكن شيء من هذا ، على أن من أنكر الواضحات والأمور المتواترات مثل هذا القرآن الشريف المعجز ، المجمع عليه أنه محفوظ من قبل الله من

أن تعتريه أيدي الزيادة والنقصان ، قد زعموا أنه قد اعتراه النقص والتحريف من الصحابة ، وحاشاهم وهم أجل قدراً ، ومثل تزويج علي ابنته لعمر قد زعموا إنكار ذلك ، أو أنها كانت جنية ، ليس ببعيد عليهم إنكار ذلك الثناء ، أو إنكار فضائل الصحابة التي رواها الجم الغفير ، واشتهرت لدى المسلمين والكافرين من اليهود والنصارى والمجوس والمشركين ، حتى أنهم لما رأوا تلك الخلال الحميدة وتلك العدالة التامة التي ما طرق البشر مثلها ، تهافت الكثير منهم على دخول هذا الدين الحنيف ، ولوضوح ما قلنا من الفضائل لدى المسلمين وغيرهم من مختلف المذاهب والنحل يصح فيه أن يقال :

وليس يصح في الأذهان شيء   إذا احتاج النهار إلى دليل

وإن بدلوا حسنات الصحابة بسيئات نسبوها،فيقال لهم :

وهبني قلت: هذا الصبح ليل   أيعمى العالمون عن الضياء

٣ – ومنها : أن أبا بكر لم يعط فاطمة رضي الله تعالى عنها من تركة أبيها صلى الله عليه وسلم حتى قالت : يا ابن أبي قحافة : أنت ترث أباك وأنا لا أرث أبي ؟ واحتج أبو بكر على عدم توريثها بما رواه هو فقط من قوله صلى الله عليه وسلم : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه صدقة » مع أن هذا الخبر مخالف لصريح قوله تعالى : (**يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين**)[1] فإنه عام للنبي وغيره ، ومخالف أيضاً لقوله تعالى : (**وورث سليمان داود**)[2] وقوله تعالى : (**فهب لي من لدنك ولياً يرثني ويرث من آل يعقوب**)[3]

وجوابه : أن أبا بكر لم يمنع فاطمة من الإرث لعداوة وبغض ، بدليل عدم توريثه الأزواج المطهرات حتى ابنته الصديقة ، بل السبب في ذلك سماعه للحديث بأذنه منه صلى الله عليه وسلم ، وقد روى علماء

(١) سورة النساء : الآية ١١ .

(٢) سورة النمل : الآية ١٦ .

(٣) سورة مريم : الآية ٦ .

السنّة هذا الحديث عن حذيفة بن اليمان والزبير بن العوام وأبي الدرداء وأبي هريرة والعباس وعلي وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وسعد ابن أبي وقاص ، فقولهم : إن هذا الحديث رواه أبو بكر فقط غير مسلم عند أهل السنّة ، وروى الكليني في (الكافي) عن أبي البختري عن أبي عبد الله جعفر الصادق عليه السلام قال : « إن العلماء ورثة الأنبياء ، وذلك أن الأنبياء لم يرثوا ولم يورثوا درهماً ولا ديناراً ، وإنما أورثوا أحاديث من أحاديثهم ، فمن أخذ بشيء منها فقد أخذ بحظ وافر » ، وكلمة « إنما » تفيد الحصر ، لما هو مسلم عندهم ، فثبت المدعى برواية المعصوم عندهم ، أما كون هذا الحديث مخالفاً للآيات فجهل عظيم ، لأن الخطاب في (**يوصيكم**) لما عدا النبي صلى الله عليه وسلم ، فهذا الخبر مبين لتعيين الخطاب لا مخصص ، بل لو كان مخصصاً للآية ، فأي ضرر فيه ؟ فقد خصص من الآية الولد الكافر والرقيق والقاتل ، ومما يدل على صحة هذا الخبر لدى أهل البيت : أن تركة النبي صلى الله عليه وسلم لما وقعت في أيديهم ، أخرجوا العباس وأولاده ولم يورثوهم مما ترك صلى الله عليه وسلم ، وكذا لم يورثوا أمهات المؤمنين .

وأما قوله تعالى : (**وورث سليمان داود**) فالمراد النبوة ، فقد روى الكليني عن أبي عبد الله أن سليمان ورث داود ، وأن محمداً ورث سليمان ، فقد علم أن هذه وراثة العلم والنبوة ، وإلا فوراثة نبينا مال سليمان لا يتصور لا شرعاً ولا عقلا ، ولو كان المراد وراثة سليمان مال داود فما وجه تخصيصه بالذكر ، مع أنه كان لداود عليه السلام تسعة عشر ابناً بإجماع المؤرخين .

وعلى ما ذكرنا يحمل قوله تعالى : (**يرثني ويرث من آل يعقوب**) إذ لا يتصور أن يكون يحيى وارثاً لجميع بني إسرائيل ، بل هو وارث زكريا فقط ، فما فائدة ذكر ويرث إلخ . هذا وأما إبقاء الحجرات في أيدي الأزواج المطهرات ، فلأجل كونها مملوكة لهم لا لكونها ميراثاً ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم بنى حجرة لكل زوج من أزواجه ووهبها لهن ، فتحققت الهبة بالقبض ، وهي موجبة للملك كحجرة فاطمة

وأسامة ، ولذا أضاف الله تعالى البيوت لهن في حياة النبي صلى الله عليه وسلم في قوله عز اسمه (**وقرن في بيوتكن**)ا هـ[1] .

٤ - **ومنها قولهم** : إن أبا بكر لم يعط فاطمة رضي الله تعالى عنها فدكاً ، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم وهبها لها ، ولم يسمع دعواها الهبة ، ولم يقبل شهادة علي وأم أيمن لها ، فغضبت فاطمة رضي الله تعالى عنها وهجرته ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في حقها : من أغضبها أغضبني .

الجواب : أن هذا ليس له أصل عند أهل السنة ، بل ذكر في البخاري برواية عروة عن ابن الزبير عن عائشة رضي الله تعالى عنها : طلبت فاطمة رضي الله تعالى عنها فدكاً من أبي بكر ، لا بطريق دعوى الهبة ، بل بطريق الميراث ، وعلى تقدير تسليم روايتهم ، فإن الهبة لاتتحقق إلا بالقبض ، ولايصح الرجوع عنها بعد تصرف المُوهَب في الموهوب ، ولم تكن فدك في عهده صلى الله عليه وسلم في تصرف فاطمة رضي الله عنها ، بل كانت في يده صلى الله عليه وسلم يتصرف فيها تصرف المالك ، فلم يكذبها أبو بكر في دعوى الهبة ، ولكن بين لها أن الهبة لاتكون سبباً للملك ما لم يتحقق القبض ، فلا حاجة حينئذ إلى الشهود ، وما زعموا أنه صدر من علي رضي الله تعالى عنه وأم أيمن محض أخبار ، وأبو بكر لم يقض لا لأنه لم يقبل شهادتهما ، على أنه لو لم يقبلها وردها لكان له وجه ، فإن نصاب الشهادة في غير الحدود والقصاص رجلان أو رجل وامرأتان ، وأما إغضابه إياها فلم يتحقق منه ، إذ الإغضاب إنما هو جعل أحد غضبان بالفعل أو القول قصداً ، وكيف يقصد الصديق إغضاب تلك البضعة الطاهرة ، وقد كان يقول لها مراراً : «والله يا ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إن قرابة رسول الله أحب إليّ أن أصل من قرابتي » ، وليس الوعيد على غضبها ، كيف لا وقد غضبت على الأمير زوجها مراراً ، كغضبها يوم سمعت بخطبة الأمير بنت أبي جهل لنفسه ، حتى أتت أباها صلى الله عليه وسلم

---

(١) من كتاب مختصر التحفة الإثني عشرية .

باكية ، فخطب إذ ذاك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : «ألا إن فاطمة بضعة مني ، يؤذيني ما آذاها ، ويريبني ما رابها ، فمن أغضبها أغضبني » ، وكغضبها يوم ذهب الأمير إلى المسجد ونام على التراب ، ولذلك لقب بأبي تراب ، فقد أتاها النبي صلى الله عليه وسلم وقال لها : أين ابن عمك ؟ قالت : غاضبني فخرج ولم يَقِلْ عندي ، ومع ذلك فقد ثبت عند الفريقين أن غضب فاطمة قد شق على الصديق حتى رضيت عنه ، فقد روى صاحب (محجاج السالكين) وغيره من الإمامية : أن أبا بكر لما رأى أن فاطمة انقبضت عنه وهجرته ، ولم تتكلم بعد ذلك في أمر فدك ، كبر ذلك عنده ، فأراد استرضاءها فأتاها فقال لها : صدقت يا ابنة رسول الله فيما ادعيت ، ولكني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسمها ، فيعطي الفقراء والمساكين وابن السبيل بعد أن يؤتي منها قوتكم والصانعين بها ، فقالت : افعل فيها كما كان أبي رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل فيها ، فقال : ولك الله علي أن أفعل فيها ما كان يفعل أبوك ، فقالت : والله لتفعلن ؟ فقال : والله لأفعلن ذلك ، فقال : اللهم اشهد ، فرضيت ذلك ، وأخذت العهد عليه ، وكان أبو بكر يعطيهم منها قوتهم ، ويقسم الباقي على من ذكر (١) اهـ.

بعض آيات قرآنية زعموا أنها ناصة على خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب :

١ - منها قوله تعالى : (إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون)[٢] .

زعموا أنها إجماعاً نزلت في علي ، وأنه أعطى السائل خاتمه في حالة الركوع ، بدعوى أن إنما تفيد الحصر ، والولي بمعنى المتصرف في الأمور ، والمراد هنا التصرف العام في جميع أمور المسلمين المساوي للإمام بقرينة ضم ولايته إلى ولاية الله ورسوله ، فثبتت إمامته وانتفت إمامة غيره للحصر المستفاد ، وهو المدعى .

(١) من كتاب مختصر التحفة الإثني عشرية ص ٢٤٦ .
(٢) سورة المائدة : الآية ٥٥ .

وإليك بطلان هذه الدعوى ودحضها :

نقول أولا : دعوى الإجماع لنزول الآية في شأن علي رضي الله عنه ، وأنـه قد تصـدق بخـاتمـه في الركـوع ، من الدعاوى الكاذبة ، وكل ما يؤيدون هذه الدعوى بآراء وأخبار وآثار ، كما نقلوا عن أبي ذر ، فكلها مختلقة لا نصيب لها من الصحة ، بل روي عن ابن عباس رضى الله عنه : أنها نزلت في أبي بكر .

فإن قالـوا : لم يثبت ما قلتم ، قلنا : وكذلك لم يثبت مـا ادعيتم .

ثانياً : إن الآية وردت بصيغة الجمع ، وعلي مفرد ، فأنى يصح هذا الزعم ؟ .

ثالثاً : إنه قد استفاض عند المفسرين أن الآية نزلت في النهي عن موالاة الكفار ، والأمر بموالاة المؤمنين ، يوضح هذا أن قال الله تعالى : **(يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض)**[1] ثم ذكر الله مرضى القلوب في محبي الكفار كالمنافقين ، ثم ذكر المرتدين ثم ذكر هذه الآية .

فقـد بينت الآيـة أحـوال داخلي الإسلام من المنافقين والمرتدين والمؤمنين الثابتين ، مما يتضح بأنصع برهان بأنها عامة لكل من اتصف بتلك الصفات السنية ، لا تختص بأبي بكر ولا عمر ولا عثمان ولا علي ، وما أدري أي مدح وأي فضيلة امتاز بها علي في التصدق بذلك التافه ، حتى ينـزل به القرآن يتعبد به آنـاء الليل وأطراف النهار ، ويشهره الرسول على الملأ ، مع أن ما أنفقه أبو بكر وعمر وعثمان وعبد الرحمن ما يعادل أضعاف أضعاف ذلك ، بل تقدر بالألوف ، وقد اشتهر عند أهل الأخبار بما لا يسع أحد جحده ، فكيف ينفق أولئك تلك المبالغ الطائلة في أوقـات الشـدة ، ولا يمنحـون الثناء فضلا عن استحقاق الإمامة ، وهو بالاتفاق مما لايذكر بل يخجل عن ذكره ، يدعى له تلك الادعاءات التي لا تخفى سخافتها وبطلانها ، على أن في نسبة ذلك له

(١) سورة المائدة : الآية ٥١ .

تنقيص ، إذ إعطاء أحد في الصلاة مشعر بعدم الخشوع ، وفعل العبث والحركات فيه ظاهرة ، والتبجح بذلك مما يتنزه عنه الإمام .

رابعاً : إنه يبطل إمامة بقية الأئمة الذين هم من سلالته لدعوى الحصر فيه ، فقد رجع عليهم بالبطلان ، كما أن ظاهره لا يجوز أن يتولى أحد إلا أمير المؤمنين ، وهل هذا إلا نقض لما بناه القرآن وشيده من الحث على موالاة المؤمنين .

خامساً : إن الولي قد نصت معاجم اللغة : بأن معناه مشترك بين المحب والناصر والمعين ، ولم يقل أحد بأنه الوالي أو المتصرف ، إن هذا إلا من خيالات أذهانهم ، وإذا كان بمعنى ما ذكرنا ، فلاشك أن أحداً لا يدعي الخلافة ، ويكفر ويضلل من يخالفه بدعوى أنه محب ، إذ هذه الصفة ثابتة لكل المؤمنين ، إذ يقول الله تعالى : (**إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين**)[1] أكل تواب وآيب إلى ربه يصح له تلك الدعوى الفارغة .

سادساً : إذا سلمنا أنها نزلت فيه ، نقول العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، كما هو متفق عليه عندنا وعندهم ، على أننا نعارضهم بما ثبت من الآيات في شأن الصحابة ، ولاسيما أبي بكر ، فإن زعموا أنها لا تدل على ما نقول ، قلنا : وكذلك لا تدل الآية ونظراؤها على ما تدعون .

* * *

٢ – وقوله تعالى : (**إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً**)[2] .

قالوا : جاء في الحديث: إن النبي صلى الله عليه وسلم أجلس علياً عن يساره ، وفاطمة عن يمينه ، والحسن والحسين بين يديه ، ثم التف عليهم بثوبه ، وتلا الآية : وقال : « اللهم إن هؤلاء أهلي حقاً » ، وفي

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٢٢ .

(٢) سورة الأحزاب : الآية ٣٣ .

رواية : قال : « هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً » ، وهي تدل على عصمتهم مع التأكيد بلفظة إنما ، والمعصوم هو المستحق للولاية ، وقد وقع الإجماع أن نزول الآية في علي وفاطمة والحسن والحسين .

وإليك معاول الهدم لتلك الأبنية الواهية ، وإن كانت لا تحتاج إلى الهدم ، لكن بالنسبة إليهم، لأنهم يرون أن مثل هذه الأبنية منيعة وحصينة .

أولا : **نقول** : دعوى الإجماع من المفسرين أو غيرهم كاذبة خاطئة ، وقد روى المفسرون ومنهم ابن جرير : أن الآية نزلت في نساء النبي صلى الله عليه وسلم،والظاهر من سياق الآية هو هذا ، لأن أولها قوله تعالى : **(يا نساء النبي لستن كأحد من النساء)** إلى قوله : **(واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة)** ، وهذا الخطاب للأزواج الطاهرات ، وهذه الآية مما ثبت أنها لهن ، وهن من أهل البيت لاشك ، ولو صح زعمهم لكانت هذه الآية جملة معترضة بلا قرينة ، ومن غير إشعار على انتهاء السابق وافتتاح الجديد ، وذلك مما تأباه البلاغة ولاسيما كلام الله المعجز ، فإن أردت إيضاح هذا ، فارجع إلى القرآن تجده افتتح قوله في شأن أزواجه **(يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها)** إلى قوله تعالى : **(واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفاً خبيراً)** تجدها كلها في سياق أزواجه ، فمتى صح خروج هذه الآية من بينها وصرفها لأولئك الأربعة ؟ هل هذا إلا تفكيك لنظم القرآن ومنافياً لأسلوب البلغاء ، ومآله الطعن في القرآن ؟ .

وسبب النزول معروف بأن نساء النبي صلى الله عليه وسلم سألنه من عرض الدنيا ، وطلبن زيادة في النفقة ، فنزلت هذه الآية مبينة من الأمر والنهي وجزاء المحسنات من الأجر الجزيل والفضل الجسيم ، يبين هذا أن أم سلمة قالت : أشركني فيهم ، قال : أنت على خير .

ولا يفهم مجنون فضلا عن عاقل ، أن في هذه الآية مستنداً لتلك

المـزاعم ، ولو سلمنا أنها نزلت فيهم ، فأي مناسبة بين دعاء النبي لشخص وبين الخلافة ؟ .

ثانياً نقول : إن الآية لما كانت في سياق الأزواج ، أدخل النبي هؤلاء الأربعة بدعائه المبارك ، إشعاراً منه بأن هؤلاء داخلون في منطقة أهل البيت ، ليقضي على الأوهام أن الآية لا تشمل أهل البيت ، يبين هذا أن الآية لو كانت مختصة بهم لما كان في حاجة إلى الدعاء .

ثالثاً : ورد في الرواية الصحيحة للإمام البيهقي أن النبي عامل العباس وأبناءه هذه المعاملة ، ليبين أنهم داخلون في لفظة أهل البيت ، ولئن صح ما يقولون ، لكان هؤلاء شركاءه في الإمامة ، وهم غير قائلين بذلك ، ومما يبطل ويفضح تلك الأستار والدعاوي ، أن فاطمة كانت فيهم وهي بالإجماع لا تصلح للإمامة .

رابعـاً : هم قدريـة يقـولون : إنـه قد يكون خلاف إرادة الله وبالعكس ، فعلى هذا دعا لهم ، لكن فمن أين لهم بأن الله قبل ذلك الدعاء ، وإن كان دعاء النبي مجاباً ، غير أنه لا يتمشى على أصول القدرية .

خامساً : أقصى ما في الحديث والآية ، أنه دعا لهم بأن يكونوا من المتقين الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم ، واجتناب الرجس واجب على المؤمنين ، والطهارة مأمور بها كل مؤمن ، انظر إلى قوله تعالى : (**ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ، ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم**)[1] ، هل هؤلاء المـؤمنـون مستحقـون للخلافة ، أم ماذا هم قائلون ؟ وحينئذٍ يكون ذهاب الرجس عنهم وتطهيرهم من الذنوب ، هو بعض ما وصف به السابقين الأولين ، لأنه نبأنا بأنه رضي عنهم ، وأعد لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ، وما نالوا تلك المرتبة إلا بعد أن أذهب الله عنهم الرجس .

سادساً : إن كان مجـرد دعاء النبي صلى الله عليه وسلم يمنح رتبـة الخلافة لأحد ، فقد دعـا النبي لأقوام كثيرة بالجنة والمغفرة ،

(١) سورة المائدة : الآية ٦ .

وبمحبة الله وبالتفقه في الدين ، فما بال أولئك لا تكف الإمامية ألسنتها عنهم فضـلا عن خلافتهم وإيمـانهم ، وهـؤلاء تمنحهم الخـلافـة والعصمة ، بل وبعض صـفات الألوهية بمجرد دعاء مشترك ، اللهم إن هذا جور لايقبله الإنصاف .

سابعـاً : دعـواهم العصمـة لعـلي وأولاده وأبنـائهم بمثـل هذا الاستدلال باطلة ، لا نسلم العصمة لأحد إلا للرسل والأنبياء ، وفيهم أيضـاً وقع الخلاف ، وكيف يذعن عاقل لعصمتهم وقد شاهد الناس كثيراً من أفعالهم مما هم مخطئون فيها ، ومحتاجون لأن يتضرعوا إلى الله سائلينه العفو والغفران ، على أن الآية التي عولوا عليها تنادي بعدم عصمتهم ، لأنها تقول : (**إنما يريد الله ليذهب عنـكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً**) ، وهل التطهير إلا من ذنوب ألموا بها ؟ هذا هو الأصل والحقيقة ، إذ لا يقال في حق من هو طاهر:إني أريد أن أطهـره ، ضرورة امتناع تحصيل الحاصل ، وغاية ما في الباب أنهم محفوظون من الذنوب بعد تعلق الإرادة بإذهابها [1] .

والشيعـة لا تقـول بذلك ، لأن وقـوع مراد الله غير لازم لإرادته عندهم ، ومما يوضحه أن الآية جملة فعلية تدل على التجدد والحدوث بالصيغة المضارعية الدالة على المستقبل ، ولو قال : إن الله أذهب عنكم الرجس لكان صحيحاً ما يقولون .

ثامناً : إن كانت هذه الكلمة مانحة للعصمة ، فينبغي أن يكون الصحابة لاسيما الحاضرين في غزوة بدر قاطبة معصومين ، لأن الله قال في حقهم في مواضع من التنزيل : (**ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون**) وقال : (**ليطهركم به وليذهب عنكم رجس**

---

(١) وقع الخلاف في عصمة الأنبياء ، هل معصومون من الصغائر والكبائر ، أم من الكبائر فقط ؟ هذا مع الاتفاق على أنهم معصومون فيما يبلغون عن الله ، والخلاف في غير ذلك .

والصحيح أنهم معصومون من الكبائر ، وقد تقع منهم الصغائر ، ولكنهم يلهمون بالاستغفار والتوبة ، وقد سبق الكلام في الجزء الأول عن عصمة الأنبياء ، فراجعه .

الشيطان) ، وظاهر أن إتمام النعمة في حق الصحابة كرامة زيادة بالنسبة إلى ذينك اللفظين ، ووقوع هذا الإتمام أدل على عصمتهم ، لأن إتمام النعمة لا يتصور بدون الحفظ عن المعاصي وشر الشيطان ، تأمل أيها القاريء أي الفريقين أوضح حجة ، وأبين برهاناً ، وأرجح ميزاناً ؟ .

٣ - قوله تعالى : **(اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً)**[1] .

روى أبو نعيم بإسناده إلى أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا الناس إلى غدير خم ، وأمر بإزالة ما تحت الشجر من الشوك ، فقام فدعا علياً ، فأخذ بضبعيه فرفعهما ، حتى نظر الناس إلى بياض إبطي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم لم يتفرقوا حتى نزلت هذه الآية : **(اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً)** ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الله أكبر على إكمال الدين ، وإتمام النعمة ، ورضا الرب برسالتي ، وبالولاية لعلي من بعدي ، ثم قال : من كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ، وانصر من نصره ، واخذل من خذله » .

والجواب من وجوه :

أحدها : أن المستدل عليه بيان صحة الحديث ، ومجرد عزوه إلى رواية أبي نُعيم لا تفيد الصحة باتفاق الناس : علماء السنة والشيعة ، فإن أبا نعيم روى كثيراً من الأحاديث التي هي ضعيفة ، بل هي موضوعة باتفاق علماء أهل الحديث : السنة والشيعة ، وهو وإن كان حافظاً ، كثير الحديث ، واسع الرواية ، لكن روى كما عادة المحدثين أمثاله ، يروون جميع ما في الباب ، لأجل المعرفة بذلك ، وإن كان لا يحتج من ذلك إلا ببعضه .

---

(١) سورة المائدة : الآية ٣ .

الوجـه الثاني : أن هذا الحديث من الكذب الموضوع باتفاق أهل المعرفة بالموضوعات ، وهذا يعرفه أهل العلم بالحديث ، والمرجع إليهم في ذلك ، ولذلك لا يوجد هذا في شيء من كتب الحديث التي يرجع إليها أهل العلم بالحديث .

الوجه الثالث : أنه قد ثبت في الصحاح والمسانيد والتفاسير أن هذه الآية نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم وهو واقف بعرفة ، وقال رجـل من اليهود لعمر بن الخطاب : يا أمير المؤمنين : آية في كتابكم تقرؤونها ، لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً ، فقال له عمـر : وأي آيـة هي ؟ قال : قوله : (**اليـوم أكملت لكم دينـكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً**) ، فقال عمر : إني لأعلم أي يوم نزلت ، وفي أي مكـان نزلت ، نزلت يوم عرفة بعرفة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم واقف بعرفة ، وهذا مستفيض من وجوه أخر ، وهو منقول في كتب المسـلمين : الصـحاح والمسانيد والجوامع والسير والتفاسير وغير ذلك .

وهذا اليوم كان قبل غدير خم بتسعة أيام ، فإنه كان يوم الجمعة تاسع ذي الحجة ، فكيف يقال : إنها نزلت يوم الغدير ؟!

الوجه الرابع : أن هذه الآية ليس فيها دلالة على عَليٍّ ، ولا على إمامته بوجه من الوجوه ، بل فيها إخبار الله بإكمال الدين وإتمام النعمة على المؤمنين ، ورضا الإسلام ديناً ، فدعوى المدعي أن القرآن يدل على إمامته من هذا الوجه كذب ظاهر .

وإن قال : الحديث يدل علي ذلك .

فيقال : الحديث إن كان صحيحاً ، فتـكون الحجة من الحديث لا من الآية ، وإن لم يكن صحيحاً ، فلا حجة في هذا ولا في هذا .

فعلى التقديرين لا دلالة في الآية على ذلك ، وهذا مما يبين به كذب الحـديث ، فإن نزول الآيـة لهـذا السبب ، وليس فيها ما يدل عليه أصلا ، تناقض .

الوجه الخامس : أن هذا اللفظ ، وهو قوله : « اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ، وانصر من نصره ، واخذل من خذله » . كذب باتفاق أهل المعرفة بالحديث .

وأمـا قوله : « من كنت مولاه فعـلي مولاه » فلهم فيـه قولان ، وسنذكره إن شاء تعالى في موضعه .

السـادس : أن دعـاء النبي صلى الله عليه وسلم مجاب ، وهذا الدعـاء ليس بمجاب ، فعلم أنه ليس من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم ، لأن الذين قاتلوا علياً لم يخذلوا ، بل لا زالوا منصورين يفتحون البلاد ، ويقتلون الكفار (وهم معاوية ومن أتى بعده من الأمويين) .

وفي الصحيـح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خالفهم ، ولا من خذلهم ، حتى تقوم الساعة ، قال معاذ بن جبل : وهم بالشام .

والعسكر الذين قاتلوا مع معاوية ما خذلوا قط ، بل ولا في قتال علي ، فـكيف يكون النبي صلى الله عليه وسلم قال : « اللهم اخذل من خذله وانصر من نصره » ، والذين قاتلوا معه لم يُنصروا على هؤلاء ، بل الشيعة الذين يزعمون أنهم مختصون بعلي مازالوا مخذولين مقهورين لا ينصرون إلا مع غيرهم : إما مسلمين وإما كفار ، وهم يدعون أنهم أنصاره ، فأين نصر الله لمن نصره ؟! وهذا وغيره مما يبين كذب هذا الحديث ا هـ[1] .

٤ – قوله تعـالى : (**قل لا أسـألكم عليـه أجراً إلا المودة في القربى**) (٢) .

روى أحمد بن حنبل في مسنده عن ابن عباس قال : لما نزلت : (**قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربي**) ، قالوا : يا رسول الله من قرابتك الذين وجبت علينا مودتهم ؟ قال : علي وفاطمة وابناهما ، وكذا في تفسير الثعلبي ، ونحوه في الصحيحين .

---

(١) من منهاج السنة النبوية لشيخ الإسلام ابن تيمية ت . د. محمد رشاد سالم .
(٢) سورة الشورى : الآية ٢٣ .

وغير علي من الصحابة والثلاثة لا تجب مودته ، فيكون علي أفضل ، فيكون هو الإمام ، ولأن مخالفته تنافي المودة ، وبامتثال أوامره تـكون مودته ، فيكون واجب الطاعة ، وهو معنى الإمامة .

والجـواب من وجـوه :

أحدهـــا : المطالبة بصحة هذا الحديث ، وقوله : إن أحمد روى هذا في مسنده ، كذب بين ، فإن مسند أحمد موجود ، به من النُّسخ ما شاء الله ، وليس فيه هذا الحديث ، وأظهر من ذلك كذباً قوله : إن نحـو هذا في الصحيحـين ، وليس هو في الصحيحين ، بل فيهما وفي المسند ما يناقض ذلك .

لكن أحمـد صنف كتـاباً في فضائل أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وغيرهم ، وقد يروي في هذا الكتاب ما ليس في المسند ، وليس كل مارواه أحمـد في المسنـد وغيره ، يكون حجة عنده ، بل يروي ما رواه أهل العلم ، وشرطه في المسند أن لا يروي عن المعروفين بالكذب عنده ، وإن كان في ذلك ما هو ضعيف .

الوجه الثاني : أن هذا الحديث كذب موضوع باتفاق أهل المعرفة بالحديث ، وهم المرجوع إليهم في هذا ، ولهذا لا يوجد في شيء من كتب الحديث التي يرجع إليها .

الوجه الثالث : أن هذه الآية في سورة الشورى وهي مكية باتفاق أهل السنّة ، بل جميع آل حم مكيات ، وكذلك آل طس ، ومن المعلوم أن علياً إنما تزوج فاطمة بالمدينة بعد غزوة بدر ، والحسن ولد في السنة الثالثة من الهجرة ، والحسين في السنة الرابعة ، فتـكون هذه الآية قد نزلت قبل وجود الحسن والحسين بسنين متعددة ، فكيف يفسر النبي صلى الله عليه وسلم الآية بوجوب مودة قرابة لا تعرف ولم تخلق بعد ؟! .

الوجـه الرابـع : أن تفسير الآية الذي في الصحيحين عن ابن عباس يناقض ذلك ، ففي الصحيحين عن سعيد بن جبير قال : سئل

ابن عباس عن قوله تعالى : (**قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القـربى**) فقلت : أن لا تؤذوا محمداً في قرابته ، فقال ابن عباس : عجلت ، إنه لم يكن بطن من قريش إلا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم قرابـة ، فقال : لا أسألكم عليه أجراً ، لكن أسألكم أن تصلوا القرابة التي بيني وبينكم .

فهـذا ابن عبـاس ترجمان القرآن ، وأعلم أهل البيت بعد علي ، يقول : ليس معناها مودة ذوي القربى ، لكن معناها : لا أسألكم يا معشر العـرب ويـا معشر قريش عليه أجراً ، لكن أسألكم أن تصلوا القرابة التي بيني وبينكم ، فهو سأل الناس الذين أرسل إليهم أولاً أن يصلوا رحمه ، فلا يعتدوا عليه حتى يبلغ رسالة ربه .

الوجـه الخامس : أنه قال : لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى ، لم يقل : إلا المودة للقربى ، ولا المودة لذوي القربى ، فلو أراد المودة لذوي القربى لقال : المودة لذوي القربى ، كما قال : (**واعلموا أنما غَنمتم من شيء فأن لله خُمسُه وللرسول ولذوي القربى**)[1] وقال : (**ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى**)[2] .

وكذلك قوله[3] : (**فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل**) وقوله : (**وآتى المال على حبه ذوى القربى**)[4] وهكذا في غير موضع .

فجميع مافي القرآن من التوصية بحقوق ذوي قربى النبي صلى الله عليه وسلم ، وذوي قربى الإنسان ، إنما قيل فيها : ذوي القربى ، لم يقل : في القربى ، فلما ذكر هنا المصدر دون الاسم ، دل على أنه لم يرد ذوي القربى .

---

(١) سورة الأنفال : الآية ٤١ .

(٢) سورة الحشر : الآية ٧ .

(٣) سورة الروم : الآية ٣٨ .

(٤) سورة البقرة : الآية ١٧٧ .

الوجـه السادس : أنه لو أريد المودة لهم ، لقال : المودة لذوي القربى ، ولم يقل : في القربى ، فإنه لا يقول من طلب المودة لغيره : أسألك المودة في فلان ، ولا في قربى فلان ، ولكن أسألك المودة لفلان والمحبة لفلان ، فلما قال : المودة في القربى ، علم أنه ليس المراد لذوي القربى .

الوجه السابع : أن يقال : إن النبي صلى الله عليه وسلم لايسأل على تبليغ رسالة ربه أجراً ألبتة ، بل أجره على الله ، كما قال : **(قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين)**(١) وقوله : **(أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون)**(٢) . وقوله : **(قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجري إلا على الله)**(٣) .

ولكن الاستثناء هنا منقطع ، كما قال : **(قل ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً)**(٤) .

ولاريب أن محبة أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم واجبة ، لكن لم يثبت وجـوبها بهذه الآية ، ولا محبتهم أجر للنبي صلى الله عليه وسلم ، بل هو مما أمرنا الله به ، كما أمرنا بسائر العبادات .

الوجه الثامن : أن القربى معرفة باللام ، فلابدّ أن يكون معروفاً عند المخاطبين الذين أمر أن يقول لهم : **(قل لا أسألكم عليه أجراً)** وقد ذكرنا أنها لما نزلت لم يكن قد خلق الحسن ولا الحسين ، ولا تزوج علي بفاطمة ، فالقربى التي كان المخاطبون يعرفونها يمتنع أن تكون هذه ، بخلاف القربى التي بينه وبينهم ، فإنها معروفة عندهم ، كما تقول : لا أسألك إلا المودة في الرحم التي بيننا ، وكما تقول : لا أسألك إلا العدل بيننا وبينكم ، ولا أسألك إلا أن تتقي الله في هذا الأمر .

---

(١) سورة ص : الآية ٨٦ .

(٢) سورة الطور : الآية ٤٠ .

(٣) سورة سبأ : الآية ٤٧ .

(٤) سورة الفرقان : الآية ٥٧ .

الوجه التاسع : أنا نسلم أن علياً تجب مودته وموالاته بدون الاستدلال بهذه الآية ، لكن ليس في وجوب موالاته ومودته ما يوجب اختصاصه بالإمامة ولا الفضيلة .

وأما قوله : « والثلاثة لا تجب موالاتهم» فممنوع ، بل يجب أيضاً مودتهم وموالاتهم ، فإنه قد ثبت أن الله يحبهم ، ومن كان الله يحبه ، وجب علينا أن نحبه ، فإن الحب في الله والبغض في الله واجب ، وهو أوثق عرى الإيمان ، وكذلك هم من أكابر أولياء الله المتقين ، وقد أوجب الله موالاتهم ، بل قد ثبت أن الله رضي عنهم ، ورضوا عنه بنص القرآن ، وكل من رضي الله عنه فإنه يحبه ، والله يحب المتقين والمحسنين والمقسطين والصابرين ، وهؤلاء أفضل من دخل في هذه النصوص من هذه الأمة بعد نبيها .

وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم ، كمثل الجسد الواحد ، إن اشتكى منه عضو ، تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر» ، فهو أخبرنا أن المؤمنين يتوادون ويتعاطفون ويتراحمون ، وأنهم في ذلك كالجسد الواحد .

وهؤلاء قد ثبت إيمانهم بالنصوص والإجماع ، كما قد ثبت إيمان علي ، ولا يمكن من قدح في إيمانهم ، أن يثبت إيمان علي ، بل كل طريق دل على إيمان علي ، فإنها على إيمانهم أدل ، والطريق التي يقدح بها فيهم ، يجاب عنها كما يجاب عن القدح في علي وأولى ، فإن الرافضي الذي يقدح فيهم ويتعصب لعلي فهو منقطع الحجة ، كاليهود والنصارى الذين يريدون إثبات نبوة موسى وعيسى والقدح في نبوة محمد صلى الله عليه وسلم .

ولهذا لايمكن الرافضي أن يقيم الحجة على النواصب الذين يبغضون علياً ، أو يقدحون في إيمانه من الخوارج وغيرهم ، فإنهم إذا قالوا له : بأي شيء علمت أن علياً مؤمن أو ولي لله تعالى ؟.

فإن قال : بالنقل المتواتر بإسلامه وحسناته .

قيل له : هذا النقل موجود في أبي بكر وعمر وعثمان وغيرهم من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، بل النقل المتواتر بحسنات هؤلاء السليمة عن المعارض ، أعظم من النقل المتواتر في مثل ذلك لعلي .

وإن قال : بالقرآن الدال على إيمان علي .

قيل له : القرآن إنما دل بأسماء عامة ،كقوله : **(لقد رضي الله عن المؤمنين)**[1] ونحو ذلك ، وأنت تخرج من ذلك أكابر الصحابة ، فإخراج واحد أسهل .

وإن قال : بالأحاديث الدالة على فضائله ، أو نزول القرآن فيه .

قيل : أحاديث أولئك أكثر وأصح ، وقد قدحت فيهم .

وقيل له : تلك الأحاديث التي في فضائل علي ، إنما رواها الصحابة الذين قدحت فيهم ، فإن كان القدح صحيحاً بطل النقل ، وإن كان النقل صحيحاً بطل القدح .

أما قوله : «المخالفة تنافي المودة» فجوابه من ثلاثة أوجه :

الأول : لايلزم من المخالفة نفي المودة ، لأن من أوجب على غيره شيئاً ، لم يوجبه الله عليه ، وإن خالفه فلا يكون محباً له ، وإذن فلا يكون مؤمن محباً لمؤمن حتى يعتقد وجوب طاعته ، وهذا معلوم الفساد وظاهر البطلان .

الثاني : أن يقال : المخالفة تقدح في المودة إذا أمر بطاعته أو لم يؤمر ، والثاني منتف ضرورة ، وأما الأول فإننا نعلم أن علياً لم يأمر الناس بطاعته في خلافه أبي بكر وعمر وعثمان .

الثالث : يقال : هذا بعينه يقال في حق أبي بكر وعمر وعثمان ، فإن مودتهم ومحبتهم وموالاتهم واجبة كما تقدم ، ومخالفتهم تقدح في ذلك .[2] ا ـ هـ .

---

(١) سورة الفتح : الآية ١٨ .

(٢) من (منهاج السنة النبوية) لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم رحمه الله بتلخيص .

٥ ـ قوله تعالى: **(ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله)**[١] .

قال الثعلبي : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أراد الهجرة ، خلف علي بن أبي طالب لقضاء ديونه ورد الودائع التي كانت عنده ، وأمره ليلة خرج إلى الغار ، وقد أحاط المشركون بالدار ، أن ينام على فراشه ، فقال له : يا علي اتشح ببردي الحضرمي الأخضر ، ونم على فراشي ، فإنه لا يخلص إليك منهم مكروه إن شاء الله تعالى ، ففعل ذلك ، فأوحى الله تعالى إلى جبريل وميكائيل أني قد آخيت بينكما، وجعلت عمر أحدكما أطول من عمر الآخر ، فأيكما يؤثر صاحبه بالحياة ؟ فاختار كلاهما الحياة ، فأوحى الله إليهما : ألا كنتما مثل علي ابن أبي طالب ، آخيت بينه وبين محمد عليه الصلاة والسلام ، فبات على فراشه يفديه بنفسه ويؤثره بالحياة ؟ اهبطا إلى الأرض فاحفظاه من عدوه ، فنزلا ، فكان جبريل عند رأسه ، وميكائيل عند رجليه ، فقال جبريل : بخ بخ من مثلك يا ابن أبي طالب ، يباهي الله بك الملائكة ؟ فأنزل الله عز وجل على رسوله صلى الله عليه وسلم وهو متوجه إلى المدينة في شأن علي : **(ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله)** . وقال ابن عباس : إنما نزلت في علي لما هرب النبي صلى الله عليه وسلم من المشركين إلى الغار ، وهذه فضيلة لم تحصل لغيره تدل على أفضلية علي على جميع الصحابة ، فيكون هو الإمام .

الجـواب من وجـوه :

أحدها : المطالبة بصحة هذا النقل ، ومجرد نقل الثعلبي وأمثاله لذلك ، بل روايتهم ليس بحجة باتفاق طوائف أهل السنّة والشيعة ، لأن هذا مرسل متأخر ، ولم يذكر إسناده ، وفي نقله من هذا الجنس للإسرائيليات والإسلاميات أمور يعلم أنها باطلة ، وإن كان هو لم يتعمد الكذب .

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٠٧ .

ثانيها : أن هذا الذي نقله من هذا الوجه كذب باتفاق أهل العلم بالحديث والسيرة ، والمرجع إليهم في هذا الباب .

ثالثها : أن النبي صلى الله عليه وسلم لما هاجر هو وأبو بكر إلى المدينة ، لم يكن للقوم غرض في طلب علي ، وإنما كان مطلوبهم النبي صلى الله عليه وسلم وأبا بكر ، وجعلوا في كل واحد منهما ديته لمن جاء به ، كما ثبت ذلك في الصحيح الذي لا يستريب أهل العلم في صحته ، وترك علياً في فراشه ليظنوا أن النبي صلى الله عليه وسلم في البيت فلا يطلبوه ، فلما أصبحوا وجدوا علياً فظهرت خيبتهم ، ولم يؤذوا علياً ، بل سألوه عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فأخبرهم أنه لا علم له به ، ولم يكن هناك خوف على علي من أحد ، وإنما كان الخوف على النبي صلى الله عليه وسلم وصديقه ، ولو كان لهم في علي غرض ، لتعرضوا له لما وجدوه ، فلما لم يتعرضوا له ، دل على أنهم لاغرض لهم فيه ، فأي فداء هنا بالنفس ؟.

والذي كان يفديه بنفسه بلا ريب ، ويقصد أن يدفع بنفسه عنه ، ويكون الضرر به دونه ، هو أبو بكر ، كان يذكر الطلبة فيكون خلفه ، ويذكر الرصد فيكون أمامه ، وكان يذهب فيكشف له الخبر ، وإذا كان هناك ما يخاف ، أحب أن يكون به لا بالنبي صلى الله عليه وسلم .

وغير واحد من الصحابة قد فداه بنفسه في مواطن الحروب ، فمنهم من قتل بين يديه ، ومنهم من شُلَّت يده كطلحة بن عبد الله ، وهذا واجب على المؤمنين كلهم ، فلو قدر أنه كان هناك فداء بالنفس ، لكان هذا من الفضائل المشتركة بينه وبين غيره من الصحابة ، فكيف إذا لم يكن هناك خوف على عليٍّ ؟.

٦ ـ قوله تعالى : **(مرج البحرين يلتقيان ، بينهما برزخ لا يبغيان)**[١] . من تفسير الثعلبي وطريق أبي نعيم عن ابن عباس في قوله : **(مَرَجَ البحرين يلتقيان)** قال : علي وفاطمة **(بينهما برزخ لا**

---

(١) سورة الرحمن : الآية ١٩ .

يبغيان) النبي صلى الله عليه وسلم وآله **(يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان)** الحسن والحسين ، ولم يحصل لغيره من الصحابة هذه الفضيلة ، فيكون أولى بالإمامة .

والجواب : إن هذا وأمثاله إنما يقوله من لايعقل ما يقول ، وهذا بالهذيان أشبه منه بتفسير القرآن ، وهو من جنس تفسير الملاحدة والقرامطة الباطنية للقرآن ، بل هو شر من كثير منه ، والتفسير بمثل هذا طريق للملاحدة على القرآن والطعن فيه ، بل تفسير القرآن بمثل هذا من أعظم القدح فيه والطعن فيه .

ولجهّال المنتسبين إلى السنّة تفاسير في الأربعة ، وهي وإن كانت باطلة فهي أمثل من هذا ، كقولهم : الصابرين : محمد ، والصادقين : أبو بكر ، والقانتين : عمر ، والمنفقين : عثمان ، والمستغفرين بالأسحار : علي .

وكقولهم : محمد رسول الله والذين معه : أبو بكر ، أشداء على الكفار : عمر ، رحماء بينهم : عثمان ، تراهم ركعاً سجداً : علي .

وكقولهم : والتين : أبو بكر ، والزيتون : عمر ، وطور سينين : عثمان ، وهذا البلد الأمين : علي .

وكقولهم : **(والعصر إن الإنسان لفي خسر ، إلا الذين آمنوا)** : أبو بكر ، **(وعملوا الصالحات)** : عمر ، **(وتواصوا بالحق)** : عثمان ، **(وتواصوا بالصبر)** : علي .

فهذه التفاسير من جنس (تلك) التفاسير ، وهي أمثل من تفاسير بعض الشيعة كقولهم : **(ومن كل شيء أحصيناه في إمام مبين)** علي ، وكقولهم ، **(وإنه في أمّ الكتاب لدينا لعلي حكيم)** إنه علي بن أبي طالب ، **(والشجرة المعلونة في القرآن)** بنو أمية ، وأمثال هذا الكلام الذي لايقوله من يرجو لله وقاراً ، ولا يقوله من يؤمن بالله وكتابه ، وكذلك قول القائل : **(مرج البحرين يلتقيان)** علي وفاطمة **(بينهما برزخ لا يبغيان)** النبي صلى الله عليه وسلم **(يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان)**

الحسن والحسين ، وكل من له أدنى علم وعقل ، يعلم بالاضطرار بطلان هذا التفسير ، وأن ابن عباس لم يقل هذا .

والثعلبي شحن تفسيره بمثل هذه الروايات السقيمة ، وذكر هذه الرواية بإسناد رواته مجهولون لا يعرفون ، عن سفيان الثوري وهو كذب على سفيان ، ومما يبين كذب هذه الراوية وخطأ هذا التفسير عدة وجوه :

أحدها : أن هذا في سورة الرحمن ، وهي مكية بإجماع المسلمين ، والحسن والحسين إنما وُلدا بالمدينة .

الثاني : أن تسمية هذين بحرين ، وهذا لؤلؤاً ، وهذا مرجاناً ، وجعل النكاح مرجاً ، أمر لا تحتمله لغة العرب بوجه ، لا حقيقية ولا مجازاً ، بل كما أنه كذب على الله ، وعلى القرآن ، فهو كذب على اللغة .

الثالث : أن الله ذكر أنه مرج البحرين في آية أخرى ، فقال في الفرقان : **(وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات ، وهذا ملح أجاج)**[1]

فلو أريـد بذلك علي وفاطمة لكان ذلك ذماً لأحدهما ، وهذا باطل بإجماع أهل السنة والشيعة .

الرابع : أنه قال : **(بينهما برزخ لا يبغيان)** فلو أريد بذلك علي وفاطمة ، لكان البرزخ الذي هو النبي صلى الله عليه وسلم - بزعمهم - أو غيره ، هو المانع لأحدهما أن يبغي على الآخر ، وهذا بالذم أشبه منه بالمدح .

والتفسير الصحيح : مرج البحرين ، أي أرسل ، والبحران هنا بحر فارس وبحـر الروم ، بينهما برزخ : منهم من فسره بالجزائر ، ولكن اكتشف الآن أن هناك برزخاً لايرى ، ولكن يحصل عدم الاختلاط .

وهنا مناظرة لطيفة ، احتج شيعي على سنّي بهذه الآية على خلافة علي رضي الله عنه ، وتقديمه على الخلفاء الثلاثة ، قائلاً : إن البحرين

(١) سورة الفرقان : الآية ٥٣ .

هنا علي وفاطمة ، **(يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان)** هما : الحسن والحسين ، فأجابه السنّي : بينهما برزخ لايبغيان ، أي حاجز ، فلم يحصل التقارب بين علي وفاطمة لوجود البرزخ ، وعليه فلم يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ، فانبهر الشيعي وألقم الحجر .

٧ ـ قوله تعالى : **(يا أيها الرسول بلّغ ما أُنزل إليك من ربّك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته)**[١] .

اتفقوا على نزولها في عليّ ، وروى أبو نُعيم الحافظ من الجمهور بإسناده عن عطية قال : نزلت هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وسلم في علي بن أبي طالب ، ومن تفسير الثعلبي قال : معناه : بلغ ما أنزل إليك من ربك في فضل علي ، فلما نزلت هذه الآية ، أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيد علي فقال : من كنت مولاه فعلي مولاه ، والنبي صلى الله عليه وسلم مولى أبي بكر وعمر وباقي الصحابة بالإجماع ، فيكون علي مولاهم ، فيكون هو الإمام .

والجواب من وجوه :

أحدها : أن هذا أعظم كذباً وفرية من الأول ، وقوله : «اتفقوا على نزولها في علي» أعظم كذباً مما قاله في تلك الآية : فلم يقل لا هذا ولا ذاك أحد من العلماء الذين يدرون ما يقولون ، وأما ما يرويه أبو نُعيم في «الحلية» أو في فضائل الخلفاء والنقاش والثعلبي والواحدي ونحوهم في التفسير ، فقد اتفق أهل المعرفة بالحديث على أن فيما يروونه كثيراً من الكذب الموضوع ، واتفقوا على أن هذا الحديث المذكور الذي رواه الثعلبي في تفسيره ، هو من الموضوع ، للأدلة العديدة التي لايتسع المجال لذكرها[٢] ، وليس (الثعلبي) من أهل العلم بالحديث .

---

(١) سورة المائدة : الآية ٦٧ .

(٢) وقد اخترت دليلين فقط ليتضح الكلام .

الأول : المنقولات فيها كثير من الصدق وكثير من الكذب ، والمرجع في التمييز بين هذا وهذا إلى أهل علم الحديث ، كما نرجع إلى النحاة في الفرق بين نحو العرب ونحو غير العرب ، ونرجع إلى علماء اللغة فيما هو من اللغة وما ليس من اللغة ،

الوجه الثاني : أن يقال : أنتم ادّعيتم أنكم أثبتم إمامته بالقرآن ، والقرآن ليس في ظاهره ما يدل على ذلك أصلاً ، فإنه قال : **(بلغ ما أنزل إليك من ربك)** وهـــذا اللفظ عام في جميع ما أنزل إليه من ربّه ، لا يدل على شيء معين .

فدعوى المدعي أن إمامة علي هي مما بلغها ، أو مما أمر بتبليغها ، لاتثبت بمجرد القرآن ، فإن القرآن ليس فيه دلالة على شيء معين ، فإن ثبت ذلك بالنقل كان ذلك إثباتاً بالخبر لا بالقرآن ، فمن ادعى أن القرآن يدل على أن إمـامـة علي مما أُمر بتبليغه ، فقد افترى على القرآن ، فالقرآن لايدل على ذلك عموماً ولا خصوصاً .

الوجه الثالث : أن يقال : هذه الآية ، مع ما عُلم من أحوال النبي صلى الله عليه وسلم تدل على نقيض ما ذكروه ، وهو أن الله لم ينزلها عليه ، ولم يأمره بها ، فإنها لو كانت مما أمره الله بتبليغه ، لبلّغه ، فإنه لا يعصي الله في ذلك ، ولهذا قالت عائشة رضي الله عنها : من زعم أن

وكـذلك علماء الشعر والطب وغير ذلك ، فلكل علم رجال يعرفون به ، والعلماء بالحديث أجل هؤلاء قدراً ، وأعظمهم صدقاً ، وأعلاهم منزلة ، وأكثر ديناً .

وهم من أعـظم الناس صدقاً وأمانة ، وعلماً وخبرة ، فيما يذكرونه من الجرح والتعـديل ، مثل مالك ، وشعبة ، وسفيان ، ويحيى بن سعيد ، وعبد الرحمن بن مهدي ، وابن المبارك ، ووكيع ، والشافعي ، وإسحاق بن راهويه ، وأبي عبيد ، وابن معين ، وابن المديني ، والبخاري ، ومسلم ، وأبي داود ، وغيرهم .

والثاني : إن كان المخالف يقبل كل ما رواه هؤلاء وأمثالهم في كتبهم ، فقد رووا أشياء كثيرة تناقض مذهبهم ، وإن كان يرد الجميع ، بطل احتجاجه بمجرد عزوه الحـديث (بـدون المـذهب) إليهم ، وإن قال : أقبل ما يوافق مذهبي ، وأرد ما يخالفه ، أمكن منازعه أن يقول له مثل هذا ، وكلاهما باطل ، لا يجوز أن يحتج على صحة مذهب بمثل هذا ، فإنه يقال : إن كنت إنما عرفت صحة هذا الحديث بدون المذهب ، فاذكر ما يدل على صحته ، وإن كنت عرفت صحته لأنه يوافق المذهب ، امتنع تصحيح الحديث بالمذهب ، لأنه يكون حينئذٍ صحة المذهب موقوفة على صحة الحديث ، وصحة الحديث موقوفة على صحة المذهب ، فيلزم الدور الممتنع .

محمـداً كتم شيئاً من الوحي فقد كذب ، والله تعالى يقول : **(يا أيها الرسول بلّغ ما أنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته)**(١) .

لكن أهل العلم يعلمون بالاضطرار ، أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يبلّغ شيئاً من إمامة علي ، ولهم على هذا طرق كثيرة يثبتون بها هذا العلم .

منها : أن هذا مما تتوفر الهمم والدواعي على نقله ، فلو كان له أصل ، لنُقل ، كما نقل أمثاله من حديثه ، لاسيما مع كثرة ما ينقل في فضائل علي من الكذب الذي لا أصل له ، فكيف لايُنقل الحق (الصدق) الذي قد بُلّغ للناس ؟!.

ولأن النبي صلى الله عليه وسلم أمر أمّته بتبليغ ما سمعوا منه ، فلا يجوز عليهم كتمان ما أمرهم الله بتبليغه .

ومنهـا : أن النبي صلى الله عليـه وسلم لما مات ، وطلب بعض الأنصار أن يكون منهم أمير ومن المهاجرين أمير ، فأُنكِر ذلك عليه ، وقالوا : الإمارة لا تكون إلا في قريش ، وروي الصحابة في (مواطن) متفـرقة الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ، في أن الإمامة في قريش ، ولم يروِ واحد منهم : لا في ذلك المجلس ولا في غيره ، ما يدل على إمامة علي ، وبايع المسلمون أبا بكر ، وكان أكثر بني عبد مناف من بني أميّة وبني هاشم وغيرهم لهم ميل قوي إلى علي بن أبي طالب يختارون ولايته ، ولم يذكر أحد منهم هذا النص ، وهكذا أجري الأمر في عهد عمر وعثمان ، وفي عهده أيضاً لما صارت له ولاية ، لم يذكر هو ولا أحد من أهل بيته ولا من الصحابة المعروفين هذا النص ، وإنما ظهر هذا النص بعد ذلك ، وعليه فقد ظهر بطلان احتجاج الشيعة بالآية المذكورة على تقديم خلافة علي(٢) ا ـ هـ .

---

(١) سورة المائدة الآية : ٦٧ .

(٢) من منهاج السنة النبوية لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله باختصار وتصرف في بعض المواضع .

بعض أحاديث أوردوها تأييداً لدعواهم :

ومن أشهرها ما يلي :

١ ـ حديث غدير خم وهو من أقوى سلاحهم ، إذ يحسبونه نصاً قطعياً حاصله : أن بريدة بن الحصيب الأسلمي روى أنه صلى الله عليه وسلم بغدير خم حين رجوعه من حجة الوداع ، أخذ بيد علي مخاطباً جماعة المسلمين ومنوهاً بمقام أمير المؤمنين قائلاً : يا معشر المسلمين ألست أولى بكم من أنفسكم ، قالوا : بلى ، قال : من كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه ، قالوا في تقرير الاستدلال : إن المولى بمعنى الأولى بالتصرف ، وذلك عين الإمامة .

والجـــــواب :

أولاً : أن الحديث لم يقع اتفاق على صحته ، بل من المحدثين من طعن فيه ، والبخاري ضعفه وناهيك به ، وحسنه أحمد بن حنبل ، وعلى تسليم صحته أو حسنه ، فليس فيه أدنى مستمسك يتمسك به ، ويتبين من سببه معناه بأجلى من النهار ، وذلك أن الأمير في سفر اليمن كان معه ثلة من الصحابة كبريدة الأسلمي ، وخالد بن الوليد وغيرهما ، اشتكوا بعدما أتوا من سفرهم من الأمير ، فتكلم النبي في حقه هكذا مبيناً أن محبته واجبة ، وأنه لاينبغي أن يعادى أو يشتكى منه .. فأنى يفهم الإنسان الخلافة من هذا ، وهل هذا إلا كقول القائل : السماء بمعنى الأرض ، والبحر بمعنى الجبل .

ثانياً : أهل العربية قاطبة ينكرون ثبوت ورود المولى بمعنى الأولى ، بل قالوا لم يجيء قط المفعل بمعنى أفعل ، ولهذا خطئوا أبا زيد اللغوي بتجويز هذا تمسكاً بقول أبي عبيدة في تفسيره مولاكم أي أولى بكم ، قائلين : إنه تفسير وبيان لحاصل المعنى ، يعني النار مقركم والموضع اللائق بكم .

ثالثــاً : لو سلمنا وهيهات أنه بمعنى الأولى ، فلا يلزم أن يكون بمعنى المتصرف ، وفي أي لغة يقال هذا ؟ بل يكون المراد أولى بالمحبة

وأولى بالتعظيم ، اقرأ قوله تعالى : **(إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي)**[1] ، هل أتباع إبراهيم يكونون أولى بالتصرف في جنابه الأعظم ؟ .

رابعاً : هـــذه الـكلمة وردت في غير موضع ، بحيث لايتناسب أن يكـون بمعنى التصرف ، كقـوله تعـالى : **(النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله)**[2].

إن الكلام هنا مسوق لنفي نسب الأدعياء ممن يثبتونه ، وبيان أن زيد بن حارثة لاينبغي أن يقال له : زيد بن محمد ، والأقرباء في النسب أحق وأولى من غيرهم ، ولا دخل هنا لمعنى الأولى بالتصرف في المقصود ، ومما يبين عدم المدعى ، بأن اللازم بل الصريح في هذا الحديث اجتماع الولايتــين في زمان واحد ، إذ لم يقع التقييد بلفظ بعدي ، وإذا فسر بالتصرف دل على أن علياً شريك للنبي في التصرف في عهده ، وبطلانه معلوم بالضرورة ، فدل على أن المراد وجوب محبته ، إذ لا محذور في اجتماع محبتين ، والمحذور حاصل في اجتماع شركة التصرف ، فثبت انهيار هذا البناء بما أتينا عليه من قواعده .

وقوله : اللهم وال من والاه ... إلخ ، لاريب أنه كذب ، وفي بعض الروايات : وانصر من نصره كذلك ، والواقع لايؤيده في حروب علي مع معاوية إذ لم ينتصر ، بل كان النصر حليفاً لمعاوية في الآخر .

خامســاً : أن يقال : إن لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم قاله فلا كلام ، وإن كان قاله فلم يرد به قطعاً الخلافة بعده ، إذ ليس في اللفظ ما يدل عليه ، ومثل هذا الأمر العظيم يجب أن يبلغ بلاغاً مبيناً .

وليس في الكلام ما يدل دلالة بينة على أن المراد به الخلافة ، وذلك أن المولى كالولي ، والله تعالى قال : **(إنما وليكم الله ورسوله والذين**

---

(١) سورة آل عمران : الآية ٦٨

(٢) سورة الأحزاب : الآية ٦ .

آمنــوا﴾[1] ، وقال : **﴿وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير﴾**[2] ، فبين أن الرسول ولي المـؤمنـين وأنهم مواليه أيضاً ، كما بين أن الله ولي المؤمنين ، وأنهم أولياؤه ، وأن المؤمنين بعضهم أولياء بعض .

فالمـوالاة ضد المعاداة ، وهي تثبت من الطرفين ، وإن كان أحد المـواليـين أعظم قدراً ، وولايته إحسان وتفضل ، وولاية الآخر طاعة وعبادة ، كما أن الله يحب المؤمنين ، والمؤمنون يحبونه ، فإن الموالاة ضد المعـاداة والمحـاربـة والمخادعة ، والكفار لايحبون الله ورسوله ، ويحادون الله ورسوله ويعادونه .

سادساً : في هذا الحديث إثبات إيمان علي في الباطن ، والشهادة له بأنه يستحق الموالاة باطناً وظاهراً ، وذلك يرد ما يقوله فيه أعداؤه من الخوارج والنواصب ، لكن ليس فيه أنه ليس للمؤمنين مولى غيره ، فكيف ورسول الله صلى الله عليه وسلم له موالي ، وهم صالحو المؤمنين ، فعلي أيضاً له موالي بطريق الأولى والأحرى ، وهم المؤمنون الذين يتولونه .

وقـد قال النبي صلى الله عليه وسلم : «إن أسلم وغِفاراً ومزينة وجهينة وقريشاً والأنصار ليس لهم مولى دون الله ورسوله » ، وجعلهم موالي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما جعل صالح المؤمنين مواليه ، والله ورسوله مولاهم .

وفي الجملة فرق بين الولي والمولى ونحو ذلك وبين الوالي ، فباب الولايـة ـ التي هي ضد العـداوة ـ شيء ، وبـاب الولاية ـ التي هي الإمارة ـ شيء .

والحديث إنما هو في الأولى دون الثانية ، والنبي صلى الله عليه وسلم لم يقل : من كنت واليه فعلي واليه ، وإنما اللفظ : من كنت مولاه فعلي مولاه .

---

(١) سورة المائدة : الآية ٥٥ .

(٢) سورة التحريم : الآية ٤ .

وأما كون المولى بمعنى الوالي ، فهذا باطل ، فإن الولاية تثبت من الطرفين ، فإن المؤمنين أولياء الله ، وهو مولاهم .

وأما كونه أولى بهم من أنفسهم ، فلا يثبت إلا من طريقه صلى الله عليه وسلم ، وكونه أولى بكل مؤمن من نفسه من خصائص نبوته ، ولو قدر أنه نص على خليفة من بعده ، لم يكن ذلك موجباً أن يكون أولى بكل مؤمن من نفسه ، كما أنه لا يكون أزواجه أمهاتهم ، ولو أريد هذا المعنى لقال : من كنت أولى به من نفسه فعلي أولى به من نفسه ، وهذا لم يقله ، ولم ينقله أحد ، ومعناه باطل قطعاً ، لأن كون النبي صلى الله عليه وسلم أولى بكل مؤمن من نفسه ، أمر ثابت في حياته ومماته ، وخلافة علي ـ لو قدر وجودها ـ لم تكن إلا بعد موته صلى الله عليه وسلم ، لم تكن في حياته صلى الله عليه وسلم ، فلا يجوز أن يكون علي خليفة في زمنه صلى الله عليه وسلم ، فلا يكون حينئذٍ أولى بكل مؤمن من نفسه ، بل ولا يكون مولى أحد من المؤمنين ، إذا أريد به الخلافة[1] .

سابعاً : لفظ «المولى» يطلق على العبد والسيد وعلى المعتق وعلى الزعيم وعلى الناصر وعلى الأولى ، فليست بصريحة كما تدعيه الشيعة في خلافة علي ، وأما الزيادة كوفية[2] ، ولا ريب أنها كذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأن الحق لا يدور مع أحد معين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حيث ما دار لا مع أبي بكر ولا عمر ولا عثمان ولا علي رضي الله عنهم ، لأنه لو كان كذلك لكان بمنزلة النبي صلى الله عليه وسلم يجب اتباعه في كل ما يقول ، ومعلوم أن علياً رضي الله عنه كان ينازعه أصحابه وأتباعه في مسائل كثيرة ولا يرجعون فيها إلى قوله ، بل فيها مسائل كثيرة وجد فيها .

٢ ـ روى البخاري ومسلم عن البراء بن عازب أنه صلى الله عليه وسلم لما استخلف علي بن أبي طالب في غزوة تبوك على النساء

(١) ا. هـ. من منهاج السنة النبوية باختصار .

(٢) نسبة إلى أهل الكوفة .

والصبيان ، قال علي : يا رسول الله أتخلفني في النساء والصبيان ، فقال النبي له : « أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى ، إلا أنه لا نبي بعدي » ، استدلوا على خلافته أن المنزلة اسم جنس مضاف إلى العَلَمِ ، فيعم جميع المنازل لصحة الاستثناء ، وإذا استثنى مرتبة النبوة ثبت للأمير جميع المنازل الثابتة لهارون ، ومن جملتها صحة الإمامة وافتراض الطاعة أيضاً لو عاش هارون بعد موسى .

والجواب : **أولاً** : إن هؤلاء من فرط جهلهم وشغفهم بالمخالفة ، تارة يأتون بأكاذيب يدعمون بها حججهم ، وتارة بصحيح غايته أن يدل على منقبة وفضيلة علي ، وقد اتصف غيره بمثلها أو بأفضل ، واختصاص شخص بفضيلة أو خصلة حميدة لايدل على خلافة أو إمارة ، فإن صح هذا صح لغيرهم ، إذ يقول اتصف فلان بكذا أوكذا ، واتصف فلان بكذا وكذا من محاسن الصفات وجميل الخصال ، فتكون له الخلافة ، وما أدري لماذا لاتأتي آية وحديث مقبول يصرح فيه تصريحاً لا يقبل الجدل والريب بأن علي بن أبي طالب خليفة أو إمام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى يستريح هؤلاء من هذه التكلفات والمخالفات وجر الدلائل بحسب زعمهم بالسلاسل لتلك الادعاءات ، ومن كان يمنع الرسول من هذا البيان الواضح ، وقد علمهم كل ما يحتاجون إليه حتى آداب الخلاء ؟ ، وأي حاجة إلى اللجوء إلى أمثال هذه الاحتجاجات الواهية ، وكيف لا يدل الأمة على خلافة علي التي هي عندهم من أهم الأمور ، ويحيلهم على مثل هذه الحجج ، ويذرهم يتكلفون ويقطعون المسافات الشاسعة لتقريب مُدَّعاهم ؟ ، ليس هذا من البيان والرحمة الموصوف بها نبينا من شيء .

ثانياً : دعوى العموم في العلم المضاف غير مسلم بها ، بل الأصوليون على خلافها ، ويكشف ذلك أن هارون كان أسن من موسى وأفصح منه لساناً ، وكان يخلفه في حياته وكان نبياً ، وكان موسى يشد عضده به ، فهل كانت هذه المنازل لعلي بن أبي طالب ؟ ، والجواب لاشك بالسلب .

ثالثاً : أن النبي صلى الله عليه وسلم استخلف قبل هذه المرة وبعدها أناساً آخرين كما استخلف ابن أم مكتوم ، واستخلف بشر بن المنذر ، وفي غزوة تبوك لم يأذن لأحد في التخلف وهي آخر مغازيه ، فلم يتخلف عنه إلّا النساء والصبيان ، أو من كان معذوراً ، فجعل علياً عليهم ، فجاء علي باكياً ، وقائلاً : أتخلفني مع النساء والصبيان ؟ ، وقيل : إن بعض المنافقين طعن فيه ، وقال : إنما خلفه لأنه يبغضه ، فبين له النبي صلى الله عليه وسلم أني استخلفتك لأمانتك عندي ، وإن الاستخلاف ليس بنقص ولا غض ، فإن موسى استخلف هارون على قومه ، فكيف يكون نقصاً ، والتشبيه لايقتضي المساواة في كل شيء ، يبين هذا ما ثبت في الصحيحين لما استشار النبي أبا بكر وعمر ، مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم إذ قال : **(فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم** ..) إلخ ، وفيه شبه أبا بكر بإبراهيم وعيسى ، وعمر بنوح وموسى ، ولم يكن القصد أن الشيخين مثل تلك الرسل في كل شيء ، لكن في ما دل عليه السياق من القوة في الله ، واللين في الله ، وكذلك هنا أنه هو بمنزلة هارون ما دل عليه السياق ، وهو استخلافه في مغيبه ، كما استخلف موسى هارون ، وهذا الاستخلاف ليس من خصائص علي[1] .

---

(١) ويؤيد هذا أن هارون ما كان خليفة لموسى بعده ، وإنما استخلفه في حياته عندما توجه إلى الطور ، وإنما استخلفه موسى لعسكر كان مع هارون وذهب موسى وحده ، فأما استخلاف النبي ﷺ ، فجميع العساكر كان معه ، فثبت أن التشبيه لا يقتضي المساواة في كل شيء ، كذلك استخلافه لا يقتضي أن يكون خليفة بعد موته .

ويقول الإمام ابن تيمية : ولم يقل أحد من العقلاء أن من استخلف شخصاً على بعض الأمور ، وانقضى ذلك الاستخلاف ، أن يكون خليفة بعد موته على شيء ، ولكن الشيعة من أجهل الناس بالمعقول والمنقول ، منهاج السنة ٩١/٤ .

ويقول الإمام ابن حزم : وهذا لا يوجب فضلا على من سواه ، واستحقاق الإمامة بعده عليه السلام ، لأن هارون لم يل أمر بني إسرائيل بعد موسى عليه السلام ، وإنما ولي الأمر بعد موسى عليه السلام يوشع بن نون فتى موسى وصاحبه الذي سافر معه في طلب الخضر ، إلى أن قال : وقد استخلف عليه السلام قبل

رابعاً : أن قوله أما ترضى إلخ ، صريح وبيان واضح على أنه يسترضيه ويطيب قلبه ، لما توهم من وهن الاستخلاف ونقص درجته ، لأن في هذه المرة لم يبق غير النساء والصبيان غير الاستخلافات السابقة ، فأين هذا من دعوى الخلافة المطلقة ، ولو كان كما يقولون : فَلِمَ بعد رجوع النبي من تبوك جعل أبا بكر أميراً على الحج ؟ وَلِمَ أردف عَلِياً ؟ فقال أمير أم مأمور ؟، قال : بل مأمور ، فكان أبو بكر له الولاية عليه وعلى من معه وعلى الموسم ، وعلي يصلي خلفه ، وينادي مع الناس بالموسم ألا لايحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ، وإنما أردفه لينبذ العهد إلى العرب ، فإنه كان من عاداتهم أن لايعقد للعفو ولا لينبذها إلا السيد المطاع أو رجل من أهل بيته .

خامساً : نقول إن جنحوا لتأييد مدعاهم بهذا الاستخلاف ، فيرد عليهم بأن النبي صلى الله عليه وسلم قد استخلف غيره قبل هذه المرة وبعدها ، فإذاً لقائل أن يقول : لأولئك الخلافة بعين الحجة التي احتجت بها الإمامية .

وإن ركنوا إلى التشبيه قلنا : قد شبه غيره كأبي بكر وعمر بالرسل ، فما كان جواباً لهم ، فهو جواب لنا ، وإن استندوا على ما ورد في حقه من أنه يحب الله ورسوله ، وأن الله ورسوله يحبانه ، وما ورد فيه من المناقب والفضائل قلنا : قد ورد لغيره مثل هذا وأفضل .

الخلاصة :

إن الحديث فيه بيان لمنقبة جليلة اتصف بها علي من كونه محباً لله ورسوله باطناً وظاهراً ، أميناً لائقاً للخلافة يستطيع أن يقوم بأعبائها ، ونحن قائلون بذلك ، وخاضعون لما هنالك ، وليس فيه تخصيص زمن وتصريح بأنه الخليفة من بعده متصلاً ، حتى يستطيع أن ينقض ما أسسه أهل السنة والجماعة .

=تبوك وبعد تبوك على المدينة في أسفاره رجالا سوى علي رضى الله عنه ، فصح أن هذا الاستخلاف لا يوجب لعلي فضلا على غيره ولا ولاية الأمر بعده ، كما لا يوجب ذلك لغيره من المستخلفين . الفصل ٩٤/٤ - ٩٥ .

وبالجملة ففضائل أبي بكر تفوق العد والحصر ، وشهرته طبقت السهل والوعر ، قضى على حروب الردة قضاء مبرماً ، كان النصر حليفه ، وفتح قسماً من العراق .

وفاة أبي بكر :

في مساء ٢١ جمادى الآخرة سنة ١٣ هـ ، وسنة ٦٣٤ م ، اختاره الله لجـواره رحمه الله تعالى ، وجزاه أفضل الجزاء ، ودفن في حجرة عائشـة بجوار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومدة خلافته سنتان وثلاثة أشهر وعشر ليال .

عمر بن الخطاب
رضي الله عنه

هو عمر بن الخطاب بن نفيل من بني عدي بن كعب ، ولد لثلاث عشرة سنة خلت من ميلاد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تربى على الشهامة والنجدة والجرأة وقول الحق لايرى فيه هوادة ، فلما تشرف رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرسالة ، كانت سنه سبعاً وعشرين سنة ، ولما دعي إلى الإسلام لم يكن في بداءة أمره معتقداً بصحة الرسالة وبقي متردداً ، بل حارب الإسلام حرباً شديداً ، حتى كان ينال المسلمون منه أذى كثيراً ، وفي السنة السادسة من البعثة ، اقتنع بصحة الإسلام ، فأعلن إسلامه ، فكانت به للمسلمين قوة ، وذهب إلى البيت الحرام ، فأعلن لقريش تصديقه بالدين الإسلامي .

فضائله في القرآن :

قوله تعالى : **(يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين)**[1] ، قالوا : نزلت في عمر .

بعض الأحاديث الواردة في فضله :

١ ـ ورد في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم : أن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه .

(١) سورة الأنفال : الآية ٦٤ .

٢ ـ وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لقد كان في من كان قبلكم من الأمم مُحَدَّثُون أي ملهمون ، فإن يكن في أمتي أحد فإنه عمر» .

٣ ـ وفي الصحيحين عن سعد بن أبي وقاص قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا ابن الخطاب ، والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكاً فجاً إلا سلك فجاً غير فجك .

٤ ـ وصح عن النبى صلى الله عليه وسلم : اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر .

خلافتــــه :

لما مرض أبو بكر وأحس بدنو أجله ، رأى مصلحة المسلمين في أن ينتخب خليفتهم قبل موته ، وذلك مايعبر عنه بولاية العهد ، وكان كثيرون يرون أنفسهم أهــلاً للخــلافــة ، فرأى أن عمــر أفضلهم وأجــدرهم بالخــلافة ، فعهد إليه الأمر ، وذلك يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من جمادى الآخرة سنة ١٣ هـ .

قام في خلافته بجلائل الأعمال من نشر الإسلام ، وجهاد الأعداء ، وفتــح الممالك ، وبث العدالة والمساواة ، ونصرة الضعيف ، وسد عوز المحتاج ، مما لم يختلف فيه اثنان ، وغني عن الشاهد والبرهان ، وقد امتلأت من أخباره بطون الأسفار ، وجرت مجرى الليل والنهار .

فتوحاتــه :

أكمل فتح العراق والشام ، وفتح مصر والأردن وفلسطين وفارس وغيرها .

أولياتــــه :

وهي كثيرة منها ما يلي :

١ ـ أول من كتب التاريخ من الهجرة .

٢ ـ من اتخذ بيت المال .

٣ ـ أول من عسَّى بالليل .
٤ ـ أول من استعمل البريد لنقل الرسائل .
٥ ـ أول من اتخذ الدِّرة .
٦ ـ أول من استقضى القضاة في الأمصار .
٧ ـ أول من مصر الأمصار .

أخلاقــه :

كان من أفذاذ الرجال ، ومن الأعلام الذين تفتخر بحياتهم الأمم ، ويقتدي بسيرتهم أرباب الهمم ، فالجد والصبر والثبات والجلد والقوة والحزم والعدل والتقوى والتواضع والرفق والحلم والبصيرة والرأي كلها أخلاق قل أن تجتمع في عدد عديد من الرجال ، وقد اجتمعت في عمر ابن الخطاب .

وصفه صعصعة بن صوحان لمعاوية : «كان عالماً برعيته ، عادلاً في قضيته ، عارياً من الكِبْر ، قبولاً للعذر ، سهل الحجاب ، مصون الباب ، متحرياً للصواب ، رفيقاً بالضعيف ، غير محاب للقريب ، ولا جاف للغريب» .

مطاعن الشيعة في عمر رضي الله عنه ودحضها :

١ ـ روى أصحاب الصحاح من مسند ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في مرض موته : ائتوني بدواة وقرطاس أكتب لكم كتاباً بألا تضلوا به من بعدي ، فقال عمر : إن الرجل ليهجر ، حسبنا كتاب الله ، فكثر اللغط ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أخرجوا عني ، ما ينبغي التنازع لدي ، فقال ابن عباس : الرزية كل الرزية ما حال بيننا وبين كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال عمر لما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما مات محمد ، ولا يموت حتى يقطع أيدي رجال وأرجلهم ، فلما نهاه أبو بكر وتلا عليه **(إنك ميت وإنهم ميتون)**[1] وقوله : **(أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم)**[2] قال : كأني ما سمعت هذه الآية .

---

(١) سورة الزمر : الآية ٣٠ .
(٢) سورة آل عمران : الآية ١٤٤ .

والجواب أن يقال : أما عمر فقد ثبت من علمه وفضله مالم يثبت لأحد غير أبي بكر ، ففي صحيح مسلم عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول : «قد كان في الأمم قبلكم محدثون ، فإن يكن في أمتي أحد فعمر » ، قال ابن وهب : تفسير محدثون ملهمون .

وروى البخاري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : أنه كان فيما مضى قبلكم من الأمم محدثون ، وأنه وإن كان في أمتي هذه منهم ، فإنه عمر بن الخطاب .

وفي لفظ البخاري : لقد كان فيمن كان قبلكم من بني إسرائيل رجال يكلمون من غير أن يكونوا أنبياء ، فإن يكن في أمتي منهم أحد فعمر .

وفي الصحيح عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : بينما أنا نائم ، إذ رأيت قدحاً أتيت به فيه لبن فشربت منه ، حتى إني لأرى الري يخرج من أظفاري ، ثم أعطيت فضلي عمر بن الخطاب ، قالوا فما أولته يا رسول الله ؟ قال : العلم .

وأما قصة الكتاب الذي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد أن يكتبه ، فقد جاء مبيناً كما في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرضه : ادعى لي أباك وأخاك حتى أكتب كتاباً ، فإني أخاف أن يتمنى متمن ، ويقول قائل : أنا أولى ، ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر .

وفي صحيح البخاري عن القاسم بن محمد قال : قالت عائشة : وارأساه ، فقال رسول الله : لو كان وأنا حي فأستغفر لك وأدعو لك ، قالت عائشة : واثكلاه ، والله إني لأظنك تحب موتي ، فلو كان ذلك لظللت آخر يومك معرساً ببعض أزواجك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بل أنا وارأساه ، لقد هممت أن أرسل إلى أبي بكر وابنه ، فأعهد أن يقول القائلون ، أو يتمنى المتمنون ، ويأبى الله ويأبى المؤمنون .

وأما عمر فاشتبه عليه ، هل كان قول النبي صلى الله عليه وسلم من شدة المرض ، أو كان من أقواله المعروفة ، والمرض جائز على

الأنبياء ، ولهذا قال : ماله أهجر ، فشك في ذلك ، ولم يجزم بأنه هجر ، والشك جائز على عمر ، فإنه لامعصوم إلا النبي صلى الله عليه وسلم ، لاسيما وقد شك بشبهة ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم كان مريضاً ، لم يدر كلامه أكان من وهج المرض كما يعرض للمريض ، أو كان من كلامه المعروف الذي يجب قبوله ، ولذلك ظن أنه لم يمت حتى تبين أنه قد مات ، والنبي صلى الله عليه وسلم قد عزم على أن يكتب الكتاب الذي ذكره لعائشة ، فلما رأى أن الشك قد وقع ، علم أن الكتاب لا يرفع الشك ، فلم يبق فيه فائدة ، وعلم أن الله يجمعهم على ما عزم عليه كما قال : ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر .

وقول ابن عباس : إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين أن يكتب الكتاب ، يقتضي أن هذا الحائل كان رزية ، وهو رزية في حق من شك في خلافة الصديق ، أو اشتبه عليه الأمر ، فإنه لو كان هناك كتاب لزال هذا الشك ، فأما من علم أن خلافته حق ، فلا رزية في حقه ولله الحمد ، ومن توهم أن هذا الكتاب كان بخلافة علي ، فهو ضال باتفاق عامة الناس من علماء السنة والشيعة ، أما أهل السنة فمتفقون على تفضيل أبي بكر وتقديمه ، وأما الشيعة القائلون : إن علياً كان هو المستحق للإمامة فيقولون : إنه قد نص على إمامته قبل ذلك نصاً جلياً ظاهراً معروفاً ، فحينئذ لم يكن يحتاج إلى كتاب [1] .

٢ ـ إن عمر[2] أحدث في الدين ما لم يكن منه ، كصلاة التراويح ، وإقامتها بالجماعة ، فإنها بدعة كما اعترف هو بذلك ، وكل بدعة ضلالة ، وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم : «من أحدث في أمرنا هذا ماليس منه فهو رد» .

والجواب : أنه قد ثبت عند أهل السنة بأحاديث مشهورة متواترة ، أنه صلى الله عليه وسلم صلى التراويح بالجماعة مع الصحابة ثلاث ليال من رمضان جماعة ، ولم يخرج في الليلة الرابعة وقال : «إني

(١ ، ٢) من كتاب مختصر التحفة الإثني عشرية .

خشيت أن تفرض عليكم» ، فلما زال هذا المحذور بعد وفاته صلى الله عليه وسلم ، أحيا عمر هذه السنة السنية ، وقد ثبت في أصول الفريقين أن «الحكم إذا كان معللاً بعلة في نص الشارع ، يرتفع ذلك الحكم إذا زالت العلة » ، واعتراف عمر بكونها بدعة حيث قال : «نعمت البدعة هي» ، فمراده أن المواظبة عليها بالجماعة شيء حديث لم يكن في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، وما ثبت في زمن الخلفاء الراشدين والأئمة المطهرين مما لم يكن في زمنه صلى الله عليه وسلم لا يسمى بدعة ، والحديث مخصوص بإحداث مالم يكن له أصل في الشرع ، ومعلوم أن الشيعة لم يعتقدوا بدعية صلاة الشكر يوم قتل عمر رضي الله تعالى عنه ، وهو اليوم التاسع من ربيع الأول ، وتعظيم النيروز ، وتحليل فروج الجواري ، وحرمان بعض الأولاد من بعض التركة ، إلى غير ذلك من الأمور التي لم تكن في زمنه صلى الله عليه وسلم ، بناءً على زعمهم أن الأئمة أحدثوها .

أما أن لايعتقد أهل السنة بدعية ما أحدثه عمر ، فلأنه من الخلفاء الراشدين ، والخلفاء الراشدون أُمِرنا بالاقتداء بهم ، حيث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «وإن من يعش منكم بعدي ، فسيرى اختلافاً كثيراً ، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي ، عَضوا عليها بالنواجذ » .

٣ - إن عمر [١] قصد إحراق بيت سيدة النساء ، وضربها على جنبها الشريف بقبضة سيفه ، حتى وضعت حملها بسبب ذلك .

والجواب : إن هذه القصة محض هذيان ، وزور من القول وبهتان ، ولذا قد أنكر صحتها أكثر الإمامية ، وأن روايتها عندهم غير صحيحة ولا مرضية ، مع أن فِعلَ عمر هذا لو فرض وقوعه ، فهو أقل مما فعله الأمير رضي الله عنه مع أم المؤمنين عائشة الصديقة ، مع أنه لم يلحقه طعن من ذلك عند الفريقين ، بناءً على حفظ الانتظام في أمور الدنيا والدين .

---

(١) من كتاب مختصر التحفة الإثني عشرية

وعـين الرضـا من كل عيب كليلة   كما أن عين السخط تبدي المساويا

٤ - إن عمر أنكر موت الرسول صلى الله عليه وسلم ، وحلف أنه صلى الله عليه وسلم لم يمت ، حتى قرأ أبو بكر قوله تعالى : **(إنك ميت وإنهم ميتون)**[١] .

والجواب : إن ذلك من شدة دهشته بموت الرسول ، وكمال محبته له صلى الله عليه وسلم ، حتى لم يبق له في ذلك الحين شعور بشيء ، وكثيراً ما يحصل الذهول بسبب تفاقم المصائب وتراكم الشدائد ، لأن النسيان والذهول من اللوازم البشرية .

٥ ـ إن عمر لم يعط أهل البيت سهمهم من الخمس الثابت بقوله تعالى : **(واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل)**[٢] ، **فقد خالف حكم الله تعالى** .

والجواب : إن فعل عمر موافق لفعل النبي صلى الله عليه وسلم ، وتحقيقـه : أن أبـا بكـر وعمـر كانا يخرجان سهم ذوي القربى من الخمس ، ويعطيانه لفقرائهم ومساكينهم ، كما كان ذلك في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ، وعليه الحنفية وجمع كثير من الإمامية ، وذهب الشـافعية إلى أن لهم خمس الخمس ، يستوي فيه غنيهم وفقيرهم ، ويقسم بينهم للذكر مثل حظ الأنثيين ، ويكون بين بني هاشم والمطلب دون غيرهم ، والأمـير أيضـاً عمـل كعمل عمر ، فقد روى الطحاوي والدارقطني عن محمد بن إسحاق أنه قال : سألت أبا جعفر محمد بن الحسين : أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب لما ولي أمر الناس ، كيف كان يصنع في سهم ذوي القربى ؟ فقال . سلك به والله مسلك أبي بكر وعمر[٣] .

---

(١) سورة الزمر : الآية ٣٠ .

(٢) سورة الأنفال : الآية ٤١ .

(٣) المصدر السابق .

وفاتـــه :

ما كان يظن أن تنتهي حياة ذلك العادل بضربة خنجر ، ولكن ذلك كان حتى يعلم الناس أنه ليس في مكنة إنسان أن يرضي الخلق كافة ، فإن عمر مع عدالته الواسعة ، جاء أبو لؤلؤة ، وكان من سبايا فارس ، وكان غلاماً للمغيرة بن شعبة ، يقول : إن خراج سيده عليه كثير ، قال : وكم ، قال : درهمان ، قال : ما صناعتك ، قال : نجار ، نقاش ، حداد ، قال : ما أرى خراجك بكثير على ما تصنع من الأعمال ، فحنق عليه ، ولما كان عمر داخلاً في صلاة الصبح ، دخل أبو لؤلؤة في يده خنجر لها رأسان نصابه في وسطه ، فضربه بها ست ضربات ، فخر ساقطاً ، فصلى عبـد الرحمن بن عوف بالنـاس بأمره ، ثم دعي له طبيب ، فلم يجد للقضاء حيلة .

اغتياله مؤامرة دبرها موالي الفرس :

وفي الحقيقة لم يكن اغتياله إلا مؤامرة دبرها موالي الفرس ، حينما شعـروا بأن عمر قد دمر بلادهم ، وأسر ذراريهم ، وسبى نساءهم ، وكانوا كلما رأوا الأطفال من بني جنسهم يمشون في شوارع المدينة ، ينظرون إليهم تملؤهم الحسرة عليهم ، وكان أبو لؤلؤة فيروز المجوسي مولى المغيرة بن شعبة من أكثر الموالي حقداً على عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ حتى أنه كان إذا مر به الأطفال من أبناء بلده (نهاوند) ، يمسح رؤوسهم بيده ويبكي ويقول : إن العرب أكلت كبدي .

وبعـد التحـري الدقيق ، ثبت أن المـؤامـرة مكـونة من ثلاث : الهرمزان ، وجفينة ، وأبو لؤلؤة فيروز المجوسي ، وذلك أن عبد الرحمن ابن أبي بكر قال : مررت على أبي لؤلؤة قاتل عمر ومعه جفينة والهرمزان وهم يتناجون ، فلما باغتهم ، ثاروا ، فسقط من بينهم خنجر له رأسان ونصـاب في وسـطه ، فانظروا ما الخنجر الذي قتل به عمر ، وجدوه الخنجر الذى نعته عبد الرحمن .

وكذلك عبد الرحمن بن عوف لما رأى الخنجر الذي قتل به عمر ، قال : رأيت هذا أمس مع الهرمزان وجفينة ، فقلت : ما تصنعان بهذه السكين ؟ فقالا : نقطع بها اللحم ، فإنا لا نمس اللحم .

عندئذ تأكد الأمر لدى المسلمين ، ولم يعد هناك ما يريبهم في أنها مؤامرة دبرت بين هؤلاء الثلاثة : الهرمزان وجفينة وأبي لؤلؤة .

وذلك لأن شهادة عدلين من كبار الصحابة ، لايمكن للإنسان أن يصرف النظر عنها دون أن يكون هناك أدلة قاطعة مبرئة للمتهمين ، والحق أن لكل منهم قصة تدينه وتضعه في قفص الاتهام حتى تثبت براءته .

فأما الهرمزان : فهو رجل شديد التعصب ضد العرب ، وقد عاهده المسلمون مرات ، وفي كل مرة كان ينقض العهد عندما تسنح له سانحة ، ولم يدخل في الإسلام إلا حينما رأى السيف فوق هامته .

وأما جفينة : فكان رجلاً نصرانياً ، وكان صديقاً لسعد بن أبي وقاص ، أقدمه المدينة لما كان يستملحه من حديثه ، وكان جفينة يعلم الكتاب بالمدينة .

ورجل يعيش في المدينة بين المسلمين ، ويخالط كبار الصحابة ، ثم يظل متمسكاً بدينه الباطل ، ولا يرى الحق الذي ظهر لكل ذي عينين ، لا يستبعد أن يشترك في هذه المؤامرة ، بل يستطيع الإنسان أن يقطع بذلك ، فهو عدو للإسلام ، ويغيظه كل تفوق للمسلمين .

وأما أبو لؤلؤة: فهو الذي كان يبكي حنيناً لأسرى نهاوند ، وهو الذي هدد عمر حينما قال له : لأصنعن لك رحى يتحدث بها الناس .

فالهرمزان إذاً رجل موتور في دينه وملكه ، وجفينة رجل على غير دين الإسلام ، يخفي في نفسه من الحقد ما يدفعه للاشتراك في المؤامرة ، وأبو لؤلؤة أسير ذليل ، يرى أن المسلمين سلبوه حريته وإنسانيته .

وثالوث في مثل هذا الوضع ، لايستطيع أحد أن يقول ببراءته من تلك المؤامرة الدنيئة التي لا يقصد بها عمر في ذاته ، ولكنه يقصد كخليفة للمسلمين ، رفع راية الإسلام ، وأذل أعداء الدين[1] .

---

(١) من (جولة تاريخية في عصر الخلفاء الراشدين) د. محمد السيد الوكيل بتصرف وتلخيص وإضافة ص ٢٨٢ ، ٢٨٦ .

وأما اتهام كعب الأحبار بأن له ضلعاً في المؤامرة ، لأنه أخبر عمر قبل موته بثلاثة أيام ، وأنه كلما مضى يوم ، يأتي ويقول : مضى يوم وبقي يومان ، ولما مضى يومان ، قال : لم يبق إلا يوم ، حتى طعن عمر ، فأتاه بعد الطعن وقال له : لقد أخبرتك ، لم يثبت الاتهام ، لأنه لم يثبت عن كعب أنه قال لعمر:كذا وكذا ، ولهذا أعرض عن هذه الحكاية كثير من المؤرخين .

كانت وفاة عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ حدثاً جللاً أصيب به المسلمون ، وكان وقعه أليماً ، فقد كان اغتياله فجيعة ألمت بهم ، فقد مات ـ رحمه الله ـ والمسلمون في أمس الحاجة إليه إماماً عادلاً ، وخليفة ملهماً ، وقائداً شجاعاً ، يقودهم من نصر إلى نصر بعقله المدبر ، ويحل مشكلاتهم بعبقريته الفذة ، ويسوي بينهم في المغرم والمغنم .

اختاره مولاه لجواره ليلة الأربعاء لثلاث ليالٍ بقين من ذي الحجة سنة ٣٢ هـ ، ودفن في حجرة عائشة مع صاحبيه ، مدة خلافته عشر سنوات وستة أشهر وأربعة أيام ، سنه كصاحبه ٦٣ سنة .

عثمان بن عفان

رضي الله عنه

هو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد الشمس بن عبد مناف الأموي القرشي ، ولد في السنة الخامسة من ميلاد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وشب على الأخلاق الكريمة والسيرة الحسنة ، مملوء من الحياء والفقه والزهد ، كان من السابقين الأولين ، زوّجه عليه السلام بابنتيه ، وحضر المشاهد كلها ، ولم يتخلف إلا في بدر لتمريض رقية ، وبشره النبي بالجنة .

فضائلـــــه :

من القرآن : قال تعالى :

(أمن هو قانت آناء الليل ، ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ، قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون ، إنما يتذكر أولوا الألباب)[1] قالوا : نزلت في عثمان .

بعض الأحاديث الواردة في فضله :

١ ـ أخرج الشيخان عن عائشة : أن النبي جمع ثيابه حين دخل عثمان ، وقال : «ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة» .

---

(١) سورة الزمر : الآية ٩ .

٢ ـ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من جهز جيش العسرة فله الجنة» .

٣ ـ وقال : «إن الله أوحى إلي أن أزوج كريمتي من عثمان بن عفان» . أخرجه الترمذي والحاكم وصححه[١] .

٤ ـ عن عبد الرحمن بن سمرة قال : جاء عثمان إلى النبي بألف دينار حين جهز جيش العسرة فنثرها في حجره ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقلبها ويقول : «ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم ، ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم» .

٥ ـ وورد : «لكل نبي رفيق في الجنة ، ورفيقي فيها عثمان» .

٦ ـ أخرج أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعثمان : «يا عثمان إن الله مقمصك قميصاً ، فإن أرادك المنافقون على خلعه ، فلا تخلعه حتى تلقاني » .

وقال الشيخ ابن حجر في الصواعق : هذا من الأحاديث الظاهرة في خلافته ، الدالة دلالة واضحة على حقيقتها لنسبة القميص في الحديث المكني به عن الخلافة إلى الله تعالى .

٧ ـ وأخرج البخاري عن أبي عبد الرحمن السلمي أن عثمان حين حوصر أشرف عليهم فقال : أنشدكم بالله ، ولا أنشد إلا أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، ألستم تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من جهز جيش العسرة فله الجنة ، فجهزتهم ، ألستم تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من حفر بئر رومة فله الجنة ، فحفرتها ، فصدقوه بما قال .

(١) وأخرجه الخطيب عن ابن عباس وابن عساكر عن عائشة أم المؤمنين ، ولهذا الحديث شواهد منها ، أخرج الطبراني في الكبير والأوسط عن أم عياش أن رسول الله ﷺ قال : مازوجت عثمان بأم كلثوم إلا بوحي من السماء ، قال النور الهيثمي : إسناده حسن لما تقدمه من الشواهد مثل حديث ابن عباس وعائشة أم المؤمنين ، وما أخرجه ابن ماجه ، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : ياعثمان هذا جبريل يخبرني أن الله قد زوجك أم كلثوم بمثل صداق رقية وعلى مثل صحبتها .

٨ ـ وعن أبي موسى أنه كان مع النبي صلى الله عليه وسلم في حائط من حيطان المدينة ، فجاء رجل يستفتح ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : افتح له وبشره بالجنة ، ففتحت ، فإذا أبو بكر ، فبشرته بالجنة ، ثم استفتح رجل آخر فقال : افتح له وبشره بالجنة ، فإذا عمر ، ففتحت له،وبشرته بالجنة ، ثم استفتح رجل آخر وكان متكئاً فجلس ، فقال : افتح له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه أو تكون ، فإذا عثمان ، ففتحت له ، وبشرته بالجنة ، فأخبرته بالذي قال : فقال : الله المستعان[١] .

٩ ـ وعن سهل بن سعد قال : ارتج أحد وعليه النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر وعثمان ، فقال النبي صلى الله علييه وسلم : «اسكن أحد ، فما عليك إلا نبي وصديق وشهيدان» رواه أحمد[٢] .

خلافتــــه :

لما أحس عمر بدنو أجله ، طلب إليه أن يعهد إلى خليفة من بعده ، فتردد ، وقال : أن أستخلف ، فقد استخلف من هو خير مني (يريد أبا بكر) ، وأن أترك ، فقد ترك من هو خير مني (يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم) ، ولما كرر عليه القول : رأى أن أجدر الموجودين بالخلافة الذين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم من أهل الجنة : (علي وعثمان ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد أبي وقاص ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله) .

فلما دفن عمر ، جمع المقداد أهل الشورى ، وقال عبد الرحمن بن عوف : أيكم يخرج نفسه منها ولا يتقلدها على أن يوليها أفضلكم ، فلم يجبه أحد ، قال : فأنا أنخلع منها ، قال عثمان : فأنا أول راض ، ثم تتابع القوم على الرضا ، وبذلك صار الأمر في عنق عبد الرحمن بن عوف ، فدار لياليه يلقى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في فضائل عثمان .

(٢) الحديث أخرجه البخاري في فضائل الصحابة عن أنس في أماكن عدة ، ومسلم في فضائل الصحابة ، والترمذي في المناقب ، وأبو داود والنسائي ، وابن ماجه في المقدمة وأحمد .

وافى في المدينة من أمراء الأجناد وأشراف الناس يشاورهم ، فوجد ميلهم إلى عثمان بن عفان ، كما أرسل لكل واحد من أهل الشورى على حدة وتحدث معه ، ولما صلوا الصبح جمع رجال الشورى ، وبعث إلى من حضر من المهاجرين وأهل السابقة والفضل من الأنصار والأمراء حتى ارتج المسجد بأهله ، ودعا علياً ، فقال : عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسنة الخليفتين من بعده ، قال : أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمي وطاقتي ، ودعا عثمان فقال له مثل ما قال لعلي ، فقال : نعم . فبايعه عبد الرحمن بالخلافة ، ولما رأى ذلك علي ، تأخر وهو يقول : سيبلغ الكتاب أجله ، ثم أقبل الناس يبايعون عثمان ، ورجع علي يشق الناس حتى بايع عثمان ، وكانت بيعة عثمان يوم الإثنين لليلة بقيت من ذي الحجة سنة ٢٣ هـ .

مآثره وأولياته :

١ ـ أسلم قديماً ، وهو ممن دعاه الصديق إلى الإسلام .

٢ ـ هاجر الهجرتين ، إلى الحبشة الأولى ، والثانية إلى المدينة .

٣ ـ تزوج رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وماتت عنده في ليالي غزوة بدر ، فتأخر عنها لتمريضها بإذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فضرب له بسهمه وأجره ، فهو معدود من البدريين بذلك ، وجاء البشير بنصر المسلمين يوم دفنوها بالمدينة ، ثم زوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم أختها أم كلثوم ، وتوفيت عنده سنة تسع من الهجرة ، قال العلماء : ولا يعرف أحد تزوج بنتي نبي غيره ، ولذا سمي ذي النورين ، فهو من السابقين الأولين ، وأول المهاجرين .

٤ ـ أحد العشرة المشهود لهم بالجنة .

٥ ـ أحد الستة الذين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض .

٦ ـ أحد الصحابة الذين جمعوا القرآن ، ومر أن الصديق جمعه أيضاً ، وإنما تميز عثمان بجمعه في المصحف على ترتيبه المعروف اليوم .

٧ ـ استخلفه رسول الله صلى الله عليه وسلم على المدينة في غزوة ذات الرقاع وإلى غطفان .

٨ ـ كان أول الناس إسلاماً بعد أبي بكر وعلي وزيد بن حارثة ، وكان ذا جمال مفرط .

٩ –وبايع عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم بشمال يديه في قصة الحديبية ، عندما بايعته الصحابة على مناجزة قريش .

١٠ ـ جهّز جيش العسرة .

١١ ـ اتصف بالحياء الكامل حتى استحت منه الملائكة .

١٢ ـ فتح الله على يديه في خلافته الفتوحات الكثيرة .

١٣ ـ أنشأ أسطولاً للغزاة عن طريق البحر .

١٤ ـ أول من أقطع القطائع ، وأول من حمى الحمى ، وأول من أمر بالأذان الأول في الجمعة ، وأول من رزق المؤذنين .

أخلاقـــه :

كان لين الجانب ، رؤوف القلب ، محسناً إلى الرعية ، عادلاً فيما بينهم ، كريماً ، عفيفاً ، سخياً ، شفوقاً ، زاهداً ، نائلاً رضاء الرسول ، وثناء الأمة .

مقتلـــه :

اجتمعت أوباش من مختلف الأقطار ، ثائرين عليه بدعاية خبيثة ، أسسها عبد الله بن سبأ ، ذلك اليهودي الذي أظهر الإسلام نفاقاً ليضل الناس ، وشايعه من الفرس وغيرهم من الناقمين على الإسلام ، لما زلزل عروش ملوكهم ، وقضى على كثير من آرائهم ومعتقداتهم ، وطلبوا منه أن يتخلى عن الخلافة ، وزعموا أن لديهم من المطاعن والانتقادات التي تسوغ لهم خلعه أو قتله ، فرد اعتراضاتهم بأوضح برهان ، مما شهد له الأصحاب معترفين بذلك ، وبرأ نفسه عما ألصقوا به من المفتريات ، فلم يرجعوا لقوله ، ولم يقبلوا كلامه ، وأخيراً حاصروه في بيته ، ومنعوا عنه الماء ، فاستأذنه الأصحاب الحاضرون ليدافعوا عنه فلم يجب ، فتمكن أولئك الثائرون ، وتسوروا عليه الجدار ، ودخلوا عليه

وزوجته نائلة كانت معه ، فقتلوه وهو يتلو القرآن الشريف ، ودام الحصار أربعين يوماً ، وقيل ثمانين يوماً .

مدة خلافته إحدى عشرة سنة وأحد عشر شهراً وثلاثة عشر يوماً ، وكان قتله سنة ٣٥ هـ لثمان عشر خلت من ذي الحجة ، وقيل يوم التروية ، عمره (٨٢ سنة) ، وقيل (٨٨ سنة) ، وقيل (٩٠ سنة) ، وصلى عليه الزبير ، وقيل جبير بن مطعم ونفر قليل ، ودفن بالبقيع .

مطاعن الشيعة وأجوبتها :

١ ـ قالوا : اعتدى بتولية الوليد بن عقبة ، وأنه سكر فصلى بهم الفجر أربع ركعات ، ثم التفت فقال أُزِيدكُم[1] ؟

---

(١) والصحيح أن الوليد براء من هذه الجريمة النكراء ، وأنه مكذوب عليه فيها ، روى الطبري : أن الوليد قدم الكوفة وكان أحب الناس في الناس وأرفقهم بهم ، فكان ذلك خمس سنين ، وليس على داره باب ، ثم إن شباباً من شباب أهل الكوفة لقيوا على بن الحيسمان الخزامي فقتلوه ، وأحاط بهم الناس وأخذوهم ، وكان فيهم زهير ابن جندب ، ومورع بن أبي مورع الأسدي ، وشبيل بن أبي الأزدي في عدة ، فشهد عليهم أبو شريح الخزاعي وهو من أصحاب رسول ﷺ وابنه ، وكانا جارين لابن الحيسمان، فكتب فيهم الوليد إلى عثمان ، فكتب إليه عثمان في قتلهم ، فقتلهم الوليد ، ثم إن الوليد أتاه صديق له نصراني ، يدعى أبا زبيد ، كان الوليد قد انتصر له في بني تغلب حينما كان على الجزيرة من قبل عمر بن الخطاب ، وكان أبو زبيد نازلا في بني تغلب ، وهم أخواله فاضطهدوه ، فأخذ له الوليد بحقه ، فشكرها له أبو زبيد ، وانقطع إليه ، فلما ولي الوليد الكوفة أتاه أبو زبيد مسلماً معظماً على مثل ما كان يأتيه في الجزيرة والمدينة ، فلم يزل به الوليد يدعوه إلى الإسلام حتى أسلم وحسن إسلامه فكان من خاصته ، وكان أبو زبيد عربياً شاعراً ، فأتى آت أبا شبيل وأبا مورع وجندبا ـ وهم يحقدون على الوليد منذ قتل أبناءهم ، ويضعون له العيون ـ فقال لهم : هل لكم في الوليد يشارب أبا زبيد ؟ فثاروا في ذلك فقالوا لأناس من وجوه أهل الكوفة : هذا أميركم وأبو زبيد خيرته ، وهما عاكفان على الخمر ، فقاموا معهم، ومنزل الوليد في الرحبة مع عمارة بن عقبة، وليس عليه باب، فاقتحموا عليه من المسجد وبابه إلى المسجد ، فلم يفجأ الوليد إلا بهم ، فنحى شيئاً فأدخله تحت السرير ، فأدخل بعضهم يده فأخرجه، لا يؤامره ، فإذا طبق عليه تفاريق عنب ، وإنما نحاه استحياء أن يروا طبقاً ليس عليه إلا تفاريق عنب ، فقاموا ، فخرجوا على

الجواب : أنه قد ولى رسول الله بعض الناس على الصدقة ، ففسق ، فأنزل الله : **(يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين)**[1] .

فليس يلحق عثمان إلا ما لحق رسول الله ، وولى عليٌّ المختار بن أبي عبيد المدائن فأتاه بصرة ، فقال : هذه من أجور المومسات ، فقال علي : قاتله الله ، لو شق عن قلبه ، لوجد فيه حب اللات والعزى .

وللإمام أن يولي من يراه لائقاً ، وما يدريه ماذا يكون في المستقبل ، ولما تحقق لديه فسقه وجوره عزله ، كما عزل الوليد ، هذا ما قاله كثيرون من المؤرخين ، والصحيح أنه لم يثبت ما نسب إلى الوليد ، ولكن هذه دعايات السبئيين والناقمين على الصحابة .

تنبيه : ابتلاء الوليد بالأعداء منذ عصر صاحب الرسالة :

كما أحب أن أبين أن الوليد بن عقبة ابتلي بأعداء منذ عصر صاحب الرسالة ، حتى أن كثيراً من المفسرين ذكر تحت قوله تعالى :

الناس ، فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون ، وسمع الناس بذلك فأقبلوا عليهم يسبونهم ويطعنونهم ، فستر عليهم الوليد ذلك وطواه عن عثمان ، ولم يدخل بين الناس في ذلك بشيء ، وكره أن يفسد بينهم ، فسكت عن ذلك وصبر .

وفي رواية أخرى : إن جندباً ورهطاً معه جاءوا إلى ابن مسعود ، فقالوا : الوليد يعتكف على الخمر ، وأذاعوا ذلك حتى على ألسن الناس ، فقال ابن مسعود : من استتر عنا بشيء ، لم نتتبع عورته ، ولم نهتك ستره ، فأرسل الوليد إلى ابن مسعود فعاتبه في ذلك ، وقال : أيرضى من مثلك أن يجيب قوماً موتورين بما أجبت علي ؟ أي شيء أستتر به ؟ إنما يقال هذا للمريب .

ثم إن شبيل وأبا مورع سرقا خاتم الوليد ، فقدما به على عثمان في نفر ممن يعرف عثمان ممن قد عزل الوليد من الأعمال ، فقالوا له ، فقال لهم : من يشهد ؟ قالوا : أبو شبيل وأبو مورع ، وغيرهما ، فقال عثمان : كيف رأيتماه ؟ قال : كنا من غاشيته فدخلنا عليه وهو يقيء الخمر ، قال عثمان : ما يقيء الخمر إلا شاربها ، فبعث إليه ، فلما دخل على عثمان رآهما ، ثم حلف الوليد لعثمان وأخبره خبرهم ، فقال عثمان : نقيم الحدود ويبوء شاهدا الزور بالنار ، فاصبر يا أخي . ا. هـ. من الخليفة المفترى عليه عثمان بن عفان للشيخ محمد صادق عرجون ص/٧٨ .

(١) سورة الحجرات : الآية ٦ .

(يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين) ، أن الوليد أرسله النبي صلى الله عليه وسلم إلى بني المصطلق ليأخذ منهم الزكوات ، فلما ذهب إليهم ، رجع إلى النبي ، وزعم أنهم امتنعوا وأرادوا قتله ، والحال لم يكن الأمر كما زعم الوليد ، بل تلقوه بالتكريم تعظيماً لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحدثه الشيطان أنهم يريدون قتله من أجل أنه كان بينه وبينهم عداوة في الجاهلية ، فلما قال : أرادوا قتلي ، غضب النبي وأراد أن يغزوهم ، فبلغ القوم رجوع الوليد فأتوا النبي ، وقالوا : يا رسول الله ، سمعنا برسولك فخرجنا نتلقاه ونكرمه ونؤدي له ما قبلناه من حق الله ، فبدا له الرجوع ، فخشينا أنه إنما رده من الطريق كتاب جاءه منك لغضب غضبته علينا ، وإنا نعوذ بالله من غضب الله ، ومن غضب رسوله ، فأرسل إليهم خالد بن الوليد وأخذ الزكوات .

وهذه القصة لا أساس لها من الصحة ، بل إن المرسل إليهم كان رجلاً غير الوليد بن عقبة ، وكان الوليد إذ ذاك صغيراً .

٢ ـ قالوا : أدخل الحكم بن مروان المدينة ، وكان الرسول له نافياً .

الجـواب : نفـاه الرسـول لحبـه المنافقين ، وتهييجه الفتن بين المسلمين ، وبعد وفاته صلى الله عليه وسلم زال الكفر والنفاق ، فلم يبق محذور .

وأما إرجاعه وعدم إرجاع الشيخين إياه ، لما حصل عندهما من ظن بقائه على ما كان عليه ، على أن عثمان أجابهم : أني كنت أخذت الإذن من رسول الله في مرض موته ، وأيضاً قد ثبت أن الحكم تاب في آخر عمره ، ومن تاب تاب الله عليه .

فأهـل البـدع ومبغضـو أصحـاب الرسول صلى الله عليه وسلم ولاسيما عثمان بن عفان ، أشاعوا في الناس هذه الفرية ، وتناقلها كثير من المؤرخين والكتّاب ، ولم يحققوا الموضوع كما ينبغي .

٣ ـ وهب لأهل بيته وأقاربه شيئاً كثيراً من المال ، وصرف من بيت المال مصارف كثيرة في غير محلها .

الجواب : على فرض التسليم أنه كان من الأغنياء المتمولين ، وأنه أعطى من كيسه لا من بيت المال ، على أن العصر لا يخلو من جهال يقولون مالا يعلمون ، فقد قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له رجل : هذه قسمة ما أريد بها وجه الله .

وقال رضي الله عنه للصحابة الذين ألحوا عليه في قتل رؤساء الفتنة ، ولكنه أبى إلا العفو ، قال مفنداً حجج الذين استحلوا دمه :

إن هؤلاء ذكروا أموراً قد علموا منها مثل الذي علمتم ، إلا أنهم زعموا أنهم يذاكرونها ليوجبوها عليَّ عند من لايعلم .

قالوا : أتم الصلاة في السفر ، وكانت لاتتم ، ألا وأني قدمت بلداً فيه أهلي ، فأتممت لهذين الأمرين ، أو كذلك ؟ قالوا : اللهم نعم .

وقالوا : وحميت الحمى ، أما الحمى فإن عمر حمى الحمى ، قبل لإبل الصدقة ، فلما وليت زادت إبل الصدقة ، فزدت في الحمى لما زاد من إبل الصدقة ، وما لي من بعير غير راحلتي ، وما لي ثاغية ولا راغية ، وإني قد وليت وإني أكثر العرب بعيراً وشاة ، فمالي اليوم شاة ولا بعير غير بعيرين لحجي أو كذلك ؟ قالوا : نعم .

وقالوا : كان القرآن كتباً فتركتها إلا واحداً ، وإن القرآن واحد جاء من عند واحد ، وإنما أنا في ذلك تابع لهؤلاء أو كذلك ؟ قالوا : اللهم نعم ، وسألوه أن يقتلهم .

وقالوا : إني رددت الحكم ، وقد سيره رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والحكم مكي سيره رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى الطائف ، ثم رده رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرسول الله سيره ورسول الله رده ، أو كذلك ؟ قالوا : اللهم نعم .

وقالوا : استعملت الأحداث ، ولم أستعمل إلا مجتمعاً محتملاً مرضياً ، وهؤلاء أهل عملهم فسلوهم ، وقد ولى من قبلي أحدث منهم ،

وقيل في ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم أشد مما قيل لي في استعمال أسامة ، أكذلك ؟ قالوا : اللهم نعم ، يعيبون للناس ما لايفسرون .

وقالوا : إني أعطيت ابن أبي سرح ما أفاء الله عليه ، وإني إنما نفلته خمس ما أفاء الله عليه من الخمس وكان مائة ألف ، وقد أنفذ مثل ذلك أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ، فزعم الجند أنهم يكرهون ذلك ، فرددته عليهم ، وليس ذلك لهم ، أكذلك ؟ قالوا : اللهم نعم .

وقالوا : أحب أهل بيته وأعطاهم ، فأما حبي ، فإنه لم يمل علي جور ، بل أحمل الحقوق عليهم ، وأما إعطاؤهم ، فإن ما أعطيهم من مالي ، ولا أستحل أموال المسلمين لنفسي ، ولا لأحد من الناس ، ولقد كنت أعطي العطية الكبيرة الرغيبة من صلب مالي أزمان رسول الله وأبي بكر وعمر ، وأنا اليوم شحيح حريص ، أفحين أتيت على أسنان أهل بيتي ، وفني عمري ، وودعت الذي لي في أهلي ، قال الملحدون ما قالوا ؟ وأبى المسلمون إلا قتلهم ، وأبيت إلا تركهم اهـ(١) .

٤ ـ أبطل سنة القصر في الصلوات في السفر :

الجواب : ترك القصر اجتهاداً منه ، إذ سمع أن الناس افتتنوا بالقصر ، وفعلوا ذلك في منازلهم ، فرأى أن السنة ربما أدت إلى إسقاط الفريضة ، فتركها خوف الذريعة ، مع أن جماعة من العلماء قالوا : إن المسافر مخير بين القصر والإتمام ، واختلف في ذلك الصحابة .

٥ ـ ضربه لعمار حتى فتق أمعاءه ، ولابن مسعود حتى كسر أضلاعه ، ومنعه عطاءه .

الجواب : وأما ضربه لابن مسعود ، ومنعه عطاءه ، فزور ، وضربه لعمار ، إفك مثله ، ولو فتق أمعاءه ما عاش أبداً .

وقد اعتذر عن ذلك العلماء بوجوه لاينبغي أن يشتغل بها ، لأنها مبنية على باطل ، ولا يبنى حق على باطل ، ولا نذهب الزمان في مماشاة الجهال ، فإن ذلك لا آخر له .

٦ ـ أجلى أبا ذر إلى الربذة :

---

(١) من (السبئيون) ص ٢١ ـ ٢٢ .

الجـواب : أمـا نفيه أبا ذر إلى الربذة فلم يفعل ، كان أبو ذر زاهـداً ، وكـان يقرع عمال عثمان ، ويتلو عليهم : **(والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم)**[1] ويراهم يتسعون في المراكب والملابس حين وجدوا ، فينكر ذلك عليهم . ويريد تفريق جميع ذلك من بين أيديهم ، وهو غير لازم ، قال ابن عمر وغيره من الصحابة : إن ما أديت زكاته فليس بكنز ، فوقع بين أبي ذر ومعاوية كلام بالشام ، فخرج إلى المدينة ، فاجتمع إليه الناس ، فجعل يسلك تلك الطرق فقـال له عثمـان : «لو اعتزلت» ، معناه : أنك على مذهب لايصلح لمخالطة الناس ، فإن للخلطة شروطاً ، وللعزلة مثلها ، ومن كان على طريقة أبي ذر ، فحاله يقتضي أن ينفرد بنفسه ، أو يخالط ويسلم لكل أحد حاله ، مما ليس بحرام في الشريعة ، فخرج إلى الربذة زاهداً فاضلاً ، وترك فضلاء ، وكل على خير وبركة وفضل ، وحال أبي ذر أفضل ولا تمكن لجميع الخلق ، فلو كانوا عليها لهلكوا ، فسبحان مرتب المنازل .

ومن العجيب أن يؤخذ عليه في أمر فعله عمر ، فقد روي أن عمر إبن الخطاب رضى الله عنه سجن ابن مسعود في نفر من الصحابة سنة بالمـدينـة حتى استشهد ، فأطلقهم عثمان ، وكان سجنهم لأن القوم أكثروا الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ووقع بين أبي ذر ومعاوية كلام ، وكان أبو ذر يطلق من الكلام مالم يكن يقوله في زمان عمر ، فأعلم معاوية بذلك عثمان ، وخشي من العامة أن تثـور منهم فتنـة ، فإن أبـا ذر كان يحملهم على التـزهد وأمور لايحتملها الناس كلهم ، وإنما هي مخصوصة ببعضهم ، فـكتب إليه عثمان ـ كما قدمنا ـ أن يقدم المدينة ، فلما قدم اجتمع إليه الناس ، فقال لعثمان : أريد الربذة . فقال له : افعل ، فاعتزل ، ولم يكن يصلح له إلا ذلك لطريقته .

---

(١) سورة التوبة : الآية : ٣٤ .

نبذة مختصرة عن عبد الله بن سبأ

ولما كان محرك الفتنة على سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه ، تلك الفتنة الظالمة التي أدت إلى قتله شهيداً ، هو عبد الله بن سبأ ، فإتماماً للفائدة ، وتنويراً لأذهان القراء ، أذكر كلاماً عن ابن سبأ ، وما قيل فيه ، وهاك بيانه :

يقول شيخ المؤرخين الإمام الطبري ٣١٠ هـ : كان عبد الله بن سبأ يهودياً من أهل صنعاء ، أمه سوداء ، فأسلم زمن عثمان ثم تنقل في بلدان المسلمين ، يحاول ضلالتهم ، فبدأ بالحجاز ثم البصرة ، ثم الكوفة ، ثم الشام ، فلم يقدر على ما يريد عند أهل الشام ، فأخرجوه حتى استقر في مصر ، فاعتمر فيها ، فقال لهم فيما يقول : لعجب ممن يزعم أن عيسى يرجع ، ويكذب بأن محمداً يرجع ، وقد قال الله تعالى : **(إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد)**[1] فمحمد أحق بالرجوع من عيسى ، فقبل ذلك عنه ، ووضع لهم الرجعة ، فتكلموا فيها[2] .

يقول البغدادي ٤٤٩ هـ : كان ابن السوداء في الأصل يهودياً من أهل الحيرة ، فأظهر إسلامه ، وأراد أن يكون له عند أهل الكوفة سوق ورياسة ، فذكر لهم أنه وجد في التوراة ، أن لكل نبي وصياً ، وأن علياً

---

(١) سورة القصص : الآية ٨٥ .

(٢) انظر بقية الكلام في تاريخ الطبري ٣/ ٣٧٨ - ٣٧٩ مطبعة الاستقامة القاهرة ١٩٣٩ م . (السبئيون ص/١٣) .

وصي محمد ، وأنه خير الأوصياء ، كما أن محمداً خير الأنبياء ، فلما سمع ذلك منه شيعة علي ، قالوا لعلي : إنه من محبيك ؟ فرفع علي قدره ، وأجلسه تحت درجة منبره ، ثم بلغه عنه غلوه فيه ، فهم أن يقتله ، فنهاه ابن عباس وقال : إن قتلته اختلف عليك أصحابك ، وأنت عازم على العود إلى قتال أهل الشام ، وتحتاج إلى مداراة أصحابك ، فلما خشي الفتنة التي خافها ابن عباس ، نفاه إلى المدائن ، فافتتن به الرعاع بعد قتل علي .ا ـ هـ (١)

ويقول المقريزي ٨٤٨ هـ : مبيناً لنا الاسم الكامل لابن سبأ : وقام في زمانه ـ أي زمن علي بن أبي طالب ـ عبد الله بن وهب بن سبأ المعروف بابن السوداء السبئي ، وأحدث القول بوصية رسول الله لعلي بالإمامة من بعده بالنص ، وأحدث القول برجعة علي والنبي وأنه حي ، وأن فيه الجزء الإلهي ، ومن ابن سبأ تشعبت أصناف الغلاة من الرافضة . اهـ (٢) .

أما ابن حزم ٤٥٦ هـ فيوضح لنا سبب نفي علي له إلى المدائن ، وأنه صاحب أول بدعة في الإسلام فيقول : عبد الله بن سبأ الحميري الذي قال لعلي : أنت أنت ، يعني أنت الإله ، فنفاه إلى المدائن ، كان يهودياً فأسلم ، وكان في اليهودية يقول في يوشع بن نون وصي موسى ، مثل ما قال في علي ، وهو أول من أظهر القول بإمامة علي ، ومنه تشعبت أصناف الغلاة ، وزعم أن علياً حي لم يقتل ، وفيه الجزء الإلهي ، وهو الذي يجيء في السحاب ، والرعد صوته ، والبرق سوطه ، وأنه سينزل بعد ذلك إلى الأرض ، فيملأ الأرض عدلاً ، كما ملئت جوراً ، وهو أول من قال بالتوقف والغيبة والرجعة ، وقال بتناسخ الجزء الإلهي في الأئمة بعد علي .(٣) ا ـ هـ .

---

(١) ، (٢) ، (٣) من (السبئيون منهجاً وغاية) . د. حمدي عبد العال .

فصـــل

في إثبات وجود عبد الله بن سبأ

للرد على من أنكره

اتفق المحدثون وأهل الجرح والتعديل والمؤرخون وأصحاب كتب الفرق والنحل والطبقات والأدب والكتب الخاصة في بعض فنون العلم ، على وجـود شخصية خبيثة يهودية ، وهي شخصية عبد الله بن سبأ الملقب بابن السوداء ، الذي قام بدور خطير ، وبذر الشر المستطير بين المنافقين والشعوبيين ، ومن في نفسه أهواء وأغراض .

ولم ينكر من له حظ من علم وذرة من عقل وجود ابن سبأ إلا في العصر الحاضر من هذا القرن والقرن المنصرم ، وهم نفر قليل مابين مستشرق حاقد ، ومتابع لهم ، ومسلم جاهل ، أو منكر مكابر من بعض الشـيعـة اليـوم ، ومن المســتشرقين الذين أنكروه د. برنارد لويس ، وفـرييد لاندر ، ومن أتبـــاع المستشرقين د. طه حســين ، ود. محمد كامل حسين ، ود. حامد حفني داود .

ومن الشيعة : محمد جواد مغنية ، ومرتضى العسكري ، ود. علي الوردي .

ومن العجائب ما ذهب إليه علي الوردي ، أن عبد الله بن سبأ هو نفســه عمــار بن ياسر ، وكتب الجـرح والتعديل والرجال الموثقة عند

الشيعة ترد على هذا القول ، وذلك أن كتبهم ذكرت ترجمة عمار بن ياسر في أصـحاب الإمام علي رضي الله عنـه والرواة عنه ، وتعد من الأركان الأربعة ، وهم زيادة على عمار ، حذيفـة بن اليمـان ، وسلمان الفارسي ، وأبو ذر الغفاري .

كمـا ذكـرت ترجمة ابن سبأ ، وتذكر اللعنة عليه ، وذكرت كتب الشيعة ـ وأعني الكثير منها ـ ابن سبأ وقبحت أقواله .

ومن تلك الكتب :

١ ـ كتاب المقالات والفرق لسعد بن عبد الله الأشـعري القمي المتوفى سنة ٣٠١ هـ ، وهو مطبوع في طهران سنة ١٩٦٣ م .

٢ ـ رجال الطوسي لشيخ الطائفة أبي جعفر بن الحسن الطوسي المتـوفى سنة ٤٦٠ هـ . الأولى في النجف ١٣٨١ هـ /١٩٦١ م نشر محمد كاظم الكتبي .

٣ ـ روضـات الجنـات لمحمـد باقـر الخـوانسـاري المتوفى سنة ١٣١٥ هـ . ط. إيران ١٣٠٧ هـ .

٤ ـ قاموس الرجال لمحمد تقي التستري ، منشورات مركز نشر الكتاب طهران ١٣٨٢ هـ[1] ا ـ هـ .

وهناك كتب عديدة أخرى وكلها تثبت وجود عبد الله بن سبأ ، وأنه أول من قال بوصيـة رسول الله صلى الله عليه وسلم على عليٍّ ، وأنه خليفته على أمته ، وأول من أظهر البراءة من أعداء علي بزعمه ، وأول من قال لعـلي : أنت أنت ، يعني أنت رب العالمين ، ومن أجل ادعاء الألوهيـة في علي نفاه إلى المدائن كما سبق ذكره ، فلا يغتر القاريء بإنـكـار هؤلاء لابن سـبـأ ، لأنـه من قبيل إنـكار الشمس في رائعة النهار ، وقد كتبت في هذا العصر كتب عديدة في عبد الله بن سبأ ، فلا مجال لإنكار وجوده ، بعدما أثبته أهل الملل والنحل والمؤرخون وأهل الحديث .

---

(١) من كتاب ابن سبأ حقيقة لا خيال ، للدكتور سعدي الهاشمي .

وأما طه حسين وأمثاله فلا عجب ، فإن طه حسين أنكر الشعر الجاهلي ، وبعض الأحكام الشرعية ، ومواقف بعض علماء مصر المحققين مع طه حسين معروفة .

قال شيخنا الشيخ أحمد نور بن عبد الله في كتابه المواهب الإلهية في الفرق الإسلامية رحمه الله :

قال إمامهم عبيد بن سبأ أنت الإله لعـــلي فـــأبى
قالوا علي لم يمت وما قتل بل القتيل من بشـــكله شكل
يحـــل في السحاب رعد صـــوته والبرق في أنـــواره وســـوطه
ثم عـــلي بعـــد هـــذا ينزل في الأرض يرفع جورها ويعدل

علي بن أبي طالب
رضي الله عنه

هو الخليفة الراشد علي بن أبي طالب بن عبد المطلب ، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولد قبل الهجرة بواحد وعشرين عاماً ، وأدركته البعثة وهو مراهق ، فاعتنق الإسلام بدون تلكؤ ، وكان من السابقين .

وامتاز بالشرف العظيم ، وذلك ببياته ليلة الهجرة مكانه صلى الله عليه وسلم ، كيلا يتنبه له المترصدون .

وزوّجه النبي صلى الله عليه وسلم بفاطمة بعد الهجرة ، وحضر المشاهد كلها ما عدا تبوك ، ومناقبه كثيرة وفضائله شهيرة .

بعض الأحاديث الواردة في حقه :

١ ـ أخرج الشيخان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم خيبر : لأعطين الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه ، يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله ، فبات الناس يلوكون ويتحدثون ليلتهم أيهم يعطاها ، فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكلهم يرجون أن يعطاها ، فقال : أين علي بن أبي طالب ؟ فقيل : يشتكي عينيه ، قال : فأرسلوا إليه ، فأتى به ، فبصق رسول الله صلى الله عليه وسلم في عينيه ، ودعا له ، فبرأ ، حتى لم يكن به وجع ، فأعطاه الراية .

٢- أخرج مسلم عن سعد بن أبي وقاص ، قال : لما نزلت هذه الآيـة (**نـدع أبناءنا وأبناءكم**) دعا رسول الله علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً فقال : «اللهم هؤلاء أهلي» .

٣ - وحديث : أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى ، إلا أنه لانبي بعدي .

وهنـاك أحاديث أخرى وأكثرها غير صحيح كحديث : أنا مدينة العلم ، وحديث لسلمان : سل النبي صلى الله عليه وسلم من وصيه ؟ ، وأنه سأله ، وأجابه من كان وصي موسى ؟ ، فقال:يوشع بن نون ، فقال : فإن وصيي ووارثي يقضي ديني وينجز موعدي علي بن أبي طالب .

وحـديث: من أحب علياً أعطاه الله بكل عرق من بدنه مدينة في الجنـة ، إلى غير ذلك من الأحاديث المكذوبة التي وضعها المغرضون لأغـراضـهم الخاصة ، وترويجها لمذاهبهم الباطلة ، وعَليٌ أجل قدراً ، وأرفـع ذكـراً من أن يحتـاج لإثبات فضله ومناقبه بتلك الموضوعات الواهية ، بعد ما كان من السابقين ومن المجاهدين للكفار والمشركين ، وقد بشره النبي بالجنة كسائر العشرة المبشرة رضي الله عنه وأرضاه .

خلافتـــــه :

لم تكن الظروف التي حصل فيها انتخاب علي مشابهة لما كان عليه الحال في انتخاب من قبله لما عرفت مما تقدم ، حيث كانت الحالة عند ابتداء البيعة للخلفاء الثلاثة هادئة ، يسود الجميع السلم والسكينة ، وأتـوا إليهـا بقائد الرغبة وسائق المحبة والصلاح ، وكان المهاجرون والأنصار وسائر الصحابة حاضرين إذ ذاك ، أما عند الانتخاب لهذا الخليفة الأجل فلم يكن كذلك ، لما كان من جماعة المحاصرين لعثمان النـاقمـين عليه ، الذين قضوا عليه ظلماً وجوراً ، وكانوا من مختلف الأمصار ، وكانت نار الثورة قد اندلع لسانها ، وساد الناس الاضطراب والقلق ، فإنهم بعد فعلتهم الشنيعة طلبوا علياً للخلافة ، فامتنع قليلاً ثم أجـاب لما رأى من تمكن الفتنـة والثـورة ، وحباً في السلم وحقناً للدماء ، كما أنه لم يكن إذ ذاك من هو جدير وأليق بالخلافة منه ، وكان

أول من بايعــه ، هؤلاء الثــوار وفي مقــدمتهم الأشتــر النخعي ، أما أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم فكثير منهم كان خارج المدينة ، منهم المرابطون على الثغور ومنهم العمال ، ومن كان مقيماً بالمدينة منهم من بايع علياً ، ومنهم من تخلف عن البيعة كحسان بن ثابت ، وكعب إبن مالك ، وأبي سعيد الخدري ، والنعمان بن بشير ، ومنهم من ذهب إلى الشام ، فقد بان أنه لم تكن الحالة كحالة السابقين ، ولم يحصل الاتفاق على بيعته ، كما حصل لأولئك الراشدين ، وتاريخ خلافته هو تاريخ قتل عثمان وقد مضى .

أيامـــــه وحروبـــــه :

لم يهنأ له بال ، ولم يسد الحالة السكون ، حيث أنه من ابتداء البيعـة اشتعلت نيران الثـورة والفتن الداخليـة ، ومضت أيامه وهو يخوض في غمرات تلك الحروب ، ولم يتمكن لغزو الكفار وفتح أقطار جديدة ، وفي سنة أربعين هجرية عـدا عليه في شهر رمضان من تلك السنة خـارجي اسـمه عبد الرحمن بن ملجم ، فضربه بخنجره وهو يريـد صلاة الصبـح ، انتقـامـاً من الإمـام الأجل لما أوقع بهم في النهروان ، وعاش يومين ، وفي ١٧ رمضان سنة ٤٠ هـ فاضت روحه الشريفة بالكوفة .

مدة خلافتــه : أربع سنين وتسعة أشهر ، وجعل الخلافة لابنه الحسن أكبـر أولاده ، واستمر ستة أشهر ، ولما رأى تفرق الكلمة ، ومناوءة معاوية بن أبي سفيان ، وعدم إخلاص جنوده ، وعدم امتثالهم له كمـال الامتثال ، رغب حباً لحقن دماء المسلمين ، واجتماعاً لكلمة الموجودين ، ومطابقة لما أخبر به سيد المرسلين من قوله صلى الله عليه وسلم : إن ابني هذا مشيراً إلى الحسن سيد ، وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين ، رغب في التنازل ، وبلَّغ معاوية بشروط مقررة في كتب التاريخ ، فقبل معاوية تلك الشروط بكل انشراح ، ونزل هذا عن الخلافة ، وسلمها معاوية ، وتم الاتفاق ، وذلك في سنة ٤١ هـ .

تنبيـــه مهـم :

حيث أن أهل السنة والجماعة كلهم يثنون على أصحاب رسول الله ، ويحبونهم كما يحبون أهل البيت النبوي الشريف ، ويترضون عن الجميع ، ولا يطلقون ألسنتهم في الوقيعة بهم من أجل ما شجر بينهم ، ولا يستقرؤون بعض الهفوات التي صدرت من بعضهم بحسن قصد أو بتأويل ، فمن أجل ذلك لما اخترعت الشيعة مثالب لأبي بكر وعمر وعثمان ، ووافقتهم الخوارج في بعض المثالب المخترعة لعثمان ومعاوية وعمرو بن العاص وحاضري وقعة الجمل وصفين ، لم يشأ أهل السنة والجماعة أن يخترعوا مثالب لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ومعاوية وسائر من طعنوا فيهم ، ويقولون : كانوا هم السبب في سفك دماء المسلمين في وقعة الجمل وصفين حباً للرياسة والإمارة ، ولا كما قالت المعتزلة : لا تقبل شهادة أهل الجمل وصفين ولو على قليل من البقل ، لأن إحداهما فاسق بلا شك إن لم يكن كافراً ، بل يكفون ألسنتهم ويقولون :

ومـا جرى بين الصحـاب نسكت   عنـه وأجـر الاجتهـاد نثبت

لأن الله تعالى أثنى عليهم في عدة آيات ، كما أثنى عليهم رسول الله صلى الله عليـه وسلم في كثير من الأحاديث ، وهنا يظهر للعاقل المنصف فضـلاً عن المـؤمن المسلم ، إنصاف أهل السنة ، ورجحان عقلهم ، ومتانة ديانتهم ، حيث أنهم وقفوا موقف الحياد ، وأثنوا على الجميع ، ولم يتورطوا في المثالب والمطاعن ، ويخالفوا كتاب الله وسنة نبيهم انتصاراً للعقيدة والمذهب ، فالحمد لله على دين الإسلام ، كما أحمده مرة أخرى على عقيدة أهل السنة والجماعة ، فيا لها من نعمة كبـيرة ، أوزعنـا الله شكر نعمه ، وثبتنا على الدين القويم ، والطريق المستقيم ، آمين يا رب العالمين .

الباقون من أهل الفضل

أهل بدر العظمى :

ومن بعد أولئك في الفضل أهل بدر العظمى وهي البطشة الكبرى ، وقعت يوم الجمعة لسبعة عشر من شهر رمضان سنة اثنتين من الهجرة ، وعددهم ثلاث مائة وثلاثة عشر ، كان النصر في جانب المسلمين .

١ ـ جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم في فضلهم ، كما أخرجه أحمد بسند صحيح على شرط مسلم ، عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لن يدخل النار رجل شهد بدراً والحديبية .

٢ ـ روى أبو داود وابن ماجه والطبراني بسند جيد ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «اطلع الله على أهل بدر ، فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » .

ولا إشكال في الحديث بأنه قد يفهم من هذا الأمر الإباحة ، والدفع بأنه إخبار عن الماضي ، أي كل عمل كان لكم فهو مغفور ، كما أجيب أيضاً : بأنهم غير مؤاخذين بما يصدر منهم ، ومتأهلون لغفران الذنوب اللاحقة بعد هذه الوقعة ، لما حصل لهم من المواقف العظيمة ، والقتال المستميت ، وبيع نفوسهم في سبيل كلمة الدين .

أهل بيعة الرضوان :

يلي أولئك أهل بيعة الرضوان تحت الشجرة ، وذلك كان في سنة ست هجرية ، خرج صلى الله عليه وسلم يريد مكة معتمراً ، لايريد حرباً ، وساق معه الهدي ، وكان قد أراه الله في منامه أنه هو وأصحابه يدخلون المسجد الحرام آمنين ، فسار بهم حتى بلغ الحديبية ، وكانت قريش قد سمعت بمسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة ، فتأهبوا للذود عنها ، وأرسلوا من يكشف الحقيقة ، فرجعت إليهم الرسل بأنه لايريد حرباً ، وإنما حاجاً معتمراً ، دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك عمر ليرسله إلى قريش ليبلغهم ما جاء من أجله ، فقال : إني أخاف قريشا على نفسي ، وليس بمكة من بني عدي أحد يمنعني ، وقد عرفت قريش عدواني لها ، وغلظتي عليها ، وأشار بإرسال عثمان رضي الله عنه ، فأرسله ، واحتبست قريش عندها عثمان ، فشاع بين المسلمين أنه قتل ، فقال صلى الله عليه وسلم : لا نبرح ، ثم دعا أصحابه إلى البيعة ، فاندفعوا مهطعين ملبين ، وبايعوه تحت الشجرة من شجر الطلح ، ثم تبين بطلان تلك الإشاعة .

ثناء النبي صلى الله عليه وسلم عليهم :

١ - قال النبي صلى الله عليه وسلم في حقهم ، كما في صحيح مسلم عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم : لايدخل النار أحد بايع تحت الشجرة .

٢ - وفي صحيح مسلم ، عن جابر أن غلاماً قال : حاطب في النار ، فقال رسول الله : كذبت،إنه شهد بدراً والحديبية .

يليهم في الفضل باقي العشرة :

١ - أبو محمد طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب :

إسلامه وثباته في الدفاع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :

أمه : الصعبة بنت الحضرمي ، أخت العلاء ، أسلمت وأسلم طلحة قديماً ، وبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم مع سعيد بن زيد قبل

خروجه إلى بدر ، يتحسسان خبر العير ، فمرت بهما ، فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر فخرج ، ورجعا يريدان المدينة ، ولم يعلما بخروج النبي صلى الله عليه وسلم ، فقدما في اليوم الذي لاقى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم المشركين ، فخرجا يعترضان رسول الله فلقياه منصرفاً من بدر ، فضرب لهما بسهامهما وأجرهما ، فكانا كمن شهدها ، شهد طلحة أحداً وثبت يومئذٍ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ووقاه فشلت أصبعاه وجرح يومئذٍ أربعاً وعشرين جراحة ، ويقال : كانت فيه خمس وسبعون بين طعنة وضربة ورمية ، وسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد «طلحة الخير» ، ويوم غزوة ذات العشيرة[1] «طلحة الفياض» ، ويوم حنين «طلحة الجود»[2] .

ولا يخفى أن طلحة أحد الثمانية السابقين إلى الإسلام في أوله ، ومنذ أعلن إسلامه ظل وفيّاً لعهده لا يغدر ، ولا يخون حتى لقي ربّه .

إنه أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وأحد الستة أصحاب الشورى ، الذين مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض ، كما أخبرنا الفاروق عمر رضي الله عنه .

وإسلامه على يد أبي بكر رضي الله عنه ، وهو ابن عمه ، وأبو بكر هو الرجل المبارك السبّاق إلى الخيرات رضي الله عنهما .

وظل طلحة بعد إسلامه إلى جانب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يأتمر بأمره ، ويهتدي بهديه .

إن سيرة طلحة نفحة من نفحات تاريخنا العظيم ، المليء بمواطن القدوة ، ومواقف الأسوة ، فما أجدرنا بأن نستلهم من ماضينا لحاضرنا ، وأن نمضي على طريق سلفنا الصالح ، فنؤمن كما آمنوا ، ونصدق كما صدقوا ، ونجاهد كما جاهدوا ، فلا يصلح آخر هذا الأمر

---

(١) الغزوة الثالثة للنبي ﷺ ، وادع فيها بني مدلج وبني ضمرة .

(٢) الحديث أخرجه الطبراني ، قال الهيثمي : فيه من لم أعرفهم ، وفيه سليمان بن أيوب الطلحي وثق وضعيف .

إلا بما صلح به أوله ، **(إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد)**[١] .

صـــاحب الـــرأي :

كان طلحة شجاعاً مقداماً ، له رأيه حتى في جاهليته ، فبينما هو في سوق بُصرى ، إذ سمع راهباً يسأل عن أحد من أهل الحرم ؟.

تقدم إليه طلحة ، فراح الراهب يسأله عن ظهور «أحمد بن عبد الله بن عبد المطلب» ، حيث حل موعد ظهوره .

فلما عاد أخذ يسأل عنه حتى التقى بأبي بكر ، فأسلم على يديه بعد عثمان بن عفان ، فكان أحد الثمانية السابقين وهم : أبو بكر ، وعثمـان ، وطلحة ، وسعد بن أبي وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، وزيد بن حارثة بعد علي وخديجة .

وتمر الأيام ، فإذا هو من المهاجرين الأولين الذين خاضوا المعارك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عدا غزوة بدر ، فقد كان مِكلفاً من قِبل الرسول صلى الله عليه وسلم للقيام بمهمة تأمينية .

فقد كلفه الرسول صلى الله عليه وسلم أن يتحسَّس أمرَ العير تجاه «الحوراء» .

يـــوم هجرتـــه :

هاجـر الرسـول صلى الله عليـه وسلم ومعـه أبو بكر ، وهاجرت « رقية » ابنته صلى الله عليه وسلم مع زوجها عثمان ، ولم تهاجر ابنته « زينب » حيث بقيت مع زوجهـا « أبـو العـاص بن الربيع » ، أما « فاطمة » و « أم كلثوم » فقد كانتا في انتظار من يرافقهما إلى المدينة لتصلا إليها في أمان الله !.

ويتاح لطلحة بن عبيد الله أن ينال شرف مرافقة الأسرة الشريفة مع حاديها وحارسها ، فلقد أسند إلى زيد بن حارثة ، وأسامة بن زيد حراسة القافلة ، فقد صادف موعد هجرته تحرك القافلة التي ضمت

---

(١) سورة ق : الآية ٣٧ .

ابنتي النبي صلى الله عليه وسلم : «فاطمة» و«أم كلثوم» ومعهما زوج الرسول صلى الله عليه وسلم أم المؤمنين «سودة بنت زمعة» و«أم أيمن» رضي الله تعالى عنهم أجمعين .

فيا له من شرف عظيم كتب لطلحة أن يناله ، وكيف لا وقد وهب طلحة نفسه لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم ؟!.

ذكر جملة من مناقبه رضي الله عنه :

١ ـ عن عبد الله بن الزبير ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يومئذٍ ـ يعني يوم أحد ـ أوجب طلحة حين صنع برسول الله صلى الله عليه وسلم ما صنع ، يعني حين برك له طلحة ، فصعد رسول الله صلى الله عليه وسلم على ظهره ، رواه الإمام أحمد(١) .

٢ ـ وعن عائشة رضي الله عنها قالت : كان أبو بكر رضي الله عنه إذا ذكر يوم أحد ، قال : ذاك كله يوم طلحة .

٣ ـ قال أبو بكر : كنت أول من جاء يوم أحد ، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم ولأبي عبيدة بن الجراح : «عليكما» يريد طلحة وقد نزف ، فأصلحنا من شأن النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم أتينا طلحة في بعض تلك الحفار ، فإذا به بضع وسبعون أو أقل أو أكثر ، بين طعنة وضربة ورمية ، وإذا قد قطعت إصبعه ، فأصلحنا من شأنه .

٤ ـ وعن قيس قال : رأيت طلحة يده شلا ، وقى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد . انفرد بإخراجه البخاري(٢) .

٥ ـ وعن سعدى بنت عوف قالت : دخل علي طلحة ورأيته مغموماً ، فقلت : ما شأنك ؟ فقال : المال عندي قد كثر وقد كربني ، فقالت : وما عليك ؟ أقسمه ، فقسمه حتى ما بقي منه درهم .

(١) الحديث صحيح أخرجه الترمذي عن الزبير بن العوام في مناقب طلحة ، والحاكم في المستدرك وصححه ، وسكت عنه الذهبي .

(٢) الحديث أخرجه البخاري في مناقب طلحة وفي غزوة أحد ، وقيس هو قيس بن أبي حازم .

قال طلحة بن يحيى : فسألت خازن طلحة : كم كان المال ؟ فقال : أربعمائة ألف[1] .

٦ - وعن الحسن قال : باع طلحة أرضاً له بسبعمائة ألف ، فبات ذلك المال عنده ليلة ، فبات أرقاً من مخافة ذلك المال ، فلما أصبح فرقه كله . رواه الإمام أحمد .

٧ - وعن سعدى بنت عوف ، امرأة طلحة بن عبيد الله قالت : لقد تصدق طلحة يوماً بمائة ألف ، ثم حبسه عن الرواح إلى المسجد أن جمعت له بين طرفي ثوبه .

ذكر وفاته رضي الله عنه :

قتل يوم الجمل ، وكان يوم الخميس لعشرة خلون من جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين ، ويقال سهماً غرباً[2] أتاه فوقع في حلقه ، فقال : بسم الله ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً .

٢ - أبو عبد الله الزبير بن العوام :

ابن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب ، أمه صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأسلمت وأسلم الزبير قديماً وهو ابن ثمان سنين ، وقيل ابن ست عشرة سنة ، فعذبه عمه بالدخان لكي يترك الإسلام فلم يفعل ، وهاجر إلى أرض الحبشة الهجرتين جميعاً ، ولم يتخلف عن غزاة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة .

وهو أول من سلَّ سيفاً في سبيل الله ، وكان عليه يوم بدر ريطة صفراء معتجراً[3] بها ، وكان على الميمنة ، فنزلت الملائكة على سيماه[4]، وثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد ، وبايعه على الموت .

---

(١) الخبر أخرجه الطبراني ورجاله ثقات .
(٢) لا يعرف راميه .
(٣) اعتجر العمامة : لفها على رأسه .
(٤) السيما ، والسيماء : العلامة ، أي نزلت الملائكة وعليها عمائم صفر أيضاً كالزبير .

ذكر جملة من مناقبه رضي الله عنه :

١ ـ عن أبي الأسود قال : أسلم الزبير بن العوام وهو ابن ثمان سنين ، وهاجر وهو ابن ثماني عشرة سنة ، وكان عم الزبير يعلق الزبير في حصير ، ويدخن عليه بالنار وهو يقول : ارجع إلى الكفر ، فيقول الزبير : لا أكفر أبداً .

٢ ـ وعن أبي الأسود محمد بن عبد الرحمن بن نوفل قال : كان إسلام الزبير بعد إسلام أبي بكر ، كان رابعاً أو خامساً .

٣ ـ وعن عبد الله بن الزبير عن أبيه قال : جمع لي رسول الله صلى الله عليه وسلم أبويه يوم أحد .

٤ ـ وعن عبد الله بن الزبير قال : لما كان يوم الخندق كنت أنا وعمر بن أبي سلمة في الأطم[1] الذي فيه نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أطم حسان ، وكان يرفعني وأرفعه ، فإذا رفعني عرفت أبي حين يمر إلى بني قريظة ، وكان يقاتل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الخندق : فقال:من يأتي بني قريظة فيقاتلهم ، فقلت له حين رجع : يا أبت : إن كنت لأعرفك حين تمر ذاهباً إلى بني قريظة فقال : يا بني أما والله إن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليجمع لي أبويه جميعاً يتفداني بهما ويقول : فداك أبي وأمي (أخرجاه في الصحيحين)[2] .

٥ ـ وعن عمر بن مصعب بن الزبير قال : قاتل الزبير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن اثنتي عشرة سنة ، فكان يحمل على القوم ، ويقول له : هاهنا بأبي أنت وأمي ، هاهنا بأبي أنت وأمي (أخرجه البغوي في معجمه وصاحب الصفوة ولم يقل بأبي وأمي) .

٦ ـ وعن نهيك[3] قال : كان للزبير ألف مملوك يؤدون الضريبة ، لا يدخل بيت ماله منها درهم ، يقول : يتصدق بها ، وفي رواية أخرى : فكان يقسمه كل ليلة ، ثم يقوم إلى منزله ليس معه منه شيء .

---

(١) بناء مرتفع كالحصن .

(٢) الحديث أخرجه البخاري ومسلم في فضائل الزبير ، وأخرجه أيضاً الترمذي في مناقب الزبير برقم ٣٧٤٤ وابن ماجه في المقدمة برقم ١٢٦ .

(٣) قط . عن الأوزاعي عن نهيك .

٧ - وعن جويرية قالت : «باع الزبير داراً له بستمائة ألف ، قال : «فقيل له : يا أبا عبد الله غُبنت ، قال : لا والله ، لتعلمن أني لم أغبن وهي في سبيل الله » .

٨ - وعن علي بن زيد قال : «أخبرني من رأى الزبير ، وإن في صدره مثل العيون ، من الطعن والرمي» .

٩ - وعن قيس بن أبي حازم عن الزبير بن العوام قال : «من استطاع منكم أن يكون له جنى من عمل صالح فليفعل» .

ذكر مقتله رضي الله عنه :

قتل الزبير يوم الجمل وهو ابن خمس وسبعين ، ويقال ستين ، ويقال بضع وخمسين ، قتله ابن جرموز .

عن زر قال : «استأذن ابن جرموز على علي وأنا عنده ، فقال علي : بشر قاتل ابن صفية بالنار ، ثم قال علي : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لكل نبي حواري ، وحواريي الزبير»[1] .

وعن عبد الله بن الزبير قال : «جعل الزبير يوم الجمل يوصيني بدينه ويقول : إن عجزت عن شيء منه فاستعن عليه بمولاي ، قال : فو الله ما دريت ما أراد ، حتى قلت : يا أبت من مولاك ؟ قال : الله ، قال : ما وقعت في كربة من دينه إلا قلت : يا مولى الزبير اقض عنه ، فيقضيه ، وإنما دينه الذي كان عليه ، أن الرجل كان يأتيه بالمال فيستودعه إياه فيقول الزبير : لا ، ولكنه سلف[2] ، فإني أخشى عليه الضيعة ، قال : فحسب ما عليه من الدين فوجدته ألفي ألف ومائتي ألف ، فقتل ولم يدع ديناراً ولا درهماً إلا أرضين فبعتهما ، يعني وقضيت الدين ، فقال بنو الزبير : اقسم بيننا ميراثنا ، فقلت : والله لا أقسم بينكم حتى أنادي بالموسم أربع سنين ، ألا من كان له على الزبير دين فليأتنا فلنقضه ، فجعل كل سنة ينادي بالموسم ، فلما مضى أربع سنين قسم بينهم » .

(١) الحديث صحيح تقدم في ذكر جملة من مناقب الزبير .

(٢) أي قرض .

وكان للزبير أربع نسوة ، فأصاب كل امرأة ألف ألف ومائتا ألف ، فجميع ماله خمسون ألف ألف ومائتا ألف . انفرد بإخراج هذا الحديث البخاري .

٣ - أبو محمد عبد الرحمن بن عوف[١] :

ابن عبد عوف بن عبد الحارث بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي .

كان اسمه في الجاهلية عبد عمرو ، وقيل عبد الحارث ، وقيل عبد الكعبة ، فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الرحمن .

أمه الشفاء بنت عوف ، أسلمت وهاجرت .

ذكر جملة من مناقبه رضي الله عنه :

١ ـ أسلم عبد الرحمن قديماً قبل أن يدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم دار الأرقم ، وهاجر إلى أرض الحبشة الهجرتين ، وشهد المشاهد كلها ، وثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد ، وصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم خلفه في غزوة تبوك ، ذهب للطهارة فجاء وعبد الرحمن قد صلى بهم ركعة ، فصلى خلفه وأتم الذي فاته ، وقال : «ماقبض نبي حتى يصلي خلف رجل صالح من أمته» ، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة .

٢ ـ وعن أبي سلمة[٢] عن أبيه أنه كان مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر ، فذهب النبي صلى الله عليه وسلم لحاجته ، فأدركهم وقت الصلاة ، فأقاموا الصلاة فتقدمهم عبد الرحمن ، فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فصلى مع الناس خلفه ركعة فلما سلم قال : «أصبتم ، أو أحسنتم»[٣] .

٣ ـ وعن أم بكر[٤] بنت المسور بن مخرمة ، عن أبيها ، قال : باع

---

(١) الحلية ١/٩٨ ـ ١٠٠ .

(٢) قط . عن عبد الله بن الوليد أنه سمع أبا سلمة يحدث .

(٣) خبر اقتداء الرسول به ذكره ابن عبد البر في الاستيعاب في ترجمة عبد الرحمن بن عوف ، وابن حجر في الإصابة وقال : أخرجه خليفة من حديث المغيرة بن شعبة .

(٤) قط . عن عبد الله بن جعفر المخرمي قال : « حدثتنى عمتي أم بكر » .

عبد الرحمن بن عوف أرضاً له من عثمان بأربعين ألف دينار ، فقسم ذلك المال في بني زهرة وفقراء المسلمين وأمهات المؤمنين ، وبعث إلى عائشة معي بمال من ذلك المال ، فقالت عائشة : أما إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لن يحنو عليكن بعدي إلا الصالحون [1] ، سقى الله ابن عوف من سلسبيل الجنة .

٤ ـ وعن الزهري ، قال : «تصدق عبد الرحمن بن عوف على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بشطر ماله أربعة آلاف ، ثم تصدق بأربعين ألفاً ، ثم تصدق بأربعين ألف دينار ، ثم حمل على خمسمائة فرس في سبيل الله تعالى ، ثم حمل على ألف وخمسمائة راحلة في سبيل تعالى ، وكان عامة ماله من التجارة» .

٥ ـ قال أبو عمر : وقد روي أنه أعتق في يوم واحد ثلاثين عبداً .

٦ ـ وعن سعد بن إبراهيم عن أبيه أن عبد الرحمن بن عوف أتى بطعام وكان صائماً فقال : قتل مصعب بن عمير وهو خيرمني ، فكفن في بردة ، إن غطي رأسه بدت رجلاه ، وإن غطي رجلاه بدا رأسه ، وأراه قال : وقتل حمزة وهو خير مني ، يعني فلم يوجد له ما يكفن فيه إلا بردة ، ثم بسط لنا من الدنيا ما بسط ، أو قال : أعطينا من الدنيا ما أعطينا ، وقد خشينا أن تكون حسناتنا عجلت لنا ، ثم جعل يبكي حتى ترك الطعام . (انفرد بإخراجه البخاري) .

٧ ـ وعن سعيد بن حسين قال : «كان عبد الرحمن بن عوف لايعرف من بين عبيده» .

٨ ـ وعن أيوب ، عن محمد : أن عبد الرحمن بن عوف توفي ، وكان فيما ترك ، ذهب قطع بالفؤوس حتى مجلت [2] أيدي الرجال منه ، وترك أربع نسوة ، فأخرجت إمرأة من ثمنها بثلاثين ألفاً [3] .

---

(١) الحديث صحيح أخرجه الإمام أحمد في المسند ١٠٤/٦ و ١٣٥ بلفظ ، «إلا الصابرون» ، وفي الترمذي رقم ٣٣٥٠ عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان يقول : «إن أمركن لمما يهمني بعدي ، ولن يصبر عليكن إلا الصابرون» .

(٢) ثخن جلدها وظهر فيها ما يشبه البثور .

(٣) قط (بثمانين) وكذا في طبقات ابن سعد ، و ق .

ذكر وفاته رضي الله عنه

توفي عبد الرحمن بن عوف سنة اثنتين وثلاثين ، ودفن بالبقيع وهو ابن اثنتين وسبعين ، ويقال:خمس وسبعين ، وصلى عليه عثمان ، وكان أوصى بذلك .

وروى ابن النجار في كتاب أخبار المدينة بسنده عن عبد الرحمن ابن حميد عن أبيه قال : أرسلت عائشة إلى عبد الرحمن بن عوف حين نزل به الموت ، أن هلم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى أخويك ، فقال : ما كنت مضيقاً عليك بيتك ، إني كنت عاهدت ابن مظعون : أيّنا مات دفن إلى جنب صاحبه ، فيكون على هذا قبر عثمان بن مظعون وقبر عبد الرحمن بن عوف متجاورين .

ذكر ما رُوي عنه عند الموت :

قال أبو عمر : لما حضرته الوفاة بكى بكاء شديداً ، فسئل عن بكائه فقال : إن مصعب بن عمير كان خيراً مني ، توفي على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يكن له ما يكفن فيه ، وإن حمزة بن عبد المطلب كان خيراً مني ، توفي على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يجد له كفناً ، وإني أخشى أن أكون ممن عجلت له طيباته في حياته الدنيا ، وأخاف أن أحبس عن أصحابي لكثرة مالي (اهـ. منالرياض النضرة ملخصاً) .

٤ ـ أبو إسحاق سعد بن أبي وقاص[١] :

واسمه مالك بن وهيب[٢] بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة ، وأمه حمنة .

أسلم قديماً وهو ابن سبع عشرة سنة ، وقال : كنت ثالثاً في الإسلام ، وأنا أول من رمى بسهم في سبيل الله ، شهد المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وولي الولايات من قبل عمر وعثمان ، وهو أحد أصحاب الشورى .

---

(١) الحلية ١/٩٢ ـ ٩٥ .

(٢) أي اسم أبي وقاص ، والد سعد .

ذكر جملة من مناقبه رضي الله عنه :

١ ـ عن سعيد بن المسيب قال : قال سعد : ما أسلم أحد إلا في اليوم[١] الذي أسلمت فيه ، ولقد مكثت سبعة أيام وإني لثلث الإسلام .

٢ ـ وعن علي قال : ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يفدي أحداً بأبويه إلا سعد بن مالك ، فإني سمعته يقول له في يوم أحد : «إرم سعد ، فداك أبي وأمي» (أخرجاه في الصحيحين)[٢] .

٣ ـ عن هاشم بن هاشم الزهري قال : سمعت سعيد بن المسيب يقول : سمعت سعد بن أبي وقاص يقول : نثل لي رسول الله صلى الله عليه وسلم كنانته[٣] يوم أحد وقال : إرم فداك أبي وأمي .

٤ ـ وعن قيس قال : سمعت سعد بن مالك يقول : إني لأول العرب رمى بسهم في سبيل الله عز وجل ، ولقد رأيتنا نغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وما لنا طعام نأكله إلا ورق الحبلة وهذا السمر[٤] ، حتى إن أحدنا ليضع كما تضع الشاة ، ماله خلط ، ثم أصبحت بنو أسد يُعَزِّرُوني على الدنيا ، لقد خِبْتُ إذن وضل عملي[٥] .

٥ ـ وعن عبد الله بن عمر ، عن سعد بن أبي وقاص ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ أنه مسح على الخفين ، وأن عبد الله بن عمر سأل عمر عن ذلك فقال : نعم ، إذا حدثك سعد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلا تسأل عنه غيره[٦] .

---

(١) في هامش المطبوع : (كذا في الأصلين الصواب : إلا في اليوم .. إلخ كما في صحيح البخاري وغيره) .

(٢) الحديث أخرجه البخاري في الجهاد وفي المغازي ـ غزوة أحد ـ ومسلم في فضائل سعد بن أبي وقاص والترمذي برقم ٢٣٥٤ وزاد «إرم أيها الغلام الحزور» والحزور : ولد الأسد .

(٣) استخرج ما فيها من السهام .

(٤) الحبلة : ثمر يشبه اللوبياء ، وقيل : هو ثمر العيضاة . والسمر : ضرب من شجر الطلح ، والواحدة : سمرة .

(٥) الخبر : أخرجه البخاري في فضائل سعد باختلاف يسير .

(٦) الخبر أخرجه البخاري في المسح على الخفين .

٦ ـ وعن جابر بن عبد الله قال : أقبل سعد ورسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : هذا خالي ، فَلْيُرِني المرء خاله[(١)].

٧ ـ وعن قيس بن أبي حازم ، عن سعد قال : قال لي النبي صلى الله عليه وسلم : اللهم سدد رميته ، وأجب دعوته (٢).

٨ ـ وعن طارق ـ يعني ابن شهاب ـ قال : كان بين خالد وسعد كلام ، فذهب رجل يقع في خالد عند سعد ، فقال : مه ، إن مابيننا لم يبلغ ديننا .

ذكر وفاته رضي الله عنه :

مات سعد في قصره بالعقيق على عشرة أميال من المدينة ، فحمل على رقاب الرجال إلى المدينة ، وصلى عليه مروان بن الحكم ، وهو يومئذ والي المدينة ، ثم صلى عليه أزواج النبي صلى الله عليه وسلم في حجرهن ، ودفن بالبقيع ، وكان أوصى أن يكفن في جبة صوف له ، كان لقي المشركين فيها يوم بدر ، فكفن فيها ، وذلك في سنة خمس وخمسين ، ويقال:سنة خمسين ، وهو ابن بضع وسبعين ، ويقال:اثنتين وثمانين .

وعن مالك بن أنس أنه سمع غير واحد يقول : إن سعد بن أبي وقاص مات بالعقيق ، فحمل إلى المدينة ودفن بها .

ذكر اختصاصه بموافقته تمني رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً صالحاً يحرسه عند قدومه المدينة وقد أرق ليلة :

١ ـ عن عائشة قالت : أرق رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة ، فقال : ليت رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسني الليلة ، فقالت : فسمعنا صوت السلاح ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من هذا ؟ قال : سعد بن أبي وقاص يا رسول الله ، جئت أحرسك ، قالت عائشة : فنام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سمعنا غطيطه .

(١) الحديث حسن أخرجه الترمذي في فضائل سعد برقم ٣٧٥٣ .

(٢) الحديث لم أجده بهذا اللفظ ، ودعاء النبي ﷺ لسعد باستجابة الدعوة ثابت صحيح ، أخرجه الترمذي في مناقب سعد بلفظ : «اللهم استجب لسعد إذا دعاك» والحاكم في المستدرك ٢/٤٤٩ وغيرها .

٢ ـ وعنها قالت : سهر رسول الله صلى الله عليه وسلم مقدمه المدينة ليلة ، فقال : ليت رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسني الليلة ، قالت : فبينما نحن كذلك ، إذ سمعنا خشخشة السلاح ، فقال : من هذا ؟ قال : سعد بن أبي وقاص ، قال : ما جاء بك ؟ قال : وقع في نفسي خوف على رسول الله صلى الله عليه وسلم فجئت أحرسه ، فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم . أخرجه مسلم والترمذي .

ذكر اختصاصه برؤية جبريل وميكائيل عن يمين النبي صلى الله عليه وسلم ويساره يوم أحد :

عن سعد قال : رأيت عن يمين النبي صلى الله عليه وسلم وعن شماله يوم أحد رجلين عليهما ثياب بيض يقاتلان عنه كأشد القتال ، ما رأيتهما قبل ولا بعد : يعني جبريل وميكائيل . أخرجاه وأبو حاتم .

ذكر اختصاصه بآيات نزلت فيه :

ومنها : عن سعد أنه قال : نزلت في آيات من القرآن ، قال : حلفت أم سعد لا تكلمه أبداً حتى يكفر بدينه ، ولا تأكل ولا تشرب ، قال : قالت : زعمت أن الله أوصاك بوالديك فأنا أمك ، وأنا آمرك بهذا ، قال : فمكثت ثلاثا حتى غشي عليها من الجهد ، فقام ابن له يقال له عمارة ، فسقاها فجعلت تدعو على سعد ، فأنزل الله تعالى : **(وإن جاهداك على أن تشرك بي ..)** إلى **(وصاحبهما في الدنيا معروفا)**[1] .

في شهادة النبي صلى الله عليه وسلم له بالجنة :

عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : أول من يدخل من هذا الباب رجل من أهل الجنة ، فدخل سعد ابن أبي وقاص . أخرجه أحمد .

في ذكر نبذ من فضائله :

قال أبو عمر وغيره : شهد سعد بدراً والحديبية والمشاهد كلها ، وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، وأحد الستة أهل الشورى الذين أخبر عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توفي وهو عنهم راض ، وأحد

---

(١) سورة لقمان : الآية ١٥ .

من كان على حراء حين تحركت بهم الصخرة ، فقال صلى الله عليه وسلم : أثبت حراء ، فما عليك إلا نبي وصديق وشهيد ، فكانت شهادة من النبي صلى الله عليه وسلم بالشهادة .

٥ - أبو الأعور سعيد بن زيد[١] :

ابن عمرو بن نفيل بن العزى بن رباح[٢] بن عبد الله بن زراح بن عدي بن كعب بن لؤي ، أمه فاطمة بنت بعجة بن أمية ، أسلم قديماً قبل أن يدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم دار الأرقم ، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ما خلا بدراً ، فإنه لم يحضرها للسبب الذي ذكرناه في ترجمة طلحة (٣).

ذكر جملة من مناقبه رضي الله عنه :

١ ـ عن عبد الله بن مظالم قال : أخذ بيدي سعيد بن زيد فقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أثبت حراء ، فإنه ليس عليك إلا نبي أو صديق أو شهيد» . قال : قلت : من هم ؟ فقال : «رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي ، والزبير وطلحة وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن مالك » ثم سكت . قال : قلت : ومن العاشر ؟ قال : أنا (رواه الإمام أحمد)(٤).

٢ ـ وعن عبد الرحمن بن الأخنس قال : قال سعيد بن زيد : أشهد أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «رسول الله في الجنة ، وأبو بكر في الجنة ، وعمر في الجنة ، وعلي في الجنة ، وعثمان في الجنة ، وعبد الرحمن في الجنة ، وطلحة في الجنة ، والزبير في الجنة ،

---

(١) الحلية ١/٩٥ ـ ٩٧ .

(٢) في بعض المصادر : رياح .

(٣) وهو أنهما خرجا يتحسسان أخبار التجارة ، ثم عادا إلى المدينة وكان الرسول قد خرج منها إلى بدر دون أن يعلما .

(٤) الحديث أخرجه أيضاً البخاري في الجهاد وفي التمني ، ومسلم في فضل سعد والترمذي برقم ٣٧٥٨ ، وأبو داود في السنة وابن ماجه في المقدمة .

وسعد في الجنة » ثم قال : إن شئتم أخبرتكم بالعاشر . ثم ذكر نفسه (رواه الإمام أحمد)[1] .

ذكر أنه ذو دعوة مجابة :

عن سعيد بن زيد ، أن أروى خاصمته في بعض داره فقال : دعوها وإياها ، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من أخذ شبراً من الأرض بغير حق ، طوقه في سبع أرضين يوم القيامة ، اللهم إن كانت كاذبة فأعم بصرها ، واجعل قبرها في دارها ، قال محمد بن زيد : فرأيتها عمياء تلتمس الجدر ، وتقول : أصابتني دعوة سعيد بن زيد ، فبينما هي تمشي في الدار ، إذ مرت على بئر في الدار ، فوقعت فيها فكانت قبرها . أخرجه مسلم ، وأخرجه أبو عمر وقال : اللهم إن كانت كاذبة ، فلا تمتها حتى تعمي بصرها ، وتجعل قبرها في بئر .

ذكر وفاته رضي الله عنه :

عن نافع ، أن سعيد بن زيد مات بالعقيق ، وحمل إلى المدينة ، فدفن بها ، وقال ابن سعد ، وقال عبد الملك بن زيد : مات بالعقيق فحمل إلى المدينة ، ونزل في حفرته سعد وابن عمر ، وذلك في سنة خمسين أو إحدى وخمسين ، وكان يوم مات ابن بضع وسبعين سنة . والله أعلم .

٦ - أمين الأمة أبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح :

اعتنق الإسلام بقائد الحب والإخلاص مع عثمان بن مظعون ، وهاجر الهجرة الثانية ، وحضر المشاهد كلها مع النبي صلى الله عليه وسلم ، وثبت يوم أحد .

ذكر جملة من مناقبه رضي الله عنه :

١ ـ نزع الحلقتين اللتين دخلتا في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد بفيه ، فوقعت ثنيتاه ، فكان أحسن الناس هتماً .

٢ ـ قال النبي صلى الله عليه وسلم في فضله كما في صحيح مسلم : «إن لكل أمة أميناً ، وأن أميننا أيتها الأمة أبو عبيدة بن الجراح » .

---

(١) الحديث حسن أخرجه أيضاً الترمذي في مناقب سعيد بن زيد برقم ٣٧٥٨ .

أخرجه البخاري ومسلم ، وأخرجه الترمذي وأبو حاتم بلفظهما : لكل أمة أمين ، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة .

٣ ـ كان قوياً في دينه ، صادقاً في صحبته ، متفانياً في حب نبيه ، حتى سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم أمين هذه الأمة كما مر .

٤ ـ كان ملازماً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، شديد التمسك بأوامره ، حريصاً على رضاه فتخلق بأخلاقه ، ووقف على حقيقة دينه ، فكان من التقوى والرفق والزهد والتمسك بالإسلام والحنو على المسلمين على جانب عظيم ، ولو كان حياً عند موت عمر لجعله الخليفة من بعده ، ولم يحتج إلى مشورة أحد .

٥ ـ تسلم قيادة الجيوش من أبي بكر متوجهاً إلى الشام ، وهناك وقعت له وقعات مشهورة ، ومواقف مشكورة ، كان النصر حليفاً له ، والتوفيق مقارناً له .

ثناء أبي بكر وعمر وغيرهما عليه :

١ ـ عن عمر بن الخطاب أنه قال لأصحابه : تمنوا ، فقال رجل : أتمنى لو أن لي هذه الدار مملوءة ذهباً أنفقه في سبيل الله عزَّ وجلَّ ، ثم قال : تمنوا ، فقال رجل : أتمنى لو أن لي هذه الدار مملوءة لؤلؤاً وزبرجداً أو جوهراً أنفقه في سبيل الله عزَّ وجلَّ وأتصدق به ، ثم قال : تمنوا ، فقالوا : ما ندري يا أمير المؤمنين . فقال عمر : أتمنى لو أن هذه الدار مملوءة رجالاً مثل أبي عبيدة بن الجراح . أخرجه صاحب الصفوة .

٢ ـ وعن هشام بن عروة عن أبيه قال : لما قدم عمر الشام تلقاه الناس وعظماء أهل الأرض ، فقال عمر : أين أخي ؟ قالوا من ؟ قال : أبو عبيدة ، قالوا : الآن يأتيك ، فلما أتاه نزل فاعتنقه ، ثم دخل عليه بيته ، فلم ير في بيته إلا سيفه وترسه ورحله ، فقال له عمر : ألا اتخذت ما اتخذ أصحابك ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، هذا يبلغني المقيل . رواه الإمام أحمد .

في ذكر نبذ من فضائله :

١ ـ شهد أبو عبيدة مع النبي صلى الله عليه وسلم بدراً وهو ابن إحدى وأربعين سنة وما بعدها من المشاهد كلها ، وشهد بيعة الرضوان ، وثبت معه يوم أحد ، وقتل أباه يوم بدر كافراً ، فأنزل الله جلَّ وعلا **(لاتجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم)**[1] الآية ، وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، كان رضي الله عنه يسير في العسكر ويقول : ألا رب مبيض لثيابه ومدنس لدينه ، ألا رب مكرم لنفسه وهو لها مهين ، بادروا السيئات القديمات بالحسنات الحادثات ، فلو أن أحدكم عمل في السيئات ما بينه وبين السماء ، ثم عمل حسنة ، لعلت فوق سيئاته حتى تقهرها .

٢ ـ وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم الرجل أبو بكر ، نعم الرجل عمر ، نعم الرجل أبو عبيدة بن الجراح ، أخرجه الترمذي وقال : حديث حسن .

وفاته رضي الله عنه :

توفي أبو عبيدة في طاعون عمواس بالأردن ، وقبر ببيسان ، وصلى عليه معاذ بن جبل وذلك في سنة ثماني عشرة من خلافة عمر ، وهو ابن ثمان وخمسين سنة[2] .

---

(١) سورة المجادلة : الآية ٢٢ .

(٢) ا. هـ. من الرياض النضرة في مناقب العشرة للمحب الطبري .

فصـــل
في شــروط الامامــة

فــرض محتم على الأنــام نصــب إمــام لا على العــلام
وجوبـــه بالشــرع لا بالعقـل مخالفـــاً أهل المـرا والجهل
وشـــرطه البلــوغ مع إســلام وكونـــه منفــذ الأحـكام
ومن قريش كونـــه وذكـــر حرية والعقــل أيضـــاً ذكــرو
طاعتـــه واجبـــة على الـورى مــالم يكن بمنكــر فلتحــذرا
وليس بالفســق الـذي منه جرى منعــزلاً خــلاف قــاض حــررا
كلا ولا نرى الخــروج أبـداً إلا بكفـــر بان منـه وبـــدا

الإمــامــة في اللغة مصدر من الفعل ، تقول : أمهم ويؤمهم وهو إمام ، والإمام كل من أئتم به ، رئيس أو غيره .

وفي الإصطلاح : الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا به .

فالإمام والخليفة وأمير المؤمنين ، ألفاظ مترادفة ومؤدية إلى معنى واحد .

قال النووي رحمه الله :

يجوز أن يقال للإمام : الخليفة ، والإمام ، وأمير المؤمنين[1] .

الإمامة من فروض الكفاية الواجب على المسلمين القيام بها ، وهي من الأمور المهمة التي لاغنى عنها لكل أمة ، وفي كل زمان ، ولهذا اهتمت الصحـابـة رضي الله عنهم بهـذه المسألة ، وجعلوها من أهم الواجبات ، حيث اشتغلوا بها عن دفن الرسول صلى الله عليه وسلم .

---

(١) روضة الطالبين للنووى ج ١ .

ومشروعيتها من الضروريات ، لأن بالإمام تكون إقامة الحدود ، وسد الثغور ، وتجهيز الجيوش لغزو الكفار وحماية الدين والمسلمين ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وغير ذلك مما فيه إعزاز الدين والمؤمنين ، وكل ذلك واجب .

وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .. فوجوب نصب الإمام واجب .

ووجوبها عن طريق الشرع ، كما اتفق على ذلك أهل السنة والجماعة وأكثر المعتزلة ، وهي تجب على العباد نصب الإمام .

قال في الجوهرة :

وواجب نصب إمام عادل بالشرع فاعلم لابحكم العقل

وقالت الشيعة :

نصب الإمام واجب على الله .

وهاك الأدلة من القرآن والسنة والإجماع :

أولاً : القرآن :

١ ـ فقد قال الله تعالى : **(يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم)**(١) .

قال الطبري : أولى الأقوال في ذلك بالصواب ، قول من قال هم الأمراء والولاة فيما كان لله طاعة وللمسلمين مصلحة .

وقال ابن كثير : الظاهر والله أعلم أن الآية عامة في جميع أولي الأمر من الأمراء والعلماء .

وجه الاستدلال من هذه الآية :

إن الله أوجب على المسلمين طاعة أولي الأمر منهم وهم الأئمة ،

---

(١) سورة النساء : الآية ٥٩ .

والأمر بالطاعة دليل على وجوب نصب ولي الأمر ، لأن الله لا يأمر بطاعة من لا وجود له ، ولا يفرض طاعة من وجوده مندوب .

فالأمـر بطاعته يقتضي الأمر بإيجاده ، فدل على أن إيجاد إمام للمسلمين واجب عليهم .

٢ ـ ومن الأدلة قول الله مخاطباً لرسوله صلى الله عليه وسلم : **(فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق)**(١) .

فهذا الأمر من الله لرسوله بأن يحكم بين المسلمين بما أنزل الله أي بشرعه ، وخطاب الرسول صلى الله عليه وسلم خطاب لأمته ، مالم يرد دليل يخصصه به ، وهنا لم يرد دليل على التخصيص ، فيكون خطاباً للمسلمين جميعاً ، بإقامة الحكم بما أنزل الله إلى يوم القيامة ، ولا يعني إقـامـة الحكم والسلطان إلا إقـامة الإمامة ، لأن ذلك من وظائفها ، ولايمكن القيام به على الوجه الأكمل إلا عن طريقها ، فتكون جميع الآيات الآمرة بالحكم بما أنزل الله دليلاً على وجوب نصب إمام يتولى ذلك .

٣ ـ جميع آيات الحدود والقصاص ونحوها من الأحكام ، وآيات وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونحوها من الآيات ، لاريب أنه يلزم القيام بها وجود الإمام .

ثانياً : **الأدلة من السنة القولية** :

وردت أحاديث كثيرة عن النبي صلى الله عليه وسلم فيها دلالة على وجوب نصب الإمام ومنها :

١ ـ ما رواه عبد الله بن عمر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : من مات وليس في عنقه بيعة ، مات ميتة الجاهلية. رواه مسلم .

---

(١) سورة المائدة : ٤٨ .

وهذا واضح الدلالة على وجوب نصب الإمام ، لأنه إذا كانت البيعة واجبة في عنق المسلم ، والبيعة لاتكون إلا لإمام ، فنصب الإمام واجب .

٢ ـ ومنها الحديث المشهور عن العرباض بن سارية رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم الذي جاء فيه : إن من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً ، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، تمسكوا بها ، وعضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل بدعة ضلالة .

رواه الترمذي وقال حسن صحيح ، وأبو داود وابن ماجه ، والإمام أحمد .

٣ ـ وقد ثبت ثبوتاً لا يرقى إليه شك ، أن الصحابة رضي الله عنهم بايعوا أبا بكر بالخلافة بعد أن انتقل النبي صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى ، ثم استخلف أبو بكر عمر رضي الله عنهما ، ثم استخلف عمر رضي الله عنه أحد الستة الذين اختاروا عثمان رضي الله عنه ، ثم بعد استشهاده بايعوا علياً بالخلافة .

فهذه سنتهم رضي الله تعالى عنهم في الخلافة ، وعدم التهاون في منصبها ، فوجب الاقتداء بهم في ذلك بأمر النبي صلى الله عليه وسلم .

إلى غير ذلك من الأحاديث الدالة على وجوب طاعة الحكام فيما لا معصية فيه .

ثالثاً : الإجماع :

ومن أهم الأدلة الدالة على وجوب الإمامة ، الإجماع على ذلك من قبل الأمة ، وأول ذلك إجماع الصحابة رضوان الله عليهم على تعيين خليفة للنبي صلى الله عليه وسلم بعد وفاته ، بل حتى قبل دفنه وتجهيزه .

وهل وجوب الإمامة فرض عين أو فرض كفاية ؟

قال الماوردي رحمه الله : فإذا ثبت وجوبها بالأدلة السابقة ، ففرضها على الكفاية كالجهاد وطلب العلم ، فإذا قام بها من هو من أهلها ، سقط الوجوب .

وقال النووي رحمه الله :

تولي الإمام فرض كفاية ، فإن لم يكن من يصلح إلا واحداً تعين عليه ، ولزمه طلبها إن لم يبتدؤوه .

هذا إذا كان الدافع له الحرص على مصلحة المسلمين ، وإلا فإن من شروط الإمام أن لايطلبها لنفسه .

على الخلق لا على الملك العلام   من طريق السمع لا بالعقل

خلافاً لبعض المعتزلة والشيعة ، وقد سبق بيان ذلك .

وتثبت الخلافة أو الإمامة إما باجتماع أهل الحل والعقد كاجتماع الصحابة رضوان الله عليهم على الصديق رضي الله عنه ، وهذا ما يسمى بالانتخاب ، أو بعهد من الإمام على استخلاف واحد بعينه ، كما فعل أبو بكر مع عمر رضي الله عنهما ، أو بقهر الأمة بسيفه حتى يذعنوا له ويدعونه إماماً ، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة ، أن الإمامة تصح أن تعقد لمن غلب الناس .

قال الإمام أحمد في رواية عبدوس بن مالك العطار : ومن غلب عليهم بالسيف حتى صار خليفة وسمي أمير المؤمنين ، فلا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر ، أن يبيت ولا يراه إماماً .

وهكذا روي عن الإمام مالك والشافعي بما معنى ذلك .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

فمتى صار قادراً على سياستهم ، إما بطاعتهم أو بقهره ، فهو ذو سلطان مطاع ، إذا أمر بطاعة الله .

لأن عدم طاعة المتغلب ، تتسبب منه فتن وقتال وسفك دماء وضياع أموال ، فدفعاً لهذه النتائج الضارة ، وجبت طاعته لئلا يحدث شيء من ذلك .

شروط الإمام :

وللإمام شروط يجب أن يتصف بها كما قلنا في النظم : وشرطه البلوغ مع الإسلام الخ .

١ - **البلوغ** : لأن الصبي لايستطيع إدارة شئونه ، فضلاً عن غيره ومثله المجنون .

٢ - **الإسلام** : لأن الكافر ليس له ولاية على المسلمين كما قال الله تعالى: **(ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً)**[١] . وقال تعالى : **(يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم)**[٢] ، وقال تعالى **(يا يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم)** [٣] .

وقوله تعالى : **(منكم)** نص على اشتراط أن يكون ولي الأمر من المسلمين .

ومعلوم أن الكافر لاتجب طاعته في شيء أبداً ، بل تجب محاربته ومقاتلته بنص القرآن كما قال تعالى : **(قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون)**[٤] .

---

(١) سورة النساء : الآية ١٤١ .

(٢) سورة المائدة : الآية ٥١ .

(٣) سورة النساء : الآية ٥٩ .

(٤) سورة التوبة : الآية ٢٩ .

٣ ـ **كونه منفذاً للأحكام** : أي قادراً على تنفيذ الحكم ، كإقامة الحدود ، وإيصال الحق إلى مستحقه ، وكف ظلم المعتدي .

٤ ـ **كونــه قرشيــاً** : لما ورد في الحـديث الشريف : الأئمة من قريش . رواه الإمام أحمد وأبو يعلى في مسنديهما .

وروى الإمام أحمد أنه صلى الله عليه وسلم قال : الخلافة في قريش .

وروى الترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً ولفظه : الملك من قريش .

وروى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الناس تبع لقريش في هذا الشأن ، مسلمهم تبع لمسلمهم ، وكافرهم تبع لكافرهم .

ومنها الحديث المتفق على صحته عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان .

وفي مسند الإمام أحمد ، أن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما لما ذهبا إلى سقيفة بني ساعدة لاختيار خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تكلم أبو بكر رضي الله عنه ، ولم يترك شيئاً أنزل في الأنصار وذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم من شأنهم إلا وذكره ، ثم قال : ولقد علمتم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لو سلك الناس وادياً ، وسلكت الأنصار وادياً ، سلكت وادي الأنصار ، ولقد علمت يا سعد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وأنت قاعد : قريش ولاة هذا الأمر ، فبر الناس تبع لبرهم ، وفاجرهم تبع لفاجرهم ، فقال سعد : صدقت ، نحن الوزراء وأنتم الأمراء .

رواه أحمد في مسنده بإسناد مرسل حسَن .

وعليه فإن جماهير علماء المسلمين ذهبوا إلى اشتراط القرشية في

الإمامة ، وحكي الإجماع عليه من قبل الصحابة والتابعين ، وبه قال الأئمة الأربعة .

ولا يشترط كونه أفضل الأمة ، ولا كونه هاشمياً خلافاً للشيعة .

٥ - **يكون ذكراً** : ولا خلاف في ذلك بين العلماء ، وعده ابن حزم من المسائل المجمع عليها .

ويدل على اشتراط الذكورة ، ما ثبت في صحيح البخاري وغيره من حديث أبي بكرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم لما بلغه أن فارساً ملكوا ابنة كسرى ، قال : لن يفلح قوم ولوا أمرهم إمرأة .

وقد ورد[١] في القرآن الكريم كثير من الآيات الدالة على تقديم الرجال على النساء ، من ذلك قوله تعالى : **(الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم ..)**[٢] .

وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بأن النساء ناقصات عقل ودين[٣] ، والإمامة تحتاج إلى كمال الرأي ، وتمام العقل والفطنة ، لذلك

---

(١) بدء الكلام من الإمامة العظمى .

(٢) سورة النساء : الآية ٣٤ .

(٣) إشارة إلى حديث أبي سعيد الخدري رضى الله عنه قال : خرج رسول الله ﷺ في أضحى أو فطر إلى المصلى ، فمر على النساء ، فقال : يا معشر النساء : «تصدقن فإني رأيتكن أكثر أهل النار» ، فقلن : وبم يا رسول الله ؟ قال : «تكثرن اللعن ، وتكفرن العشير ، ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن » ، وما نقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله ؟ قال : «أليس شهادة المرأة على النصف من شهادة الرجل؟» قلن : بلى ، قال : «فذلك من نقصان عقلها ، أليس إذا حاضت لم تصل ولم تصم ؟ » قلن : بلى : قال : «فذلك من نقصان دينها» .

الحديث رواه البخاري في كتاب الحيض، ترك الحائض الصوم .

وروى مسلم نحوه عن ابن عمر ، ورواه الترمذي في الإيمان ، وأبو داود في السنة ، وابن ماجه في الفتن وغيرهم .

لاتقبل شهادتها إلا إذا كان معها رجل ، وقد نبّه الله على ضلالهن ونسيانهن بقوله تعالى : **(أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى)** .

كما أن إمامة المسلمين تقتضي الدخول في المحافل ، ومخالطة الرجال وقيادة الجيوش ونحو ذلك ، وهذا محظور على النساء شرعاً بقوله تعالى : **(وقرن في بيوتكن)**[١] وغيرها .

يقول الغزالي : الرابع الذكورية ، فلا تنعقد الإمامة لامرأة وإن اتصفت بجميع خلال الكمال وصفات الاستقلال ، وكيف تترشح امرأة لمنصب الإمامة وليس لها منصب القضاء ولا منصب الشهادة في أكثر الحكومات . اهـ[٢].

وقال البغوي : اتفقوا على أن المرأة لا تصلح أن تكون إماماً ولا قاضياً ، لأن الإمام يحتاج إلى الخروج لإقامة أمر الجهاد والقيام بأمور المسلمين ، والقاضي يحتاج إلى البروز لفصل الخصومات ، والمرأة عورة لا تصلح للبروز ، وتعجز لضعفها عن القيام بأكثر الأمور ، ولأن المرأة ناقصة ، والإمامة والقضاء من كمال الولايات ، فلا يصلح لها إلا الكامل من الرجال اهـ[٣].

والواقع يشهد لذلك ، فالناس بتجاربهم يعرفون أنه لا يصلح للإمامة إلا الرجال ، وإن صار منهن في منصب رئاسة الدولة ، فإنما كان نادراً ولظروف استثنائية ، وكذلك طبيعة المرأة النفسية والجسمية لا تتلاءم أبداً مع هذا المنصب ، فكما هو معروف أن طبيعة المرأة يلاحظ عليها إرهاق العاطفة وسرعة الانفعال وشدة الحنان ، وقد خلقت هذه الصفات في المرأة لتستطيع بها أن تؤدي وظيفتها الأولى وهي الأمومة والحضانة ، وإذا كانت هذه الصفات لازمة في مضمار الأمومة

---

(١) سورة الأحزاب : الآية ٣٣ .

(٢) فضائح الباطنية ص / ١٨٠ .

(٣) شرح السنة للبغوي ٧٧/١٠

والحضانة ، فقد تكون ضارة في مضمار القيادة والرئاسة ، أما الرجل فلا يندفع في الغالب - مع عواطفه ووجدانه - كما تندفع المرأة ، بل يغلب عليه الإدراك والفكر والتروي وهما قوام المسؤولية والقيادة .

لذلك فإن الله سبحانه وتعالى شرع للرجل ما يلائم بنيته الجسمية والنفسية كالجهاد والقيادة ونحو ذلك ، وشرع للمرأة ما يلائم تكوينها أيضاً من تربية وحضانة وأعمال أخرى تلائمها(١) .

٦- **الحرية** : لأن الرقيق بجميع أنواعه عليه الولاية ، فلا يكون والياً على غيره ، فضلاً عن عامة المسلمين .

وحديث : عليكم بالسمع والطاعة ، وإن تأمر عليكم عبد حبشي . فهو على الفرض والتقدير ، أي أن الخضوع والامتثال واجب لمن كان ذا أمر ، وإن لم يكن حراً ، أو محمولاً على الولاية الجزئية كأمير سرية .

٧ - **أن يكون لديه حصيلة علمية كافية** لتدبير الأمور على وجهها الأكمل ، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا في قوله عن سليمان عليه السلام **(وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب)**(٢) .

وقال عن يوسف عليه السلام : **(اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم)**(٣) .

وقد فضل الله الذين يعلمون على الذين لا يعلمون في آيات كثيرة :

قال تعالى : **(هل يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون)**(٤) .

فإذا قلنا باشتراط العلم ، فهل يشترط أن يكون بلغ مرتبة الاجتهاد ؟.

---

(١) بتلخيص من الإمامة العظمى عند أهل السنة والجماعة . عبد الله بن عمر بن سليمان الدميجي .

(٢) سورة ص : ٢٠ .

(٣) سورة يوسف : الآية ٥٥ .

(٤) سورة الزمر : الآية ٩ .

أ - نعم قال الجمهور بذلك .

١ - قال الشاطبي رحمه الله : إن العلماء نقلوا الاتفاق على أن الإمامة الكبرى لاتنعقد إلا لمن نال رتبة الاجتهاد والفتوى في علوم الشرع .

٢ - استدلوا أيضاً بالقياس ، حيث قاسوا منصب الإمامة العظمى على منصب القضاء .

قال الباقلاني : لأن القاضي الذي يكون من قبله يفتقر إلى ذلك فالإمام أولى .

٣ - أما ابن خلدون فقد استدل على اشتراط الاجتهاد بقوله : لأن التقليد نقص ، والإمامة تستدعي الكمال في الأوصاف والأحوال .

وقال : لأنه إنما يكون منفذاً لأحكام الله تعالى إذا كان عالماً بها ، وما لم يعلمها لايصح تقديمه لها .

ب - ومن العلماء من لم يشترط الاجتهاد في الإمام .

قال الشهرستاني : وقالت جماعة من أهل السنة ذلك ، حتى جوزوا أن يكون الإمام غير مجتهد ولا خبير بمواقع الاجتهاد ، ولكن يجب أن يكون معه من يكون من أهل الاجتهاد فيراجعه في الأحكام ، ويستفتيه في الحلال والحرام ، ويجب أن يكون في الجملة ذا رأي متين وبصر في الحوادث نافذ .

والخلاصة : إن هذه المسائل من المسائل الاجتهادية ، لأنه لم يرد نص صريح فيها ، وإنما مرجع ذلك إلى الضرورة والحاجة والمصلحة ، فإذا وجد مجتهد تتوفر فيه بقية الشروط الضرورية والمنصوص عليها فهو المطلوب ، وإن تعذر وجوده فلا تترك مصالح المسلمين تتعطل ويدب فيهم الفساد ، بسبب عدم وجود المجتهد الذي تتوفر فيه شروط الإمام ، والله أعلم .

٨ ـ **العدالة** : ومن الأدلة على اشتراط هذا الشرط مايلي :

أ ـ ما ورد في قصة إبراهيم عليه السلام حينما قال له ربه : **(قل إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي ؟ قال لا ينال عهدي الظالمين)**[١] .

عن مجاهد أنه أراد أن الظالم لايكون إماماً .

وقال الفخر الرازي : احتج الجمهور على أن الفاسق لايصلح أن تعقد له الإمامة بهذه الآية **(لاينال عهدي الظالمين)** ، ووجه الاستدلال بها على ما يلي :

ما بينا أن قوله **(لاينال عهدي الظالمين)** جواب لقوله : **(ومن ذريتي)** طلب للإمامة التي ذكرها الله تعالى، فوجب أن يكون المراد بهذا العهد هو الإمامة ، ليكون الجواب مطابقاً للسؤال ، فتصير الآية كأنه تعالى قال : لا ينال الإمامة الظالمون ، وكل عاص فإنه ظالم لنفسه ، فكانت الآية دالة على ما قلنا .

ب ـ قوله تعالى : **(يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ...)** الآية[٢].

فالله سبحانه وتعالى أمر في هذه الآية بالتبين عند قول الفاسق ، ولا يجوز أن يكون الحاكم مما لايقبل قوله ، ويجب التبين عند حكمه ، ولأن الفاسق لايجوز أن يكون شاهداً ، فلأن لايكون قاضياً أولى ، ولأن لا يكون حاكماً للمسلمين أولى .

ت ـ واستدل على ذلك أيضاً ، بأن المقصد الأساسي من نصب الخليفة هو رفع ظلم الظالم ، لاتسليط الظالم على الناس ، والظالم يختل به أمر الدين والدنيا ، فكيف يصلح للولاية ، وما الولاية إلا لدفع شره .

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٢٤ .

(٢) بتصرف وتلخيص من الإمامة العظمى : الآية : ٦ من الحجرات .

قال الجويني : والأب الفاسق على فرط حدبه وإشفاقه على ولده ، لا يعتمد في مال ولده ، فكيف يؤتمن في الإمامة العظمى فاسق لايتقي الله ؟ ومن لم يقـاوم هواه ونفســه الأمارة بالسوء ، ولم ينهض رأيه بسياسة نفسه ، فأنى يصلح خطة الإسلام .

أما إذا تعذر واضطرت الأمة إلى ولاية الفاسق ، جاز ذلك .

ولذا قال ابن عبد السلام : لو تعذرت العدالة في الأئمة ، قدمنا أقلهم فسقاً .

قال الأذرعي : وهو متعين إذ لاسبيل إلى جعل الناس فوضى .

فصـــل
فى وجوب السمع والطاعة للإمام

قوله : طاعته واجبة على الورى :

أي يجب على كل فرد من أفراد الأمة الخضوع والإذعان والطاعة والامتثال للإمام ، وقد دل على ذلك الكتاب والسنة .

أدلة وجوبها من الكتاب :

قول الله تعـالى : **(يـا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسـول وأولي الأمـر منكم ، فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا)**[1] .

أما السنة :

فالأحاديث كثيرة في وجوب السمع والطاعة للأئمة في غير معصية .

أ ـ ما رواه البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أطاعني فقد أطاع الله ، ومن عصاني فقد عصى الله ، ومن أطاع أميري فقد أطاعني ، ومن عصى أميري فقد عصاني ، متفق عليه . إلا إذا أمر بالمعصية فلا سمع ولا طاعة،كما ورد لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

(١) سورة النساء : الآية ٥٩ .

ب ـ ومنها ما رواه البخاري بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي ، كان رأسه زبيبة ما أقام فيكم كتاب الله .

ت ـ ومنها ما رواه البخاري ومسلم والترمذي عن عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنها ستكون بعدي أثرة وأمور تنكرونها قالوا : يا رسول الله كيف تأمر من أدرك ذلك منا ؟ قال : تؤدون الحق الذي عليكم وتسألون الله الذي لكم .

ث ـ ومنها ما رواه البخاري ومسلم وغيرهما عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : بايعنا رسول الله على السمع والطاعة في العسر واليسر ، والمنشط والمكره ، وعلى أثرة علينا ، وعلى ألا ننازع الأمر أهله ، وعلى أن نقول الحق أينما كنا ، لانخاف في الله لومة لائم .

وفي رواية لمسلم : إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان .

جـ ـ وقد روى البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ، ولا ينظر إليهم ، ولا يزكيهم،ولهم عذاب أليم ، رجل على فضل ماء بالفلاة يمنعه من ابن السبيل ، ورجل بايع رجلاً بسلعة بعد العصر ، فحلف له بالله لأخذها بكذا وكذا فصدقه وهو غير ذلك ، ورجل بايع إماماً لا يبايعه إلا لدنيا ، فإن أعطاه منها وفى ، وإن لم يعطه لم يف .

والطاعة دعامة من دعائم الحكم في الإسلام ، وقاعدة من قواعد نظامه السياسى ، وهي من الأمور الضرورية لتمكين الإمام من القيام بواجبه الملقى على عاتقه ، وضرورية أيضاً لتمكين الدولة من تنفيذ أهدافها وتحقيق أغراضها ، ورضي الله عن عمر بن الخطاب حيث يقول : لا إسلام بلا جماعة ، ولا جماعة بلا أمير ، ولا أمير بلا طاعة[1] .

(١) الإمامة العظمى .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : فطاعة الله ورسوله واجبة على كل أحد ، وطاعة ولاة الأمور واجبة لأمر الله بطاعتهم ، فمن أطاع الله ورسوله بطاعة ولاة الأمر فأجره على الله ، ومن كان لا يطيعهم إلا لما يأخذه من الولاية والمال ، فإن أعطوه أطاعهم ، وإن منعوه عصاهم ، فما له في الآخرة من خلاق[1] .

وحاصل ذلك أن الإمام أو الخليفة أو السلطان أو الحاكم أو الأمير أو الملك أو الرئيس ، لأن كل هذه الألفاظ مترادفة كما سبق بيانها ، ما دام قائمـاً بفروض الله التي كلف الله بها عباده من حيث نفسه وخاصته ، كما هو قائم في الرعية بشريعة الله ، منفذاً للعدل غير محاب لقريب و شريف أو وزير أو غني ، لا يرتكب شيئاً مما يؤدي إلى الكفر أو إلى الفسق ، فمثل هذا الخليفة أو الحاكم تجب طاعته ، ولا يجوز الخروج عن طاعته حتى لو أخطأ في بعض المسائل ، لأن ابن آدم لا يسلم من الخطأ ، كل ابن آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون .

هل الفسق موجب لعزل الإمام أم لا ؟ وأقوال العلماء فيه :

١ ـ القول الأول : صرح في النظم ، أن الفسق ليس موجباً لعزله عن الإمامة ، أو كونه ينعزل تلقائياً .

وهذا قول جمهور أهل السنة ، قال القاضي عياض : وقال جمهور أهل السنة من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين : لا ينعزل بالفسق والظلم وتعطيل الحقوق ، ولا يخلع ولا يجوز الخروج عليه بذلك ، بل يجب وعظه وتخويفه .

وقال النووي : إن الإمام لا ينعزل بالفسق على الصحيح .

وقال أبو يعلى في المعتمد : ذكر شيخنا أبو عبد الله في كتابه عن أصحابنا أنه لا ينخلع بذلك ، أي بفسق الأفعال كأخذ الأموال وضرب الأبشـار ، ولا يجب الخـروج عليه ، بل يجب وعظه وتخويفه ، وترك طاعته في شيء مما يدعو إليه من معاصي الله تعالى .

(١) فتاوى شيخ الإسلام .

وذهب في كتابه «الأحكام السلطانية» إلى أن الفسق لا يمنع من استدامة الإمامة ، سواء كان متعلقاً بأفعال الجوارح ، وهو ارتكاب المحظورات ، وإقدامه على المنكرات اتباعاً لشهوة ، أو كان متعلقاً بالاعتقاد ، وهو المتأول لشبهة تعرض يذهب فيها إلى خلاف الحق .

ثم استدل على ماذهب إليه بكلام الإمام أحمد في المنع من الخروج على الأئمة ، لما في ذلك من إحياء الفتنة ، وبالأحاديث الآمرة بالصبر على جور الأئمة .

وذهبت طائفة من أهل السنة : إن الإمام ينعزل بالفسق ، ونسب القرطبي هذا للجمهور ، وأنه تنفسخ إمامته ، ويخلع بالفسق الظاهر المعلوم ، ونسب هذا القول للشافعي في القديم ، وهو المشهور عن أبي حنيفة ، كما أنه مذهب المعتزلة والخوارج .

وحجتهم : أن المتفق عليه بين العلماء ، أن الإمامة لاتنعقد لفاسق ابتداء ، وهكذا لو طرأ عليه الفسق بعد أن كان عادلاً .

٢ ـ القول الثاني : أنه مكلف بإقامة الحدود واستيفاء الحقوق ، وحفظ أموال الأيتام والمجانين ، والنظر في أمورهم ، وما فيه من الفسق ، خصوصاً إذا كان فسقه فسق الجوارح ، كانغماسه في الشهوات المحرمة ، وارتكابه المحظورات ، وإقدامه على المنكرات ، فهذا النوع من الفسق يقعده عن القيام بما أنيط به من الأمور والنهوض بها .

٣ ـ وهناك قول ثالث يقول بالتفصيل :

قال هؤلاء في تفصيلهم : إن كان الفسق من باب الشهوات وفسق الجوارح ، فهذا كما يمنع من انعقاد الإمامة ومن استدامتها ، فكذلك إذا طرأ على من انعقدت إمامته خرج منها .

أما إذا كان الفسق من حيث الاعتقاد والتأويل بشبهة ، ففي هذا أيضاً خلاف .

فمنهم من قال: يمنع من انعقاد الإمامة له ، ويخرج بحدوثه منها .

وقـال كثـير من علماء البصرة : لايمنع من انعقاد الإمامة ، ولا يخرج منها ، كما لايمنع من ولاية القضاء وجواز الشهادة . اهـ .

والصواب ما قلناه أولاً:من أنه لا ينعزل بالفسق مطلقاً ، سواء كان فسقه فسق الجوارح أو الاعتقاد ، لأن المأمون والمعتصم من خلفاء بني العباس دانوا بخلق القرآن ، وسجنوا الإمام أحمد وضربوه ليقول بخلق القرآن فأبى ، ومع ذلك لم يكفرهم ودعاهم بأمير المؤمنين ولم يقل بعزلهم .

وهذا الخلاف الذي ذكرناه من حيث الفسق .

ولكن ينعزل الإمام ولا تكون له ولاية على مسلم إذا ما أتى بما يلي :

١ - الـكفر والردة بعد الإسلام :

قال الله تعالى : **(ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً)**(١) وأي سبيل أعظم من سبيل الإمامة ؟.

وفي الحـديث الذي رواه عبادة بن الصامت رضي الله تعالى عنه قال : بايعنا ـ أي رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا ، وألا ننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان ، متفق عليه .

فظاهر الحديث : أن من طرأ عليه الكفر فإنه يجب عزله ، وهذا أهون ما يجب على الأمة نحوه ، إذ الواجب أن يقاتل ويباح دمه بسبب ردتـه امتثالاً لقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه ابن عباس : من بدل دينه فاقتلوه(٢) .

وقـد سبق عنـد ذكر الشروط ، أن الكافر لا ولاية له على مسلم بحال ، وهذا السبب في عزل الإمام محل اتفاق بين العلماء ، ومجمع عليه عندهم .

---

(١) سورة النساء : الآية ١٤١ .

(٢) رواه البخاري ، وأبو داود ، وابن ماجه ، والنسائي ، وأحمد .

قال أبو يعلى : إن حدث منه ما يقدح في دينه ، نظرت فإن كفر بعد إيمانه ، فقد خرج عن الإمامة ، وهذا لا إشكال فيه ، لأنه قد خرج عن الملة ووجب قتله .

وقال القاضي عياض : أجمع العلماء على أن الإمامة لاتنعقد لكافر ، وعلى أنه لو طرأ عليه كفر وتغيير للشرع أو بدعة ، خرج عن حكم الولاية وسقطت طاعته ، ووجب على المسلمين القيام عليه وخلعه ونصب إمام عادل إن أمكنهم ذلك ، فإن لم يقع ذلك إلا لطائفة ، وجب عليهم القيام بخلع الكافر .

وقال الحافظ ابن حجر : إنه يرى الإمام ينعزل بالكفر إجماعاً ، فيجب على كل مسلم القيام في ذلك ، فمن قوي على ذلك فله الثواب ، ومن داهن فعليه الإثم ، ومن عجز وجبت عليه الهجرة من تلك الأرض .

وقال السفاقسي : أجمعوا على أن الخليفة إذا دعا إلى كفر أو بدعة يشار عليه .

٢ - ترك الصلاة والدعوة إليها :

كما أن من الأسباب الموجبة لعزل الإمام ترك الصلاة والدعوة إليها ، إما جحوداً فهذا كفر ويدخل في السبب الآنف الذكر ، وإما تهاوناً وكسلاً ، فعلى رأي بعض العلماء أنها معصية وكبيرة من الكبائر ، وعلى الرأي الآخر أنه كفر .

وهناك أحاديث صحيحة تشهد لهذا الرأي ، منها قوله صلى الله عليه وسلم : العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة ، فمن تركها فقد كفر[1] ، وغيره من الأحاديث ، وليس هذا محل بحث لهذه المسألة .

فعلى أي الحالين يجب عزل الإمام الذي يترك الصلاة عملاً بالأحاديث الواردة في ذلك ، والتي نهت عن منابذة الأئمة الجورة ، ونقض بيعتهم ، وعن مقاتلتهم ، بشرط إقامتهم الصلاة .

---

(١) رواه الترمذي .

ومنها الحديث الذي رواه مسلم وغيره عن أم سلمة رضي الله عنها قالت : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إنه يستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتنكرون ، فمن كره فقد برئ ، ومن أنكر فقد سلم ، ولكن من رضي وتابع ، قالوا : أفلا نقاتلهم ؟ قال : لا ما صلوا ، رواه مسلم[1] ..

وهذا الحديث فيه التصريح بمقاتلة الأمراء الذين لايصلون ، ومعلوم أن المقاتلة هي آخر وسيلة من وسائل العزل .

وقدذكر القاضي عياض إجماع العلماء على عزل الإمام «لو ترك إقامة الصلاة والدعوة إليها» .

٣ ـ ترك الحكم بما أنزل الله :

ويشترط للسمع والطاعة أن يقود الإمام رعيته بكتاب الله ، أما إذا لم يحكم فيهم شرع الله ، فهذا لا سمع له ولا طاعة ، وهذا يقتضي عزله ، وهذا من صور الحكم بغير ما أنزل الله المفسقة ، أما المكفرة فهي توجب عزله ولو بالمقاتلة .

---

(١) في كتاب الإمارة ، وجوب الإنكار على الأمراء فيما يخالف الشرع .

فصــــل
في كرامات الأولياء

وكل مافي الخوارق أتى ... من يد ظاهر الصلاح يا فتى
وتــارك الشرك بذي الآلاء ... متبــع الســـنة الغـــراء
فـــذي كرامـــة نقـــول ... دلّ عليها العقل والمنقول

الكرامة:هي أمر خارق للعادة غير مقرون بدعوى النبوة ، تظهر على يد مؤمن تقي ، وأحسن تعريف للولي ما ذكره الله في كتابه **(ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون)**(١) .

فشرط أولاً : الإيمان ، فمن لم يكن مؤمناً ، لا يمكن أن يكون ولياً ، وكذلك من زعم الإيمان والإسلام ، وأتى بالشرك فلا يكون ولياً وإن أتى بالخوارق ، ومن الشرك : الاستغاثة بالأنبياء والأولياء وطلب الشفاعة منهم ، والنذور إليهم ، والطواف بقبورهم .

الشرط الثاني : التقوى وهي الائتمار بالمأمورات ، والانتهاء عن المنهيـات ، فقـولنا : وتارك الشرك يشير إلى قوله تعالى : **(إلا الذين آمنوا)** لأن ضد الإيمان الكفر والشرك .

---

(١) سورة يونس : الآية ٦٢ .

والشرط الثاني : يشير إلى قوله **(وكانوا يتقون)** ، فمن لم يكن متقياً ، بأن أخل بشيء من المأمورات ، أو اقترف شيئاً من المنهيات ، ولم يتب ، فليس بولي وإن أتى بخوارق ، لأن الخوارق لا تدل على الولاية ، ولأن الخوارق تأتي بها السحرة والكهان وأهل الشعوذة والجن ، وغير ذلك مما هو معروف عند الأمم ، فمنهم من يدخل النار إما بدهن بدنهم ، أو بعزيمة من العزائم الشيطانية ، فيتمثل الجني بصورته ، فيراه الناس أنه دخل النار ، أو يطير به في الهواء ، أو يخبره ببعض المغيبات ، وكثيراً ما تصنع الجن الخوارق لشخص لأجل أمور محظورة ، مثل قتل نفس ، وإمراضها بغير حق ، ومنع شخص من الوطء .

ومن شاهد ما يأتي به بعض الكفار من الهند وأوربا وإيران وسائر أرجاء العالم من أناس يخبرون بالمغيبات ، وآخرين يأتون بالخوارق ، يعلم علماً قطعياً أن مجرد إتيان الخوارق لا يدل على الصلاح والولاية .

ولمعرفة الحق من الباطل ، والصالح من الطالح ، والفاسق من المؤمن ، توزن أعمال المسلم بميزان الكتاب والسنة ، فمن كان عاملاً بهما ، فهو الولي والسعيد والصالح ، وإلا فلا .

إذا علمت هذا ، تعلم بطلان دعوى كثيرين من المتصوفة وأهل الطرائق والمريدين وأمثال هؤلاء ، الذين يقل فيهم من يعرف الله حق معرفته ، أو يوحده توحيد العبادة والأسماء والصفات ، مع ذلك يأتي بالشركيات كالاستغاثة بالصالحين ، والصلاة حول ضرائح الميتين ، والاعتقاد بعلم الغيب والنفع والضر في الأموات المقبورين ، ومع هذه المخزيات يزعمون أنهم من الصالحين ومن الأولياء المكرمين ، ويبجلون أنفسهم لدى العوام وأشباه الأنعام ، ويقولون: إننا نقدر أن نفعل كذا ، وعندنا معرفة الغيب ، ونحو ذلك من الدعاوى الباطلة ، يرهبون بها الجاهلين ، وفي الحقيقة دجل وحيل لسلب أموال العباد ، وعدم التقيد بالمأمورات الشرعية ، بدعوى المكاشفات والعلوم الباطنية ، ولدى العامة وأشباههم من أدعياء العلم اعتقادات سخيفة لا توافق الشرع

ولا العقل في كثير ممن منحوهم لقب الولاية ، من مثل دعواهم بأنهم يعلمــون الغيب ، ويقضــون حاجــات الســائلين ، ويكشفــون كرب المكروبين ، ويملكون التصرف في شؤون العالم ، ويرددون حكايات في ذلك ، وأنهم معصومون عن المعصية ، وكلها عن الحق بمعزل ، ولاشك أنها أكاذيب روّجها دعاة السوء وسماسرة الضلالة من سدنة القبور ، الذين يروجــون أمثال هذه الأباطيل لتكثر النذور والقرابين ، فتمتلىء جيوبهم وخزائنهم بما يقدمه لهم السفهاء والبله والمفتونون .

أدلة ثبوت الكرامة نقلاً وعقلاً :

يحتج القائلون بثبوت الكرامة ـ وهم جمهور أهل السنة ـ بأمور نقليــة ثبت بعضهــا في القرآن ، وبعضها بالأخبار الكثيرة التي تفيد بمجموعها التواتر المعنوي ، وإن كان في جزئياتها آحاد .

الأول : ما قصّه الله علينا من خبر أهل الكهف ، ونومهم في تلك المدة الطويلة وهم أحياء ، ولم يكونوا أنبياء ولا سحرة ولا مشعوذين ، بل كانــوا مؤمنين صالحين كما أخبر الله عنهم : **(إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى)** .

الثاني : ما أخبر الله تعالى عن مريم ، بأنه أنبتها نباتاً حسناً ، وكفلها زكريا **(كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً)** يعني فاكهة الشتاء في الصيف ، وفاكهة الصيف في الشتاء ، وقصة آصف حيث أتى بعرش بلقيس قبل أن يرتد طرف سليمان عليه السلام من مسافة بعيدة من سبأ إلى الشام .

وعن الصحابة كثرة الروايات المفيدة لما قلنا : كقصة عمر وسارية ، وشرب خالد بن الوليد السم ، ومشي العلاء بن الحضرمي على الماء ، ودخول أبي مسلم في النار ، كما نقل أضعاف ذلك عن التابعين والعلماء الصالحين ، مما ذاع واشتهر وضاقت عن إحصائه الدفاتر ، وشــهدت بوجوده الأكابر والأصاغر ، والعقل لا ينكر ذلك لأن الله تعالى يخص ما

شاء بما شاء ، ويمتنع عقلاً أن نكذب برواية عدد يؤمن من تواطئهم على الكذب ، لاسيما إذا كانوا معروفين بالديانة والصلاح ، ولأنها بقدرة الله أكرم بها من أراد من عباده الصالحين لحكم محمودة : إما ليزدادوا إيمـانـاً ، أو لينجيه من مهلكته ، أو ليكون سبباً في هداية قوم ، أو لحاجة واضطرار ، أو نحو ذلك .

وكرامة الأولياء فرع عن معجزات الأنبياء ، لأنها تدل على صحة نبـوة المتبـوع ، وينبغي أن يعلم أن كرامـات الأولياء دون معجزات الأنبيـاء ، فانشقاق القمر ، والإتيان بالقرآن ، وانقلاب العصا حية ، وخروج الدابة من صخرة ، والخلق من الطين كهيئة الطير ، ونحو ذلك لايكون مثله للأولياء .

ذكر ذلك في كتاب النبوات قائلاً ما معناه : إن للأنبياء آيات كباراً وصغاراً ، ومثل الكبار بما ذكرناه آنفاً ، وقال باختصاصهم بها مستدلاً بقوله تعالى : **(لقد رأى من آيات ربه الكبرى)** ، وبقوله : **(فأراه الآية الكبـرى)** ، والآيـات الصغـرى تكون للأنبياء والصالحين مثل تكثير الطعام ، ولكن ما للأنبياء من هذا النوع أعلى مما للصالحين ، فتكثير الطعام وإن وجد لغير واحد من الصالحين ، لكن لم يكن كما كان للنبي من إطعامه الجيش من شيء يسير ، ودخول أبي مسلم الخولاني في النار وصارت برداً وسلاماً ، ولكنها لم تكن كنار إبراهيم في عظمتها .

تقسيم العلماء الخوارق ستة أقسام :

وبهـذا تعلم ضعف ما اشتهر عن كثير من المنتسبين إلى العلم والمؤلفين قولهم : ما صح أن يكون معجزة لنبي ، صح أن يكون كرامة لولي ، وما أدري أي اختصاص يبقى بعد هذا لمحمد وموسى وعيسى عليهم السلام ؟ وقد قسم العلماء الخوارق إلى ستة أقسام :

١ ـ المعجزة وتقدمت في هذا الجزء من الكتاب .

٢ ـ الخارق المتقدم للنبوة ويسمى بالإرهاص ، كقصة أصحاب الفيل ، وتظليل الغمام للرسول .

٣ ـ الكرامـة .

٤ ـ الاستدراج ، وهو الخارق الظاهر على يد فاسق وذي دجل ، وإن كان على وفق مراده .

٥ ـ الإهانة والاحتقار إن كان بعكس مراده ، كما فعل مسيلمة الكذاب من تفله في بئر عذبة ليزداد ماؤها حلاوة ، فصار ملحاً أجاجاً .

٦ ـ المعونة كما يظهر على يد بعض عوام المسلمين وضعفاء أهل الدين ، تخليصاً لهم من المحن والمكاره .

بـاب فى السـمعيات

وكل ما قد جاء في القرآن … أوقد أتى في سنة العدنان

على الورى يحتم القبول … لو عجزت عن ذلك العقول

مثل علامات القيامة التي … جاءت بها الأخبار فاجزم واثبت

خروج دجال على الغبراء … نزول عيسى ما من الخضـراء

خروج يأجوج ومأجـوج كذا … هـدم لكعبة فهذا يحتذى

ثم طلوع الشمس من مغربها … وذات أجيـاد كذا فانتبها

مرادنا بالسمعيات ما ثبت بالأدلة النقلية ، لأن ما كان دليله من العقل يسمى بالعقليات وإن وافق النقل ، وما كان طريقه الكتاب والسنة يسمى بالسمعيات ، وليس في بعضه للعقل مجال .

قولنا : وكل ما قد جاء في القرآن .. إلخ .

معنـاه : أن الواجب يقضي علينـا في هذا الباب ، وهو ما يتعلق بالأمـور الأخـروية ، وعلامات الساعة ، أن نصدق بما ورد عن الله ورسوله وإن عجزت عقولنا عن إدراك ذلك ، لأن الأنبياء عليهم السلام لايأتون بما تحكم عليه العقول بالاستحالة ، بل إما أن تدرك ، وإما أن تحير ، ولا يقبل قول بعض الجاهلين أو الملحدين في هذا الباب ، بأن هـذا لا يقبله العقل ، لأن ما سماه عقلاً ليس بعقل صحيح ، وإنما وهم وخيال وعقائد أهل الضلال ، وإلا فالعقل الصحيح لا يخالف النقل الصحيح .

وإنما قلنا أن الواجب يقضي علينا في هذا الباب ، أن نصدق بما ورد عن الله والصحيح عن رسوله ، لأنه كما لايخفى أن أركان الإيمان ستة : الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وبالقضاء والقدر[1] .

اليوم الآخر :

فاليوم الآخر هو يوم القيامة ، يوم يبعث الله العباد من قبورهم ، ويجمع فيه الأولين والآخرين للحساب والثواب والعقاب ، وبما أن القيامة من الأمور الغيبية التي قد لا يصدقها العقل السقيم ، وقعت فيه المعركة بين الرسل وبين أممهم ، ولاسيما مشركي العرب ، ولهذا أكثر الله تعالى في كتابه من ذكر اليوم الآخر ، وزيف شبه المشركين على إنكارهم البعث وإحياء الله الموتى ، قال الله تعالى :

أولاً : في إثبات اليوم الآخر **(ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر)** [2] وقوله تعالى : **(ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر)**[3] وقال تعالى : **(إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون)**[4] .

وثانياً : في بيان دحض وتفنيد شبه المشركين ، حينما جاء أبي بن خلف بعظم بال يُفتته بيده ، وقال : يا محمد، أتقول: إن الله يحيي مثل هذا ؟ فأنزل الله تعالى : **(وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم ، قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ، الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه**

---

(١) تكلمت عن خمسة منهم في الجزء الأول وبقى الكلام على واحد من الستة ، وهو الإيمان باليوم الآخر ، وسيمر بالقاريء إن شاء الله الشرح الوافي له .

(٢) سورة البقرة : الآية ١٧٧ .

(٣) سورة الطلاق : الآية ٢ .

(٤) سورة البقرة : الآية ٦٢ .

توقدون ، أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم ، إنما أمرهُ إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون)[١] ، وقال تعالى : **(أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمبعوثون أو آباؤنا الأولون ، قل نعم وأنتم داخرون ، فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم ينظرون)**[٢]وقال تعالى : **(وما خَلْقُكُم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة)**[٣] وقال تعالى : **(كما بدأتم تعودون)**[٤] وقال تعالى : **(زعم الذين كفروا أن لايبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير)**[٥] **وقال تعالى** : **(قل هل من شركائكم من يبدؤا الخلق ثم يعيده قل الله يبدؤا الخلق ثم يعيده فأنى تؤفكون)**[٦] .

---

(١) سورة يس : الآيات ٧٨ : ٨٢ .

يعني أن الذي خلقها أول مرة من العدم لقادر على أن يحييها بعد الموت ، لأنه عالم بجميع أجزائها المفتتة ، وأوصالها المفككة ، وقادر أن يجمعها وينفخ فيها الروح .

ثم أقام الدليل بقوله **﴿الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون﴾** يعني أن الذي أخرج النار من الشجر الأخضر ، لقادر على أن يبعث الإنسان بعد الموت حياً .

أو المراد بذلك شجر المرخ والعفار ، ينبت في أرض الحجاز ، فيأتي من أراد قدح نار وليس معه زناد ، فيأخذ منه عودين أخضرين ويقدح أحدهما بالآخر ، فتتولد النار من بينهما . وروي هذا عن ابن عباس .

ففي المثل : لكل شجر نار ، واستمجد المرخ والعفار .

ثم أقام الدليل الثاني : **﴿ أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ، بلى وهو الخلاق العليم﴾** .

يقول تعالى مخبراً منبها على عن قدرته العظيمة في خلق السموات السبع ، بما فيها من الكواكب السيارة والثوابت والأرضين السبع ، وما فيها من جبال ورمال وبحار وقفار ، وما بين ذلك ، ومرشداً إلى الاستدلال على إعادة الأجساد بخلق هذه الأشياء العظيمة ، كقوله تعالى : **﴿لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس﴾** ، وقال عز وجل ههنا : **﴿أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ؟﴾** أي مثل البشر ، فيعيدهم كما بدأهم .

سبق أن قلنا أن البعث من الأمور الغيبية التي قد لا يصدقها العقل السقيم ، ولهذا وقعت الخصومة بين الرسل والمشركين ولاسيما مشركي قريش ، وليعلم أن منكري البعث طوائف منها : من يجمع بين إنكار الخالق وإنكار البعث وهم الدهرية سالفاً والشيوعية في عصرنا ، ومنها : من يؤمن بربوبية الله وينكر البعث ، وهذا حال أكثر المشركين ، والمؤمنون من جميع الأديان يؤمنون بالله وبالبعث ، ولهذا أكثر الله من ذكر اليوم الآخر والحساب والجزاء ، وفي كثير من الآيات يقيم الله تعالى على المنكرين حججاً عقلية ومشاهدة ، بحيث إذا تأملها

قال ابن جرير : وهذه الآية الكريمة كقوله عز وجل : ﴿**أو لم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى؟ بلى إنه على كل شيء قدير**﴾ (الأحقاف : ٣٢) ، وقال تبارك وتعالى ههنا : ﴿**بلى وهو الخلاق العليم ، إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون**﴾ أي إنما يأمر بالشيء أمراً واحداً لا يحتاج إلى تكرار أو تأكيد .

إذا ما أراد الله أمراً فإنما . . يقول له كن قولة فيكون .

وقوله تعالى : ﴿**فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون**﴾ .

أي تنزيه وتقديس وتبرئة من السوء للحي القيوم الذي بيده مقاليد السموات والأرض ، وإليه يرجع الأمر كله ، وله الخلق والأمر ، وإليه ترجع العباد يوم المعاد ، فيجازي كل عامل بعمله ، وهو العادل المنعم المتفضل .

ومعنى قوله سبحانه وتعالى : ﴿**فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء**﴾ كقوله عز وجل : ﴿**قل من بيده ملكوت كل شيء**﴾ ، وكقوله تعالى : ﴿**تبارك الذي بيده الملك**﴾فالملك والملكوت واحد في المعنى كرحمة ورحموت ، ورهبة ورهبوت ، وجبر وجبروت ، ومن الناس من زعم أن الملك هو عالم الأجساد ، والملكوت هو عالم الأرواح ، والصحيح الأول ، وهو الذي عليه الجمهور من المفسرين وغيرهم ا. هـ . من تفسير ابن كثير ج ٥ .

(٢) سورة الصافات : الآية ١٥ ـ ١٩ .

(٣) سورة لقمان : الآية ٢٨ .

(٤) سورة الأعراف : الآية ٢٩ .

(٥) سورة التغابن : الآية : ٧ .

(٦) سورة يونس : الآية ٣٤ .

ذو العقل الصحيح لايجد لإنكاره مساغاً وموئلاً ، فمن تلك الآيات قوله تعالى : **(وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه)** الآية .

ومنها قوله تعالى في سورة الحج : **(يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم)**[1] الآية إلى قوله تعالى: **(وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير ، وأن الساعة آتية لاريب فيها وأن الله يبعث من في القبور)**[2] .

شبهات منكري البعث والرد عليها :

١ - إن الإنسـان يولد نتيجـة التزاوج بين الذكر والأنثى ، ويموت لمرض أو قتل أو لانهيار بعد أن يصل إلى الشيخوخة ، فأي شيء يكون نتيجة لإحيائه بعد الموت ؟.

والجـــواب :

إن هذا القـول يدلنا أن صاحبه لا يعترف بالله العظيم ، وبأنه مخلوق لله تعالى ، وهنا أمران : إما أن نقول له : هل أنت تعترف بالله ، وبأنه الخالق الرازق المحيي المميت ؟ فإن قال : لا أعترف ، فتقام عليه الأدلة والبراهين على وجود الله[3] ، وأنه الخالق لجميع الكائنات ، لا خالق غيره ولا رب سواه ، ولا يعجزه شيء ، وهو على كل شيء قدير .

وإن قال : إني أعترف بالله ، ولكني أستبعد الميت الذي تمزقت أوصاله ، وتفتت عظامه ، وأصبحت تراباً ، أن يرجع حياً كما كان ؟

فالجواب أن يقال له : تقرر في بداهة العقول ، أن الإعادة أهون من الابتداء ، فالذي خلقه أولاً من ماء مهين ، وحفظه في قرار مكين ، ونقله من طور إلى طور حتى جعله بشراً سوياً ، وأفاض عليه من العلم

---

(١) ، (٢) الآيتان : ٥ ، ٦ .

(٣) وقد سبق كثير منها في الجزء الأول .

والعقل والحواس ما يكون عالماً أو شاعراً أو فيلسوفاً أو ملكاً إلخ ، الصفات الحسنة والسيئة ، لقادر أن يحييه بعد أن أماته ، لأننا نعترف بالله وبقدرته **(إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون)** .

وكـون الإنسان يولد ثم يموت لمرض أو قتل أو انهيار جسمه ، «فأي[1] دليل في هذا على أن الإنسان إذا مات فات ؟! إن الدعوى لا تصلح أسـاسـاً للاستدلال ، فإذا قلت : بلغ فلان من العمر عشرين سنـة ، لأن عمـره عشرون سنـة ، كان قولك هذا نوعـاً من الهـراء والهذيان ، وقد رد القرآن على هؤلاء وأحزابهم بقوله تعالى : **(وما لهم به من علم إن هم إلا يظنون)**[2] .

٢ ـ ومن شبههم : أن الجسم بعد أن تأكله الديدان ، ولايبقى منه إلا عظام نخرة يعود ثانية : إن هذا لشيء عجاب ! ومن شاهد أو سمع أن ميتاً عاد إلى الحياة بعد أن أصابه البلى ، وذهب في التراب ؟.

فالجواب :

نحن لا نجد سبباً لهذا الاستبعاد سوى قياس فعل الله على فعل البشر ، فإذا عجزنا عن إحياء الموتى ، أيجب أن يعجز الله عنه أيضاً ! تعالت قدرته **(إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون)** .

لقد استبعد هؤلاء البعث ، وأنه مخالف للمعتاد والمألوف ، وبديهة أن الاستبعاد لا يصلح دليلاً للنفي ولا للإثبات ، فبالأمس القريب كنا نرى أشيـاء مستحيلة الوقوع ، ثم أصبحت واقعة كالهاتف والرائي (التلفزيون) ، وما أشبه ذلك ، وقد أشار سبحانه إلى استبعاد المنكرين في مواضع عدة منها قوله تعالى : **(أإذا متنا وكنا عظاماً ورفاتاً أإنا لمبعوثون خلقاً جديداً)**[3] ورد عليهم في آيات منها : **(يا أيها الناس**

---

(١) بدء الكلام من الآخرة والعقل محمد جواد مغنية بتصرف .

(٢) سورة الجاثية : الآية ٢٣ .

(٣) سورة الإسراء : الآية ٤٨ .

إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة)[1] الآية .

خاطب الله سبحانه المرتابين بهذا الأسلوب البعيد عن الاستعلاء ، القريب إلى كل قلب ، فبعد أن سألهم : هل داخلهم الشك ؟ لفت نظرهم إلى آيات الله التي يشاهدونها في غيرهم وفي أنفسهم ، وإلى إنشائهم وابتداء خلقهم ، وكيف أوجدهم من العدم ، وانتهى بهم إلى نتيجة لايسعهم إلا التسليم بها ، والإذعان لها ، وهي أن من يقدر على إيجاد المعدوم ، فهو على إعادة الموجود أقدر ، وإن صح التعبير[2] ابتدأ معهم من الشك والتساؤل ، وانتهى بهم إلى اليقين والاطمئنان[3] . اهـ .

---

(١) سورة الحج : الاية ٥ .

(٢) لا يوجد بالنسبة إلى الله شيء أسهل أو أصعب من شيء ، فخلق الذرة وخلق الكون سواء لديه تعالى .

(٣) من الآخرة والعقل .

فصـــل

فى علامات الساعة[1]

ويعبر الكثيرون بأشراط الساعة .

والشرط بالتحريك هو العلامة ، وجمعه أشراط .

أما الساعة في اللغة : فهي جزء من أجزاء الليل والنهار ، جمعها ساعات وسواع .

الســاعة ويعني بها القيامة مما اختص الله بعلمها ، وقد جاءت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية معلنة بأنها مما استأثر الله بعلمها ، فلم يطلع عليها لا ملك مقرب ولا نبي مرسل بمعنى : متى تكون ؟ وفي أي سنة ، وفي أي وقت ؟

فمن الآيات قول الله تعالى : **(إن الله عنـده علم الساعة ، وينزل الغيث ..)**[2] الآية ، وقال الله تعالى : **(وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً)**[3] .

وفي حديث جبريل عليه السلام لما قال للنبي صلى الله عليه وسلم : أخبرني عن الساعة ؟ قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل .

---

(١) من أشراط الساعة للشيخ يوسف بن عبد الله الوابل .

(٢) سورة لقمان : الآية ٣٤ .

(٣) سورة الأحزاب : الآية ٦٣ .

وحيث خفي علم تعيينها ، فقد بان على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم وفي كتابه المجيد أماراتها الدالة عليها .

وقد قسموا الأمارات إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : (ظهر وانقضى وهي الأمارات البعيدة) :

منها : (بعثة النبي صلى الله عليه وسلم) : أخبر صلى الله عليه وسلم أن بعثته دليل على قرب قيام الساعة ، وأنه نبي الساعة ، وقد ورد عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بعثت أنا والساعة كهاتين ، وضم السبابة والوسطى . أخرجه مسلم في كتاب الفتن . فهو النبي الأخير فلا يؤذيه نبي آخر ، وإنما تليه القيامة كما تلي السبابة الوسطى ، وليس بينهما أصبع آخر .

ومنها : (موت النبي صلى الله عليه وسلم) :

ففي الحديث عن عوف بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أعدد ستاً بين يدي الساعة : موتي . الحديث أخرجه البخاري في كتاب الجزية والموادعة .

فقد كان موت النبي صلى الله عليه وسلم من أعظم المصائب التي وقعت على المسلمين ، فقد أظلمت الدنيا في عيون الصحابة رضي الله عنهم عندما مات عليه الصلاة والسلام .

قال أنس بن مالك رضي الله عنه : لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أضاء منها كل شيء ، فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كل شيء ، وما نفضنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الأيدي وأنا لفي دفنه حتى أنكرنا قلوبنا(١) .

قال ابن حجر : يريد أنهم وجدوها تغيرت عما عهدوه في حياته من الألفة والصفاء والرقة ، لفقدان ما كان يمدهم به من التعليم والتأديب(٢) .

---

(١) جامع الترمذي .

(٢) فتح الباري .

فبموته صلى الله عليه وسلم انقطع الوحي من السماء ، كما في جواب أم أيمن لأبي بكر وعمر رضي الله عنهم عندما زاراها بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما انتهيا إليها بكت ، فقالا لها : ما يبكيك ؟ ، ما عند الله خير لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقالت : ما أبكي أن لا أكون أعلم أن ما عند الله خير لرسوله صلى الله عليه وسلم ، ولكني أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء ، فهيجتهما على البكاء فجعلا يبكيان معاً[1] .

ومنها (مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه) :

لقد كان ظهور الفتن في عهد الصحابة رضي الله عنهم بعد مقتل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فإنه كان باباً مغلقاً دون الفتن ، فلما قتل رضي الله عنه ظهرت الفتن العظيمة ، وظهر دعاتها ممن لم يتمكن الإيمان من قلبه ، وممن كان من المنافقين الذي يظهرون للناس الخير ، ويبطنون الشر والكيد لهذا الدين .

ففي الصحيحين عن حذيفة رضي الله عنه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : أيكم يحفظ قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في الفتنة ؟ فقال حذيفة : أنا أحفظ كما قال ، قال : هات ، إنك لجريء ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فتنة الرجل في أهله وماله وجاره تكفرها الصلاة والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، قال : ليست هذه ولكن التي تموج كموج البحر ، قال : يا أمير المؤمنين ، لا بأس عليك منها ، إن بينك وبينها باباً مغلقاً ، قال : يفتح الباب أو يكسر؟ قال : لا ، بل يكسر ، قال : ذلك أحرى أن لايغلق . قلنا : عُلِمَ الباب ، قال : نعم كما أن دون غدٍ الليلة أني حدثته حديثاً بالأغاليط ، فهبنا أن نسأله ، وأمرنا مسروقاً فسأله فقال : من الباب ؟ قال : عمر .

وكان ما أخبر به الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم ، فقد قتل عمر ، وكسر الباب ، وظهرت الفتن ووقع البلاء ، فكان أول فتنة ظهرت

---

(١) صحيح مسلم : كتاب فضائل الصحابة .

هي قتل الخليفة الراشد ذي النورين عثمان بن عفان على يد طائفة من دعاة الشر ، الذين تألبوا عليه من العراق ومصر ، ودخلوا المدينة وقتلوه وهو في داره رضي الله عنه .

وقد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم لعثمان رضي الله عنه أنه سيصيبه بلاء ، ولهذا صبر ونهى الصحابة عن قتال الخارجين عليه ، كي لايراق دم من أجله رضي الله عنه .

ففي الحديث عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : خرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى حائط من حوائط المدينة ، فذكر الحديث إلى أن قال : فجاء عثمان فقلت : كما أنت حتى أستأذن لك ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : إئذن وبشره بالجنة معها بلاء يصيبه .

وخص النبي صلى الله عليه وسلم عثمان بذكر البلاء مع أن عمر قتل أيضاً ، لكون عمر لم يمتحن بمثل ما امتحن به عثمان ، من تسلط القوم الذين أرادوا منه أن ينخلع من الإمامة ، بسبب ما نسبوه إليه من الجور والظلم بعد إقناعه لهم ورده عليهم .

وبمقتل عثمان رضي الله عنه انقسم المسلمون ، ووقع القتال بين الصحابة ، وانتشرت الفتن والأهواء ، وكثر الاختلاف ، وتشعبت الآراء ، ودارت المعارك الطاحنة في عهد الصحابة رضي الله عنهم ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يعلم ما سيقع من الفتن في زمنهم ، فإنه أشرف على آطام المدينة فقال : هل ترون ما أرى ؟ قالوا : لا ، قال : فإني لأرى الفتن تقع خلال بيوتكم كوقع القطر .

قال النووي : والتشبيه بمواقع القطر في الكثرة والعموم ، أي أنها كثيرة تعم الناس لاتختص بها طائفة ، وهذا إشارة إلى الحروب الجارية بينهم كوقعة الجمل وصفين والحرة ومقتل عثمان والحسين رضي الله عنهما وغير ذلك ، وفيه معجزة ظاهرة له صلى الله عليه وسلم .

ومنها : (فتح البيت المقدس) :

قد جاء في حديث عوف بن مالك أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أعدد ستاً بين يدي الساعة ، فذكر منها فتح البيت المقدس .

ففي عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه : تم فتح البيت المقدس سنة ١٦ هـ ، وقد ذهب عمر بنفسه ، وصالح أهلها ، وفتحها ، وطهرها من اليهود والنصارى ، وبنى فيها مسجداً في قبلة البيت المقدس .

ومنها (طاعون عمواس)[١] .

جاء في حديث عوف بن مالك السابق أعدد ستاً بين يدي الساعة ، فذكر منها ثم مُوْتان[٢] يأخذ فيكم كقُعاص[٣] الغنم .

قال ابن حجر : إن هذه الآية ظهرت في طاعون عمواس في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد فتح البيت المقدس سنة ١٨ هـ على المشهور الذي عليه الجمهور .

ومنها : (استفاضة المال والاستغناء عن الصدقة) :

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا تقوم الساعة حتى يكثر فيكم المال فيفيض ، حتى يهم رب المال من يقبله منه صدقة ، ويدعى إليه الرجل فيقول : لا إرب لي فيه .

وعن أبي موسى رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ليأتين على الناس زمان يطوف الرجل فيه بالصدقة من الذهب ، ثم لايجد أحداً يأخذها منه .

وقد تحقق ذلك في خلافة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، كان الرجل يخرج بزكاته فلا يجد من يقبلها ، وسيكثر أيضاً في آخر الزمان عند نزول عيسى عليه السلام .

ومنها : (وقعة الجمل وصفين) :

بعدما قتل عثمان رضي الله عنه ظلماً وعدواناً ، وبويع علي رضي الله عنه بالخلافة .

---

(١) وهي بلدة في فلسطين على بعد ٦ أميال من الرملة على طريق البيت المقدس .

(٢) هو الموت الكثير الوقوع .

(٣) قعاص بالضم ويقال فيه عُقاس ، داء يأخذ الدواب فيسيل من أنوفها شيء فتموت فجأة .

وقد قيل أن طلحة والزبير كانا ممن بايعا علياً ، ثم ذهبا إلى مكة للعمرة ، فلقيتهما عائشة رضي الله عنها ، وجرى بينهم في مقتل عثمان رضي الله عنه حديث توجهوا إلى البصرة ، وطلبوا من علي أن يسلم لهم قتلة عثمان ، فلم يجبهم لأنه كان ينتظر من أولياء عثمان رضي الله عنه أن يتحاكموا إليه ، فإذا ثبت على أحد بعينه أنه ممن قتل عثمان رضي الله عنه اقتص منه ، فاختلفوا بسبب ذلك ، وخشي من نسب إليهم القتل وهم الخارجون على عثمان ، وداخلوا جيش علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، أن يصطلح علي رضي الله عنه مع عائشة رضي الله عنها والزبير وطلحة ، وتكون الدائرة عليهم بالقصاص ، فأنشبوا الحرب بين الطائفتين .

وكانت الطائفتان على وشك السلم فتركوا القتال ، وفي الليلة التي كان في صباحها الصلح ، بادروا جيش الزبير وطلحة بالهجوم وهم نيام ، فسألوا من أثار هذه الحرب ؟ فقالوا : جيش علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وفعلوا في جيش علي ما فعلوا في جيش طلحة والزبير رضى الله عنهما ، ومن أجل ذلك وقع القتال بين الطرفين ، وكل طائفة تعتقد أنها تدافع عن نفسها .

ومن هنا يتبين أن خروج عائشة وطلحة والزبير رضي الله عنهم أجمعين ، لم يكن بقصد الخلافة لهما ، وليس بقصد القتال ، ولكن لأخذ الثأر من قتلة عثمان رضي الله عنه بطريقة الصلح ، وقد اجتهدت رضي الله عنها وطلحة والزبير رضي الله عنهما في خروجهم ، وظنوا أن فيه مصلحة للمسلمين ، ثم تبين لهم فيما بعد أن ترك الخروج كان أولى ، وعامة السابقين ندموا على ما دخلوا فيه من القتال ، فندم علي وطلحة والزبير رضي الله عنهم أجمعين .

وأما موقعة صفين[1] : فوقعت بين طائفة علي ومن معه ، وبين طائفة معاوية ومن معه بصفين سنة ٣٦ هـ ، وكان بين الفريقين أكثر من سبعين زحفاً ، قتل فيها نحو سبعين ألفاً من الفريقين ، وما حصل من

(١) موضع على شاطيء الفرات من الجانب الغربي .

قتال بين علي ومعاوية لم يكن يريده واحد منهما ، بل كان في الجيشين من أهل الأهواء متغلبون يحرضون على القتال ، الأمر الذي أدى إلى نشوب تلك المعارك الطاحنة ، وخروج الأمر من يد علي ومعاوية رضي الله عنهما .[1] .

ومنها : (ظهور نار الحجاز) :

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «لاتقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز ، تضيء أعناق الإبل ببصرى»[2] .

وقد ظهرت هذه النار في منتصف القرن السابع الهجري في عام ٦٥٤ هـ ، وكانت ناراً عظيمة أفاض العلماء ممن عاصر ظهورها ومن بعدهم في وصفها .

قال النووي : خرجت في زماننا نار بالمدينة سنة ٦٥٤ هـ ، وكانت ناراً عظيمة جداً من جنب المدينة الشرقي وراء الحرة ، تواتر العلم بها عند جميع أهل الشام وسائر البلدان ، وأخبرني من حضرها من أهل المدينة .

ونقل ابن كثير أن غير واحد من الأعراب ممن كان بحاضرة بصرى ، شاهدوا أعناق الإبل في ضوء هذه النار التي ظهرت من أرض الحجاز .

وذكر القرطبي ظهور هذه النار وأفاض في وصفها في كتابه التذكرة ، فذكر أنها رؤيت من مكة ومن جبال بصرى .

وقال ابن حجر : والذي ظهر لي أن النار المذكورة .. هي التي ظهرت بنواحي المدينة كما فهمه القرطبي وغيره .

وهذه النار ليست هي النار التي تخرج في آخر الزمان تحشر الناس إلى محشرهم ، كما سيأتي في الكلام عليها في الأشراط الكبرى .

---

(١) من أشراط الساعة .

(٢) بصرى : مدينة معروفة بالشام ويقال لها : حوران وبينها وبين دمشق مراحل .

القسم الثاني : (الأمارات المتوسطة من العلامات الصغرى) :

وهي علامات كثيرة بدأ ظهور كثير منها ، ولا زالت تكثر ، ومن تلك العلامات :

(كثرة الجهل بالعلوم الدينية ، وقلة العلم بها) :

١ ـ عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إن من أشراط الساعة : أن يرفع العلم ، ويثبت الجهل ، ويشرب الخمر ، ويظهر الزنا»[١] .

٢ ـ «من أشراط الساعة : أن يقل العلم ، ويظهر الجهل ، ويظهر الزنا ، وتكثر النساء ، ويقل الرجال حتى يكون لخمسين إمرأة القيم الواحد»[٢] .

٣ ـ وعن عبد الله بن مسعود وأبي موسى رضي الله عنهما قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إن بين يدي الساعة لأياماً ينزل فيها الجهل ، ويرفع فيها العلم ، ويكثر الهْرجُ والمَرْجُ (القتل)[٣]» ، كما ترى الحروب المدمرة التي تسيل فيها أنهار الدماء كالحرب بين العراق وإيران وفي لبنان وفي أفغانستان وفي الفلبين وفي الحبشة وإريتريا ، وفي غير ذلك من الحروب التي لاتخفى .

---

(١) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما وكذا الإمام أحمد في المسند .

(٢) رواه البخاري في صحيحه وأحمد في المسند .

(٣) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما والإمام أحمد في المسند ، صحيح الجامع الصغير رقم (٢٠٤٧) .

ومن قلة العلم : قصر تحريم الربا على ما كان بين غني وفقير ، أما ربا المصارف فقد أحلها بعضهم بدعوى أن المصرف غني وليس فقيراً ، كما أباح بعضهم لمن يريد إيجاد مشروع كالزراعة والصناعة أن يعطى الربا ، بدعوى أن هذه المشروعات من أسباب رقي الوطن ، وأن هذا من ربا الاستثمار وليس من ربا الاستغلال ، لأن الاستغلال ما يأخذه الغني من الفقير ، أما ما يأخذ الأغنياء من المصارف، أو الذين يريدون إيجاد المشروعات فليس بمحرم .

وكذلك ما يسمونها في هذا العصر بشهادات الاستثمار ، وهي التي تنقسم إلى أنواع أ ، ب ، جـ ، وكذلك السندات بفوائد ـ وليس هنا محل لشرحهما ـ فقد أباحها بعض من ينتسب إلى العلم ، ورغم أن هذا هو الربا المحرم .

نعم قد ظهر مصداق هذه الأحاديث في زماننا ما عدا خصلتين وهما : ذهاب الرجال ، وكثرة النساء .

فأما العلم الموروث عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وتابعيهم وأئمة العلم والهدى من بعدهم فقد هجره الأكثرية ، وقل الراغبون فيه والمعتنون به ، وقد انصرفت همم الأكثرين إلى الصحف والمجلات وما شاكل ذلك ، مما كثير منه مشتمل على الجهل الصرف الذي قد ظهر في زماننا وثبت فيه ، وبث في مشارق الأرض ومغاربها .

والعلم المقصود في الحديث هو العلم الشرعي ، وليس المقصود بقبضه وموته انتزاعه من قلوب الرجال ، وإنما المراد هو قبض العلماء فلا يبقى إلا الجهال ، والدليل على ذلك حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إن الله تعالى لايقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ، حتى إذا لم يُبْق عالماً ، اتخذ الناس رؤساء جهالاً ، فسئلوا ، فأفتوا بغير علم فضلّوا وأضلوا[1]» ، وقبض العلم ليس شرطاً بقبض القرآن كما يفهم بعض الناس ، وقد قال بعض الأنصار : وكيف يقبض وقد قرأنا القرآن ، وأقرأناه نساءنا وأبناءنا ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : «ثكلتك أمك ، إن كنت لأحسبك لَمِنْ أفقه أهل المدينة ، أو ليست التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى ؟ فماذا تغني عنهم ؟» فمجرد بقاء الكتاب في المكتبات لا يوجب بقاء العلم ، يقول الحسن البصري : العلم علمان : علم في القلب ، وعلم على اللسان ، فعلم القلب هو العلم النافع ، وعلم اللسان حجة الله على عباده .

وأما الخمر فقد فشا شربها وبيعها وابتياعها في كثير من البلاد ، وقد سموها بغير اسمها ، لكي يستحلوا شربها ، وبيعها ، وأكل ثمنها ، فسموها مشروبات روحية(٢).

---

(١) رواه البخاري ومسلم في (صحيحيهما) وأحمد في المسند والترمذي وابن ماجه صحيح الجامع الصغير رقم (١٨٥٠) .

صدق رسول الله ﷺ ، ظهر في زماننا من أباح السفور وبعض أنواع الربا .

(٢) حتى آل الأمر أن كثيرين من المنتسبين إلى الإسلام ، وفي كثير من البلدان الإسلامية ، إذا أقاموا حفلات بمناسبات عديدة كالأعياد المحدثة وأتوا بموائد ، فمن

وكذلك الزنا فقد جعل له أسواق معروفة في كثير من البلاد التي ينتسب أهلها إلى الإسلام[1] .

ومنها : **(يأتي على الناس زمان ، القابض على دينه كالقابض على الجمر)** :

١ ـ عن عتبة بن غزوان أخي بني مازن بن صعصعة ، وكان من الصحابة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «إن من ورائكم أياماً ، الصبر للمتمسك فيهن يومئذ بما أنتم عليه أجر خمسين منكم ، قالوا : يا نبي الله أو منهم ؟ قال : بل منكم»[2] .

العناصر المهمة في تلك الحفلات والموائد أمران : اختلاط الرجال بالنساء ، وشرب الخمور ، بل وكثير من الحكومات الإسلامية تعطي رخصاً لمن يريد أن يشرب الخمر ، واعتذار بعضهم إذا قيل له في ذلك : إننا نعطي الرخصة لغير المسلمين ونعطي للسواح الأجانب ، فما أدري من أين أخذوا هذه الفتوى ؟ علماً بأن الخمر محرمة ، وكل محرم لايجوز للمسلم أن يستعمله ، أو يساعد المستعمل كنقله من مكان إلى مكان ، مثل أن يستأجر لنقل الخمر أو الخنزير ، أو يؤجر حانوته لذينك الأمرين ، أو لأحدهما ، لأنه من باب المعاونة على الإثم والعدوان ، وإعطاء الرخصة أكبر عون ومساعدة لشارب الخمر .

(١) أما فشو الزنا كما قال المؤلف : بل لا يزال في ازدياد بالإضافة إلى اللواط والعياذ بالله ، وقد أقرت بعض الحكومات الإسلامية تقليداً للغربيين بيوت الدعارة ، وإعطاء الداعرات الرخص ، وتوظيف حراس من الشرطة على بيوتهن ، وتخصيص بعض الأطباء للكشف عليهن ، وإعطائهن الأدوية والحقن ، وفرض ضريبة على كل واحدة منهن للدولة .

فهل يا ترى يعتقد مسلم حرمة الزنا ويساعد الزناة بفتح أبواب الدعارة وتسهيل السبل إليها ؟ .

لا يعمل هذا العمل الفاجر إلا من لا يعتقد أن الزنا حرام ، وأن الوسائل التي تفضي إليه حرام ، أو أنه لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

(٢) أخرجه ابن نصر في (السنة) وله شواهد عند الطبراني والترمذي (٢/١٧٧) وأبو داود (٤٣٤١) وابن ماجه (٤٠١٤) وهو صحيح ، تخريج السلسلة الصحيحة رقم (٤٩٤) .

٢ ـ وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «يأتي على الناس زمان ، الصابر فيهم على دينه كالقابض على الجمر»[١] .

٣ ـ وعن أسيد بن حضير رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إنكم ستلقون بعدي أثرة فاصبروا ، حتى تلقوني غداً على الحوض»[٢] .

٤ ـ وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إن من ورائكم زمان صبر ، وللمتمسك فيه أجر خمسين شهيداً منكم»[٣] .

ومنها : (اتباع سنن الأمم الماضية) :

١ ـ ومن الفتن العظيمة اتباع سنن اليهود والنصارى وتقليدهم ، فقد قلد بعض المسلمين الكفار ، وتشبهوا بهم ، وتخلقوا بأخلاقهم ، وأعجبوا بهم ، وهذا مصداق ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «لاتقوم الساعة حتى تأخذ أمتي بأخذ القرون قبلها ، شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع . فقيل : يا رسول الله : كفارس والروم ؟ قال : ومَنْ الناس إلا أولئك ؟ » رواه البخاري .

٢ ـ وفي رواية عن أبي سعيد : قلنا يا رسول الله اليهود والنصارى ؟ . قال : فمن . رواه البخاري ومسلم .

٣ ـ قال ابن بطال : أعلم صلى الله عليه وسلم أن أمته ستتبع المحدثات من الأمور والبدع والأهواء كما وقع للأمم قبلهم ، وقد أنذر في أحاديث كثيرة بأن الآخر شر ، والساعة لا تقوم إلا على شرار الناس ، وأن الدين إنما يبقى قائماً عند خاصة من الناس .

وقال ابن حجر : وقد وقع معظم ما أنذر به صلى الله عليه وسلم ، وسيقع بقية ذلك ، وفي هذا الزمن كثر من المسلمين من يتشبه بالكفار

---

(١) رواه الترمذي (٤٤/٢) وهو صحيح ، تخريج السلسلة الصحيحة رقم (٩٥٧) .
(٢) رواه البخاري ومسلم وأحمد والترمذي والنسائي ، صحيح الجامع رقم (٢٣٠٥) .
(٣) رواه الطبراني في المعجم الكبير وهو صحيح ، صحيح الجامع رقم (٢٢٣٠) .

من شرقيين وغربيين ، فتشبه رجالنا برجالهم ، ونساؤنا بنسائهم ، وافتتنوا بهم ، حتى أدى الأمر ببعض الناس أن خرجوا عن الإسلام ، واعتقدوا أنه لايتم لهم تقدم وحضارة إلا بنبذ كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، ومن عرف الإسلام الصحيح عرف ما وصل إليه المسلمون في القرون الأخيرة من بعد عن تعاليم الإسلام وانحراف عن عقيدته ، فلم يبق عند بعضهم من الإسلام إلا اسمه ، فقد حكموا قوانين الكفار ، وابتعدوا عن شريعة الله ، وليس هناك أبلغ مما وصف به النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين في اتباعهم ومحاكاتهم للكفار فقال : «شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع ، حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم»(١) .

هذا قول الحافظ ابن حجر العسقلاني في القرن التاسع ، فكيف لو رأى القرن الرابع عشر ، وهذا القرن الخامس عشر الذي نحن فيه ، حيث فشا التشبه بالكفرة في لباسهم وعاداتهم وأعراسهم ، حتى آل الأمر أن يعلق بعض الشباب سلسلة ذهب في عنقه تقليداً لشباب النصارى ، ويضع في يديه خاتم ذهب ، ويفتخر بشرب الخمر ، وحلق اللحى ، والتكلم بكلام الغربيين ، والسير على منهاجهم ، فمن يتأمل أحوال الكثيرين في زماننا ، ويتأمل الحديث الوارد ، فيرى أن الحديث ينطبق عليهم تمام الإنطباق ، كما أن حديث : يوشك أن تداعى عليكم الأمم ، كما تداعى الأكلة إلى قصعتها ، قالوا : أمن قلة بنا يا رسول الله ؟ قال : أنتم كثيرون ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل .

الأمة الإسلامية اليوم تبلغ ألف مليون ، وقيل ثمانمائة مليون نسمة ، وإسرائيل تبلغ أربعة ملايين ، وقد أحاطت بها دول العرب كإحاطة الهالة بالقمر ، وبالرغم من كل ذلك فهي الفائقة ، وتهددهم بتهديدات شديدة ، فلا شك أن هذين الحديثين من جملة معجزاته صلى

---

(١) قال النووي : « والمراد بالشبر والذراع وجحر الضب التمثيل بشدة الموافقة لهم ، والمراد الموافقة في المعاصي والمخالفات لا في الكفر ، وفي هذا معجزة ظاهرة لرسول الله ﷺ ، فقد وقع ما أخبر به ﷺ » .

الله عليه وسلم ، حيث أخبر بوقوع ماجاء في هذين الحديثين ، فقد وقع كما أخبر صلى الله عليه وسلم .

ومنها : (ظهور مدعي النبوة) :

ومن العلامات التي ظهرت خروج الكذابين الذين يدعون النبوة ، وهم قريب من ثلاثين كذاباً ، وقد خرج بعضهم في الزمن النبوي ، وفي عهد الصحابة ، ولا يزالون يظهرون ، وليس التحديد في الأحاديث مراداً به كل من ادعى النبوة مطلقاً ، فإنهم كثيرون لا يحصون ، وإنما المراد من قامت له شوكة ، وكثر أتباعه ، واشتهر بين الناس[1] .

١ ـ ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «لاتقوم الساعة حتى يُبعث دجالون كذابون ، قريب من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول الله»[2] .

٢ ـ وعن ثوبان رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لاتقوم الساعة حتى تلحق قبائل من أمتي بالمشركين ، وحتى يعبدوا الأوثان ، وأنه سيكون في أمتي ثلاثون كذابون ، كلهم يزعم أنه نبي ، وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي»[3].

والأحاديث في ظهور الدجاجلة كثيرة ، وفي بعضها وقع أنهم ثلاثون بالجزم كما في حديث ثوبان ، وفي بعضها أنهم قريب من الثلاثين كما في حديث الصحيحين ، ولعل رواية ثوبان على طريقة جبر الكسر[4].

وممن ظهر من هؤلاء الثلاثين : مسيلمة الكذاب ، فادعى النبوة في آخر زمن النبي صلى الله عليه وسلم ، وكاتبه رسول الله صلى الله عليه

---

(١) انظر فتح الباري ٦١٧/٦ .

(٢) صحيح البخاري ـ كتاب المناقب باب علامات النبوة ٦١٦/٦ ، وصحيح مسلم ـ كتاب الفتن وأشراط الساعة ٤٥/١٨ .

(٣) سنن أبي داود مع عون المعبود ٣٢٤/١١ والترمذي مع تحفة الأحوذي ٤٦٦/٦ . وقال : هذا حديث صحيح ، وقال الألباني : صحيح ـ انظر صحيح الجامع الصغير ١٧٤/٦ ح ٧٢٩٥.

(٤) انظر فتح الباري ٨٧/١٣ .

وسلم ، وسماه مسيلمة الكذاب ، وقد كثر أتباعه ، وعظم شره على المسلمين ، حتى قضى عليه الصحابة في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه في معركة اليمامة المشهورة ، وظهر كذلك الأسود العَنْسي في اليمن ، وادعى النبوة ، فقتله الصحابة قبل موت النبي صلى الله عليه وسلم ، وظهرت سجاح ، وادعت النبوة ، وتزوجها مسيلمة ، ثم لما قتل رجعت إلى الإسلام .

وظهر غيرها كطليحة بن خويلد الأسدي ، ولكنه رجع إلى الإسلام ، والحارث الكذاب خرج في خلافة عبد الملك بن مروان ، وفي القرن الثالث عشر ظهر علي محمد الباب في شيراز ، وادعى المهدوية ، ثم ادعى النبوة ، وأبطل الجهاد ، واخترع له شرعة جديدة ، وحكم عليه علماء الشيعة بالارتداد فقتل سنة ١٢٦٥ هـ ، ثم ظهر من بعده تلميذه وخليفته الميرزا حسين بن علي ، ولما هلك خلفه ابنه عباس عبدالبهاء ، ومن شريعة الباب والبهاء ، إلغاء الصلوات الخمس وصلاة الجماعة ، وقرر أن الطّهر من الجنابة غير واجب ، والقبلة هي البيت الذي وُلد فيه بشيراز ، وشهرهم تسعة عشر يوماً ، وسنتهم تسعة عشر شهراً ، وأبطل الجهاد ، إلى آخر تلك السخافات التي أوحاها إليه الشيطان .

ثم جاء من بعده الميرزا غلام أحمد القادياني[1] في الهند ، وقبل سنوات جاء رجل من لندن ، وزعم أنه نبي فنفي من البلاد ، وظهر رجل أمريكي ادعى النبوة في المكسيك ، وآمن به عدد كبير من الأمريكان أغلبهم من الزنوج ، كما ظهر رجل مصري عام ١٤١٠ هـ في الإسكندرية في مصر وادعى النبوة .

فإخباره صلى الله عليه وسلم بخروج هؤلاء المتنبئين الكذابين ، يكون من معجزاته صلى الله عليه وسلم .

والحاصل أن العلامات الصغرى كثيرة ، ولو ذهبنا نستقصي كل

---

(١) قاديان : إحدى مدن مقاطعة بنجاب الهندية وقد ولد في سنة ١٨٤٠ م ، وفي سنة ١٩٠١ م أعلن الميرزا أنه النبي والرسول ، وأنه يوحى إليه ، وهلك في سنة ١٩٠٨ م .

علامة من العلامات كما ذكرها بعض أهل العلم ، لتطلب منا مجلداً ضخماً ، فمن أراد الزيادة فعليه بالكتب المؤلفة في هذا الشأن وأكثرهم جمعاً إتحاف الجماعة(١) .

القسم الثالث : **(العلامات الكبرى التي تعقبها الساعة) وهي التي أشار إليها في النظم :**

خروج دجّال على الغبراء نزول عيسى ما من الخضراء

العلامة الأولى :

من العلامات الكبرى خروج الدجال ، وما أدراك ما الدجال ؟

منبع الكفر والضلال ، داعية من دعاة الكفر ، يكون خروجه من علامات الساعة الكبرى .

جاء في صحيح مسلم عن أنس : يتبع الدجال من يهود أصبهان سبعون ألفاً عليهم الطيالسة .

إنكار القادياني خروج الدجال ونزول المسيح وتأثر بعض المسلمين بقوله :

ليعلم القراء أن الدجال الذي أخبر عنه النبي صلى الله عليه وسلم ، بأنه سيخرج في آخر الزمان ، وذكره من علامات الساعة الكبرى ، وبالرغم من كثرة الأحاديث الواردة عن النبي صلى الله عليه وسلم التي بلغت مبلغ التواتر المعنوي ، بحيث يحصل من تلك الأحاديث علم قطعي ، فإن المتنبيء الكذاب ميرزا غلام أحمد القادياني أنكر خروج الدجال .

كما أنكر نزول المسيح عليه السلام ، لأن الأحاديث تذكر أن المسيح عيسى عليه السلام بعد نزوله من السماء ، يقتل الدجال بباب لد (وهي قرية بفلسطين) .

ولكن العجب ممن يزعم أنه من علماء المسلمين ، ويبدي حرصه على الدين ، ينكر خروج الدجال ونزول المسيح .

---

(١) إتحاف الجماعة في أشراط الساعة للتويجري .

وها أنذا أذكر بعض الأحاديث الواردة في الدجال ، ثم أذكر المسيح بعده .

وهذه بعض الأحاديث الواردة في خروج الدجال وأوصافه :

١ ـ عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر الدجال بين ظهراني الناس فقال : إن الله تعالى ليس بأعور ، ألا وأن المسيح الدجال أعـور العين اليمنى ، كأن عينه عنبة طافئة[١] .

رواه البخاري ومسلم وأحمد .

٢ ـ وعن حذيفـة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الدجـال أعور العين اليسرى ، جفال[٢] الشعر ، معه جنة ونار ، فناره جنة ، وجنته نار . رواه مسلم .

٣ ـ وعن ابن عباس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لما أسري بي رأيت الدجّال في صورته رؤيا عين ليس رؤيا منام ، فسئل عنه فقال : أقمر[٣]، هجاناً[٤] ، فَيلمانياً[٥]، إحدى عينيه قائمة كأنها كوكب درّي ، كأن شعره أغصان شجرة . رواه أحمد .

٤ ـ وعن سعد بن مالك عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إنه لم يكن نبي إلّا وصف الدجّال لأمته ، ولأ صفنّه صفة لم يصفها أحد كان قبلي ، إنه أعور ، وإن الله عز وجل ليس بأعور . رواه أحمد في المسند .

٥ ـ وعن حذيفـة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مكتوب بين عينيه كافر ، يقرؤها كل مؤمن كاتب وغير كاتب . رواه مسلم وابن ماجه عن أبي أمامة بهذا اللفظ .

---

(١) بالهمزة ، التي ذهب ضوؤها ، وطافية بدون همزة معناها مرتفعة وفيها ضوء .
(٢) أي كثير الشعر .
(٣) شديد البياض .
(٤) بكسر الهاء وتخفيف الجيم أبيض ضخم .
(٥) بفتح الفاء : عظيم الجثة .

٦ ـ وعن عمر بن ثابت الأنصاري قال : أخبرني بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم حذر الناس الدجال : أنه مكتوب بين عينيه كافر ، يقرؤه من كره عمله ، أو يقرؤه كل مؤمن وقال : تعلمون أنه لن يرى أحد منكم ربه عز وجل حتى يموت . رواه مسلم .

٧ ـ وعن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ما بعث نبي إلا قد أنذر أمته الدجّال الأعور الكذاب ، إلا وأنه أعور ، وأن ربكم تعالى ليس بأعور ، وأن بين عينيه مكتوب كافر ، وفي رواية : يقرؤه كل مسلم . رواه أبو داود .

٨ ـ وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إني حدثتكم عن الدجّـال حتى خشيت ألا تعقلوا أن مسيح الدجال رجل قصير أفجع[١] جعد [٢] أعور مطموس العين ليس بناتئة[٣] ولا حجراء ، فإن ألبس عليكم ، فاعلموا أن ربكم ليس بأعور . رواه أبو داود .

٩ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن مسيح الضلالة أعور العين ، أجلى الجبهة ، عريض النحر فيه دفأ ، كأنه قطن بن العزى فقال قطن : هل يضرني شبهه ؟ قال : لا . أنت مسلم وهو امرؤ كافر . رواه أحمد .

١٠ ـ وعن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : إن الدجـال خارج من خلة بين الشام والعراق ، فعاث يميناً ، وعاث شمالاً ، يا عباد الله فاثبتوا . رواه مسلم وابن ماجه .

١١ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ثلاث إذا خرجن لا ينفـع نفسـاً إيمانها لم تكن آمنت من قبل ، الدجال ، والدابة ، وطلوع الشمس من مغربها . رواه الترمذي وصححه .

---

(١) أي متباعد الساقين .

(٢) أي شعره متكسر من الجعودة كالماء والرمل إذا ضربته الريح .

(٣) أي ظاهرة .

١٢ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بادروا بالأعمال ستاً ، وذكر منها الدجال ، وطلوع الشمس من مغربها .

(حرص النبي على تحذير أمته من الدجال) :

أكثر النبي صلى الله عليه وسلم التحذير من فتنة الدجال الكبير ، حتى أنه علّم أمته الاستعاذة منه في التشهد الأخير في الصلوات الخمس وغيرها .

وهاك أيها القارىء بعض الأحاديث في الاستعاذة من فتنة الدجال :

١ ـ عن محمد بن أبي عائشة أنه سمع أبا هريرة رضي الله عنه يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا فرغ أحدكم من التشهد الأخير ، فليتعوذ بالله من أربع ، من عذاب جهنم ، ومن عذاب القبر ، ومن فتنة المحيا والممات ، ومن شر المسيح الدجال . رواه الإمام أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه والدارمي وأبو بكر الآجري في كتاب الشريعة .

٢ ـ ورواه البخاري ومسلم وأبو داود الطيالسي والنسائي وأبو بكر الآجري من حديث أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول : اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر ، وأعوذ بك من النار ، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات ، وأعوذ بك من شر المسيح الدجال . هذا لفظ النسائي .

خروج الدجال مما ينبغي أن يعتقده المسلم :

ولكون خروج الدجال مما ينبغي أن يعتقده المسلم ليحذر من شره إن أدركه ، ومن العقائد الثابتة للمسلمين ، أكثر الرسول صلى الله عليه وسلم من بيان خروجه والتحذير منه ، حتى بلغت الأحاديث الواردة عنه صلى الله عليه وسلم مبلغ التواتر المعنوي ، ولم يكتف صلى الله عليه وسلم بمجرد إخباره بخروجه والتحذير منه ، حتى أمر المسلمين أن يتعوذوا من شره في الصلوات الخمس المفروضة ، حتى بوب علماء الحديث في كتبهم الحديثية (باب الاستعاذة من فتنة الدجال) كما في صحيح مسلم وسنن أبي داود وصحيح البخاري ، فكما يتعوذ المسلم من عذاب القبر ، وفتنة المحيا

والممات ، يتعوذ من شر المسيح الدجال ، فخصه بذكره مع أنه مندرج تحت فتنة المحيا والممات .

تنبيـــه مهـــم :

أول خروجه يدعي الإيمـان والصلاح ، وإذا قبل قوله ، واتبع على ذلك ، ادعى الألوهية فيقول : أنا الله مكتوب بين عينيه كافر ، فلا يخفى على مسلم ، فيفارقه كل أحد من الخلق في قلبه مثقال ذرة من إيمان ، وابتـداء خروجه من نواحي خراسان ، وقيل يهودية أصبهان ، وأكثر أتبـاعـه من اليهـود ، ويبث رسله في الآفاق للدعوة ، ويأتي بخوارق شيطانية ليفتن الناس عن دينهم حتى يقول للسماء : أمطري فتمطر ، ويقول للشخص : إن كنت تريد أباك أو من تريده من الأموات فأحضره الآن حياً ، فتأتي الشياطين متشكلة بشكل ذلك الميت ، فيظن من أراد الله فتنته صدقه في دعواه ، وبالجملة فإنه فتنة عظيمة ، ففي الحديث : ماكانت ولا تكون فتنة حتى تقوم الساعة أعظم من فتنة الدجال ، ما من نبي إلا وحـذر قومـه الدجـال . الحـديث رواه الحاكم عن جابر مرفوعاً ، ولا يستطيع دخول مكة والمدينة وبيت المقدس ، ويقتله عيسى عليه السلام بباب اللد بلدة قريبة من فلسطين على مقدار فرسخ من جهة الشمال ، ومدة مكثه في الأرض أربعون يوماً ، يوم كسنة ، ويوم كشهر ، ويوم كجمعة ، والبقية كسائر الأيام .

العلامة الثانية : المهدي المنتظر :

كثرت الأحاديث الواردة في المهدي بالغة نحواً من خمسين حديثاً ، وكثرت التآليف في شأنه ، واختلفت مذاهب العلماء ، هل خروج المهدي ثابت أو غير ثابت ؟ فمنهم من ضعفها كلها وأنكر خروجه ، ومنهم من أثبتها وقال : فيها الصحيح والحسن والضعيف .

وقد ذكر الحافظ ابن القيم رحمه الله ما نصه :

وسئلت عن حديث لا مهدي إلا عيسى بن مريم ، فكيف يأتلف هذا مع أحاديث المهدي وخروجه ؟ وما وجه الجمع بينهما ؟ وهل في المهدي أحاديث أم لا ؟

قال رحمه الله : فأما حديث : لا مهدي إلا عيسى بن مريم ، فرواه ابن ماجه في سننه ، ثم ساق السند من رواية يونس بن عبد الأعلى عن الشافعي عن محمد بن خالد الجَنَدي ، إلى أن وصل السند عن أنس ابن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو مما تفرد به محمد بن خالد .

وساق بعض الروايات في ذلك وضعف هذا الحديث .

قال : محمد بن خالد غير معروف عند أهل الصناعة من أهل العلم .

ثم ذكر حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : لو لم يبق من الدنيا إلا يوم ، طول الله ذلك اليوم حتى يبعث رجلاً مني ، أو من أهل بيتي ، يواطيء اسمه اسمي ، واسم أبيه اسم أبي ، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً ، كما ملئت ظلماً وجوراً .

رواه أبو داود والترمذي ، وقال : هذا حديث حسن صحيح ..

قال : وفي الباب عن علي وأبي سعيد وأم سلمة وأبي هريرة ، ثم روى حديث أبي هريرة وقال : حسن صحيح . اهـ .

قال الحافظ : وفي الباب عن حذيفة بن اليمان وأبي أمامة الباهلي وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن عمرو بن العاص وثوبان وأنس بن مالك وجابر وابن عباس وغيرهم .

وساق الحافظ أحاديث عديدة في شأن خروج المهدي ، وحسنها : قال الحارث بن أبي أسامة في مسنده :

حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم ، حدثنا إبراهيم بن عقيل ، عن أبيه ، عن وهب بن منبه ، عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ينزل عيسى بن مريم ، فيقول أميرهم المهدي : تعال صل بنا ، فيقول : لا ، إن بعضهم أمير بعض ، تكرمة الله لهذه الأمة . وهذا إسناد جيد .

وهذه الأحاديث أربعة أقسام : صحاح ، وحسان ، وغرائب ، وموضوعة ، وقد اختلف الناس في المهدي على أربعة أقوال :

أحدها : أنه المسيح ابن مريم ، وهو المهدي على الحقيقة ، واحتج أصحاب هذ بحديث محمد بن خالد الجندي المتقدم ، وقد بينا حاله ، وأنه لا يصح ، ولو صح لم يكن فيه حجة ، لأن عيسى أعظم مهدي بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبين يدي الساعة .

القول الثاني : أنه المهدي الذي ولي من بني العباس ، وقد انتهى زمانه ، وساق أحاديث عديدة وكلها غير صحيحة .

القول الثالث : أنه رجل من أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم ، من ولد الحسن بن علي ، يخرج في آخر الزمان ، وقد امتلأت الأرض جوراً وظلماً ، فيملأها قسطاً وعدلاً ، وأكثر الأحاديث على هذا تدل .

وفي كونه من ولد الحسن سر لطيف ، وهو أن الحسن رضي الله تعالى عنه ترك الخلافة لله ، فجعل الله من ولده من يقوم بالخلافة الحق ، المتضمن للعدل الذي يملأ الأرض ، وهذه سنة الله في عباده ، أنه من ترك لأجله شيئاً أعطاه الله ، أو أعطى ذريته أفضل منه ، وهذا بخلاف الحسين رضي الله عنه ، فإنه حرص عليها ، وقاتل عليها ، فلم يظفر بها ، والله أعلم .

وأما الرافضة الإمامية : فلهم قول رابع : وهو أن المهدي هو محمد ابن الحسن العسكري المنتظر ، ومن ولد الحسين بن علي ، لا من ولد الحسن ، الحاضر في الأمصار ، الغائب عن الأبصار(١) .

ولشيخ الإسلام ابن تيمية في منهاج السنة ، والذهبي في المنتقى ، بأن الأحاديث التي يحتج بها على خروج المهدي ، أحاديث صحيحة ، رواها أبو داود والترمذي وأحمد وغيرهم من حديث ابن مسعود وغيره . اهـ .

فمقصود الشيخ أن الأحاديث التي تصح في خروج المهدي ، هي التي يعتد بها ، لا أن جميع أحاديث المهدي صحيحة .

ويعجبني ما قاله العلامة سيد سابق في كتابه العقائد الإسلامية في شأن المهدي :

---

(١) باختصار من المنار المنيف في الصحيح والضعيف للعلامة ابن القيم ، من ص ١٤٧ إلى ص ١٥٢ .

قال : وخلاصة القول في الإمام المهدي ، أنه سيظهر في آخر الزمان ، وأن اسمه محمد بن عبد الله أو أحمد بن عبد الله(١) ، وأنه من بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم من ولد فاطمة(٢) ، وأنه يقيم شريعة الإسلام ، ويحيي ما اندثر من سنة رسول الله ، وأن الإسلام تعلو كلمته في عهده ، حتى يلقى بجرَّانه(٣) إلى الأرض .

ثم ذكر بعض صفات المهدي إلى أن قال :

هذه هي خلاصة الروايات التي تحدثت عن المهدي ، ورويت في شأنه ، وهي في جملتها لا تخرج عن كونها إخباراً عن ظهور رجل من المصلحين في آخر الزمان ، يرفع لواء الحق ، ويعلي كلمة الله ، ويمكن للإسلام ، ويكون طليعة للخير العام الذي يأتي بعده ، كما كان يوحنا قبل ولادة عيسى عليه السلام .

على أثر ذلك يخرج الدجال اليهودي ، كمظهر من مظاهر الفتنة الكبرى ، ليقاوم هذه النهضة الإسلامية ، محاولاً فتنة الناس عن دينهم ، بما أعطي من علم وبراعة وقوة ، فيبطل الله أمره بما يحدثه من آيات أكبر من فتنته ، بإنزال عيسى عليه السلام ليكون قوة للحق الذي يمثله المهدي حينئذ ، ويتعاون كل من عيسى والمهدي ومن ورائهما كتائب الإسلام على قتله ، وإحباط أمره . اهـ(٤).

العلامة الثالثة : من العلامات الكبرى نزول المسيح عليه السلام :

لايخفى أن حياة المسيح عليه السلام ، ورفعه إلى السماء حيّاً ، ونزوله إلى الأرض ، وحُكْمُهُ بشريعة الإسلام بعد نزوله ، مما وجب على المسلمين اعتقاده ، وقد ذكر العلماء في التفاسير وفي الأحاديث وفي بعض كتب التوحيد وفي الكتب التي أُلفت في أشراط الساعة ، أن نزوله من علامات الساعة الكبرى بعد خروج الدجال ، وأنه يقتل الدجال ،

(١) رواه أبو داود والترمذي .

(٢) رواه أبو داود والحاكم .

(٣) يقر أمره ويستقر .

(٤) العقائد الإسلامية ص ٢٥١ .

وذلك استدلالاً بالآيات التي سوف أذكرها للقراء وكلام المفسرين عليها ، وبالأحاديث الواردة التي تواترت التواتر المعنوي ، حتى ألف غير واحد كتباً ورسائل في إثبات حياته ونزوله ، الأمر الذي يوجب على المسلم أن يستيقن بلا ريب يعتريه بعد أن يقرأ ويسمع تلك الآيات والأحاديث ، أن حياة المسيح ثابتة ، ونزوله ثابت ، والاعتقاد بهما واجب ، فلا ينبغي لمسلم بعد أن يقف على تلك الآيات والأحاديث الوافرة وكلام العلماء ، أن يقابلها بالرفض وعدم الانقياد بشبه واهية ، وآراء غير سديدة .

وإلى القارىء من القرآن ومن الأحاديث في إثبات حياة المسيح عليه السلام ، ورفعه إلى السماء ، ونزوله :

قال الله تعالى: **(فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف ، بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً ، وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً ؛ وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم ، وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه مالهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً ، وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً)**[1] .

قال المفسرون في التفسير :

إن المعنى : إذا نزل عيسى ، لأن الضمائر كلها من قول الله تعالى **(إنا قتلنا المسيح ...)** إلخ الآيات راجعة إلى عيسى عليه السلام .

وهذا التفسير يروى عن أبي هريرة وابن عباس وقتادة وابن زيد ، وهو المتعين الذي لايجوز غيره لوجوه :

الأول : أنه تفسير أبي هريرة وابن عباس رضي الله عنهما ، وهما صحابيان جليلان ، شاهدا التنزيل ، وعرفا معانيه بسليقتهما العربية وتلقيهما عن الرسول صلى الله عليه وسلم .

(١) سورة النساء : الآيات ١٥٥ ـ ١٥٩ .

الثاني : أنه موافق للأحاديث المتواترة التي أخبرت بنزول عيسى ودعوته إلى الإسلام (وإيمان اليهود والنصارى به)[1] ، ولذا كان أبو هريرة حين يروي حديث النزول يتلو عقبه هذه الآية ، للإشارة إلى أن الحديث يفسر الآية ، ويعين المراد منها ، فهما متطابقان متوافقان .

الثالث : أن المتحدث عنه في الآيات قبل هذه الآية هو عيسى عليه السلام ، اقرأ قوله تعالى : (**فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق**) . تجد الكلام مسوقاً لتبرئة عيسى عليه السلام مما رمي به ، فوجب أن تكون الضمائر كلها راجعة إليه أخذاً بدلالة السياق وعملاً بما توجبه قواعد اللغة العربية التي بها نزل القرآن العظيم ، ولايجوز العدول عن ذلك إلا لمقتضى يقتضيه ، ولا مقتضى هنا البتة ، ولذا قال الإمام ابن حيان في البحر المحيط ما نصه : والظاهر أن الضميرين في (به) وفي (موته) عائدان على عيسى عليه السلام وهو سياق الكلام ، والمعنى : من أهل الكتاب الذين يكونون في زمان نزوله ، روي أنه ينزل من السماء في آخر الزمان ، فلا يبقى أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به ، حتى تكون الملة واحدة وهي ملة الإسلام ، قاله : ابن عباس والحسن وأبو مالك .

فإن قيل : إن الضمير في «به» عائد على عيسى ، وفي «موته» عائد على الكتابي ، وأن المعنى لايموت الكتابي حتى يؤمن بعيسى ، وذلك عند المعاينة قبيل زهوق الروح ، ولصاحب هذا القول شبهتان .

الأولى : أن هذا التفسير نقل عن ابن عباس .

---

(١) أما إيمان اليهود فإنهم كانوا كافرين به ، وفي ذلك الوقت يؤمنون به إيماناً صحيحاً ، وأما النصارى وإن كانوا يؤمنون بعيسي ، ولكن إيمانهم مشوب بالوثنية والإشراك بالله ، إذ لا يعتقدون أنه عبد الله ورسوله كما يعتقده المسلمون ، بل يعتقدون ربوبيته ، وبعضهم يقول : ثالث ثلاثة ، وبعضهم يقول : ابن الله ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، فإذا نزل عيسى من السماء تؤمن النصارى إيماناً صحيحاً كإيمان المسلمين .

والثانية : قراءة أبي **(وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته)** بضم النون .

فالجواب عن الشبهة الأولى : أنه لم يصح عن ابن عباس ما ذكر ، بل الذي صح واستفاض عنه ما ذكرناه سابقاً ، عنه وعن أبي هريرة وعن الحسن وغيرهم ، بأن الضميرين راجعان لعيسى ، كما يلزم على هذا القول تشتيت الضمائر باختلاف مرجعها ، وأقل ما يقال في هذا أنه خلاف الظاهر ، لاداعي إلى ارتكابه .

والجواب عن الشبهة الثانية : أن قراءة أبي قراءة شاذة لا يجوز الاستدلال بها ، كما لا تجوز تلاوتها بناء على ما صححه إمام الحرمين وأبو نصر القشيري وابن الحاجب ، وقال النووي : إنه مذهب الشافعي ، بأنها نقلت آحاداً ، فيما تتوفر الدواعي على نقله تواتراً ، ولأنها قد تكون مذهباً لصاحبها كقراءة ابن مسعود ، فإن كثيراً منها تفسيرات بحسب اجتهاده ، ومن أجاز الاجتهاد بالقراءة الشاذة ، أجراها مجرى خبر الآحاد عليه ، وقد دلت الأحاديث المتواترة على تعيين المراد[1] من الآية ، وبينته بياناً شافياً ، فلا حاجة بعده إلى شواذ القراءات والروايات ، بل لا يجوز ذلك جزماً ، ولذا رد ابن جرير وابن كثير كل قول قيل في الآية غير القول الأول[2] .

---

(١) يقصد بتعيين المراد أن الأحاديث الكثيرة المتواترة التى صرحت بنزول المسيح من السماء ، وأنه تصير الملل كلها ملة واحدة ، وكلهم يؤمنون بعيسى قبل أن يموت ويدفن في المدينة المنورة ، من هنا اتضح معنى قبل موته ، والله أعلم بالصواب .

(٢) ا. هـ. من القاديانية ودعايتها الضالة والرد عليها للمؤلف .

رفع المسيح إلى السماء حيا وهو عقيدة المسلمين

شـــبهة للقاديـاني

الجواب عما يتشبث به القادياني ومن قلده ، بأن عيسى قد مات ولم يرفع حياً إلى السماء ، بشبهة أن الله تعالى يقول : **(إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا)** .

١ ـ قال الحافظ العلامة ابن جرير رحمه الله :

اختلف أهل التأويل في معنى الوفاة التي ذكرها الله في هذه الآية :

الأول : قال بعضهم : هي وفاة نوم ، كأن معنى الكلام على مذهبهم بأني منيمك ورافعك في نومك .

ثم ذكر عن الربيع والحسن ما يؤيد ذلك .

الثـاني : وقـال آخرون : معنى ذلك أني قابضك من الأرض ، فرافعك إلي ، ورافعك من بين المشركين وأهل الكفر بك .

وبعد ذلك ذكر آثاراً كثيرة في تأييد هذا القول .

والثالث : ذكر عن وهب بن منبه[1] اليماني : توفى الله عيسى ثلاث ساعات بالنهار حتى رفعه إليه .

(١) وهب بن منبه من أحبار اليهود وأسلم ، وكثير من أهل العلم يطعن فيه وفي كعب الأحبار ، ويقول قد دس هذان الرجلان من الإسرائيليات الشيء الكثير ، وقولهم : إنه مات ثلاث ساعات هو من الإسرائيليات التي لا يصح لها سند ، وقد رد هذا

قال أبو جعفر : وأولى هذه الأقوال بالصحة عندنا قول من قال : معنى ذلك إني قابضك من الأرض ورافعك إلي ، لتواتر الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : ينزل عيسى بن مريم فيقتل الدجال ، ثم يمكث في الأرض مدة ، ثم ذكر بعض الأحاديث الواردة في نزوله عليه السلام وقتله الدجال ، وأنه يمكث في الأرض أربعين سنة ، ثم يتوفاه الله ويصلي عليه المسلمون ، ثم ذكر الحافظ رحمه الله مفنداً قول من قال : إن عيسى أماته الله ثلاث ساعات حتى رفعه ، وزعمت النصارى سبع ساعات ثم أحياه الله .

قال الحافظ رحمه الله :

ومعلوم أنه لو كان قد أماته الله ، لم يكن بالذي يميته مرة أخرى فيجمع عليه ميتتين ، لأن الله عز وجل أخبر عباده أنه يخلقهم ثم يميتهم ثم يحييهم ، كما قال تعالى : **(الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء سبحانه وتعالى عما يشركون)**[1] .

٢ ـ قال الحافظ ابن كثير تحت قوله تعالى : **(إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا)** الآية .

اختلف المفسرون في قوله : **(إني متوفيك ورافعك إلي)** ، وقد ذكر الحافظ ابن كثير هنا بعض الأقوال التي ذكرها الحافظ ابن جرير .

إلى أن قال : وقال الأكثرون : المراد بالوفاة هنا النوم كما قال تعالى : **(وهو الذي يتوفاكم بالليل)**، الآية ، وقال تعالى **(الله يتوفى**

القول الحافظ ابن جرير وغيره من المفسرين ، لأن الله تعالى يقول : **﴿قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير﴾** الآيتين ١١ ، ١٢ من سورة غافر ، ويلزم على قول وهب بن منبه والنصارى القائلين بموته سبع ساعات أنه يلزم على قولهما : أن الله أمات عيسى ثلاث موتات ، وهذا باطل ، وقد جاءت الأحاديث الصحيحة برد هذا القول وأنه رفع حياً ولم يمته .

(١) سورة الروم : الآية ٤٠ .

الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها) الآية ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إذا قام من النوم : الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا . الحديث ، وقال تعالى : **(وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً ، وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم)** إلى قوله تعالى : **(وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً ، وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً)**[1] .

والضمير في قوله : **(قبل موته)** عائد على عيسى عليه السلام ، أي وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى ، وذلك حين ينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة ، فحينئذ يؤمن به أهل الكتاب كلهم ، لأنه يضع الجزية ولا يقبل إلا الإسلام .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا أحمد بن عبد الرحمن حدثنا عبد الله بن أبي جعفر عن أبيه حدثنا الربيع بن أنس عن الحسن أنه قال في قوله تعالى : **(إني متوفيك)** ، يعني وفاة المنام ، رفعه الله في منامه ، قال الحسن : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لليهود : إن عيسى لم يمت ، وأنه راجع إليكم قبل يوم القيامة ، وقوله تعالى : **(ومطهرك من الذين كفروا)** ، أي برفعي إياك إلى السماء . اهـ .

٣ ـ قال العلامة القرطبي في تفسير قوله تعالى : **(إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي)** الآية .

وقال جماعة من أهل المعاني منهم الضحاك والفراء في قوله تعالى **(إن متوفيك ورافعك إلي)** على التقديم والتأخير ، لأن الواو لا توجب الرتبة ، والمعنى : إني رافعك إلي ، ومطهرك من الذين كفروا ، ومتوفيك بعد أن تنزل من السماء ، كقوله تعالى : **(ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاماً وأجل مسمى)**، والتقدير : ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى لكان لزاماً ، قال الشاعر :

(١) سورة النساء الآية : ١٥٦ ، ١٥٩ .

ألا يا نخلة من ذات عرق عليك ورحمة الله السلام

أي عليك السلام ورحمة الله .

وقال الحسن وابن جريج : معنى متوفيك قابضك ورافعك إلى السماء من غير موت ، مثل توفيت مالي من فلان أي قبضته .

وقال وهب بن منبه : توفى الله عيسى عليه السلام ثلاث ساعات من نهار ، ثم رفعه إلى السماء ، وهذا فيه بعد ، فإنه صح في الأخبار عن النبي صلى الله عليه وسلم نزوله وقتله الدجال على مابيناه في كتاب التذكرة وفي هذا الكتاب حسب ما تقدم ويأتي .

وقال ابن زيد : متوفيك قابضك ، ومتوفيك ورافعك واحد ولم يمت بعد ، وروى ابن طلحة عن ابن عباس معنى متوفيك مميتك .

قال الربيع بن أنس : وهي وفاة نوم ، قال الله تعالى : **(وهو الذي يتوفاكم بالليل)** ، أي ينيمكم ، لأن النوم أخو الموت ، كما قال صلى الله عليه وسلم لما سئل : أفي الجنة نوم ؟ قال : لا ، النوم أخو الموت ، والجنة لا موت فيها . أخرجه الدار قطني .

والصحيح أن الله تعالى رفعه إلى السماء من غير وفاة ولا نوم ، كما قال الحسن وابن زيد ، وهو اختيار الطبري ، وهو الصحيح عن ابن عباس وقاله الضحاك . اهـ .

وقال القرطبي في تفسير قوله تعالى : **(ويكلم الناس في المهد وكهلاً)** الكهل بين حال الغلومة وحال الشيخوخة ، يقول : يكلم الناس في المهد آية ، ويكلمهم كهلاً بالوحي والرسالة ، وقال أبو العباس : كلمهم من المهد حين برأ أمه ، فقال : **(إني عبد الله ....)** الآية .

وأما كلامه وهو كهل ، فإذا أنزله الله تعالى (من السماء) **أنزله على صورة ابن ثلاث وثلاثين سنة وهو الكهل** ، **فيقول لهم** : (إني عبد الله) كما قال في المهد ، فهاتان آيتان وحجتان ، قال المهدوي : وفائدة

الآية أنه أعلمهم أن عيسى عليه السلام يكلمهم في المهد ، ويعيش إلى أن يكلمهم كهلاً[1]اهـ .

وسائر التفاسير من أهل السنة والشيعة والإباضية على هذا المنوال .

والقرآن الكريم صرح بنفي ما ادعتهُ اليهود من كونهم قتلوا عيسى فقال تعالى : **(وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم ، وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه مالهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً ، بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً)**[2] .

فالقرآن الكريم يصرح تصريحاً قاطعاً لكل شك وريب ، أن المسيح لم يصلب بل رفع ، والرفع بالجسد والروح ، أما خرافة رفع الروح لا تروج إلا على جاهل ، لأن أرواح جميع المؤمنين ولا سيما الأنبياء والمرسلين مرفوعة إلى حيث شاء الله ، وقياسهم على إدريس لا يصح ، لأن ظروف عيسى المحيطة به ، والأحوال التي جرت عليه ، تبين بياناً واضحاً أن الرفع حقيقي وليس معنوياً .

بعض الأحاديث في إثبات حياة المسيح عليه السلام ، ورفعه إلى السماء ، ونزوله :

١ ـ عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «والذي نفسي بيده ، ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الحرب ، ويفيض المال ، حتى لايقبله أحد ، حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها» .

ثم يقول أبو هريرة : واقرأوا إن شئتم : **(وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ، ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً)**[3]. رواه البخاري ومسلم .

---

(١) من الجامع لأحكام القرآن ج ٣ .

(٢) سورة النساء الآية : ١٥٧ ، ١٥٨ .

(٣) سورة النساء : الآية ١٥٩ .

٢ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم ، وإمامكم منكم» . رواه البخاري ومسلم .

وفي لفظة لمسلم : «فأمكم» ، وفي لفظة أخرى : «فأمكم منكم» . وأخرجه أحمد في مسنده ولفظه : «كيف بكم إذا نزل ..؟» .

وذكره البيهقي في كتاب الأسماء والصفات ، وعزاه للبخاري ومسلم ، ولفظه : «إذا نزل ابن مريم من السماء فيكم ، وإمامكم منكم» .

٣ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «والذي نفسي بيده : ليهلن[١] ابن مريم بفج الروحاء حاجاً أو معتمراً ، أو ليثنينهما[٢]» . رواه مسلم .

٤ ـ عن حذيفة بن أسيد الغفاري رضي الله عنه قال : اطلع النبي صلى الله عليه وسلم علينا ، ونحن نتذاكر ، فقال : «ما تذاكرون ؟ قالوا : نذكر الساعة ، قال : إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات[٣]، فذكر الدخان ، والدجال ، والدابة ، وطلوع الشمس من مغربها ، ونزول عيسى ابن مريم ، ويأجوج ومأجوج ، وثلاثة خسوف : خسف بالمشرق ، وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ، وآخر ذلك : نار تخرج من اليمن ، تطرد الناس إلى محشرهم» ، أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه .

٥ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «ليس بيني وبينه نبي ، يعني عيسى ، وإنه نازل ، فإذا رأيتموه فاعرفوه : رجل مربوع إلى الحمرة والبياض[٤]، بين ممصرتين ، كأن

---

(١) ليهلن : ليرفعن صوته بالتلبية .

(٢) ليثنينهما : ليجمعن بين الحج والعمرة .

(٣) علامات .

(٤) أي هو معتدل القامة ، وهو إلى الطول أقرب ، ولونه أقرب إلى الحمرة والبياض .

رأســه يقطر وإن لم يصبه بلل ، فيقاتل الناس على الإسلام ، فيدق الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويهلك الله في زمانه الملل كلها إلا الإسلام ، ويهلك المسيحُ الدجَّالَ ، فيمكث في الأرض أربعين سنة ، ثم يتوفى ، فيصلي عليه المسلمون » . رواه أبو داود واللفظ له ، وابن أبي شيبة ، وأحمد في مسنده ، وابن حبان في صحيحه ، وابن جرير ، كما في الدر المنثور ، وصححه الحافظ ابن حجر في فتح الباري : من نزول عيسى عليه السلام .

٦ ـ عن مجمع بن جارية الأنصاري رضي الله عنه يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «يقتل ابن مريم الدجال بباب لد»[١] . رواه الترمذي وقال : هذا حديث صحيح ، ورواه أحمد في مسنده بأربعة طرق ، وفي بعض طرقه : «إلى جانب باب لد» .

العلامة الرابعة : خروج يأجوج ومأجوج :

وأشار إليها بقوله :

خروج يأجوج ومأجوج كذا هدم لكعبة فهذا يحتذى

يأجوج ومأجوج بالهمز وبالتخفيف ، سموا بذلك لكثرتهم وشدتهم ، وهم من ولد يافث بن نوح .

وخروجهم ثابت بالكتاب والسنة وإجماع الأمة .

أما الكتاب

فقال الله تعالى : **(حتى إذا فُتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حَدَبٍ ينسلون)**[٢] .

وأما السنة :

١ ـ ثبت في الصحيحين عن أم حبيبة بنت أبي سفيان عن زينب بنت جحش ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليها يوماً فزعاً يقول : لا إله إلا الله ، ويل للعرب من شر اقترب ، فُتح اليوم من رَدْمِ

---

(١) بلدة في فلسطين قريبة من بيت المقدس .

(٢) سورة الأنبياء : الآية ٩٦ .

يأجوج ومأجوج مثل هذه ، وحلق بأصبعيه الإبهام والتي تليها ، قالت زينب بنت جحش : فقلت يا رسـول الله : أفنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : نعم ، إذا كثر الخَبَثُ .

٢ ـ جاء في حديث النـواس بن سمعان رضي الله عنه وفيه : إذا أوحى الله إلى عيسى أني قـد أخرجت عباداً لي لايدان لأحد بقتالهم ، فَحَرِّزْ عبادي إلى الطُّورِ ، ويبعث الله يأجـوج ومأجوج ، وهم من كل حـدب ينسـلون ، فيمر أوائلهم على بحيرة طـبرية فيشربون ما فيها ، ويـمر آخـرهم فيقولون : لقد كان بهذه مـرة ماء ، ويحصر نبي الله عيسى وأصحابه حتى يكـون رأس الثور لأحدهم خيراً من مائة دينار لأحـدكم اليـوم ، فـيرغب إلى الله عيسى وأصـحـابه ، فيرسـل الله عليهم النغف[١] في رقابهم ، فيصـبحون فرسى[٢] كموت نفس واحدة ، ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض ، فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملأه زهمهم ونتنهم ، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله ، فيرسل الله طيراً كأعناق البُخت[٣] فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله .

رواه مسلم وزاد في رواية بعد قوله : لقد كان بهذه مرة ماء ، ثم يسـيرون حتى ينتهـوا إلى جبـل الخمـر[٤] ، وهـو جبل بيت المقدس فيقولون : لقد قتلنا من في الأرض ، هلم فلنقتل من في السماء ، فيرمون بنشابهم إلى السماء ، فيرد الله عليهم نشابهم مخضوبة دماً .

٣ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم فذكـر الحـديث وفيه : ويخرجون على الناس فيستقون المياه ، ويفر النـاس منهم ، فيرمون سهامهم في السماء ، فترجع مخضبة بالدماء فيقولون : قهرنا أهل الأرض ، وغلبنا من في السماء قوة وعلواً ، قال :

---

(١) النغف بالتحريك ، دود يكون في أنوف الإبل والغنم ، واحدتها نغفة .

(٢) فرسى : أي قتلى ، الواحد : فريس ، من فرس الذئب الشاة ، وافترسها إذا قتلها .

(٣) البخت : هي جمال طوال الأعناق وهي لفظة معربة واحدتها بختية للأنثى ، وبختى للذكر .

(٤) جبل الخمر : جبل بيت المقدس ، والخمر ، الشجر الملتف الذي يستر من فيه .

فيبعث الله عز وجل عليهم نغفاً في أقفائهم ، قال : فيهلكهم ، والذي نفس محمد بيده ، إن دواب الأرض لتسمن وتبطر ، وتشكر شكراً[1] ، وتسكر سكراً[2] من لحومهم[3].

والذي يتحصل من الأحاديث : أنهم أمتان ، أو أمة واحدة عظيمة كثيرة لا تحصر حتى يكون رأس بخراسان ورأس بالشام ، لايستطيع أحد قتالهم وحربهم ، يعيثون في الأرض فساداً ، ويأكلون مادب ودرج ، وخروجهم في زمن المسيح ، لهذا يجتمع المؤمنون مع عيسى في الطور بوحي من الله تعالى ، ويشتد عليهم الغلاء والقحط ، فعند ذلك يتضرعون إلى الله في إهلاكهم ، فيرسل الله تعالى عليهم دوداً في أعناقهم ، وهو دود يكون في أنوف الإبل والغنم فيصبحون موتى ، فيرسل الله طيراً كأعناق البخت ، فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله ، ثم يرسل الله مطراً فيغسل الأرض حتى تكون كالمرآة ، وتكثر حينئذ البركات حتى تأكل العصابة من الرمانة ، واللقحة من الإبل تكفي الجمع من الناس ، والله أعلم بما هناك .

العلامة الخامسة : هدم الكعبة المشرفة :

ثبت ذلك في الأحاديث الصحيحة . منها : ما أخرج البخاري

---

(١) تشكر شكراً : يقال الشاة بالكسر تشكر شكراً بالتحريك إذا سمنت وامتلأ ضرعها لبناً ، والمعنى أن دواب الأرض تسمن وتمتلىء شحماً .

(٢) تسكر سكراً : السكر : الخمر ويطلق السكر على الغضب والامتلاء .

(٣) سنن الترمذي ـ أبواب التفسير ـ سورة الكهف ٥٩٧/٨ ـ ٥٩٩ قال الترمذي : هذا حديث حسن غريب ، وسنن ابن ماجه ـ كتاب الفتن ـ ١٣٦٤/٢ ـ ١٣٦٥ ح ٤٠٨ ت . الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي .

ورواه الحاكم في المستدرك ٤٨٨/٤ وقال فيه : حديث صحيح على شرط الصحيحين ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي ، وقال الحافظ في الفتح ١٠٩/١٣ : رجاله رجال الصحيح إلا أن قتادة مدلس ، ولكن جاء في رواية ابن ماجه أن قتادة صرح بالسماع من شيخه أبي رافع ، وصححه أيضاً الألباني في صحيح الجامع الصغير ٢٦٤/٢ ـ ٢٦٥ ح ٢٢٧٣ .

ومسلم والنسائي من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة .

وفي لفظ : ذو السويقتين من الحبشة يخرب بيت الله .

والظاهر أن الهدم يكون بعد هلاك يأجوج ومأجوج ، وموت عيسى ، وهبوب الريح التي يموت بها من في قلبه ذرة إيمان .

وبعضهم يقول : بعد جميع الآيات ، وبعضهم يقول : بعد خروج الدابة .

فإن قلت : تسلط هذا العدو الخبيث على هدم بيت الله المعظم ينافي قوله تعالى : **(أولم يروا أنا جعلنا حرماً آمنا)** الآية . **(ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم)** الآية . وقد حماه سبحانه من أصحاب الفيل وجيرانه حينئذ كفار مشركون ، فكيف يسلط عليه الحبشة وهو قبلة المسلمين وهم جيرانه ؟.

فالجواب : ماذكره الحافظ ابن حجر في فتح الباري ، وهو أن يقال : قد أشار النبي صلى الله عليه وسلم للجواب في الحديث بقوله : ولن يستحل هذا البيت إلا أهله ، ففي زمن الفيل ما كانوا قد استحلوه فمنعه منهم ، وأما الحبشة فلا يهدمونه إلا بعد استحلال أهله مراراً ، وقد استحله جيش يزيد بن معاوية بأمره ، ثم الحجاج زمن عبد الملك ابن مروان بأمره ، فسلط الله عليه القرامطة فقتلوا من المسلمين في المطاف مالا يحصى ، وقلعوا الحجر ونقلوه لبلادهم ، فلما وقع استحلاله من أهله مراراً ، مكن غيرهم من ذلك عقوبة لهم ، على أنه ليس في الآية استمرار الأمن المذكور فيه . اهـ .

العلامة السادسة : الدخان :

قال في النظم :

وبعد فاعلم آية الدخان   كما أتى عن النبي العدناني

أشار بذلك أن آية الدخان ثبوتها من السنة أظهر من القرآن .

١ ـ فقدأخرج مسلم من حديث حذيفة بن أسيد قال : طلع علينا

رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نتذاكر ، فقال : ما تذاكرون ؟ قالوا : الساعة يا رسول الله ، قال : إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات ، فذكر منها الدخان .

٢ ـ وفي حديث حذيفة بن اليمان : إن من أشراط الساعة دخان يملأ مابين المشرق والمغرب ، يمكث في الأرض أربعين يوماً ، فأما المؤمن فيصيبه منه شبه الزكام ، وأما الكافر فيكون بمنزلة السكران ، يخرج الدخان من فيه ومنخريه وعينيه وأذنيه ودبره ، رواه الطبراني .

والأحاديث في هذا المعنى كثيرة .

وأما الاستدلال بالآية الكريمة **(فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين)** فقد أتى عن ابن مسعود رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما دعا قريشاً فكذبوه واستعصوا عليه فقال : اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف ، فأخذتهم سنة حصت كل شيء ، حتى هلكوا فيها وأكلوا الجلود والميتة من الجوع ، وينظر أحدهم إلى السماء فيرى كهيئة الدخان ، فأتاه أبو سفيان فقال : يا محمد ، إنك جئت تأمر بطاعة الله ، وبصلة الرحم ، وإن قومك هلكوا ، فادع الله لهم ، قال الله : **(فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين ، يغشى الناس هذا عذاب أليم ، ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون)** .

قال عبد الله : أفيكشف عذاب الآخرة ؟ ويؤيده أن البطشة الكبرى هي وقعة بدر ، وسياق الآيات يدل على ذلك ، وصرفه الآية إلى الدخان الذي يكون في آخر الزمان ، يوجب تفكيك أي القرآن ، وليس يحسن ذلك .

وخلاصة الكلام في الدخان أن يقال :

هل وقعت هذه العلامة أم ستقع ؟

للعلماء قولان :

١ ـ قال ابن مسعود رضي الله عنه وتبعه جماعة من السلف : إن هذه العلامة قد وقعت كما سلف الكلام عنها .

٢ ـ إن الدخان من الآيات المنتظرة التي لم تجيء بعد ، وستقع قرب قيام الساعة ، وإلى هذا القول ذهب ابن عباس وبعض الصحابة والتابعين ، لما سلف من الأحاديث ، بالإضافة إلى ما روى الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : بادروا بالأعمال ستاً : الدجال والدخان ... الحديث .

وظاهر الأحاديث تدل على أن الدخان من الآيات المنتظرة ، مع أنه ظاهر القرآن ، قال تعالى : **(فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين)** . أي بين واضح ، يراه كل أحد .

وذلك لأمرين :

الأول : على أن ما فسر به ابن مسعود إنما خيال رأوه في أعينهم من شدة الجوع والجهد .

الثاني : أن ما فسر به ابن مسعود رضي الله عنه ، فإن ذلك من كلامه ، والمرفوع مقدم على كل موقوف .

ولا يمتنع إذا ظهرت هذه العلامة أن يقولوا : **(ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون)** فيكشف عنهم ، ثم يعودون ، وهذا قرب القيامة ، على أن بعض العلماء ذهب إلى الجمع بين هذه الآثار بأنهما دخانان ، ظهر أحدهما ، وبقيت الأخرى ، وهي التي ستقع في آخر الزمان ، فأما التي ظهرت فهي ما كانت تراه قريش كهيأة الدخان ، وهذا الدخان غير الدخان الحقيقي الذي يكون عند ظهور الآيات التي هي من أشراط الساعة .

قال القرطبي : «قال مجاهد : كان ابن مسعود يقول : هما دخانان ، قد مضى أحدهما ، والذي بقي يملأ ما بين السماء والأرض ، ولا يجد المؤمن منه إلا كالزكمة ، وأما الكافر فتتقب مسامعه» .

وقال ابن جرير : «وبعد فإنه غير منكر أن يكون أحل بالكفار الذين توعدهم بهذا الوعيد ما توعدهم ، ويكون محلاً فيما يستأنف بعد بآخرين دخاناً على ما جاءت به الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه

وسلم عندنا كذلك ، لأن الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تظاهرت بأن ذلك كائن ، فإنه قد كان ما روي عنه عبد الله بن مسعود ، فكلا الخبرين الذين رويا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم صحيح[1] » .

العلامة السابعة : طلوع الشمس من المغرب :

كما قال في النظم : «ثم طلوع الشمس من مغربها» .

من الآيات العظام والأشراط الجسام طلوع الشمس من المغرب ، وذلك ثابت بالسنة الصحيحة والأخبار الصريحة ، وأشار إليها الكتاب المجيد (**يوم يأتي بعض آيات ربك لاينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً**)[2] .

وإليك بعض الأحاديث الواردة :

١ ـ أخرج مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة على الناس ضحىً ، وأيتهما كانت قبل صاحبتها ، فالأخرى على أثرها قريباً .

٢ – ما رواه الشيخان من حديث أبي هريرة : لاتقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت فرآها الناس آمنوا أجمعون ، فذاك حين (**لاينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً**) .

٣ ـ وصح عن النبي صلى الله عليه وسلم : لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة ، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها .

ومعنى الحديث : أن الكافر لا تقبل توبته وإسلامه إذ ذاك ، كما أن المسلم العاصي إذا لم يتب قبل ذلك فحينئذ لا تقبل توبته ، وأما إيمانه السابق فمقبول ، كما تقبل التوبة من معصية حدثت بعد طلوع

---

(١) ا. هـ. ملخصاً من أشراط الساعة ليوسف بن عبد الله الوابل .

(٢) سورة الأنعام : الآية ١٥٨ .

الشمس أو ممن ولد بعد ذلك ، فإن توبته وإيمانه مقبولان ، والضابط أن كل بر محدث يكون السبب في إحداثه رؤية الآية ولم يسبق من صاحبه مثله لا ينفع سواء كان من الأصول أو الفروع ، وكل بر ليس كذلك لكون صاحبه كان عاملاً به قبل رؤية الآية ينفع ، والعلة من عدم قبول إسلام الكافر وتوبة العاصي ، ذلك لأن طلوع الشمس من مغربها آية عظيمة يراها كل من كان في ذلك الزمان ، فتنكشف لهم الحقائق ، ويشاهدون من الأهوال ما يلوي أعناقهم إلى الإقرار والتصديق بالله وآيــاته ، وحكمهم في ذلك حكم من عاين بأس الله تعالى كما قال عز وجل : **(فلما رأوا بأسنا قالوا : آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين ، فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون)**[1] .

قال القرطبي : «قال العلماء : وإنما لاينفع نفساً إيمانها عند طلوع الشمس من مغربها ، لأنه خلص إلى قلوبهم من الفزع ما تخمد معه كل شهوة من شهوات النفس ، وتفتر كل قوة من قوى البدن ، فيصير الناس كلهم لإيقانهم بدنو القيامة ، في حال من حضره الموت في انقطاع الدواعي إلى أنواع المعاصي عنهم ، وبطلانها من أبدانهم ، فمن تاب في مثل هذه الحال لم تقبل توبته ، كما لاتقبل توبة من حضره الموت» .

وإلى القاريء الكريم زيادة الإيضاح والبيان في قبول التوبة وعدمه كما ذكره العلامة السفاريني :

قبول التوبة وعدم قبولها بعد طلوع الشمس من مغربها ، وأما من تحقق اتصافه بالإيمان الشرعي من قبل ذلك الوقت ، واستمر إيمانه إلى طلوع الشمس من مغربها ، فهو لا يخلو إما أن يكون مؤمناً مقيماً على المعاصي لم يكسب في إيمانه خيراً ، أو مؤمناً مخلطاً ، أو مؤمناً تائباً عن المعاصي ، كاسباً في إيمانه خيراً ما استطاع ، (فالأول) ينفعه الإيمان السابق المجرد عن الأعمال لأصل النجاة ، فلا يخلد في النار ، وإن دخلها بذنوبه ، فالإيمان السابق ينفعه ، وينفعه الإيمان يومئذ أيضاً ،

---

(١) سورة غافر : الآية ٨٥ .

لأنــه نور على نور ، ولكن لا تنفعه التوبة عن المعاصي ، ولايقبل منه حسنة يعملها بعد ذلك ، (والثاني) ينفعه إيمانه السابق لأصل نجاته ، وينفعه ما قدمه من الحسنات لدرجاته ، وينفعه إيمان يومئذ أيضاً لما مر ، ولكن لا تنفعه توبة حينئذ من التخليط ، ولا حسنة يعملها بعد ذلك ، مالم يكن عملها من قبل ، واستمر على عملها من نحو صلاة وقـراءة وذكـر يعمله ، (والثالث) ينفعه إيمانه السابق لأصل نجاته ، وتنفعـه أعماله السابقة الصالحة لدرجاته ، وينفعه إيمانه ذلك اليوم أيضاً ، وينفعه ما يعمله بعد ذلك من الحسنات التي سبق منه أمثالها[١] .

العلامة الثامنة : **خروج الدابة** :

كمـا أشار في النظم (وذات أجياد كذا فانتبها) أجياد اسم أرض بمكة ، ويقال له جيـاد ، وخـروج الدابة ثابت بالـكتاب والسنة . قال الله تعالى : **(وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم إن الناس كانوا بآياتنا لايوقنون)**[٢] .

والسنة فكثيرة منها :

١ ـ ما سبق في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص المخرج من صحيح مسلم .

٢ ـ وأخرج الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تخرج الدابة ومعها خاتم سليمان وعصا موسى ، فتجلو وجه المؤمن بالعصا ، وتخطم أنف الكافر بالخاتم ، حتى أن أهل الخوان ليجتمعون فيقول هذا : يا مؤمن ، ويقول هذا : يا كافر .

٣ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «بـادروا بالأعمـال ستـاً ، طلوع الشمس من مغـربها ، والدجال ، والدخان ، وخاصة أحدكم ، وأمر العامة» . رواه الإمام ومسلم .

---

(١) ا. هـ. من لوامع الأنوار البهية .

(٢) سورة النمل : الآية ٨٢ .

وزاد أحمد في رواية له : وكان قتادة يقول : إذا قال وأمر العامة ، قال : أي أمر الساعة .

٤ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ثلاث إذا خرجن لاينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل ، أو كسبت في إيمانها خيراً : طلوع الشمس من مغربها ، والدجال ، ودابة الأرض .

رواه مسلم والترمذي وابن جرير ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح ، وقد رواه الإمام أحمد وقال فيه : والدخان ، بدلاً من (الدجال) .

قال العلماء :

تخرج الدابة من مكة ، إما من صدع الصفا ، أو من المروة ، أو من شِعب أجياد ، ولهذا سميت بذات أجياد ، وهناك أقاويل أخر ، وفي حديث حذيفة : طولها ستون ذراعاً ، لا يدركها طالب ، ولا يفوتها هارب ، وللقراء قراءتان في الآية ، قرأ الكوفيون : أن الناس بفتح الهمزة على أنه حكاية معنى قولها أو حكايتها لقول الله ، ويؤيدهما ما ورد من أنها تنادي بأعلى صوتها **(أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون)** ، وقرأ الآخرون بالكسر على أنه استئناف علة لخروجها أو علة لتكلمها ، أي إنما أخرجناها لأن الناس كانوا ، أو إنما تكلمهم لأن الناس بآياتنا لا يوقنون .

ومعنى وقوع القول : ما وُعِدُوا من البعث والعذاب ، وعن ابن مسعود : إذا مات العلماء ، وذهب العلم ، ورفع القرآن ، أخرجنا لهم دابة من الأرض ، وخروجها بعد طلوع الشمس من يومها أو قريباً منها .

شبهة لأهل البدع والرد عليها :

وأما قول بعض أهل البدع من أهل عصرنا : أن تكليم الدابة للناس بلسان الحال لا بلسان المقال ، وإن من معاني التكليم التجريح ، ومعنى تُكَلِّمُهُمْ تُكْلِمُهُمْ أي تجرحهم من الجرح ، فلعل المراد

إذاً بالدابـة هي تلك الجراثيم الخطيرة التي تفتك بالإنسان وجسمه وصحته وزروعه ومواشيه .

فالجواب : **أولاً** : إن هذا معارضة لأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد وردت عدة أحاديث في خروج الدابة ، منها الصحيح ومنهـا الحسن ومنهـا الضعيف ، فعـلى قول هذا يلزم تكـذيب تلك الأحاديث ، بل وتكذيب النبي صلى الله عليه وسلم .

ثانياً : إن الجراثيم موجودة من أول الدنيا ، ومنتشرة في جميع أرجاء الأرض ، وأما الدابة فإنما تخرج في آخر الزمان .

ثالثاً : إن الجراثيم أنواع لا تحصى ، وأما دابة الأرض فإنما هي دابة واحدة ، كما يدل على ذلك ظاهر القرآن والأحاديث الصحيحة .

رابعـاً : إن دابـة الأرض التي أخبر الله بخروجها ، ليست من الدواب التي يعرفها الناس ولا من الجراثيم ، وإنما هي خلق عظيم هائل من خوارق العادات ، كما جاء بيان ذلك في بعض الأحاديث[1] .

العلامة التاسعة : **وحشر نار في الصحيح المعتمد** :

أ ـ روى حذيفة بن أسيد أنه صلى الله عليه وسلم قال : لن تقوم الساعة حتى تروا قبلها عشر آيات فذكر :

١ ـ الدخان .

٢ ـ الدجال .

٣ ـ الدابة .

٤ ـ وطلوع الشمس من مغربها .

٥ ـ ونزول عيسى .

٦ ـ وخروج يأجوج ومأجوج .

٧ ـ وثلاثة خسوف : خسف بالمشرق ، وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن ، تطرد الناس إلى محشرهم .

---

(١) ا. هـ. ملخصا من إتحاف الجماعة .

ب ـ وفي حديث ابن عمر عند الحاكم مرفوعاً : تبعث على أهل المشرق نار ، فتحشرهم إلى المغرب ، تبيت معهم حيث باتوا ، وتقيل معهم حيث قالوا .

ت ـ في بعض الروايات : تخرج من قعر عدن ، وفي بعضها من اليمن ، وفي بعضها من برهوت ، وفي بعض الأحاديث تحشر الناس من المشرق إلى المغرب ، ولا تنافي في تلك الروايات ، لأن عدن من اليمن ، وبرهوت من عدن ، وأرض الشام التي هي أرض المحشر تكون بالنسبة إلى اليمن في المغرب ، وهذا الحشر قبل يوم القيامة في الدنيا ، فإذا أراد الله انقراض الدنيا وتمام لياليها وقربت النفخة ، خرجت نار من قعر عدن ، تسوق الناس إلى المحشر وهي آخر الآيات .

تنبيـــه : في الحديث المـار عن حذيفة ثلاث خسوفات : خسف بالمشرق .. إلخ . قال في الإشاعة في خلافة المطيع في سنة ٣٤٦ هـ وقع بالرّي ونواحيها زلازل عظيمة ، وخسف ببلاد طالقان ، ولم يفلت من أهلهـا إلا نحو ثلاثين نفساً ، وخُسِف بمائة وخمسين قرية من قرى الرّي ، وخسف بالمغرب ، قال في سنة ٢٠٨ هـ خسفت ثلاثة عشر قرية بالمغرب ، وفي سنة ٨٣٤ هـ في شعبان وقعت زلزلة بغرناطة وخسف بعدة أماكن ، ولم يذكر الخسف بالجزيرة ، ويحتمل وقوعه ولم يصل إليه النقل ، أو لم يقع ، وقد سمعت من بعض المشايخ أن في السنين الأخيرة وقع خسف في بعض صحاري نجد ، والله أعلم .

العلامة العاشرة : رفع القرآن وفناء الأخيار :

بعد ذلك الإنتشار العظيم للإسلام الذي يعم المشارق والمغارب ، يضعف الإسـلام مرة أخـرى ، ويتـرعـرع الشر ، ويرفع هذا الدين العظيم ، ويرفع القرآن ، ويذهب العلم ، ويقبض الله من كان في نفسه بقية من إيمان ، فلا يبق بعد ذلك إلا شرار الخلق ، وعليهم تقوم الساعة .

١ ـ أخرج ابن ماجه والحاكم عن حذيفة بن اليمان قال : قال رسـول الله صلى الله عليـه وسلم : «يُدرس الإسلام كما يُدرس وَشْيُ

الثوب ، حتى لا يدري ما صيام ، ولا صلاة ، ولا نسك ، ولا صدقة ، ويسري على كتاب الله في ليلة ، فلا يبقى في الأرض منه آية ، وتبقى طوائف من الناس : الشيخ الكبير ، والعجوز ، يقولون : أدركنا آباءنا على هذه الكلمة «لا إله إلا الله» فنحن نقولها»[1] .

٢ ـ وهذه البقية الباقية التي لاتعرف من الإسلام إلا كلمة التوحيد تفنى وتبيد ، ففي صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لاتقوم الساعة إلا على شرار الخلق»[2] .

٣ ـ وفي حديث آخر بيَّن لنا الرسول صلى الله عليه وسلم ، كيف تذهب بقية الصالحين في آخر الزمان ، ففي الحديث الذي يرويه مسلم عن أبي هريرة ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «إن الله يبعث ريحاً من اليمن ، ألين من الحرير ، فلا تدع أحداً في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته» .

وفي رواية : «مثقال ذرة»[3] .

٤ ـ وعن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «لاتقوم الساعة حتى لايقال في الأرض : الله الله» . اهـ[4] .

قال الشيخ العلامة السفاريني رحمه الله :

(تتمة) ثبت بالسنة الصحيحة أن أهل الأرض يكفرون ويعبدون الأوثان ، وأنه لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس ، فقد أخرج الإمام أحمد ومسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «تجيء بعد موت عيسى عليه السلام ريح باردة

---

(١) قال الحاكم فيه : صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي ، وقال البوصيري : إسناده صحيح ، رجاله ثقات : انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة للشيخ ناصر الدين الألباني حديث رقم (٨٧) .

(٢) رواه مسلم في كتاب الفتن ، باب قرب الساعة (٤/٢٢٦٨) حديث رقم (٢٩٤٩) .

(٣) رواه مسلم في صحيحه ، حديث رقم (٧٩١٥) وانظر جامع الأصول (١٠/٤١٠) .

(٤) رواه مسلم في صحيحه ، مشكاة المصابيح (٣/٥٠) حديث رقم (٥٥١٦) .

من قبل الشام ، فلا تبقي على وجه الأرض أحداً في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته ، حتى لو أن أحدكم دخل في كبد جبل لدخلت عليه حتى تقبضـه ، فيبقى شرار النـاس في خفة الطير وأحلام السباع ، لايعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً ، فيتمثل لهم الشيطان ، فيقولون : ما تأمـرنـا ؟ فيـأمـرهم بعبادة الأوثان ، فيعبدونها وهم في ذلك دارٌّ رزقهم ، حسن عيشهم ، ثم ينفخ في الصور»[١] .

توضيحان مهمان :

أ - أخرج الإمام أحمد ومسلم أيضاً والترمذي من حديث النواس ابن سمعان : فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحاً طيبة ، فتأخذهم تحت آبـاطهم ، فتقبض روح كل مؤمن وكـل مسلم ، ويبقى شرار النـاس يتهارجون تهارج الحمر - أي يتسافدون تسافد الحمر (جمع حمار) - فعليهم تقوم الساعة .

وفي حديث أبي هريرة مرفوعاً عند الحاكم : إن الله يبعث ريحاً من اليمن ألين من الحرير ، فلا تدع أحداً في قلبه مثقال حبة من إيمان إلا قبضته ، وقد جاءت رواية بأن الريح تأتي من قبل الشام ، و هنا أنها من قبل اليمن ؟

والجواب : أنهما ريحان شامية ويمانية .

ب - وأخـرج الإمـام أحمد بسند قوي عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً : «لاتقوم الساعة حتى لايقال في الأرض لا إله إلا الله» . ورواه مسلم بلفظ : «حتى لا يقال في الأرض : الله الله» ، فإن قيل:كيف هذا مع ما صح عنه صلى الله عليه وسلم من قوله : «لاتزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق إلى يوم القيامة حتى يأتي أمر الله» ؟.

فالجواب : هذا غير مصادم للحديث ، لأن معناه أنهم لا يزالون على الحق حتى تأتيهم هذه الريـح الليّنة قرب القيامة ، وعند تظاهر أشراطها ، فأطلق فيه بقاءهم إلى قيام الساعة ، مريداً أشراطها ودنوها

---

(١) من اليوم الآخر الشيخ عمر الأشقر .

المتناهي في القرب ، ومثله قول بعضهم : أمر الله هو هبوب تلك الريح الآتي بعد وقوع الآيات العظام التي يعقبها قيام الساعة ، ولا يتخلف عنها إلا شيء يسير ، وليس فيهم يعني من يبقى بعد هبوب الريح مؤمن ، وعليهم تقوم الساعة .

وعلى هذا فآخر الآيات المؤْذِنَة بقيام الساعة ، هبوب تلك الريح كما في القناعة للحافظ السخاوي[1] .

وحيث أنهيت الكلام عن علامات الساعة ، فأشرع الآن في بيان اليوم الآخر .

وحيث أن الموت هو الواسطة بين الدنيا والأخرى ، فقد ابتدأت في بيانه ، وبيان ما يجب أن يؤمن به المسلم في اليوم الآخر :

١ ـ الموت ، ٢ ـ والبرزخ[2] ، ٣ ـ عذاب وضغطة القبر وظلمته ، ٤ ـ وسؤال المنكرين :

فمما يجب علينا الإيمان به : الموت ، وهو مفارقة الروح للجسد ، وملك الموت الموكل يقبض روح كل ذي روح من الثقلين وأرواح الملائكة والبهائم والطيور ولو بعوضة ، ولملك الموت أعوان تقبض الأرواح ، لهذا وردت آية تسند إليه التوفي كقوله : **(قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم)** لكونه المباشر لنزعها بعد ما نزعتها الأعوان من العصب والعروق ، ولهذا أسند إليهم التوفي في قوله تعالى : **(توفته رسلنا)** وأما إسناد التوفي إليه تعالى في قوله : **(الله يتوفى الأنفس حين موتها)** فلأنه الخالق لذلك ، وبهذا يجمع بين الآيات ..

وللموت أجل محدّدٌ ، فلا يتأخر المرء عمّا قدّر له من الأجل ولا يتقدم ، كما قال تعالى : **(فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا**

(١) ا. هـ. من لوامع الأنوار البهية .

(٢) البرزخ في كلام العرب ، الحاجز بين الشيئين كما قال الله تعالى : **﴿وجعل بينهما برزخاً﴾** أي حاجزاً ، سورة الفرقان : الآية ٥٣ .

والبرزخ في الشريعة : الدار التي تعقب الموت إلى البعث ، قال تعالى : **﴿ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون﴾** سورة (المؤمنون) : الآية ١٠٠ .

يستقدمون)[1] ، والموت حتم لازم لكل حي من المخلوقات ، كما قال الله تعالى : **(كل نفس ذائقة الموت وإنما تُوفَّون أجوركم يوم القيامة ، فمن زُحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ، وما الحيوة الدنيا إلا متاع الغرور)**[2] ولو نجا أحد من الموت لنجا منه سيد الأنبياء والمرسلين ، فقد قال الله مخاطباً له : **(إنك ميت وإنهم ميتون ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون)**[3] .

ومما يجب الإيمان به : سؤال الملكين منكر ونكير للميت بعد الدفن : وقد ورد ذلك في عدة أحاديث يبلغ مجموعها مبلغ التواتر المعنوي ، منها في الصحيحين من حديث أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن العبد إذا وضع في قبره ، وتولى عنه أصحابه ، إنه ليسمع قرع نعالهم ، أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان : ما كنت تقول في هذا الرجل لمحمد صلى الله عليه وسلم ؟ فأما المؤمن فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله ، فيقول : انظر إلى مقعدك من النار ، فقد أبدلك الله مقعداً من الجنة ، فيراهما جميعاً يعني المقعدين ، وأما المنافق والكافر فيقال له : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ فيقول : لاأدري ، كنت أقول ما يقول الناس ، فيقال لادريت ولا تليت ، فيضرب بمطراق من حديد ضربة ، فيصيح صيحة يسمعه من يليه من غير الثقلين .

واستنبط العلماء من قوله تعالى : **(يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة)** مستدلين بما أخرج الشيخان من حديث البراء بن عازب عن النبي صلى الله عليه وسلم : أن هذه الآية نزلت في عذاب القبر . وزاد مسلم : يقال له من ربك ؟ فيقول : ربي الله ونبيي محمد ، فذلك قوله **(يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت)** وسميا بمنكر ونكير ، لأن خلقهما لايشبه خلق الآدميين ولا خلق الملائكة ولا خلق البهائم ولا خلق الهوام ، بل هما خلق بديع ليس في خلقهما إنس للناظرين .

---

(١) سورة النحل : الآية ٦١ .
(٢) سورة آل عمران : الآية ١٨٥ .
(٣) سورة الزمر : الآية ٣٠ .

واختلف : هل السؤال مخصوص بهذه الأمة أم بسائر الأمم ؟

فالصحيح أنه ليس مخصوصاً بهذه الأمة ، رجح هذا ابن القيم والحافظ عبدالحق والقرطبي .

والظاهر أن كل نبي مع أمته[1] كذلك ، يعني يسأل عنه كنبينا مع أمته ، وأنهم يعذبون في قبورهم بعد السؤال لهم وإقامة الحجة عليهم ، كما يعذبون في الآخرة بعد السؤال وإقامة الحجة .

وحياته في القبر حياة برزخية ليست كحياتنا ، بل أمر متوسط ، كتوسط النوم بين الموت والحياة ، ويرد إليه من الحواس والعقل ما يتوقف عليه فهم الخطاب ويتأتى معه رد الجواب ، ويستثنى من هذا السؤال الأنبياء والملائكة والشهداء والأطفال ، ولا يستثنى الجن لأنهم يسألون ومكلفون في الجملة .

ومما يجب الإيمان به عذاب القبر :

أجمع عليه علماؤنا ، مؤيدين قولهم بآيات من القرآن ، وبأحاديث عديدة .

من القرآن : **(ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم ، أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تعملون)**[2] .

وهذا الخطاب عند الموت ، وأخبرت الملائكة وهم الغاية في الصدق والصلاح ، بأن اليوم يجزون عذاب الهون ، ولو تأخر إلى انقضاء

---

(١) فإن قيل : إذا قال اليهودي:آمنت بالله ، ومن نبيك ؟ قال : موسى ، ومثل ذلك المسيحي بالنسبة لعيسى عليه السلام ، هل ينجوان من العذاب ؟

الجواب : إن كان اليهودي قال ذلك قبل أن يبعث الله عيسى فقد ينجو ، وإن كان المسيحي قال ذلك قبل أن يبعث الله محمداً فقد ينجو .

أما بعد إرسال عيسى بالنسبة لليهود ، وإرسال النبي محمد ﷺ عليه بالنسبة لليهودي والمسيحي ، فلا يمكنهم الإجابة الصحيحة ، بل يقولون:لا ندري ، بهذا يزول الإشكال .

(٢) سورة الأنعام : الآية ٩٣ .

الدنيا لما صح ما قالوا ، فدل على أن هذا العذاب واقع في البرزخ ، وقال الله تعالى : **(وحاق بآل فرعون سُوءُ العذاب ، النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب)**[١] فذكر عذاب الدارين ، عذاب البرزخ ، وهو في قوله غدواً وعشياً .

والعذاب الأكبر في جهنم ، وهو المذكور في قوله تعالى : **(ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب)**[٢] ، وقال الله تعالى : **(وإن للذين ظلموا عذاباً دون ذلك)**[٣] بعد قوله تعالى : **(فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون)**[٤] . وهذا يحتمل أن يراد بهذا العذاب القتل في الدنيا ، لكن دلالة الآية على عذاب البرزخ أظهر ، لأن كثيراً من أولئك المشركين المعاندين المعنيين بقوله تعالى : **(فذرهم حتى يلاقوا)** أي ماتوا ولم يعذبوا في الدنيا بالقتل ، أو تقول الآية : نعم القتل وعذاب البرزخ ، وكلاهما دون الآخرة .

ومن السنة :

أ ـ أخرج البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر .

ب ـ وفي صحيح مسلم عن ابن عباس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يعلمهم هذا الدعاء ، كما يعلمهم السورة من القرآن : «اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم ، وأعوذ بك من عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات ، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال» .

ت ـ وقد ثبت في الصحيحين أن عائشة رضي الله عنها سألت النبي

---

(١) سورة غافر الآية : ٤٥ .

(٢) سورة غافر الآية : ٤٦ .

(٣) سورة الطور الآية : ٤٧ .

(٤) سورة الطور الآية : ٤٥ .

صلى الله عليه وسلم عن عذاب القبر ، فقال : نعم عذاب القبر حق[1] .

ث - وعن علي رضي الله عنه : مازلنا في شك من عذاب القبر حتى نزلت : **(ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر)**[2] .

ومما يجب الإيمان به : ضغطة القبر وظلمته :

أ - عن حذيفة قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة ، فلما انتهينا إلى القبر ، قعد على شفيره فجعل يردد بصره فيه ، ثم قال : يضغط فيه المؤمن ضغطة تزول منها حمائله (أي عواتقه وأضلاعه وصدره) ، ولما دفن سعد بن معاذ والنبي صلى الله عليه وسلم قاعد على قبره ، قال : لو نجا من ضغطة القبر أحد لنجا سعد بن معاذ ، ولقد ضمه ضمة لقد أرخي عنه . رواه سعيد بن منصور والحكيم الترمذي والطبراني والبيهقي .

ب - وأخرج النسائي والبيهقي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : هذا الذي تحرك له العرش ، وفتحت له أبواب السماء ، وشهده سبعون ألفاً من الملائكة ، لقد ضم ضمة ، ثم فرج عنه ، يعني سعد بن معاذ[3] .

---

(١) سبب سؤال عائشة رضى الله عنها للنبى ﷺ : أن يهودية دخلت عليها ، فذكرت عذاب القبر ، فقالت لها : أعاذك الله من عذاب القبر ، فسألت عائشة الرسول ﷺ عن عذاب القبر ، فقال : نعم ، عذاب القبر حق .

قالت عائشة رضى الله عنها : فما رأيت رسول الله ﷺ بعد أن صلى إلا أن تعوذ من عذاب القبر ، زاد غندر : عذاب القبر حق . رواه البخاري .

وفي صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها ، قالت : دخلت على عجوزان من عجز يهود المدينة ، فقالتا : إن أهل القبور يعذبون في قبورهم ، قالت : فكذبتهما ، ولم أنعم أن أصدقهما (أي لم تطب نفسي أن أصدقهما) فخرجتا ، ودخل رسول الله ﷺ ، فقلت له : يا رسول الله ! إن عجوزين من عجز يهود المدينة دخلتا علي ، فزعمتا أن أهل القبور يعذبون في قبورهم ، فقال : صدقتا ، إنهم يعذبون عذاباً تسمعه البهائم ، قالت : فما رأيته بعد في صلاة إلا يتعوذ من عذاب القبر .

(٢) ، (٣) من لوامع الأنوار باختصار .

قال الحسن البصري : تحرك له العرش فرحاً بروحه . أخرجه البيهقي في الدلائل .

وقيل :

وما اهتز عرش الله من أجل هالك
سمعنا به إلا لسعدٍ أبي عمروٍ

وقولنا : عذاب القبر ، وسؤال الملكين للميت بعد الدفن ، والضغطة والنعيم ، أغلبي ، وإلا فالغريق ، والحريق ، ومن أكلته الدواب ، والمصلوب ، وبالجملة كل من مات ينال نصيبه ، إما من العذاب أو النعيم ، وكذلك السؤال والضغطة .

وإن قال قائل : كيف يمكن سؤال الملكين لجميع الموتى في الأماكن المختلفة ؟
قلنا : أحوال البرزخ والدار الآخرة ليست كحياة الدنيا المعهودة وأعمالنا ، وإن عظُم خلق الملكين والقوة الموهوبة لهما ، لايبعد أن يخاطبا الخلق في المرة الواحدة مخاطبة واحدة ، بحيث يخيل لكل ميت أنه المسؤول .

فإن لم يتضح للقراء هذا الجواب ، فهاكم الجواب بهذا المثال الملموس الواقع المشاهد وهو : الرائي (التلفزيون) ، فيرى المشاهدون الذي يلقي محاضرة أو حديثاً أو يفسر أو ينشر الأخبار ، وكل مشاهد في أي بلد من البلدان التي يصل إليها البث ، يرى كل ذلك في آن واحد .

فسبحان الذي أظهر لنا صدق هذا الدين بالدلائل النقلية والعقلية والحسية .

ومن عظيم قدرة الله ، أن جعلَ الله هذه الاختراعات في الصناعات العديدة والاختراعات العجيبة ، تخدم الشريعة الغراء ، وتنمي العقائد الصحيحة ، ولا تنافي الشرع الشريف في شيء ، عند من لديه إلمام بالعلم الشرعي ، وذوق صحيح وعقل سليم .

وهل عذاب القبر على الروح والبدن ، أو على البدن فقط ، أو على الروح فقط ؟.

الصحيح على الروح ، والبدن تبع لها ، لأن الدور ثلاثة :

١ ـ دار الدنيا : العذاب والنعيم على البدن ، والروح تبع لها .

٢ ـ وفي البرزخ بالعكس ، ٣ ـ وفي الآخرة على البدن والروح معاً .

شبهة للملحدين المنكرين عذاب القبر وردها :

وهنا يسأل كثير من الملحدين والزنادقة المكذبين[١] المنكرين لعذاب

---

(١) قال العلامة السفاريني : الحق عند أهل السنة ، أن عذاب القبر على النفس والبدن ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه : العذاب والنعيم على النفس والبدن جميعاً باتفاق أهل السنة والجماعة ، تنعم النفس وتعذب منفردة عن البدن ، وتنعم وتعذب متصلة بالبدن ، والبدن متصل بها ، فيكون النعيم والعذاب عليهما في هذه الحال مجتمعين ، كما يكون على الروح منفردة عن البدن .

وقد ذكر العلامة السفاريني رحمه الله عدة أقوال في هذا الموضوع ناقلا عن شيخ الإسلام أحمد بن تيمية والحافظ ابن القيم رحمهما الله ثم قال : فإذا علمت هذه الأقوال وعرفت بطلانها ، فاعلم أن مذهب سلف الأمة وأئمتها ، أن الإنسان إذا مات يكون في نعيم أو عذاب ، وأن ذلك يحصل لروحه وبدنه ، وأن الروح تبقى بعد مفارقة البدن منعمة أو معذبة ، وأنها تتصل بالبدن أحياناً ، فيحصل له معها النعيم والعذاب ، ثم إذا كان يوم القيامة الكبرى أعيدت الأرواح إلى الأجساد ، وقاموا من قبورهم إلى رب العباد . ا. هـ. من لوامع الأنوار البهية .

تنبيه أول :

من المفيد أن تعلم أن إعادة الروح إلى الجسد في البرزخ ليس على الوجه المعهود في الدنيا ، بل تعاد الروح إليه إعادة غير الإعادة المألوفة في الدنيا ، فالروح لها بالبدن خمسة أنواع من التعلق ، متغايرة الأحكام .

أحدها : تعلقها به في بطن الأم جنيناً .

الثاني : تعلقها به بعد خروجه إلى وجه الأرض .

الثالث : تعلقها به في حال النوم ، فلها به تعلق من وجه ، ومفارقة من وجه .

الرابع : تعلقها به في البرزخ ، فإنها وإن فارقته وتجردت عنه ، فإنها لم تفارقه فراقاً كليا بحيث لا يبقى لها إليه التفات البتة ، فإنه ورد ردها إليه وقت سلام

القبر ونعيمه ، قائلين : شاهدنا أمواتاً ولم نرهم معذبين بنيران أو حيات أو عقارب ، كما نرى المصلوب المدة الطويلة لايسأل ولا يجيب ولا يتحرك ولا يعذب بنار ، ووضعنا على صدر الميت زئبقاً ، وكشفنا عنه بعد مدة ، فوجدناه بحاله ، فلو أقعد كما تقولون وسئل وعذب أو نعم ، لما

= المسلم ، وورد أنه يسمع خفق نعالهم حين يولون عنه ، وهذا الرد إعادة خاصة لا يوجب حياة البدن قبل يوم القيامة .

الخامس : تعلقها به يوم بعث الأجساد ، وهو أكمل أنواع تعلقها بالبدن ، ولا نسبة لما قبله من أنواع التعلق إليه ، إذ هو تعلق لا يقبل البدن معه موتاً ولا نوماً ولا فساداً ، فالنوم أخو الموت ، فتأمل هذا يزح عنك إشكالات كثيرة . ا. هـ. ص ٤٥١ شرح العقيدة الطحاوية .

تنبيه آخر :

قد ذكرت غير مرة أن حياة البرزخ ليست كحياة الدنيا عندما يسأله الملكان أو عندما يرد السلام كما ورد في بعض الأحاديث ، فكيفية حياة البرزخ حتى بالنسبة للأنبياء والشهداء ليست معلومة للبشر ، وإنما هو من علم الغيب .

ومن هنا تعلم أن لامستمسك للقبوريين الخرافيين الذين يستغيثون بالأنبياء والأولياء ، ويطلبون منهم كشف الكربات والمضرات ، وسؤالهم لما ينفعهم من رزق أو ولد ، أو أي مطلب من مطالب الدنيا من جلب نفع أو دفع ضر ، مستمسكين بأنهم أحياء في قبورهم .

فقد اتضح من الأحاديث وأقوال العلماء المحققين ، أن تلك الحياة ليست كحياتنا ، فلا تؤهلهم لما يطلب منهم ، بل لا يجوز نداء من لايسمعك في مثل هذه المطالب إن كان بعيداً عنك وإن كان حياً ، فكيف بمن مات ؟ وما هو الموت إلا مفارقة الروح للبدن ، قال الله تعالى : ﴿**وما يستوي الأحياء ولا الأموات إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور**﴾ ، أما خطاب النبي ﷺ للمشركين الذين قتلوا في بدر وألقاهم في القليب : هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ، فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً ؟

وقوله ﷺ لما سئل عن ذلك : ما أنتم بأسمع منهم بما أقول أو كما قال ؟

فالجواب :

إن تكليم الرسول لهم وسماعهم لكلامه معجزة خاصة بالرسول ﷺ ، كما سمع ﷺ المعذبين من قبرهما ، فلا يقاس على الرسول ﷺ وسائر الأنبياء غيرهم باتفاق أهل العلم ، والله أعلم بالصواب .

شاهدناه بحاله ؟ وكيف يمكن الخطاب مع من افترسته السباع ، ونهشته الطيور ، وصار في أجواف الأسود وبطون الطيور والحيتان ؟

والجواب من وجوه :

الأول : قلنا إن الأنبياء لا تأتي بما يأباه العقل ، ويجب علينا تصديقهم ، لأن من صفاتهم الصدق والعصمة عن كل ذنب ، وأعظم الذنب الكذب على الله ، وهم مبرؤون عن ذلك .

الثاني : إن أحوال البرزخ ودار الآخرة ، ليستا كالحالة المعهودة في الدنيا .

الثالث : إن النار التي في القبر ليست من نار الدنيا ، وإنما هي من نار الآخرة ، فهي وإن كانت أشد من نار الدنيا ، إلا أن شدتها على من هي له وعليه ، دون من مسها من أهل الدنيا ، بل قد يكون الرجلان في قبر واحد ، وهذا في نعيم ، وهذا في عذاب أليم ، وقدرة الرب أعظم .

الرابع : يُنَظَّرُ بحالة النائم ، يكون في نعيم وسرور ، وربما يأكل ويشرب ويضحك ، أو في عذاب وحزن وبكاء ، والجالسون حوله لايشعرون بذلك ، وهذا مشاهد واقع بكثرة ، لايمكن أن يتسرب إليه إنكار ، وهذا في الحياة الدنيا فكيف في البرزخ ؟.

الخامس : ألا ترى أن الله تعالى يحدث في هذه الدار ما هو أعجب ، أما كان جبريل يأتي إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيكلمه بكلام يسمعه ، ومن كان جالساً إلى جنب النبي صلى الله عليه وسلم لايراه .

ولله في حجب هذه الأمور عن أعيننا حكمة ، لأن قوانا مخلوقة بخلق لايمكن أن يثبت لمشاهدة تلك الآيات والأمور الخارقات ، كما أن المطلوب منا الإيمان بالغيب ، وهو مالم يكن مكشوفاً لنا .

كما جاءت الآيات بالثناء والمدح للمؤمنين بالغيب ، كما في أول سورة البقرة : (**آلم ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين الذين**

يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون) إلى قوله تعالى : **(أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون)** .

شبهة أخرى لمنكري عذاب القبر :

فإن قيل : سلمنا أن النعيم والعذاب بالنسبة للقبر قد يكون كما قلتم معشر أهل السنة والجماعة : أنهما لايحس بهما حتى ولو كان أحد نائماً بجنب الميت ، لكن كيف يكون النعيم ، والعذاب بالنار أو الحيَّات والعقارب وقد افترسته وأكلته السباع ، وهو الآن مفتت في جوف الحيوان المفترس ، فلو عذب لاحترق جوف الحيوان المفترس ؟

فالجـــواب :

قلنا أولاً : أن الأنبياء لاتأتي بما يخالف العقول ، بل بما تصدقه العقول ، أو تحير فيه .

إن من عرف الله وعظمته وقدرته ، وخلقه الإنسان الأول من تراب ، وذريته من ماء مهين ، وخلق هذه الكائنات العظمى ، وليس لقدرته حد محدود ، **(إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون)** .

إذا عرف ذلك ، لايستبعد التعذيب والتنعيم لمن أكلته سباع البر أو حيتان البحر ، لأنه قد يعذب أو ينعم ولا يحس الحيوان المفترس بذلك .

وثانياً : فإن عالم البرزخ وعالم الآخرة ليس من جنس المعهود في هذا العالم ، والله سبحانه وتعالى إنما أشهد عباده هذه الدار وما كان فيها ومنها ، وأما ما كان من أمر الآخرة ، فالبرزخ أول منازل الآخرة ، وقد أسبل عليه الغطاء ، ليكون الإقرار به والإيمان سبباً لسعادة المسلم .

ولو كشف عنه الغطاء ، لكان مشاهداً عياناً ، وفاتته نتيجة الإيمان بالغيب ، وما يترتب على ذلك من الثواب .

وبعد أن تكلمت عن العناصر الأربعة الأول ، فأشرع في الخامس :

٥ ـ ومما يجب الإيمان به : نفخ الصور :

وقد فسره رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سأله أعرابي قائلاً : ما الصور؟ قال : قرن ينفخ فيه . قال الترمذي : حديث حسن .

قيل : فيه ثقوب عدد أرواح الخلائق ، والنفخ في الصور ثابت في كتاب الله المجيد ، وأحاديث النبي الكريم كما ستمر بك الآيات .

اعلم أن النفخ في الصور ثلاث نفخات :

النفخة الأولى : **نفخة الفزع** : وهي التي يتغير بها هذا العالم ، ويفسد نظامه ، وهي المشار إليها في قوله تعالى : **(ونفخ في الصور ففزع من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله)** والاستثناء لمن ثبت الله قلبه من الملائكة وجبرائيل وإسرافيل وملك الموت ، وعند ذلك يفزع أهل السماء والأرض إلا من شاء الله لشدة ما يقع من هول تلك النفخة ، فيسيِّر الله الجبال فتمر مر السحاب ، فتكون سراباً ، وترتج الأرض بأهلها رجاً ، وتكون كالسفينة الموقرة في البحر ، تضربها الأمواج ، يقول الله تعالى : **(يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة)** ، فتذهل المراضع ، وتشيب الولدان ، وتنشق السماء ، وتنتثر النجوم ، وتنكسف الشمس ، وينخسف القمر ، وتتصدع الأرض ، وتفزع الإنس إلى الجن ، والجن إلى الإنس ، وتختلط الدواب والطير والوحوش بعضها في بعض ، فذلك قول الله تعالى : **(وإذا الوحوش حشرت ، وإذا العشار عطلت)** أي اختلطت الوحوش ، وأهملت العشار .

النفخة الثانية : **نفخة الصعق** : قال الله تعالى : **(ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله)** . والصعق هنا الموت ، وبهذه النفخة يهلك كل حي إلا من شاء الله ، وهم حملة العرش وجبريل وميكائيل وإسرافيل .

جاء في الحديث : ثم يأمر الله إسرافيل ، فينفخ نفخة الصعق ، فيصعق أهل السموات والأرض إلا من شاء الله ، فيقول الله وهو أعلم : فمن بقي؟ فيقول : أي رب ، بقيت أنت الحي القيوم الذي لايموت ،

وبقيت حملة العرش ، وبقي جبريل وميكائيل ، وبقيت أنا ، فيقول الله : فليمت جبـريـل وميكـائيـل ، فيموتا ، ثم يأتي ملك الموت إلى الجبار فيقول : قد مات جبريل وميكائيل ، فيقول الله : فليمت حملة العرش فيموتوا ، ويأمر الله العرش أن يقبض الصور من إسرافيل ، ثم يقول : ليمت إسرافيل فيموت ، ثم يأتي ملك الموت إلى الجبار فيقول : قد مات حملة العرش ، فيقول تعالى وهو أعلم : فمن بقي ؟ فيقول : بقيت أنت الحي القيوم الذي لايموت ، وبقيت أنا ، فيقول تعالى : أنت خلق من خلقي ، خلقتك لما رأيت ، فمت فيموت ، فإذا لم يبق إلا الله الواحد القهار ، طوى السماء والأرض كطي السجل للكتب ، وقال : أنا الجبار ، لمن الملك ليـوم ؟ ثلاث مرات ، فلم يجبه أحد ، ثم يقول لنفسه : لله الواحد القهار ... الحديث .

ثم بعد ذلك يرسل الله مطراً على الأرض كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، فينزل عليها أربعين يوماً حتى يكون فوقهم اثنا عشر ذراعاً ، فيأمر الله الأجساد أن تنبت كنبات البقل ، حتى إذا تكاملت أجسادهم كما كانت ، قال الله : ليحيى حملة العرش ، ليحيى جبرائيل وإسرافيـل وميكـائيل وعزرائيل ، ثم يأمر الله إسرافيل فيأخذ الصور فيضعه على فيه ، ثم يدعو الأرواح ، فيؤتى بها ، تتوهج أرواح المؤمنين نوراً ، والأخرى ظلمة ، فيقبضها جميعاً ثم يلقيها في الصور ، ثم يأمره أن ينفخ نفخة البعث ، فتخرج الأرواح كلها كأنها النحل قد ملأت ما بين السماء والأرض ، ثم يقول الله : وعزتي وجلالي لترجعن كل روح إلى جسدها ، فتدخل الأرواح من الخياشيم ، ثم تمشي مشي السم في اللديغ ، ثم تشقق الأرض عنهم سراعاً ، فأنا أول من تنشق عنه الأرض فتخرجون منها إلى ربكم تنسلون .

وهذه النفخة هي الثالثة(١) : وإليها أشار القرآن الكريم كما في

---

(١) وما ذكرناه من أن ثلاث نفخات تنفخ في الصور ، هو ما قاله كثير من العلماء ، ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية وابن العربي وابن كثير والسفاريني ، وحجتهم ما سبق بيانها من عدد النفخات مستدلين بالآيات السالفة الذكر .

قول الله تعالى : **(ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون)** .

وقول الله تعالى : **(ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم ينظرون)** هذه هي نفخة البعث والنشور .

وأخرج الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما بين النفختين أربعون ، قيل : أربعون يوماً ؟ قال أبو هريرة : أبيت ، قال : أربعون شهراً ؟ قال : أبيت ، قال : أربعون سنة ، قال : أبيت ، ينزل من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل ، وليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظم واحد ، وهو عجب الذنب ، منه يركب الخلق يوم القيامة .

= ورجح بعض العلماء ومنهم القرطبي والحافظ ابن حجر العسقلاني أنها نفختان .

الأولى : يحصل بها الصعق ، والثانية : يحصل بها البعث ، قال الله تعالى : **﴿ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون﴾**(١)وقد سمى القرآن النفخة الأولى بالراجفة والثانية بالرادفة ، قال تعالى : **﴿يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة﴾**(٢) .

وفي موضع آخر : سمى الأولى بالصيحة ، وفي الثاني بالنفخ في الصور ، قال تعالى : **﴿وما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون ، فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون﴾** (٣) .

وقد جاءت الأحاديث النبوية مصرحة بالنفختين .

ففي مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : ما بين النفختين أربعون ، قالوا : يا أبا هريرة : أربعون يوماً ؟ قال : أبيت ، قالوا : أربعون شهراً ؟ قال : أبيت ، قالوا : أربعون عاماً ؟ قال : أبيت . الحديث(٤) .

---

(١) سورة الزمر : الآية ٦٨ .

(٢) سورة النازعات الآيتان ٦ ـ ٧ .

(٣) سورة يس : الآية ٤٨ .

(٤) وقول أبي هريرة رضي الله عنه (أبيت) فيه ثلاث تأويلات : أولها : امتنعت من بيان ذلك لكم ، وقيل : أبيت أسال النبي ﷺ عن ذلك ، وقيل : نسيت ، وقيل : إن سر ذلك لا يعلمه إلا الله ، لأنه من أسرار الربوبية .

وفي رواية لمسلم : إن في الإنسان عظماً لا تأكله الأرض أبداً ، فيه يركب الخلق يوم القيامة ، قالوا : أي عظم هو يا رسول الله ؟ قال : عجب الذنب .

رواه الإمام مالك وأبو داود والنسائي باختصار ، قال : كل ابن آدم تأكله الأرض إلا عجب الذنب ، منه خلق وفيه يركب .

قال الحافظ المنذري كغيره : عجب الذنب بفتح العين المهملة وإسكان الجيم بعدها باء موحدة أوميم ، وهو العظم الحديد الذي يكون في أسفل الصلب ، وأصل الذنب من ذوات الأربع .

قال ابن رسلان :

والجسم يبلى غير عجب الذنب   وما شهيد باليـاً ولا نبي

وأخرج مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أنا سيد ولد آدم ، وأول من ينشق عنه القبر ، وأول شافع ، وأول مشفع .

وفي صحيح البخاري : أنا أول من يرفع رأسه بعد النفخة الآخرة ، فإذا بموسى عليه السلام متعلق بالعرش ، فلا أدري أكذلك كان أم بعد النفخة .

وفي بعض ألفاظ البخاري : فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور .

٦ - ثم الحشر :

وهو عبارة عن سوقهم بعد إخراجهم من قبورهم جميعاً إلى الموقف ، وهو الموضع الذي يقفون فيه من الأرض المقدسة المبدلة ، التي لم يعص الله عليها لفصل القضاء بينهم ، ولا فرق بين من يجازى كالإنس والجن ، ومن لايجازى كالحيوان على ما ذهب إليه المحققون :

ثم الوقوف للحساب قد أتى   والصحف والميزان أيضاً ثبتا

اشتمل البيت على أربع مسائل :

١ ـ الوقوف .

٢ ـ الحساب .

٣ ـ أخذ الصحف .

٤ ـ الميزان .

وقدم الحساب على الصحف مراعاة لاستقامة الوزن ، وإلا فالصحف مقدمة على الحساب ، لأنها من الوسائل ، والوسائل حقها التقدم على المقاصد ، وما اشتمل عليه البيت من هذه المسائل ، يجب على المكلف اعتقادها ، لما ثبت من الكتاب والسنة وإجماع أهل الحق .

المسألة الأولى : المراد من يوم الوقوف هو يوم القيامة لقيام الناس من قبورهم ، وقيامهم بين يدي خالقهم ، وقيام الحجة لهم وعليهم ، وهو يوم يجمع الله فيه الأولين والآخرين من الإنس والجن والدواب والطير وغيرها ، قال الله تعالى : **(ليجمعنكم إلى يوم القيامة لاريب فيه)** وقال تعالى : **(يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجاً)** .

ولذلك اليوم أهوال عظيمة ، وشدائد جسيمة ، تذيب الأكباد ، وتشيب الأولاد .

أخرج الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً ، يعرق الناس يوم القيامة ، حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين ذراعاً ، ويلجمهم حتى يبلغ آذانهم .

وفي بعض ألفاظ الحديث «سبعين باعاً» .

وأخرج مسلم عن المقداد قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إذا كان يوم القيامة ، أدنيت الشمس من العباد ، حتى تكون قدر ميل أو ميلين فتصهرهمالشمس ، فيكونون في العرق كقدر أعمالهم ، منهم من يأخذه إلى عُقبيه ، ومنهم من يأخذه إلى حقويه ، ومنهم من يلجمه إلجاماً .

واختلفوا كم مدة القيام والوقوف ؟ قيل : مائة سنة ، وقيل :

ثلاثمائة ، وقيل : سبعين ، وقيل : ألف سنة ، والأسلم الوقف وتسليم الأمر لله لتعارض الروايات .

ومنهم من قال : يختلف باختـلاف أحـوال الناس ، فيطول على الكفار ، ويتوسط على الفساق ، ويخف على الطائعين ، كما في صحيح ابن حبان عن أبي سعيد الخدري ، والذي نفسي بيده ، إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون عليه أخف من صلاة مكتوبة .

المسألة الثانية : أخذ الصحف بالشمال واليمين ثابت بالكتاب والسنة والإجمـاع .

والمراد بالصحف : الكتب التي كتبتها الملائكة ، وسطرت ما عمل كل إنسان من قول أو فعل ، قال الله تعالى : **(وإذا الصحف نشرت)** أي التي فيها أعمال بني آدم ، نشرت للحساب إلزاماً للعباد ، ورفعاً للجدل والعناد ، قال الله تعالى : **(وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً)** .

وظواهـر الآيـات والأحـاديث شاهـدة بعمومه لجميع الأمم ، إلا الأنبياء والملائكة لعصمتهم ، ومن يدخل الجنة بغير حساب .

وقد ورد أن الريح تطير الصحف من خزانة تحت العرش ، فلا تخطيء صحيفة عنق صاحبها ، وورد أن كل أحد يدعى فيعطى كتابه .

وجمـع بينهمـا بأن الريح تطيرها أولاً ، ثم تأخذها الملائكة من أعناقهم وتعطيها لهم في أيديهم ، فالمؤمن المطيع يأخذ كتابه بيمينه ، والكافر يأخذه بشماله ، تلوى يده خلف ظهره ، ثم يعطى كتابه ، أو تنزع من صدره إلى خلف ظهره ، والمؤمن العاصي بشماله بأمامه ، وقال الماوردي : يأخذه بيمينه .

قال الله تعالى : **(وأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً وينقلب إلى أهله مسروراً ، وأما من أوتي كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبوراً ويصلى سعيراً)** .

وهل القراءة حقيقية ولو كان أمياً ، أو مجاز عن علم كل أحد بما له أو عليه ؟

الظاهر الأول ، فالمؤمن كتابه أبيض بكتابة بيضاء ، فيقرأه فيبيض وجهه ، والكافر بعكسه .

٧ - الحســـاب :

معناه اصطلاحاً : توقيف الله الناس على أعمالهم ، خيراً كانت أو شراً ، قولاً كانت أو فعلاً ، تفصيلاً لجميع جزئيات الأعمال .

وقد ثبت بالكتاب والسنة وإجماع أهل الحق :

قال الله تعالى : **(يوم يبعثهم الله جميعاً فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه)** .

وقال الله تعالى : **(فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون)** وقال تعالى في حق أعدائه : **(أولئك لهم سوء الدار)** ، وقال تعالى : **(أولئك لهم سوء الحساب)** .

وقال تعالى : **(فيومئذ وقعت الواقعة ، وانشقت السماء فهي يومئذ واهية ، والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية)**[1] .

وقال تعالى : **(ووضع الكتاب ، فترى المجرمين مشفقين مما فيه ، ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، ووجدوا ما عملوا حاضراً ، ولا يظلم ربك أحداً)**[2] .

وقال تعالى : **(واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ، ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون)**[3] .

---

(١) سورة الحاقة : الآيات ١٥ ـ ١٨ .
(٢) سورة الكهف : الآية ٤٩ .
(٣) سورة البقرة : الآية ٢٨١ .

١ ـ فقيل : المراد به أن يخلق الله في قلوبهم علوماً ضرورية بمقادير أعمالهم من الثواب والعقاب .

٢ ـ وقيل : أن يوقف الله عباده بين يديه ، ويؤتيهم كتب أعمالهم ، فيها سيئاتهم وحسناتهم ، فيقول : هذه سيئاتكم قد تجاوزت عنها ، وهذه حسناتكم قد ضاعفتها لكم .

٣ ـ وهو الراجح إن شاء الله تعالى ، أن يكلم الله عباده في شأن أعمالهم ، وكيفية مالها من الثواب ، وما عليها من العقاب .

وقد أتت من الأحاديث طائفة تؤيد هذ الأخير :

منها : ما أخرج الترمذي ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لاتزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع : عن عمره فيما أفناه ، وعن علمه ما عمل به ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه ، وعن جسمه فيما أبلاه .

وروى البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك ، فقلت: يا رسول الله : أليس قد قال الله تعالى : **(فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً)**[١]، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إنما ذلك العرض ، وليس أحد يناقش الحساب يوم القيامة إلا عذب»[٢] .

وكيفيات الحساب مختلفة ، وأحواله متباينة :

فمنه العسير ، ومنه اليسير ، ومنه التوبيخ والتبكيت ، ومنه الفضل والصفح .

والصحيح : أن السؤال والحساب عن جميع الأقوال والأفعال ، لا عن الكفر والإيمان فقط ، ويعم جميع الثقلين ، حتى الأنبياء والمرسلين

(١) سورة الانشقاق : الآيتان ٧ ـ ٨ .

(٢) يعني أنه لو ناقش في حسابه لعبيده لعذبهم وهو غير ظالم لهم ، ولكنه تعالى يعفو ويصفح .

لقول الله تعالى (**فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين**) ، إلا أن حساب الأنبياء ليس على سبيل المناقشة ، وأما الكفار فلا يحاسبون محاسبة من توزن حسناته وسيئاته ، لكونهم معدومي الحسنات ، ولكن تعد أعمالهم وتحصى ، فيوقفون عليها ويقررون بها .

وقد ثبت في عدة أخبار أن طائفة من أمة محمد صلى الله عليه وسلم يدخلون الجنة بلا حساب ، قال بعض العلماء : وكذلك أطفال المؤمنين ، وعموم الآيات الكريمة مخصوص بأحاديث من يدخل الجنة بغير حساب .

فصل في الكرام الكاتبين

قد وكل الإله ذو الإنعام اثنين حـــافظين للأنـــام

فيكتبان كل فعل قد صدر كما أتى في قول خالق البشر

مما يجب الإيمان به : الاعتقاد بملائكة موكلين بالعبد ، يكتبون كل ما يصدر من العبد من خير أو شر أو غيرهما ، قولاً كان أو عملاً أو اعتقاداً في كل حال وعلى كل حال .

قال مجاهد : حتى أنينه في مرضه ، واستدل لذلك بقوله تعالى : (**إن عليكم لحـافـظين كرامـاً كاتبين يعلمون ما تفعلون**) وفي آية أخـرى : (**ومـا يلفـظ من قول إلا لديـه رقيب عتيد**) ، أي حافظ وحاضر ، لا كما قد يتوهم من أحدهما رقيب والآخر عتيد .

واختلف في عدد الكـاتبـين ، فقيل : أربعة ، اثنان بالليل واثنان بالنهار ، وقيل خمسة : واحد لايفارق في ليل ونهار ، والمشهور أنهما اثنان ، وهو الظاهر من لفظ القرآن ، والمراد بالجمع في قوله تعالى : (**وإن عليكم لحافظين**) ما فوق الواحد ، ومما وقع فيه الخلاف : هل الكافر عليه حفظة ؟ الصحيح : نعم ، لأن قوله تعالى : (**ما يلفظ من قول**) نكرة في سياق النفي وهي للعموم ، وحينئذٍ يدخل العبد الكافر ، لأنـه تضبط عليه أعماله وأنفاسه ، وهو الجاري على القول بتكليفهم

بفروع الشريعة ، وهو معتمد الثلاثة خلافاً لأبي حنيفة ، والصحيح : كتب حسنات الصبي ، ولا يكتب عليه ؛ فيكون عليه حفظة بخلاف المجنون ، لأن لا يكتب له ولا عليه .

وهل هناك حفظة على الجن والملائكة ؟ قال الباجوري : نقلاً عن اللقاني : وقد تردد الجزولي في الجن والملائكة أعليهم حفظة أم لا ؟

ثم جزم بأن الجن عليهم حفظة ، واستبعد القول في ذلك في الملائكة ، وهل المراد بالحافظين هم الكاتبون ، أو الحافظون للعبد من المضار ؟. الراجح أن هناك حفظة يحفظون العبد من المضار سوى الموكلين بالكتابة ، قال الله تعالى : **(له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله)** من المضار ، ويراقبون أحواله من أجل أمر الله ، فإذا جاء القدر خلوا عنه ، وقيل : من بمعنى الباء أي بأمر الله ، ومعنى معقبات : ملائكة بعد ملائكة ، حفظة بالليل تعقب بعد حفظة النهار ، وحفظة النهار تعقب بعد حفظة الليل ، وعدد الحفظة قيل : عشرة بالليل وعشرة بالنهار ، واحد عن يمينه وواحد عن شماله ، اثنان بين يديه ومن خلفه ، واثنان على جبينه ، وآخر قابض على ناصيته ، فإن تواضع رفعه ، وإن تكبر وضعه ، واثنان على شفتيه ليس يحفظان عليه إلا الصلاة على محمد ، والعاشر يحرسه من الحية أن تدخل فاه إذا نام .

وهؤلاء الحفظة لايفارقون العبد أبداً بخلاف الكتبة ، فإنهم يفارقون العبد عند قضاء حاجة الإنسان ، وعند الجماع ، وعند الغسل ، ولا يمنع ذلك من كتب ما يصدر منه ، لأن الله يجعل لهم علامة على ذلك كما في الاعتقاد .

وفي غير الأحوال الثلاثة لايفارقونه ، ولو كان بيته فيه جرس أو كلب أو صورة ، وحديث : لا تدخل الملائكة بيتاً فيه جرس أو كلب . المراد : ملائكة الرحمة .

ولقائل أن يقول : ما الفائدة من كتب الملكين ، مع أن الله عليم بكل شيء ؟ وجوابه : فعل ذلك إقامة للعدل ، وترغيباً في الحسنات ،

وترهيباً عن السيئات ، وأن العبد إذا علم بهذا ، استحى وترك المعصية .

والكتب حقيق بآلة وقرطاس ومداد يعلمه الله حملاً للنصوص على ظواهرها ، وفي بعض الأحاديث أن لسانه قلمهما ، وريقه مدادهما[1] .

واختلف في محلهما من الشخص ، ناجذاه أي آخر أضراسه الأيمن والأيسر ، وقيل : عاتقاه ، وقيل : ذقنه ، والأسلم الوقف .

٨ ـ الميزان :

هو ثابت بالكتاب والسنة والإجماع .

قال الله تعالى : **(ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم)**[2] .

وقال تعالى : **(ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين)**[3] .

قال العلماء :

إذا انقضى الحساب ، كان بعده وزن الأعمال ، لأن الوزن للجزاء ، فينبغي أن يكون بعد المحاسبة ، لأن المحاسبة لتقرير الأعمال ، والوزن لإظهار مقاديرها ، ونؤمن بالميزان ، وله لسان وكفتان .

وهو ميزان واحد على الأشهر لجميع الأمم ولجميع الأعمال ، كفتاه كأطباق السموات والأرض ، وقيل : لكل أمة ميزان ، وقيل : لكل واحد من المكلفين ميزان .

وهل توزن نفس الأعمال ؟

فتصور الأعمال الصالحة بصورة حسنة ، ثم تطرح في كفة النور ،

---

(١) والتفويض أولى .

(٢) سورة الأعراف : الآية ٩ .

(٣) سورة الأنبياء : الآية ٤٧ .

وهي اليمنى المعدة للحسنات ، وتصور الأعمال السيئة بصورة قبيحة ، ثم تطرح في كفة المظلمة ، وهي الشمال المعدة للسيئات .

أم يوزن العبد مع عمله ؟

الراجح الأول ، وصححه ابن عبد البر والقرطبي ، وذهب إليه جمهور من المفسرين ، ويؤيده حديث البطاقة والسجلات ، حيث ينشر له تسع وتسعون سجلاً ، ولاينكر شيئاً مما حرر ، ثم لايأتي بعذر أو حسنة فتخرج بطاقة فيها الشهادتان ، فتوضع السجلات في كفة ، والبطاقة في كفة ، فتطيش السجلات ، وتثقل البطاقة ، وكيفية الوزن في الآخرة كما في الدنيا .

وقيل : بالعكس ، أي ما ثقل ارتفع ، وما خف نزل .

وقد وردت عدة أحاديث في ثبوت الميزان :

منها : ما أخرجه الحاكم وصححه من حديث سلمان الفارسي عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : يوضع الميزان يوم القيامة ، فلو وزن فيه السموات والأرض لوسعهن ، فتقول الملائكة : يارب لمن يزن هذا ؟ فيقول : لمن شئت من خلقي ، فتقول الملائكة : ما عبدناك حق عبادتك .

فإن قيل: ما الحكمة من الوزن مع علمه تعالى بكل شيء ؟

فالجواب : الحكمة في ذلك تعريف الله عباده ، ما لهم عنده من الجزاء من خير أو شر .

وقال الشيخ مرعي : بل الحكمة ، إظهار العدل ، وبيان الفضل ، حيث أنه يزن مثاقيل الذر ، من خير أو شر ، وإن تكن حسنة يضاعفها ، ويؤت من لدنه أجراً عظيماً .

الصراط

كذا الصراط ثم حوض المصطفى　　　فكوثر شفاعة للمقتفي

اشتمل على مسائل : أولها : الصراط ، فيقرأ بالصاد والسين والزاي ، وهو جسر ممدود على متن جهنم ، يرده الأولون والآخرون ، حتى الكفار ، حتى النبيين والصديقين ، ومن يدخل الجنة بغير حساب ، وهو ثابت بالأحاديث ، واتفقت عليه كلمة أهل السنة .

فمن الأحاديث :

أ ـ ما أخرج مسلم عن أبي سعيد الخدري قال : بلغني أن الجسر أرق من الشعر ، وأحد من السيف .

ب ـ وأخرج الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لجهنم جسر أدق من الشعر ، وأحد من السيف ، عليه كلاليب وحسك تأخذ من شاء الله ، والناس عليه كالطرف وكالبرق وكالريح وكأجاويد الخيل ، والركاب والملائكة يقولون : ربي سلم ، فناج مُسّلم ، ومخدوش ، ومكور في النار على وجهه .

ونازع القرافي والعز بن عبد السلام في كونه أرق من الشعر ، وأحد من السيف ، محتجاً بأن لم يره في الروايات الصحيحة .

وقال : على فرض الصحة ، وهو محمول على غير ظاهره ، بأن يؤول بأنه كناية عن شدة الأمر .

قال القرافي : والصحيح أنه عريض وفيه طريقان ، يمنى ويسرى ، فأهل السعادة يسلك بهم ذات اليمين ، وأهل الشقاوة ذات الشمال ، وفيه طاقات كل طاقة تنفذ إلى طبقة من جهنم .

وقال بعض المعتزلة : المراد بالصراط طريق الجنة وطريق النار ، وهو قريب من كلام القرافي .

٩ ـ الحوض :

يجب على المكلف اعتقاده لثبوته بالسنة المتواترة من رواية بضعة وخمسين صحابياً ، منهم الخلفاء الأربعة الراشدون ، وحفاظ الصحابة المكثرون .

أ ـ منها ما رواه البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن قدر حوضي كما بين أيلة إلى صنعاء من اليمن ، وإن فيه من الأباريق كعدد نجوم السماء .

ب ـ وأخرج الشيخان وغيرهما من حديث عبد الله بن عمر قال : حوضي مسيرة شهر ، ماؤه أبيض من اللبن ، وريحه أطيب من المسك ، وكيزانه كنجوم السماء ، من شرب منه لايظمأ أبداً .

ت ـ وفي رواية : حوضي مسيرة شهر ، وزواياه سواء ، وماؤه أبيض من الوَرِق .

وهل قبل الصراط أو بعده ؟

الراجح أنه قبله .

قال القرطبي : والمعنى يقتضي تقديم الحوض على الصراط ، فإن الناس يخرجون من قبورهم عطاشى ، فناسب تقديمه .

قال بعضهم : ويحتمل أن يقدم الشرب من الحوض قبل الصراط لقوم ، وبعده لآخرين ، بحسب ما عليهم من الذنوب ، حتى يهذبوا منها على الصراط ، يرده المؤمنون ، ويذاد عنه المرتدون ، والظلمة المسرفون ، والمعلنون بكبائر الذنوب المستخفون ، وأهل الضلال والبدع الممقوتون .

ث ـ وثبت ذلك بروايات كثيرة : منها ما رواه مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : فوالله ليقتطعن دوني رجال ، فلأقولن أي رب مني ومن أمتي ، فيقول : إنك لا تدري ما أحدثوه بعدك ، ما زالوا يرجعون على أعقابهم .

والصحيح أن لكل نبي حوضاً ، حوض نبينا صلى الله عليه وسلم أعظمها وأحلاها وأكثرها وارداً .

قيل : هو الكوثر بعينه ، والراجح أنه غير الكوثر ، إلا أنه يستمد من الكوثر ، كما أتى في بعض الروايات ، أنه يشخب فيه ميزابان من الكوثر ومعنى : **(إنا أعطيناك الكوثر)** هو الكوثر الذي في الجنة .

جـ - قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «هل تدرون ما الكوثر ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : هو نهر أعطانيه ربي في الجنة ، عليه خير كثير ، ترد عليه أمتي يوم القيامة ، آنيته عدد الكواكب» .

حـ - وفي صحيح البخاري عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : بينا أسير في الجنة ، إذ أنا بنهر حافتاه اللؤلؤ المجرف ، فقلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الكوثر الذي أعطاك ربك ، فضرب الملك بيده ، فإذا طينه مسك أذفر .

١٠ - الشفاعة :

للنبي صلى الله عليه وسلم شفاعات عديدة :

الأولى :الشفاعة العظمى ، وهي المخصوصة به صلى الله عليه وسلم ، وهي متفق عليها ، وهي المقام المحمود .

وقد وردت عدة أحاديث في هذه الشفاعة وغيرها ، وهذه الشفاعة هي المرادة بقوله صلى الله عليه وسلم:لكل نبي دعوة مستجابة ، فتعجل كل نبي دعوته ، وإني اختبأت دعوتي شفاعةً لأمتي .

وهي لجميع الأمم من أهل الموقف ، وتكون لأجل حسابهم ، وإراحتهم من الموقف ، وفصل القضاء بينهم ، لأن من شدة هول الموقف ، وطول القيام ، يتمنون الانصراف من موقفهم ولو إلى النار .

وتلخيصها اختصاراً :

إن الناس لما ينالهم من النصب والأهوال الشديدة ، يلهم الله المؤمنين بأن يقولوا : لو استشفعنا ربنا حتى يريحنا ، فيقول بعضهم لبعض : أبوكم آدم أجدر بهذا ، فيأتون إليه ، فيأمرهم بالذهاب إلى نوح ، ونوح إلى إبراهيم ، وإبراهيم إلى موسى ، وموسى إلى عيسى ، وعيسى إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، فيأتون إليه فيقولون : أنت رسول الله ، وخاتم الأنبياء ، غفر الله لك ذنبك ما تقدم وما تأخر ، فاشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ؟ فيسجد تحت العرش ،

ويلهمه الله من محامده وحسن الثناء عليه ، مالم يمنحه أحداً قبله ، فيقال : يا محمد! ارفع رأسك ، سل تعطه ، اشفع تُشَفَّع . **(من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه)**[1] .

الثانية : شفاعته في قوم مستحقي النار أن لايدخلوها .

الثالثة : فيمن دخل النار أن يخرج منها .

وخالفت المعتزلة والخوارج في هذين ، وهم محجوجون بالأحاديث الصحيحة الكثيرة .

ومنها حديث أنس ، أخرجه أبو داود والترمذي والحاكم والبيهقي وقالوا : حديث صحيح : شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي .

وأخرج البخاري عن عمران بن حصين عن النبي صلى الله عليه وسلم : يخرج قوم من النار بشفاعة محمد صلى الله عليه وسلم ، ويدخلون الجنة ، ويسمون الجهنميين .

الرابعة : شفاعته في رفع درجات أهل الجنة ، فوق ما تقتضيه أعمالهم .

الخامسة : شفاعته في أقوام أن يدخلوا الجنة بغير حساب .

ويشهد لهذا النوع حديث عكاشة بن محصن ، حين دعا له الرسول صلى الله عليه وسلم أن يجعله من السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب .

السادسة : شفاعته في تخفيف العذاب ، كشفاعته في عمه أبي طالب لتخفيف عذابه .

السابعة : شفاعته أن يأذن الله لجميع المؤمنين في دخول الجنة ، وقد صح في مسلم : أنا أول شفيع في الجنة .

كما لغيره من الأبرار ... غير الذي خصص بالمختار

(١) سورة البقرة : الآية ٢٥٥ .

معنـــاه :

يشفع غير نبينا من المرسلين والأنبياء والملائكة والعلماء والأولياء والصحابة والشهداء ، لثبوت الأخبار ، وترادف الآثار ، وهو جائز غير مستحيل .

ومما ورد قول النبي صلى الله عليه وسلم : أنا أول شافع وأول مشفع .

وأخرج ابن ماجه والبيهقي عن عثمان بن عفان رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : يشفع يوم القيامة الأنبياء ، ثم العلماء ، ثم الشهداء .

وفي الصحيـح من حديث أبي سعيد مرفوعاً قال : فيقول الله : شفعت الملائكة ، وشفع النبيون ، وشفع المؤمنون ، ولم يبق إلا أرحم الراحمين ، فيقبض قبضة من النار ، فيخرج منها قوم لم يعملوا خيراً قط .

شبهة لمنكري الشفاعة وردها :

وتمسك منكرو الشفاعة من المعتزلة والخوارج بقول الله تعالى : **(واتقوا يوماً لاتجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة)**[١] ، وقول الله تعالى : **(ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع)**[٢] .

فإذا قال قائل : كيف يخرج قوم من النار بشفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ويدخلون الجنة ، ويقول الله تعالى : **(إنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار)**[٣] ، وقول الله تعالى : **(ولا يشفعون إلا لمن ارتضى)**[٤] ، ومن أخزاه الله لا يرتضيه ، ومن ارتضاه لا يخزيه .

---

(١) سورة البقرة : الآية ٤٨ .

(٢) سورة غافر : الآية ١٨ .

(٣) سورة آل عمران : الآية ١٩٢ .

(٤) سورة الأنبياء : الآية ٢٨ .

والجواب :

١ - إن الذي أنزلت عليه هذه الآيات الكريمات التي أوردتموها ، هو الذي نقل عنه نقلاً متواتراً معنوياً في شفاعاته ، وشفاعة غيره من الأنبياء والمرسلين ، وقد قال الله تعالى **(وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا)**[1] ، **وقال تعالى** : **(ويعلمهم الكتاب والحكمة)**[2] .

والحكمة هي السنة على تفسير بعضهم .

وقال صلى الله عليه وسلم : أوتيت القرآن ، ومثله معه .

والوحي قسمان :

الأول : دوِّن باللفظ والمعنى الذي نقله جبريل عن الله العظيم إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو القرآن .

والآخر : أوحي إليه معناه ، وعبر عنه المصطفى صلى الله عليه وسلم بلفظه ، وهو الحديث .

ويجب علينا أن نؤمن بالوحيين ، ولا نضرب بعضه ببعض ، ولا نقول : نؤمن ببعض ، ونكفر ببعض ، والسنة تفسر القرآن ، وهذا معروف عند جميع العلماء .

٢ - إن الآيات التي فيها نفي الشفاعة مخصوصة بالكفار ، لأن الظالمين على الإطلاق هم الكفار ، ويؤيد هذا سياق الخطاب مع الكفار .

٣ - إن النفي منصب على الشفاعة المعروفة عندهم بدون إذن من المشفوع عنده .

ونحن نقول : إنها تكون بإذن الله تعالى لقوله تعالى : **(من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه)**[3] .

---

(١) سورة الحشر : الآية ٧ .

(٢) سورة البقرة : الآية ١٢٩ .

(٣) سورة البقرة : الآية : ٢٥٥

وأما قول الله تعالى : (فإنك من تدخل النار فقد أخزيته) .

أي من تدخله مخلداً ، فقد أهلكته ، وأبعدته ، وإن سلم أنها في عصاة الموحدين ، فخزيهم استحياؤهم من دخول النار مع الكفار ، لكنهم يخرجون بشفاعة النبي الكريم .

تنبيـــه :

قد تعلق قوم من الجهال والمتصوفة وبعض المتفقهة المنتسبين إلى العلم بحديث الشفاعة العظمى ، من أن الأنبياء تفزع إليهم الأمم ، ويكون المرجع الأخير سيد الثقلين .

شبهة للقبوريين ودحضها :

واستـــدلوا من ذلك على جواز الاستغـاثـة والتـوسـل بالأنبيـاء والصـالحـين ، فأخـذوا ينـزلون حاجـاتهم ورغباتهم إلى المقبورين ، ويصرفـون لهم الأمـوال الطائلة ، ويقـربـون القـرابين بدعوى محبة الصالحين ، والتوسل بأولئك المتقين .

لهذا ترى كثيراً من الناس إذا وقعوا في شدة من الشدائد ، أو تعلقت أنفسهم برغبـة من الرغبـات ، يهتفـون بأسمـاء يظنـون أن أصحابها قادرون على إنقاذهم مما هم فيه من شدة وبلاء ، أو إظفارهم بما تطمح إليه قلوبهم ، فيقولون : يا بدوي ، يا جيلاني ، يا رفاعي ، يا حســين بن علي ، زاعمين أن هؤلاء الصالحين لهم عند الله شرف عظيم ، ومكانة عالية ، فنحن نستغيث بهم ، أو نتوسل بهم ليشفعوا لنا عند الله ، مؤيدين زعمهم الباطل بما مر ، ويمثل حديث فاطمة بنت أسد أن النبي صلى الله عليه وسلم حين دفنها قال : اغفر لأمي فاطمة بنت أســد بحق نبيـك والأنبيـاء الذين من قبـلي ، وبأحاديث أخر ، وبحكايات وبعض آيات لا تدل على المطلوب .

والجـــواب : قد ذكرنا سابقاً أن الله تعالى أرسل الرسل لمحو الوثنية ، وتشييد صرح التوحيد .

ومعنى التوحيد : إفراده بالعبادة ، والعبادة تشمل الحب والبغض والرغبة والرهبة والحلف والنذر والاستغاثة والنحر والصلاة والطواف ونحو ذلك ، وقد قال الله تعالى : **(وأن المساجد لله فلا تدعو مع الله أحداً)**[1] وقال تعالى : **(ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت)**[2] .

فإنزال الرغبة والرهبة والاستغاثة بغير الله تعالى ، يكون شركاً أكبر ، والقرآن والسنة مملوءان من النهي عن دعوة الأموات ، والانقطاع إليهم ، ومنها قول الله تعالى : **(ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذاً من الظالمين)**[3] ، **وقول الله تعالى** : **(ومن أضل ممن يدعوا من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون ، وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين)**[4] .

جواب حديث الشفاعة :

والجواب على حديث الشفاعة أن نقول :

١ ـ استشفاع الأمم بالمرسلين في حالة حياة أكمل من حياتنا هذه ، ولا نزاع في جواز التشفع والاستغاثة بالحي فيما يمكنه .

٢ ـ إن هذا في الآخرة ، ولايصح أن نلحق شؤون الآخرة بالأولى ، فإن لكل أحكاماً تغاير أحكام الأخرى ، فهنا يقبل الله من العبد الإيمان والتوبة ، وهناك لا يقبل ، وقياس الدنيا على الآخرة من أفسد الأقيسة .

وعلى التنزل ، فما فيه إلا الاستشفاع ، فأين فيه الاستغاثة .

جواب حديث فاطمة بنت أسد :

وحديث فاطمة بنت أسد ليس بصحيح ، فإن فيه روح بن صالح المصري ، وهو ضعيف .

---

(١) سورة الجن : الآية ٢٨ .

(٢) سورة النحل : الآية ٣٦ .

(٣) سورة يونس : الآية ١٠٦ .

(٤) سورة الأحقاف : الآية ٥ .

وغاية ما فيه إن صح سؤال بحق الأنبياء ، وهو يرجع لصفة من صفاته تعالى ، إذ من حق السائلين إجابة الله ، وإعطائه سؤالهم ، وهما صفتان له تعالى ، فحق الخلق قد يكون صفة من صفات الله ، قال الله تعالى : **(وكان حقاً علينا نصر المؤمنين)**(١) .

وليس في الحديث سؤال المخلوقين والاستغاثة بالمقبورين .

جواب من جوز الاستغاثة بالأنبياء بشبهة أنهم أحياء في قبورهم :

ودعوى أن الأنبياء أحياء في قبورهم والشهداء ، وبناءً على هذا يجوز الاستغاثة بهم ، لكونهم أحياء يشعرون ؟

فالجـــواب : إن الحياة البرزخية لها شأن غير الحياة الأخروية والدنيوية ، والأرواح حية حياة برزخية ، وإن لم تكن أرواح الأنبياء والشهداء والصالحين ، لأنها لاتخلو من نعيم أو عذاب أليم ، ولو جاز ما قالوا ، لجـاز دعـوة المـلائكة والجان والحور في الجنان ، ولجازت الاستغـاثـة بهم ، وطلب الشفـاعة منهم ، فإن حياة الملائكة والجن ولاسيما المؤمنين ، وحياة الحور المخلوقة في الجنان ، لاتقل عن حياة الأموات الروحية البرزخية ، بل لاريب أن الملائكة والجن أحياء حياة حقيقية ، وأقدر على الاستجابة من الأموات ، وأجدر بالسماع والإعطاء والنفع والضر ، إن كان الأموات قادرين على شيء من ذلك .

فإن جوزوا ذاك ، فيلزمهم تجويز هذا ، وإذا جوزوا هذا وهذا ، فنعلم بالضرورة أنهم من الحمق بمكان قصي ، ومن الجنون والجهالة بأعلى درجة .

٣ - ولو جاز دعوة من كان في البرزخ حياً ، لجاز دعوة جميع الميتين المؤمنين المتقين ، والفاسقين ، والكافرين ، لأن أرواحهم حية ، وهذا لا يقوله مجنون فضلاً عن عاقل .

وإذاً ما معنى الآيات الناصة على أن غيره تعالى لا يدعى ولا يُسْأَلُ مثـل قول الله تعـالى : **(له دعـوة الحق والذين يدعون من دونه**

---

(١) سورة الروم : الآية ٤٧ .

لايستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغيه وما دعاء الكافرين إلا في ضلال)[1] ، وقول الله تعالى : **(قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله ، إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره ، أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته)**[2] ، وأمثال هذه الآيات كثيرة لا تعد ولا تحصر .

٤ ـ ولو صح ما قالوا ، لاستغاث الصحابة بالنبي صلى الله عليه وسلم ، لكونه حياً ، وقد أصيبوا بمشاكل ومصاعب ، ولم يأتوه يسألوه ، أو يستغيثوا به ، أو ينادوه ، لكشف الضراء والبأساء ، كما لم يفعله أحد من التابعين وأعيان الملة ، وقد أصيب الكثير منهم بمصائب وشدائد .

والقول بأن هذه الآيات واردة في قوم كفار ؟

فالجواب : أن العبرة بعموم اللفظ لابخصوص السبب .

وبالجملة فهنا مسألتان :

الأولى : الاستغاثة كأن يقول المسلم : يا فلان أنقذني ، أو ادفع عني ، أو اعطني ، أو ارزقني ، ينادي ميتاً أو غائباً من مكان بعيد ، فهذا شرك أكبر ، ومعلوم من الدين بالضرورة أنه لم يفعله الرسول صلى الله عليه وسلم ولا الصحابة ولا التابعون لهم بإحسان رضي الله عنهم أجمعين ، ولا جوزه أحد من العلماء المقتدى بهم ، مثل أبي حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل وابن المبارك وسفيان الثوري وابن عيينة ونظرائهم .

ودعاء الخلق وسؤالهم الحاجات ليست من دين الإسلام ، بل هي الوثنية بعينها ، مصبوبة في قوالب تعظيم الأنبياء والصالحين .

ولم يأت في آية ولا في حديث صحيح أو حسن ، ما يفهم منه الجواز ، بل الآيات والأحاديث تقضي بهدمه وبكفر فاعله .

---

(١) سورة الرعد : الآية ١٤ .

(٢) سورة الزمر : الآية ٣٨ .

الثانية : التوسل ، كأن يقول : بحق فلان أو بجاه فلان ؟

والجواب : إن هذا التوسل من المبتدعات ، لم يأت من القرآن ولا من السنة الصحيحة ما يؤيده .

وما يروى من مثل توسل آدم بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وحديث فاطمة بنت أسد ، وحديث الأعمى ، لايخلو من ضعف أو وضع .

وما كان الصحابة تفعل هذا التوسل ، وإنما كانوا يتوسلون في حياته بدعائه صلى الله عليه وسلم ، يطلبون منه أن يدعو لهم ، ويؤمنون على دعائه .

ولم يأت هذا التوسل المبتدع عن الصحابة ، ولا عن التابعين ، ولا عن أحد من الأئمة المعتبرين ، ولكن وجد هذا لدى الجهال وأهل الطرائق وأدعياء العلم ، حتى أن كثيراً منهم كتب في استحبابه مؤلفات ، بل قالوا بلا حياء وخجل : إن مانعي التوسل مبتدعون ، وللسنة مجانبون ، ولم يأت المجيزون للتوسل بحديث صحيح أو حسن يؤيدهم .

وأما التوسل المشروع : فهو بالأعمال الصالحة ، وبالقرآن ، والإيمان ، وبدعاء الصالحين ، بأن تطلب من أحيائهم أن يدعوا لك .

تصفح القرآن الكريم في دعاء الأنبياء إلى ربهم ، تجد أنهم لم يتوسلوا بمخلوق أبداً ، لا برسول ولا بملك ، قال الله تعالى يحكي عن آدم وزوجه لما ندما على ما فعلا **(قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين)**[1] . **وقال تعالى على لسان موسى** : **(رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي)**[2] وقال تعالى **(وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين)**[3] .

---

(١) سورة الأعراف : الآية ٢٣ .

(٢) سورة طه : الآية ٢٥ .

(٣) سورة الأنبياء : الآية ٨٣ .

وهكذا غيرهم عليهم السلام ، وكذلك أهل الصخرة التي انطبقت عليهم وهم في الغار ، لم يتوسلوا إلا بصالح الأعمال .

وفي هذه المسائل مؤلفات وردود ، فليراجعها من يريدها ، ولا نطيل بذكرها روماً للاختصار .

وقد أكثر الخرافيون والقبوريون من التوسلات والاستغاثات بالقبور المزعومة أنها قبور الأولياء الصالحين ، وطلبوا منهم ما لايقدر عليه إلا الله سبحانه وتعالى ، كالشفاء من المرض ، وإعطائهم الولد ، أو دفع الظالمين ، أو غفران الذنوب من رب العالمين ، بأن يدعو لهم بذلك المقبور من الصالحين بزعمهم ، وصرفوا لهم من النذور والذبح على القبور ما هو مذكور ومشهور .

ورحم الله تعالى الشيخ أحمد بن محمد العبادي اليمني ، حيث قال في منظومته هداية المريد :

فما لَكُم يا معشرَ الجُهَّالِ تدعُونَ غير الله ذِي الجلالِ
في جلْبِ نفع أو لِدفع ضُرِّ أوْ بُرءِ سقْم وارتفاعِ شرِّ
منْ ليسَ يُغْني نفسه مِنْ ضُرِّها ولَمْ يُطِقْ إنْقاذها مِنْ فَقْرِها
وتسْألون العونَ والأمدادا والهدي والإسعاد والإرشادا
وتستمدون من الأموات تيسير عسر وقضا الحاجات
ألم تعوا أن الدعا عبادة لا يمتري فيه ذوو الشهادة
فمن دعا غير الإله أحدا يمنحه الخير ويكفيه الردى
فإنه لمن دعاه عابد سواء الجاهل والمعاند
وفي ثبوت النهي في الكتاب دلائل لمبتغي الصواب
يكفيك أن الله قال ادعوني كمثل ما قد قال فاعبدوني[1]

---

(١) الإشارة إلى قوله تعالى : ﴿وقال ربكم ادعوني أستجب لكم، إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾ الآية ٦٠ من سورة غافر ، وقوله تعالى : ﴿ألم أعهد إليكم يابني آدم أن لاتعبدوا الشيطان ، إنه لكم عدو مبين ، وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم﴾ الآية من سورة يس رقم ٦١ .

وفي الحديث عن رسول الله : إذا استعنت فاستعن بالله
وإن سألت فاسأل الله ولا تسأل سواه أحداً من الملا[1]
لأن من تدعوه غير قادر من غائب أو ساكني المقابر
وقال طه خير كل العالم مخ العبادات الدعاء فاعلم[2]

الجنـة والنـار :

كذاك نار جنة قد وجدا فلتعتقد لا تفنيان أبداً

بعد أن أنهيت الكلام عن الشفاعة وأقسامها ، أشرع مبيناً مسألة مصير الخلق في الدار الآخرة :

ذكر الله اللطيف الخبير مصيرهم في قوله تعالى : **(فريق في الجنة وفريق في السعير)** ، وتطابقت الشرائع السماوية والكتب الإلهية بأن مصير أهل السعادة إلى الجنان ، وأهل الشقاوة إلى النيران .

واتفق أهل السنة والجماعة على وجود الجنة والنار ، حتى ظهرت فرقة المعتزلة ، وزعمت أنهما سيكونان فيما يأتي ، لأن وجودهما قبل الجزاء عبث .

وعززت أهل السنة عقيدتها بآيات من القرآن وبأحاديث صحيحة :

فمن القرآن في وصف الجنة ، قال تعالى : **(أعدت للمتقين)** ، **(أعدت للذين آمنوا بالله ورسله)** ، وقال تعالى : **(ولقد رآه نزلة أخرى ، عند سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى)** ، ولقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم سدرة المنتهى ، ورآه عندها جنة المأوى .

وقال تعالى عن النار : **(إن جهنم كانت مرصاداً للطاغين مآبا)** وقال تعالى : **(أعدت للكافرين)** .

---

(١) حديث ابن عباس وهو الذي فيه : «إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله» ، وكيف يجوز لمن يقول : ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾ ، ويكرر ذلك في صلاته اليومية سبع عشرة مرة ، أن يعبد غير الله ، أو يستعين بغيره ؟ وعند أهل البيان أن تقديم المفعول يقتضي الحصر كما في الآية ، أي لانعبد غيرك ، ولا نستعين بسواك .

(٢) حديث « الدعاء مخ العبادة» .

ومن السنة في صحيح مسلم من حديث أنس : وأيم الله الذي نفسي بيده ، لو رأيتم ما رأيت ، لضحكتم قليلاً ، وبكيتم كثيراً ، قالوا : وما رأيت يا رسول الله ؟ قال : رأيت الجنة والنار .

وثبت في الصحيحين : أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى الجنة في صلاة الكسوف ، حتى هم أن يتناول عنقوداً من عنبها ، ورأى النار فلم ير منظراً أفظع من ذلك .

إلى غير ذلك من الأحاديث التي تربو على الحصر[1] .

وقولنا في النظم : فلتعتقد لاتفنيان أبداً .

يعني يجب عليك أن تعتقد ببقائهما ، وعدم فنائهما .

أما أبدية الجنة : فقد اتفق عليه أهل الحق ، وهو معلوم بالاضطرار من القرآن والسنة وأخبار الأنبياء .

وإليك بعض آيات تؤيد ما قلنا ، قال تعالى : **(وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ماشاء ربك عطاء غير مجذوذ)**[2] .

ومعنى الاستثناء في قوله : **(إلا ما شاء ربك)** ، راجع إلى العصاة الخارجين من النار ، أي إلا ماشاء مدة مكثهم في النار قبل دخول الجنة .

وبعضهم قال : معناه أنهم مع كونهم في الجنة ، منعمين بالخلود الدائم ، لكنهم تحت مشيئة الله ، فلو شاء لأخرجهم ، كما قال الله تعالى : **(فإن يشأ الله يختم على قلبك)** .

ونظائر هذا مما يبرهن وينبيء عباده ، أن الأمور كلها بمشيئة الله تعالى ، وقيل : إلا مدة مقامهم في البرزخ والموقف ، وهناك أقوال أخر تركناها[3] .

---

(١) انظر حادي الأرواح للحافظ ابن القيم ، فإنه مخصوص في الجنة ورد في شأنها .

(٢) سورة هود : الآية ١٠٨ .

(٣) انظر شرح الطحاوية والسفاريني وكتب التفسير كابن كثير والخازن وغيرهما .

ولنرجع لما نحن بصدده فنقول : قال الله تعالى : **(إن هذا لرزقنا ما له من نفاذ)** وقال تعالى :**(وما هم بمخرجين)** .

والأدلة من السنة على أبدية الجنة ودوامها كثيرة :

منهـا : قوله صلى الله عليه وسلم : من يدخل الجنة ينعم ، ولا ييأس ، ويخلد ، فلا يموت .

وقد أتت رواية صحيحة بذبح الموت بين الجنة والنار على صورة كبش ، ثم النداء : يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت .

وأما أبدية النار : فهو مذهب جمهور الصحابة والتابعين والعلماء والمشهورين من مؤسسي المذاهب وأتباعهم .

وهناك قول بأن الله يفنيها ، ولها أمد تنتهي إليه .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : قد نقل هذا عن طائفة من الصحابة والتابعين .

فهذان قولان .

فقد نسب الكثيرون إلى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية الحراني ، وإلى تلميذه المحقق الحافظ ابن القيم ، أنهما يقولان بفناء النار ، ولكن الصحيح الذي ظهر من كلام شيخ الإسلام في عدة مواضع أنه يقول بأبدية النار وليس بفنائها .

وأمـا الحـافظ ابن القيم فله كلام كثير في حادي الأرواح ، وفي الصـواعق المرسلة ، وقد يورد الأدلة من الطرفين بأسلوبه العجيب ، وعباراته الأخاذة ، ويشم منه أنه يميل إلى القول بفناء النـار ، ولـكن عند التحقيق يظهر أنه لايقول بفناء النار كلها ، إنما يقول بفناء الطبقة التي يعـذب عصاة المسلمين فيها ، فإنه لايبقى في جهنم من عصاة المـوحدين أحد ، فإنهم إذا عذبوا بقدر جرائمهم ، أخرجوا من النار فأدخلوا الجنة ، وبعد أن يخرجوا من النار تكون معطلة ، كما ذكر في الوابل الصيب . ا ـ هـ . من كشف الأستار ملخصاً .

والثالث : قول جهم بن صفوان أن الجنة والنار تفنيان .

والرابع : نقلوا عن ابن عربي ناسبين إلى فصوصه : بأن أهل النار يعذبون مدة ، ثم تنقلب طبائعهم نارية ، فيتلذذون بها لموافقتها لطبائعهم ، ولا يشك ذو عقل في بطلان هذا القول ، وتصوره كاف في بطلانه ، وبقيت أقوال تركناها للاختصار .

كالعرش ثم الكرسي ثم القلم   والروح واللوح مع العجب اعلم

لما ذكر أبدية الجنة والنار ، وعدم فنائهما ، ذكر أن العرش ، وما عطف عليه كالجنة والنار في عدم الفناء ، وإن كانت مخلوقة .

وأما قوله تعالى : **(كل شيء هالك إلا وجهه)** ، فهو من قبيل العام المخصوص ، لأن هذه الثمانية خصت بأدلة أخر ، وقال بعضهم : لا تخصيص ، ولكن معنى : هالك ، قابل للهلاك ، وهذه الأشياء غير قابلة للهلاك .

خاتمة نسأل الله حسنها

إلى هنا انتهى الجزء الثاني من كتابي (العقائد السلفية بأدلتها النقلية والعقلية) ، وبه تم الكتاب ، هذا وقد تم تنقيح وتصحيح الكتاب في اليوم الثامن والعشرين من ذي الحجة عام ١٤١١ هـ الموافق التاسع والعشرين من يونيو عام ١٩٩٢ م ، والحمد لله الذي منَّ عليَّ بإتمامه ، وأسأل الله العظيم أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم ، وأن ينفع به عباده المؤمنين ، وأن يثيبني ويجعله في ميزان حسناتي يوم القيامة **(يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم)** ، كما أسأله تعالى أن يتقبل منا الأعمال والأقوال ، وأن يجنبنا طرق أهل البدع والضلال ، **(وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين)** ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

مدينة الدوحة في ١٤١٢/١٢/٢٨ هـ.
الموافق لـ ١٩٩٢/٦/٢٩ م.

الفقير إلى الله تعالى
أحمد بن حجر آل بوطامي البنعلي

فهرس الجزء الثاني من العقائد السلفية بأدلتها النقلية والعقلية

الموضوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع — الصفحة

الموضــــوع	الصفحة

الموضـــوع الصفحة

الموضـــوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـــــوع | الصفحة

الموضـــوع الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضــــوع	الصفحة

الموضــــوع	الصفحة

الموضـــوع | الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة